

4352

١٧١

الجلال

في تفسير القرآن الكريم

الشيخ علي عجايب بنع المكنون في البداية

نألفه
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين آمين

الجزء الثاني والعشرون

دار النشر
سنة ١٣٤١ هـ

والمطبعة - محمد أمين عمران

سنة ١٣٤١ هـ

إِنِّي فِي ذَلِكَ لَكَزِيمٌ لَّن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفتح

(هي مدنية)

نزلت في الطريق عند الانصراف من المدينة

آياتها ٢٩ — نزلت بعد الجمعة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيُعْزِزَ بِكِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَبَنُصْرِكَ اللَّهُ تُعَزِّزُكَ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ * وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ * وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَفِي جُنُودِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُنْشِرًا وَنَذِيرًا * لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتُزَكَّرُوا وَتُؤْتَرَوْهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ
 اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَلَمَّا يَسْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ
 فَمِنْ يُوْبِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
 فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِمِ مَالِئِينَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ
 أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ
 يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا
 وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا *
 وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *
 سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِذُهَا ذُرُوءًا تَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
 اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْشَدُونَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّوعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ لَقَدْ تَلَوْنَهُمْ
 أَوْ يُسْمِعُونَ فَإِنْ نُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَنْفَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ
 يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَقُولُ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا *
 لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَائِمٍ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *
 وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَائِمَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ
 وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
 أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْهَارَ
 ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

* وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ حَتَّكُمُ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ يَبْتَغِي تَكْفً مِنْ بَعْدِ أَنْ أُنْظِرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا هِيَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَكَوْفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَإِسَاءَةُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَقْتُلُوهُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُثْبَانِ بِالْحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلَقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَانَ اللَّهُ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

هذه السورة أربعة أقسام

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) فيما بشر الله به نبيه بالفتح ، وأعاز دينه ، ووعد المؤمنين ، ووعد الكافرين والمنافقين من أول السورة إلى قوله « فسيؤتيه أجرا عظيما » .

(القسم الثالث) في ذم المخلفين من عرب أسلم وجهيته ، وضغار ، وزجرهم ، وفي رضوان الله على المؤمنين الذين بإسوار رسول الله ﷺ ووعدهم بالصرى الدنيا ، وبالجنة في الآخرة ، من قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إلى قوله : « وكان الله بكل شيء عليما » .

(القسم الرابع) في البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وأن ذلك يكون ، وقد تم ذلك الخبر في العام القابل ، وفي وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه بالرحمة والشفقة ، وأنهم كزراع يجلب الزرع ، من قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

اعلم أيها الذكي أن الرحمة على قسمين : رحمة عامة ، ورحمة خاصة . فالعالم العلوية والسفلية والهواء والماء والأثير والنور رحمة عامة ، فأما الصحة والعقل والملاكمة وما أشبه ذلك فهي رحمة خاصة ، ولقد جعل الله لكل امرئ في أرضنا سرّاً خاصاً بينه وبين ربه ، فانه يجعل لكل انسان مطالب خاصة توائم حاجه ، ومتى قضاه الله له فانه يحمد عليه جاحداً كثيراً ، وهذه المطالب عددها يسدد الأشخاص الإنسانية في الأرض ، وكل امرئ مطلبه على مقدار همته ، ضعة ورفعة ، وتسا وشرقا ، فهل أخذتكم عافيتكم الله به على وعلى أعنا الإسلامية ، وكيف كان ذلك سرّاً بيني وبينه تعالى ؟ وكيف انجبت همتي نحو ذلك الأمر ؟ وكيف أجاب الله دعائي ، أما أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، أنني دعوت الله بما سأذكره ، وأن الله أجاب دعائي وحققه فعلا ، وذلك الدعاء كان موجها للنم الخاصة كما هو شأن الناس جميعا ، تعلمت القرآن في مكتب صغير لاهل فيه ولاهفم ، وانما هو الحفظ المجرّد ، فظرت أبناء همتي يسافرون إلى الجامع الأزهر ، أحببت أن أعلم ، احترق فؤادي على العلم ، أحسّ والذي بذلك ، أرسلني إلى الأزهر ، درست العلوم اللسانية والفقهية ولمحوها ، لم يشف ذلك غلتي ، سكنت في أثناء عطلة أفكر وأنا في منزعجت في القمع واقطن واحشائتي نهارا ، والتبسم والسبأ ليلا ، وفي آثار الاول التي خلفها قسما المصريين ، أصوم نهارا ، أصلي ليلا ، أضرع إلى الله أن يعلمني ، أباجاهل جدّ جاهل ، حضرت دروس التفسير ، ولكن يشتت دعائي دائما ، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمني هجاب هذه الدنيا ، وحركت أفلاكها ، ونظام زرعها ، وكيف يكون ارتقاء أم الاسلام .

هذا ذاتي ، وهذا هو السرّ الخاص بيني وبين الله عز وجل ، وهو الذي كان يهمني ، بهمني أن أقف على نظام هذا الوجود ، وعلى سرّ تأخر المسلمين ، وعلى حقائق دين الاسلام ، وكيف يرتقي المسلمون ؟ وما السبيل لذلك ؟ إن هذا المقام واضح في كتابي « التاج المرمع » وهذا إجمال ماهناك . لم يكفني ظواهر العلوم ، ولا سبيل لدى إلا الدعاء ، فأخذت أدعوا الله كل حين أن أعرف ما تقدم ، فانتظمت في سلك طلبة دار العلوم وهنا كانت دهشتي ، فإن ما كنت أدومسه بنفسى مجلا من النظر في الكواكب ليلا ، وفي المزارع والهواء والضوء نهارا هو عينه التي يدرس في المدارس النظامية : حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء ، وكنت واضعا نصب عيني دائما رقي أم الاسلام ومعرفة الله تعالى بقولنا معاشر بني آدم ، وكنت لا أبلى بالعلو والعظمة ، بل كانت كل أمنيى المعرفة وأن أكون عموولا لا يصابني ، فان نفسى تفرّج فيها أن سعادتها في العلم ، أما الاعظام وبعد الصيت فانها لاتعاب به . وقد كنت أرى أنني أجهل الناس وأضيق الطلبة .

كان مدرّس الانشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقد عرضت أوراق امتحان الانشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذي عين متعنا لنا من الوزارة آخر سنة من سنى الدراسة ، ولقد كانت دهشتي عظيمة عندما قابلي المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد مفتاح وقال لي : إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك (وهو اكتب خطاب تهنئة وتعزية) قال : إن هذا الموضوع منقول من الكتب القديمة ، فليس في مصر الآن من يكتب هذا . قال : فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طول السنة من الانشاء فانتزع بذلك وأعطاك نمرة ١٩ من عشرين ، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨ قلت له : عجبا ! أنا كنت أظن أن هذه الفترة أنت تعطيلها لي لجرّد شهرتي في اللغة العربية ، لا للانشاء ، لأنني لا أعتقده انشاء ، فعجب ! وقال : كلا . أنا أعطيك الفترة على نفس الانشاء .

وانما ذكر هذه الحادثة لأبين مقدار انهائي لنفسي وعدم ثقّي بها ، وأنا است أقول ان هذه صفة

محمودة . كلا . بل هي مذمومة لانها تكون سببا في تعطيل المواهب الإلهية ، ولكنني أقدر الحقيقة في ذاتها .
ولقد ذكرت في هذا التفسير وفي غيره سمرارا وتكرارا أتى قبل أن أعرف هذه العلوم عاهدت الله أنه إذا علمني الحقائق على مقدار طائفي لأؤلف كتابا ينتفع بها الشباب الذين يشتاقون لما أشتاق إليه ، ولا يهذبون كما كادت في الوصول إلى الحقائق .

فلما أن وظفت في الحكومة بعد الخروج من المدرسة ، وصرفت مدرسا ، أخذت نفسي تطالبني بالوفاء
ببهدا ، ولقد عرفت فأن التآليف ؟ فألفت كتاب « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » بادئ ذي بدء
وهناك كانت حوادث منزلية أزهدني ولكن لم يكن ليؤثر شيء على نفسي من حيث التآليف ، ثم توالى التآليف
والنشر فألفت « جمال العالم » و « النظام والاسلام » و « نظام العالم والأتم » و « التاج المرمع » وغيرها
من الكتب والرسائل ، وهأنذا الآن أكتب في تضييع القرآن الذي انتشر في أقطار الاسلام ، وترد على الرسائل
من تلك الأقطار النائية . ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله اخواننا المسلمون في شمال إفريقيا والسودان والشام
وبلاد اليمن وحضرموت وإيران وبلاد جاوه وما حوله وعموم (اندونيسيا) ويدخل فيها سومطره وغيرها
وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركستان الشرقية التي عاصمتها كاشغر . ولعمري لم يكن ليدير بخلدني ،
أو يخطر لي ، وأنا على شاطئ نهر أرى الأخضر بالقرب من قريتنا كفر عروس الله حجازي بالشرقية وأنا أبحث عن
حشرة ودوية صغيرة تكون ذات خطوط منتظمة تعرفني أن في العالم نظاما وجمالا وبهجة ، وقد عثرت
فعلا على حشرة عليها خطان : أحدهما أصفر ، وأخره أزرق ، وقد انتظمت بهيئة هندسية ، ودهشت للنظام والجمال وقلت
هنا . بدأ نظام . أقول ما كان ليخطر لي أن ما قطع هؤلاء ، وأقض مضجعي ، وأطاردوني ، وأسهر جفني ،
وأطال ليلى ولأجله سامرت بالنجوم ، وحالقت الوجوم ، وبليت العموم . سيميل يوما تالي الشباب في أقطار
الأرض ، ويدرسه العربي والأندونيسي والهندي والصيني ، ويقدم من نفس « كاشغر » أحد شبانها ويقول
لي في هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١ م مانه : « لقد أقض الفكر مضجعي ، وأطاردوني ، وصرت
أغفو وأروح بين الأشجار للزهرة والحدائق النضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام ، وفيها الروح والريحان
والأزهار والأثمار . كل ذلك نهرا ، فإذا جن الليل على وأرخت سدوله ، أخذت أسامر النجوم ، وأطرد
المحوم ، فلما النجوم تمادتني ، ولا المحوم تزايدني . وأسأل الله . أقول له : رباه : ماهذه النجوم الثواقب ؟
وما هذه المجائب ؟ أسيرها نظام ؟ وما برهينها ؟ وما هذه البدائع .

« رباه : أنا جاهل جدًا جاهل . أنا مستغيث بك فأعطني . وجاهل فعلني . وإذا طلع النهار أخذت أسامر
الأزهار على الأشجار ، وأقول : أينما الأزهار : ما أخبرك ؟ وما جالك ؟ وما جانيك ؟ ثم أقول : أينما الأشجار
كليني كيف نظامك ؟ وما عناصرك ؟ وكيف كان نموك ؟ وما هذا الترتيب الذي أراه في أوراكن ؟ فلا أسمع
جوابا ، وأنشد :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادي

« ولما اشتد علي الوجد ، وزاد الهيام ، فطقت إذا جن الليل أربط جسدي بحبل في وتد نافذ في حائط
وأبكي حتى الصباح ، ودمت على ذلك ليالي ، وذلك من شدة اليأس من أسألتني إذ كنت أسأل أحدهم هذه
الأسئلة فيقول : هذا فعل الله ، ولما أكثر السؤال طفقوا يشيعون أتى بجنون ، فلم يكن لي محيص من
ذلك البكاء والعيويل في خلقي والتظاهر بالسوى أمام الناس . قال : وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب « التاج
المرمع » في يدي ، أعلمه لي أحد الأصدقاء ، فوجدت أسلوبا لم أعهده ، وأخذت أقرؤه ، فألفيته يصف
حاله في نفس حالي ، ونفسا كانت محترقة كنفسى ومحرومة ، مما يشقى غليلها ، فطالعت بلهف مدة ثلاثة
أشهر ، فوالت عبرتي ، وحررت وجدني لسفر خارج بلادتي ، كما حررت وجدان ثلاثين شابا مثلي ، فساهرنا إلى

(كابل) وقد استعجبت « التاج الموضع » مني ولم أخبر بسفري من أعاريه لي ، فلما وصلت إلى (كابل) ببلاد الأفغان وجدت فيها نسخا كثيرة منه ، فأرسلت الكتاب ليعر لي وأعلت بسفري ، وهما أناذ اليوم قد تطلعت في مدارس تركيا ، وثلت شهادة ، وقرأت اللغة الفرنسية ، وقد سافرت بهتان أخويان إلى الأقطار الشرقية الغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرءوا كتب المصريين ، ومنها كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم المنشور حديثا ، فسألت : أقرأته باللغة العربية ؟ فقال نعم . فقلت : هومترجم بلسنكم التركية فأطلعت عليها فدهش وقال : هذه لغة راقية ولكنني لم أطلع عليها لأن قيصر الروس ما كان ليحصل بيتنا وبين اخواننا في القزازن وغيرها مواصلة .

ثم قال : « اتنا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفرا عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرب إلى الله تعالى » انتهى

هذه هي الرحمة التي أردت أن أذكرها في تفسير البسمة في أول سورة الفتح ، أوليس من العجب أني لم أوفق إلى تمام هذا الموضوع فأعرف خبر آتربلاد الاسلام إلا عند تفسير سورة الفتح ، وأرى كتابي « القرآن والعلم البصري » « بعين » مترجما لإزالة الملايو ، أوليس عما يوجب علي إعلان شكرى لله وحده وتقديسه ، والقيام به ، وإفراغ الجهد في طاعته أن يكون انتشار هذه الفكرة هوغاية مطلبي ، ثم يتم ذلك المطلب وأنا حق وأعلم به ، وهو هو الفتح الخاص الاسلامي ، هذا هو النصر والفتح المبين في زماننا ، وقد قدّمنا أن الرحمة عامة وخاصة ، فالعامة فضلها جميع العلوم ، والخاصة بنا وبالأثم الاسلامية هي ما ذكرته الآن وقد قدّست أن كل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص ، فهذا هو الامر الخاص الذي اشتد طغي عليه ، وقد قلته ، وهل لي بعده مطلب ؟ هو آخر مطلبي ، هو نهاية مقصدي ، الحمد لله فلاقرأ أجباه في الذكر الحكيم على لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسما عيل واسمعي إن ربي لسميع الدعاء » كتب صبح يوم الأحد • يوليو سنة ١٩٣١ م

تذكرة

لقد تقدم في سورة محمد ﷺ في تفسير البسمة أن قتال الكافرين المذكور فيها توطئة لفتح البلاد ونشر العلوم ، فأثم الاسلام لم يكن الفتح لهم خاصا بمكة ، إن الاسلام انتشر في أقاصى المعمورة ولا يزال ينتشر بل هو الآن ينتشر في أمريكا وفي أوروبا ، إنما المهم المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمى ، والعلم المنتشر في الكرة الأرضية الآن باجتماع علماء العالم قاطبة سببه دين الاسلام ، فالعلمون حركوا الأمم وان كان المهركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام .

إن أوروبا هجمت على الشرق فخلعوا دين المسيح بدل الوثنية عندهم ، وبعد قرون جاء الاسلام فأفصاهم وأرجعهم إلى بلادهم ، فهجما على الشرق كرة أخرى بالحروب الصليبية ، فخلعوا معهم المدنية الاسلامية والعلم المنشورة فيها ، ثم هاهم أولاد يهجمون على الشرق كرة أخرى اليوم ، وهما هذا الشرق أخذ يمدّ عنده ، وستكون نهضة الأمم كلها بسبب الشرق والعقول المنزوية فيه التي ستساعد على الرقي المنتظر فالنظام الحالى سببه فتح الاسلام المبين ، والظلم المستقبل سيكرن بمساعدة المسلمين . أفلا أسمعك مجابا ، في مقال جاء في جريدة الاهرام بتاريخ ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م قد جاء فيها تحت العنوان التالى ما نصه :

العالم بعد خمسين سنة

العلماء يتنبئون

نيويورك في ١٥ مارس (للمراسل الامم المتحدة الخاص) : العلماء هم أنبياء هذا الزمان ، وأنا أعني العلماء العاملين ، لا أولئك الذين يسطرون لقرءاء أقوالا لا هم يفهمونها ولا الذين يقرءونها ، يعرف المطلع على تاريخ تدرج الصمران ، وورق الانسان ، كيف فتح الناس الكرة ، وذلوا صمعاها ، وهدوا عقباتها ، وأخضعوا وحوشها ، وحولوا أجسامها إلى جنات غناء ، واستأنصوا معظم ما كان يقتلها من الأوبئة ، وكيف تغلب العقل البشري على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته ، والعمل بإشارته ، وألجم البضار والبرق والفاروقم بأعمال كثيرة كانت معدودة من المستحيلات ، فما الذي بقي وراء ستار الغيب من مدهشات العلم وهماجه ؟ وما الذي سيقدم عليه التبوغ البشري من الغرائب الشبيهة بالمجاذيب . لنسمع جواب أنبياء العلم فان فيها تلخصه من أقوالهم ما يرد غلة التائي إلى معرفة ما سيكون ، إنهم يستنبئون بالماضي لاختراف ظلمات المستقبل ومعرفة ما سيبتم فيه من تاج الأمتعة المفكرة .

يقول قائلهم : إن لللايين منا يتذكرون الخمسين سنة الماضية ، وأبأؤهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التي قبلها ، فالمائة علم التي وراءنا قد كانت مسرعا لاقلاب كبير في حالة العالم وطرائق العيشة فيه ، فاقننت أيام المركبة الخشبية التي تبحر بها الحياض ، وجاء زمان الطائرات الحديدية ، والسفن البخارية ، واخترع التلفزيون فقترب الأبعاد والمسافات ، وتلا ذلك التليفون والتلغراف اللاسلكيان ، ورفعت الطائرات أهل هذا الزمان من القرباء إلى الأجواء ، فظهرت ناموس الجلادية ، وحلت السيارة محل الجواد في شوارع المدن والطرق ، وخففت الكهرباء أعباء أعمال النساء ، فتولت هنن الكفس والفصل ، وادلر آلة الحياطة ، وتنظيف المنازل وأوجدت الحرارة لدفء ، وبردت الهواء الحار بمراوحها ، وأثارت المنزل والشوارع والرق المزدقة لإن البلدان ، وبابت من الناس في فتح الابواب للأزئين ، وأدلت الآلات على اختلافها ، وجرت قطارات والمركبات العمومية ، وتولت فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت .

وفي المائة سنة التي انقضت نالت النساء حق الاقتراع والمشاركة في إدارة الحكومة ، وتعدت الأمم بعضها من بعض ، فقسى لها الاجتماع معا بسهولة للتفاهم بشأن العمل والماجور الشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد في البلد الواحد ، وكان الناس من مضي خمسين سنة ينظرون إلى الغنى صاحب المليون ريال بعين الإعجاب ، أما اليوم فالذي يبلغ دخله السنوي مليوناً واحدا لا يعد من الأغنياء ، ففي أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعي يزيد على مليون ريال ، وهنري فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يذخر للحكومة ضريبة على دخله السنوي تزيد على العشرين مليون ريال ، كان الناس من قبل يتعاملون بالباين ، واليوم يتعاملون بالبلايين ، وبعد أن فتحت حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شتروا في الحرب الأخيرة تكون قد أنفقت خمسة وسبعين مليون ريال ، والتمول الأوروبية مدينة لها بمبلغ أحد عشر بليون ريال ، مما يؤيد ما قلناه من أن مقادير الغنى قد قصرت وتعاظم أمر الثروات بحيث إن الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا في هذا الزمان يتوثنوا بالبلايين ، وصار البليون القياس المقول عليه في المعاملات الدولية كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طواغيت من الناس متحدثون معا . ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه ، ولا صار أعتا عينا وأسد حالا ، فهو من هذا القبيل كالقنطرة من الاوقيانوس العظيم لا يزيد في الكبر على أية قطرة ماء في أصغر وعاء ، وهكذا الناس فاهم لايزالون كانت بشرية صغيرة ، قطرات في أوقيانوس المجموع المدرك الحساس للثروف باسم الجنس البشري ، الاوقيانوس يكبر ويتعاظم في

الانسان والقوة ، إلا أن القدرات التي تؤهله لا يطرأ عليها تغيير في ذاتها ، فكيف يتمكن الفرد من أن يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كلمة من كل وجه ؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع الخمسون سنة الماضية بل الألوف من الأجيال القاهية الإجابة عليه : كشف الانسان الراديوم في الأرض والعناصر والمعادن المختلفة والقوى الطبيعية التي لم يكن لأسلافه بها علم ، ولكنه من حيث اصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل ، وقد يكون ما قبل صحيحا من أن متوسط الذكاء بين الاجناس العليا من التمسدين هو اليوم أقل منه بين أهل ألتينا منذ ألفين وخمسمائة علم مضت ، فمن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الاولية من حيث الخلق والابداع والاحاطة بما يحيط بنا من الأشياء للمنظورة السكينة عند أقدامنا إلى المجرة في السماء قد ارتقينا وأحسننا عملا ولكننا كأفراد لم نتقدم إلا قليلا ، ولا أحرزنا من التحسن إلا اليسير النافه .

فما الذي يحىء في الخمسين سنة التالية سنسلكون أيامنا من الفحم الحجري الذي قد ، ومن آخر الزيت التي نضب معينا . وهكذا قبل أن ينفد الفحم والزيت يكون الناس قد تمكنوا من تقييد المد والجور أوقوة الشمس وكشفوا نيرانا مخبوءة في جوف الارض على مسافة أميال من مواضع أقدامنا ، وعندئذ يهزمون بما كان يفعله أسلافهم .

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يبلغ أحداث اليوم الشيخوخة تكون الأسفار الجوية عبر الأوقيانوس وحول العالم في الطيارات ، فيقنول الركاب فيها طعام العشاء في باريس ، وطعام الفداء في نيويورك ، ولقد كان من غرائب الأيام التي اقتضت أن يتلقى الشخص الموجود في أعلى طبقات المخزن مع آخر في أسفله بواسطة الأنبوب الذي يتبع قنبل القصد ، ثم جاء التليفون فتلقى الناس به بين البنات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات شحيحة .

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكي لنقل الاصوات إلى الأبعاد الشاسعة ، قسمع أوروبا نيويورك في لندن وباريس والصين ، وفي الهند والعراق بوضوح وجلاء كما يسمعون أهل نيويورك ، ويقنل اندهاش الفكر البشري بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد اعتداء الاسبوع الواحد على وجودها ، فلا يعبأ أحد بها بل يوجه اهتمامه لشيء جديد يكون أعجب وأغرب ، جاريا في ذلك على الاعتقاد الذي أصبح جزءا من طبيعته بأن كل شيء ممكن ، وفي الأعوام القليلة المقبلة ستضع آلة على صندوق الراديو في منزلك فتريك المثلثين في الملاعب والمطابخ على المنابر وتسمع أصواتهم .

ذلك ما ستقوم به الكهرباء التي لا تفهمها إلا بما يدومنها ، فهي قد قامت مقام الانسان في أعمال كثيرة تطبخ ، وتكنس المنازل ، وتكوى الملابس ، وتدفئ الحجرات في الشتاء ، وتبردها بالمراوح في الصيف ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة ، وتسيرها ، وتدفئها في الشتاء ، وتبردها في الصيف ، وتفتح أبوابها للخارجيين والداخلين الذي أغنى الشركات عن ملايين العمال . ومثل ذلك تفعل في المعامل على اختلافها ، وتبع بالرسائل إلى أطاسي العمورة ، وهي التي تمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكي واللاسلكي . وميقل اهتمام الناس في المستقبل بنقلات الفحم لاقاء البرد لأن نور الشمس الذي يلعبه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة ، أوحرا مقبولا ، وذلك بواسطة مراكز للثقة في معتدل الحرارة عند نقطة معلومة محتملة من البرد والحر السنة بطولها .

ويقول أحد العلماء في كتاب عنوانه « المستقبل » مانصه : وإن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هي مبنية على درس الصورة التي يدبر عليها الفتن التي لا يلين حاملا معه الجنس البشري إلى حيث يكون كما خلق ليكون ، فمن مضى ثلاثين عاما كان التلفزيون اللاسلكي مقتصرا على أذرع معدودة ، أما اليوم فانه يساعدنا على إحصال هزات الكهرباء إلى أقصى الأرض ، وإلى القمر أيضا ، فما الذي تقوله إذن

من الغد .

وبعد دورة قصيرة من الزمان تمص أرباب السجاء بمواكب هوائية ضخمة ، وتكون سرعة الطيران فتجتاز الاوقيانوس بنحو الساعة من الوقت ، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام ، لأن العلم سببتم ما ساعد المركب الهوائي على الشعور بدأوه من مركب آخرى ولوف الظلام الدامس أو الضباب الكثيف ، وقد يصل بنا العلم الى عهد نستفي فيه عن مولدت القوة في مراكب الهواء ، تستمد قوتها من الهواء الذي تسير فيه وتساعد الأشعة الكهربية الانسان في مستقبل الأليم على تحويل الأمطار إلى الصحرى والبلدان القليلة أو المدينة للمطر ، فتحوّل إلى جنت نضرة عظيمة الاقبال ، زاهرة بمحصولات لا تخطر لنا اليوم بال . وتكون الكهرباء العامل الأكبر على إنهاء للزروعات بحرارتها ، ويرقى فنّ الجراحة إلى أرفع الدرجات ، بحيث يتمكن الجراح من جعل الوجه الشنيع جيلا ، وتكون الاعمال الجراحية في المستقبل قبل الولادة ، فتجعل تقاسم وجه الطفل كما يرد أن تكون ، لأنه من الظلم أن يكون قبيح صورة أحد الناس حثّة في سبيل نجاة ، فأبطل هذه المشوهات يستأصل في أول العمر أو قبل الولادة ، ويصير أمر تحديد النسل من الأمور الضرورية ومن زويمات الفتن ، فلا يصح يوشك إلا لعدد معلوم من الناس في الاكثر من البنين ، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية ، وتساعدهم ماليا ، وذلك لأن الارض تصبح مكتظة بالسكان بحيث يصير من الضروري تحديد عدد المواليد بخلاف ما هي الحال الآن ، ولد الفرد ما يشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم واعائتهم أو قصر في ذلك ، وتصبح الامومة وظيفة شريفة تسيطر عليها الحكومة وتقوم بالفتقات .

ولكن هذه الحلة لا تطول كثيرا ، فقد يصمدون يوشك إلى توليد الاطفال في حامل الكيمياء بطريقة علمية بحيث وعلى قدر الحاجة لسد الفراغ الذي يحدثه الموت ، ولا يزال أماننا حسبا بمعتقد علماء العلم مائة مليون سنة لقيام بأعمال أخرى عديدة نجزعقولنا القاصرة عن الاحاطة بها ، فسوف يتمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة في ذلك الفضاء الذي لا حده لأن الكثير منها مأهول بأشخاص عاملين مفكرين .

فالأثير الذي يشمل كل فضاء هو الذي يعمل رسائلنا إليها كما يعملها في أرضنا من قارة إلى أخرى ، فلو قفنا انسان من مضيّ خمس وعشرين سنة عن امكان ابتداء الطائرة والتعلق بها في الحق من مكان إلى آخر ، أو عن البرق اللاسلكي ، وقال : إن الخليل أول المفسد الذي يتكلم ، أو يعني في نيويورك يكون مسموعا بوضوح في أقصى الأرض لزجوه في مأوى المجانين ، ولكن ما الفائدة من التخمين أو التنبؤ ؟ انه لم يطلنا أن نعرف ماذا سيكون ؟ انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني من السورة

التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسرى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلا ، فسأه عمر عن هي فلم يجبه ، ثم سأه فلم يجبه ، ثم سأه فلم يجبه . فقال عمر : نكثت أملك يا عمر ، كرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كل ذلك لأعجبك ، قال عمر : حركت بعيرى حتى تخطت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل في القرآن ، فإبليت أن سمعت صارخا يصرخ في ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ ، فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزل على الليلة سورة لم أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

ودوى الترمذى أن ذلك كان وهو رابع من الحديدية ، قوله عز وجل (إنا فتحنا لك فتحنا ميناً) أى
 إنا فتحنا وسكننا لك فتحنا ميناً ظاهراً ، أى فتح مكة ومقابلها كفتح خير وفدك وملح الحديدية وما بعدها
 كفتح فارس والروم وسائر البلاد . وهذا التفسير جمع سائر الأقوال ، فإذا قال البراء تفتون أتم الفتح فتح
 مكة ، ولقد كان منح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديدية ، وذكر أن الحديدية بئر قد
 زحوها ولم يتركوا فيها قلعة ، وكانوا أربع عشرة مائة ، فلما توسلوا ~~بفتح~~ وتخصص ودعا وصبه فيها سقتهم
 وسقت رعايتهم وماشيئهم ، وإذا قال مجاهد أنه فتح خير ، وإذا قال غيرها هو فتح فارس والروم وسائر البلاد
 فهذا كله داخل فيها قلناه ، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها ، ومقابلها مقدمة له ، وما بعده تابع له ، مرتب
 عليه . وأعلم أن لكل عامل في عمله نهاية يحتجبها ، وغرة يجتنبها ، فنهاية الزرع إدراكه ، ونهاية الشجر
 أثماره ونضجه ، وغرة ذلك الانتفاع بحب الزرع وغر الشجر ، هكذا النبوة لها نهاية مطلوبة في الحياة الدنيا
 وغرة تبقى هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم وحدة أمة من الأمم ، ويجتمع شملها ، ويتم نظامها ،
 ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد على وعمل وقتال ، وجمع المجاهدين على الدعوة ، ومنى آموا
 عملهم ، وأقنوا المستضعفين ، وجوا البيضة ، وأدخلوا رجالاً في الدين كرها ، ثم بالتدريج يدخلون طوعاً .
 فإذا تم ذلك فقد انتظم أمر النبوة وأدى واجبها ، وهذا نهاية ماعلى الرسل ، وإذن يستوجبون ثمراتها وهي :

- (١) معفرة ما فرط منهم مما بعد ذنوباً بالنسبة لتمامهم .
- (٢) واجتماع الملك مع النبوة بعد أن كانت النبوة وحدها .
- (٣) والمداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .
- (٤) والنصر الذى فيه عز ومنعة .

فهذه الثمرات الأربع مرتبة على تمام أمر النبوة والجهاد فيها ، وهكذا كل مجاهد بعد إتمام جهاده
 ينال الثمر على مقتضى المقدمات ، فالفتح المذكور المقرب عليه ما ذكر رمز إلى الأعمال التى استوجبت من
 أول ما نزل الوحي إلى تمام الأمر ، فهذه ترتب عليها هذه الأربعة ، كأن الله يقول : يا محمد ، لقد بلغت الرسالة
 ونصبت في العمل ، وماهنت بلسانك ، وبسيفك ، وجعت الرجال والكرام والسلاح ، وتلطفت وأغلظت
 وأحلتى عليك ، وفعلت كل ما قدرت عليه حتى تم الأمر الذى نذبتك لفعله ثمرات ذلك العمل ، وقوله (ليغفر لك
 الله) متعلق بفتحنا ، وقوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أى جميع ما فرط منك مما يصح أن يسمى ذنباً من طبقته
 وإن كان عند غيرك لا يسمى ذنباً لأن حسنات الأبرار سيئات القاريين ، أو ما تقدم قبل النبوة وما تأخر عنها
 (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً) * وينصرك الله نصراً عزيزاً) قد صرفت معناها وأنها مرتبة
 على الفتح ، لأن من دانت له الرقاب ، وخضعت له النفوس ، وعزّ فقد تمت له النعمة . ولما كان ذلك في
 رضا الله هدى صراط الرئاسة ، ونصر نصراً فيه عز ومنعة ، لأن أسبابه حاضرة . ولما كان فتح البلاد والنصر
 على الأعداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبجهاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه شرع يذكر
 ما للمؤمنين من مزية ، فقال : (هو الذى أنزل السكينة) الثبات والطمأنينة والوقار (في قلوب المؤمنين)
 ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء ، وكما كل الفتح للأمور الأربعة المنتم بها على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، هكذا كانت الطمأنينة في قلوب المؤمنين (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) أى يقينا مع يقينهم بربوخ
 العقيدة واطمئنان النفس عليها ، ولا جرم أن الله عز وجل هو الذى دبر أمر العالم فسلط الأجناد في الأمم لقائهم
 والمجاهدة ، فهو الذى دبرها بعله ونظمها بحكمته ، فهو الذى يجاهدون للحق ، وهؤلاء يقاتلون للباطل ، وإنما
 دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ، ويعدّ للكفار والمنافقين لما عتقوا على
 الباطل ، فينال كل نتيجة ما جناه ، وهذا هو قوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) يسلب بعضها على

بعض كما سلكا من المؤمنين والكافرين على الآخر (وكان الله عليا) بالمصالح واستعداد النفوس (حكيا) فيها قصه وديره (للدخول للمؤمنين وللمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم) يطيبها ولا يظهرها (وكان ذلك) الإدخال والتكفير (عند الله فوزا عظيما) لأنه منتهى ما يراد من منفعة مجاورة ومضرة مدفوعة (ويصحب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل (الطائفتين بالله على السوء) ظن السوء ظن الأمر السوء فيقولون في أنفسهم : لا ينصر الله رسوله ولا المؤمنين (عليهم دائرة السوء) أي دائرة ما ينظرون ويرى صوته بالمؤمنين لا يخطأهم (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) أي جهنم ، وأعلم الله كما كان الفتن قد ترتب عليه أمور أربعة لآي ^١ هكذا قال المؤمنون بأمور أربعة : الوار ، وازدياد الإيمان ، ودخول الجنات ، وتكفير السيئات . وهكذا الكفار لهم أربعة : العذاب ، والغضب ، واللعنة ، وجهنم . وقوله (وقه جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيم) يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم في جهنم ليلزموا الكفار لتخليبهم وهم خزنة النار كما أن ذكر الأجناد فيها تقدم يشير للأئمة الذين يكونون مع المؤمنين لادخالهم الجنة ، ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والعلية ، ولما كان سبحانه لا يضل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة ، ولما أمم الكلام على مال كل من الأعمال والنفقات المرتبات عليها أعقبه بما يم ^٢ النبي ^ﷺ والمؤمنين فقال (إنا أرسلناك شاهداً على أممك ومبشراً ونذيراً) لأجل الطاعة والعصية ، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلة خطابه عليهم قالوا (تؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه بتقوية دينه ورسوله) وتكلموا به (وتعظموه وتذبحوه أوصلوا له بكرة وأصيلا) غيرة وعشياً ، والمعنى دائماً ، ثم ذكر بيعة الحديبية وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة ، حيث يتر هناك كما تقدم ذكرها ، وكان المهاجرون ألفاً وأربعمائة ، وبأسهم على أن لا يفروا ، ومنهم من باع على الموت . فقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم (بإذنه فوق أيديهم) أي نصرته بإهم أعلى وأقوى من نصرته إياه ، يقال اليد لفلان ، أي الغلبة والنصرة والقوة ، أو يد الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي فوق أيديهم كأنها يد الله ، والله منزّه عن الأجسام وصفاتها ، أي أن عقد الميثاق مع رسول الله ^ﷺ كعقده مع الله عز وجل من غير تناوت بينهما كقوله تعالى : « من طاع الرسول فقد أطاع الله » (٥) فكذلك فاعلموا أنكم على أنفسكم يعني فمن قضى العهد الذي عقده مع النبي ^ﷺ ونكث البيعة فإن وبال ذلك ضرره يرجع إليه ولا ينصر إلا نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أي من البيعة (تسبؤ به أجراً عظيماً) أي في الآخرة وهو الجنة ، وهذه البيعة بيعة الرضوان . انتهى القسم الثاني من السورة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

قال تعالى (يحق لك الخلفون من الأعراب) وهم أسلم وجهنة ومزينة وغفار ، فهو لا لما استقرهم رسول الله ^ﷺ عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالنشل بأموالهم وأهلهم ، وفي الحقيقة هم ضعاف العقيدة خائفون من مقاتلة قريش إن صدقهم ، ومقول القول (شغلنا أموالنا وأهلنا) إذ لم يكن ما من يقوم بأشغالهم (ماستغفركم) من الله على التخلف (يقولون بالسبب ما ليس في قلوبهم) أي هم كاذبون في اعتذارهم غير جادين في طلب الاستغفار (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً) أي فمن يمنعكم من قصاته (إن أراد بكم ضرراً) أي سوما (أو أراد بكم نصراً) ذلك أن القوم ظنوا أن التمتع يدفع عنهم الضر ، أو يجلب لهم النفع بالسلامة لهم في أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئاً من ذلك لم يقدر أحد على دفعه (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فيعلم أفعالكم لا اعتذار ، وطلب الاستغفار ، واخضع لكم التذوق (بل كنتم

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً) أى غنم أن الصدوق يهلكهم فلا يرجعون إلى أهلهم (وزين ذلك في قلوبكم) فتسكن فيها ، أى زين الشيطان ذلك فيها (وغنمتم عن السوء) أى وكنتم أن الله يحفظ هذه إذ قالوا : إن عمداً وأصحابه أسكت^(١) رأس . يريدون بذلك قتلهم فلا يرجعون فأين تذهبون معهم ! انظروا ما يكون من أمرهم ؟ (وكنتم قوماً بوراً) يعنى وصروهم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بأثرين هالكين (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فاما اعتدنا للكافرين سعيها) أى فاما اعتدنا لهم فيه وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول (وبقته ملك السموات والأرض) يدبره كيف يشاء (يفعلن يشاء ويحب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً) وذلك لأن رحمة سبقت غضبه ، فالغفرة والرحمة من الله بالاصالة ، أما التعذيب كالذي لالكافرين السعي فذلك لأحوال طرأت على النفوس البشرية ، وهنا لأجل اللطافة ، ففى المقام المأجوز أن يقال (سيقول المخلفون) وهم المذكورون (إذا انطلقتم إلى معانم تأخذونها) أى معانم خيبر ، وذلك أنه ﷺ رجع من المدينة في ذى الحجة من سنة ست ، وتبل سنة خمس وهو الأصح ، وأمام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر عن شهد المدينة فتسحقها ، وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم ، ومقول القول (اذروا ثيابكم) بدون أن يبقوا كلام الله) أى أن يضربوه لأنه وعد أهل المدينة أن يؤمنهم من معانم مكة معانم خيبر (فلن تقبلوا) معنى الذى هنا انتهى (كذلك قال الله من قبل) من قبل تهيئةهم للخروج إلى خيبر (فسيقولون بل نحمسوننا) أن نشارككم فى القتال (بل كانوا لا يفقهون) لا يفقهون (إلا قليلاً) إلا فهما قليلاً وهو قتلهم لأمور الدنيا والاضراب الأول ردّ منهم ، والثانى ردّ الله لأنيتهم الحسد وإثبات جهلهم بأمور الدين (قل لاخلفين من الأعراب) وهم المتقدمون (مستعدون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وهل هم بنو حنيفة ؟ أو هم أهل البوامة أصحاب مسيلة الكذاب الذين دعا إلى قتلهم أبو بكر ، أو هم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتالهم ، أو غيرهم ، فإذا كان الأول كان أسد الأمرين : إما المقاتلة ، وإما الاسلام ، ولا تقبل الجزية من بنى حنيفة ، ولأن جميع أهل الردّة ، وإن كان الثانى يكون المراد بالاسلام ما يشمل الاقياد بقول الجزية منهم ، وهذا دليل على صحة امامة الشيخين ، الأثرى إلى قوله تعالى (فان طيعوا) من دعاكم إلى القتال للمذكور (يؤنكم) الله أجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يؤنكم هذا الآية) فى الآخرة ، أى وان تتولوا عن التوحيد والتوبة والاجابة إلى قتال مسيلة الكذاب أو الفرس الخ ، ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين يشمل من هم معذورون حقيقة أردفه بقوله (ليس على الأعمى حرج ولا على الأبرص حرج ولا على المريض حرج) فهؤلاء لا حرج عليهم فى التخلف عن الفزوة ، فهم مستثنون من المتخلفين لعذرهم بجهالتهم (ومن طلع الله ورسوله) فى الجهاد وغيره (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولاه يؤمنه عذاباً ألماً) فى الآخرة .

بيعة الرضوان وهى بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى حين نزل المدينة فبعثه إلى قريش بمكة وجعله على جبل يقال له الذئب ليبلغ أشرفهم عنه ما جاء له ، فعبروا جل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله فغتمه الأحابيش ، فظفروا سبله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليبيعه إلى مكة فذكر له أنه ليس من قومه أحد بمكة يدافع عنه ، فأرسل عثمان بن عفان ، وأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً

لهذا لبيت معظمنا حرمة ، فخرج عثمان إلى مكة ، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، لجهله في
جواره حتى فرغ من رسالته لسطاة قريش ، ثم احتسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان
قتل ، فقال رسول الله ﷺ : لا تبرح حتى تاتوا القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان
تحت الشجرة ، وهي سمرة ، فبايعة القوم إلا جند ابن قيس الأنصاري ، اختفى تحت بطن بعيره ، وهذه
الشجرة لما أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يملوها بعد ذلك كثر اختلافهم ، فلما اشتبهت عليهم وصار
كل واحد يشير إلى شجرة ، قال عمر : « سبروا ذهب الشجرة » ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان
على الشجرة التي بايئنا نحنها وكانت رجة من الله تعالى ، وهذا قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ
يبايعونك تحت الشجرة فلم يأت قلبهم) من الاخلاص (فأزل الكينة عليهم) الطمأنينة وسكون النفس
(وأما بهم فتحا قريبا) فتح خير غلب انصرافهم (ومغناهم كبيرة بأخوتهم) هي مغناهم خير وهي أرض ذات
عقار وأموال ، قسمها عليهم (وكان الله عزيزا) منجا فلا يغلب (حكما) فيما يحكم به فلا يعلو (وعدكم
الله مغناهم كثيرة تأخوتهم) هي ما أصابوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة (فجعل لكم
هذه المغنا أي مغناهم خير (وكف أي أهدى الناس عنكم) يعني أهدى أهل بيته وخلقهم من أسد وخطاهن
حين جازا لنصرتهن ، فتنف الله الرعب في قلوبهم فأنصرفوا ، يقول الله : فجعل لكم هذه المغنا لتتبعوها
بها (ولتكون) هذه الكفة أو النخيلة (آية للمؤمنين) أمانة يعرفون بها (ثلاثة أمور : الأول) صدق
الرسول صلى الله عليه وسلم (الثاني) أنهم في حياطة الله وحواسته في مشاهدتهم وبهم (الثالث) أن
يعرف للمؤمنين الذين بعد العصر الأول أن ما وهب الله للصحابية من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم
مثله (ويهديكم صراطا مستقيما) وهو الثقة بفضل الله والتوكل عليه بعد اتقان العمل ، ثم عطف على لفظ هذه
قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) أي وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها (قد أحاط الله بها) أي حفظها
لكم حتى تقتنعوها ، ومنها من غيركم حتى تأخذوها ، وسيقتحمها الله لكم كغارس والروم الذين كان العرب
خولا لهم ، ثم أقدمهم عليها بمنزلة الاسلام وغيرهما من كل فتوح في الاسلام (وكان الله على كل شيء قديرا)
قدرته شاملة للمكانات جميعها (ولولا أنكم الذين كفروا) من أهل مكة ولم يصلحوا ، أو من حلفاء أهل خير
وهم أسد وخطاهن (لولوا الأديار) أي لانهزموا (ثم لا يجدون ولما) يحرسهم (ولا نصبرا) : صبرهم من الله
(سنة الله التي قد دخلت من قبل) أي سنة الله غلبة أنبيائه سنة ، وهو قوله : « لأغلبن أنا ورسلي » (ولن
نجد لسنة الله تبديلا) تغييرا (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ذلك أن عكرمة بن أبي جهل
خرج في خيالة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فنهزم حتى أدخلهم
حيطان مكة ثم عاد ، فهذا معنى قوله (يعطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقوله (وكان الله بما تعملون)
من مقاتلتهم والكف عنهم (بصيرا) فيجازيهم عليه (هم الذين كفروا وصنوكم عن المسجد الحرام والمهدي)
أي ما يهدي إلى الكعبة ، أي صنوككم وصنوكهم المهدى (ممنكوا أن يبايع عله) أي حال كونه محبوسا أن
يبلغ مكانه الذي يحل فيه تحرم وهو منى مكانه اليهود . وقال الحنفية : مكانه الذي يحل فيه تحرم أي يجب ،
فأنصر محل هديه الحرم عندهم في منى . ويتوكل غيرهم : ينحصر حيث أحصر ، وقد منح رسول الله صلى الله
عليه وسلم حيث أحصر (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم
بالمشركين (أن تطهروهم) أي توقفوا بهم وتبيدوهم بالقتل (فتصيبكم منهم معرفة بغير علم) أي لئلا يذنب
وصب عليكم فيقول للمشركون : قتلا أهل دينهم ، يقول الله : فولا أن تقتلوا رجلا مؤمنا ونساء مؤمنات
لا علم لكم بهم فيلزمكم العار والإثم لأذا لم يكن في دخول مكة ، ولكن حال بينكم وبين دخولها ذلك السب

دين الاسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها ، وليصون المؤمنين منهم من الأذى (وتز يادوا) لوتقرقوا وتغير بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون في مكة عن الكافرين (لعدونا الذين كفروا منهم هذا الجاهلية) بالقتل والسبي (إذ جعل) أى حين جعل ، ظرف لعدونا (الذين كفروا في قلوبهم الجاهلية) الأثرة (جدة الجاهلية) التي تمنع إذعان الحق (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى التبت والوفاء ، وذلك ما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو ، وحويلب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص يسألوه أن يرجع في علمه على أن نخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام . فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا لا نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اكتب هذا ماصالح رسول الله أهل مكة . فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصدقك من اليت وما تأتيناك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال ﷺ : اكتب ما يريدون ، فهم للمؤمنون أن يأبوا ذلك ويطلبوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم ، فنوقرقوا ونحماوا (وأزهم كلمة القوى) أى التبت والوفاء بالعهد (وكانوا أحق بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها في علم الله ، إذ اختارهم لدينه ، ومحبة نبيه ، وهم أهل الخير والصلاح (وكان الله بكل شئ عليا) من أصر الكفار والمؤمنين فيجازى كلا بمسئله . انتهى التفسير القنطري لقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

لعائف هذا القسم

- (١) في قوله تعالى : قل للخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد .
- (٢) في قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ .
- (٣) في قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين .
- (٤) في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل الخ

الطيفة الأولى

في قوله تعالى : قل للخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد الخ

اعلم أن هؤلاء الخلفين قد حرموا من الغزوة التي فيها غنائم بعد ما خلفوا ، وقيل لهم تربعوا حرام قوم شداد ، جارية على القاعدة العامة في سنن الله تعالى طبا وتهديا .
انظر إلى علماء الطب ، ما هم إذا رأوا مريضا قد اشتكت به الآلام الناجمة من البرد الزمزم تعاطى الأغذية الحارة ، أو من الحر الزمزم تعاطى ماعود بارد ، وكذا في الرطوبة واليبوسة ، ويقولون لمن هو كثير النسيان : اجلس في حمام حر ، وخذ في الحفظ والقراءة ، فان رأيت أنك قد أسرع حفظك ، فاعلم أن النسيان من البرودة ، وإذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة ، فمعرفة السبب فاستعمل ما يصادفه فان كان السبب الحرارة فسل الأغذية الباردة ، وان كان السبب البرودة فسل الأغذية الحارة ، وهكذا يقول علماء الأخلاق : «فمن رأى نفسه كثير الغضب فليزِم نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى ، وليتعلم الصبر على أذاه ، فان لم يجد من يؤذيه فليسلط هو انسانا بأجر من عنده أن يقوم بشتمه في ملا من الناس ، ثم ليصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل ويتعلم ، وإذا رأى أنه قد أصبح بليدا بحيث لا يؤثر فيه قول من ينضبه ، ولان يؤذيه فليتر الجية في نفسه بالأشعار وقراءة كتب الجاسة حتى تقف النفس في الوسط بين التثنية ، والصلابة ، وهكذا » ، أى ، نفسه كثرة الكلام فليتعلم الصمت مرارا . حد . صرف أن نفسه لا تنطق .

إلا عند الحاجة .

وبالاجل هذا هو السن الذي منه افقه أن يدلو للمرض بشده حتى يرجع المرض للاعتدال في الجسم وفي العقل ، وذلك عينه هو الذي رآه في الشمس ، فانها تاتي علينا أشعة الصيف فتكون حرارة ، وأشعة الشتاء فتكون برودة ، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة ، فربح الأمر إلى الاعتدال ، لأن الحار والبارد يساقطان ولا يبق إلا الاعتدال . كل هذا يؤخذ من هذه القصة ، إذ أنهم لما تخلصوا عن الغر وحرموا من الغنيمة في غزوة خيبر ، وأزموا أن يكونوا في غزوة فيها قوم أولو بأس شديد ، والقتال شاق ، فهم كالعبودين يازمون الطعام الحار ، وكالبليد تستأجر فيه الهمة والنشاط والحياة . انتهت الطيفه الأولى .

الطيفه الثانية

في قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج لمع

اعلم أن هذه الآية لا يراد بها أن تكون قصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات ، إذ يستنون من المتخلفين للمؤمنين ، إن هذا المقام مقام الاستعداد : فليظن المسلمون في أمر الأمة جميعا ، وليجعلوا كلا فيما استعد له ، جعل الله في زمن النبوة الأمة ثلاثة أقسام : النساء لأعمال المنازل ونحوها ، والأقوياء من الرجال للحرب ، وأصحاب العاهات عفا عنهم فلا يجاهدون ، لماذا ؟ لأنهم لا يصلحون لذلك ، وامرئى إن هذا فتح باب لاشمال نار الرق والاسعاد في الأمة ، فليفتح الباب على مصراعيه ، وليقل إن الله أنزل في القرآن هذا لنظر نظرة عاقبة ، ولعل الأمة كلها في جهاد دائم ، ليس الجهاد قصرا على ضرب السيوف ، واعداد الجنود ، ورفع البنود . كلا . ثم كلا . فلكل فرد من الأمة منزلة لابد أن يوضع فيها ، فزارع في مزرعته يجاهد ، لأنه يرسل الخطة لصغوف المجاهدين ، والتاجر ، وصانع الأسلحة ، والحاكم والقاضي والشرطي والخفير ، كل هؤلاء أهوان المحاربين ، وسائق قطار السكة الحديدية ، وحارس المسرة (التلفون) ، وصانع الطيارات ، فكل هؤلاء مجاهدون ، فليجعل كل فيها هوأهل له ، وإذا فني الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فليس معنى هذا أنهم يحافون من كل شيء . كلا . أنهم لم يقدروا على دخول الصف ومقاومة العدو ولكن الأعمى إذا كان من القادرين على الخطابة والحث على الجهاد فليزمن بذلك ، والأعرج إذا كان قادرا على عمل كأن يكون عند آلة البرق (التلفراف) فليزمن بذلك ، والمريض يجب على الحكومة معالجته ، ومضى شئ يوجه إلى مخلق له ، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ في ما استعد له ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليما عاما وادخال بعض الصناعات في المدارس الابتدائية حتى تظهر مواهب الأطفال فيوضعوا فيها خلقوا له ، كما قلته لك في (آل عمران) من أهل أمريكا ، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « لا تكلف نفسا إلا وسعها » فارجع إلى التفصيل في (سورة البقرة) . وقيل للأمة لا تصلا مواهب الأمة ، بل نبهوا جميع الشعب ، وأيقظوا فيه للمواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار الثمينة ، ولا مساعدة للأمة إلا بهذا ، والله هو الولي الحيد . انتهت الطيفه الثانية .

الطيفه الثالثة

في قوله تعالى : ولتكون آية للؤمنين

اعلم أن هذا سر مصون ، وجوه مكنون ، وحكمة عالية ، ومنهج شريف ، وكبريت أحر ، وماس بهيج ، ودر فسيذ ، وكثر مدفون ، أراد الله اظهاره لأمة الاسلام ، حتى تستيقظ من رقدتها ، وتقوم من غفلتها ، وترجع عن حوبتها ، وتنفض غبار الكسل ، وتحيي ما مات من الأمل ، وتبجي نمار الحكمة التي حفظها

الله لم في الكتاب ليقيمها أولو الألباب بعدنا فيقولون : يايت شرى : أى آية المؤمنين هنا في هذا الزمان اذا كان الله كف أبدي أهل مكة من المؤمنين ، وكف أبدي المؤمنين عن أهل مكة ، ومهل لهم مقام في خير ، فأى آية لا الآن نحن في هذا الزمان ؟ ذلك زمان مضى واغضى ، وأسرطواه الزمان في سجل القسيان فكيف يكون آية لا ! اللهم إلا يكون آية هل صدق النبوة وصدق النبوة عندنا لاحتاج لبرهان ، لأننا أخذناه جيلا عن جيل ، وقوم عن قوم ، فلنا نحتاج إلى برهان جديدة ، على أن صدق النبوة ليس هو كل شيء عندنا في الدين ، بل المهم نتابعه ، فن صدق بالانبياء وبالقرآن ربقي ما كنا لا نحرك ساكنا فأى فرق بينه وبين الكافر إلا الاعتقاد ، والاعتقاد بلا عمل شجر بلا ثمر ، وأرض بلا زرع .

اذا سمعت هذا من أهل زمانك ، وأقرأت في هذا المقام ، فأجب عنه وقل : إن الله عز وجل جعل أهم خواص الانسان أمريين : الأول العلم والشوق إليه ، وحب الحكمة والغرام بها والولوج ، والثاني قمع الناس وإرشادهم ، فهذان هما الخلقان الشريكان اللذان تخلق الله بهما ، فهو عليم ، وهو رحيم وحكيم ، ومن تخلق بأذن الله فان الله في عونه ، ومتى انصف رجل بهاتين الصفتين فأحبب العلم وعشقه ، ومال للحكمة وأشرف بها ، فان الله عز وجل يكون معه ، ولذا كان مقربا بمنفعة الناس ، وأحبب رقيهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلا لذلك ، فان الله وملائكته يكونون معه ، ويرى العون من الله في غمته ورواحه ، وبالتفطن يرى من العناية والمساعدة ما لا يحيط به بيان .

أقول هذا وأذكرك بمحدث : « إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » وبما يروى « إن طالب العلم يستغفره كل شيء حتى الحيتان في البحر » أوامره ، وبآية : « والذين جاهدوا فينا لهديهم سبلنا وان الله لم يحسن » ، فالجهاد يشمل الجهاد العلمى ، والجهاد العلمى ، والاحسان يشملهما ، فهو احسان بالعلم واحسان بالعمل .

واحبب أيها القارىء كيف تقول بعض الارواح لما أحضرت وسألوها في أوروبا : أى شيء يرقينا اذا امتنا ؟ فأجابت : أسرارهم . الحيوانات : الأول الفطرية ، أى حب العلم بالحكمة ، والثاني حب الناس ، فن انصف بهذين الوصفين كان محل نظرائه وملائكته ، وكان الله معه ، وازداد هذا على مدى الزمان ، وتوالت آيات العلية لا تنتد . كل هذا من سر هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » وهو آية فضل الله تعالى ، انظر كيف جعل الله هذه القنائم الخيرية التي وعدها الله المؤمنين بها آية لنا ، وثباتا على الأعمال والعلوم . انظر كيف نام المسلمون ، وجهلوا هذه العلوم . انظر كيف كان العالم كالجاهل في تناسى هذه العلوم القرآنية . انظر كيف ملأ الله الأرض بالعلم وأخل منه أمة الاسلام الحاضرة لإقلاق . انظر رعاك الله وقل لى غنائم خيبر يغربنا الله بها ويقول لها آية لكم ، وهداية لثبات على الأعمال ، ثم يصم المسلمون آذانهم وينامون نوما عميقا ، حتى قل من بينهم من يحب المجموع ، وقل من يحب العلم لثبات العلم ، فأما بعد هذا الزمان فسبكتهم فيهم العاشقون للعلوم ، ويكثر المحبون لآمة الاسلام ، بل لجميع العالم الانساني الذى نحن جعلنا رجة له ، بل رجة لكل حي من انسان وحيوان ، لأننا قاثون مقام نبينا المرسل رجة للعالمين من الانسان والحيوان والجن والقيين لم يتخلقوا بالأخلاق الحيدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا .

جهاد الفرد وجهاد الجيش

لذلك تقول : أى الآيات نراها اليوم في هذا الزمان اذا نحن أخذنا في أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خيبر ، إن ذلك كان ورسول الله ﷺ بينهم ورجة الله تنزل عليهم ، وأخبرنا في ذلك ، وتم ما أخبر به ، وصدق الله وعده فعلا ، فأى غزوات الآن نكون فيها ؟ وأى منح نعطها ، وعلما نلقاها ؟

ولانني بينا اليوم . والكرامة للانبياء ومن مع الانبياء ، لما نحن فلنا اهل الله .

أقول : إن هذه الآراء هي السبب الأكبر في موت المسلمين موتاً أدبياً وروحياً ومالياً واقتصادياً وسياسياً وهي الدلالة على الجهل بالله ، وظلمه ، وورعته ، وحكمته الشاملة ، وآياته الواضحة ، وهجابه المدهشة .
إن الله دائم الجود ، واسع العطاء ، لم يخص العطاء ، ولا الأنبياء ، ولا الحكماء ، ولا الإنسان ، بل هم العطاء حتى لأحقرة من الحيوان المسماة ميكروبا ، فأعطاهما أشرف الأجسام ، وهي أجسام الإنسان ، فأكل فيه لحماً طرياً ، وتشرب شراباً حراً شهيواً ، وترغم وتلعب وهي آمنة مطمئنة ، ولذا أعطى الله أجساماً أشرف مخلوقات وهو الإنسان لأقل الحيوانات قدراً ، وقال لها كلي واشربي وقرسي عينا في أشرف مخلوق على الأرض ، فما بالك بالإنسان وهو أشرف حيوان على الأرض ، فهل يذره الله يذخبط في الدنيا لا يفرق بين من يريد نفع المصوم ومن يريد شهوة فسه . كلا والله . فلقد جرت بنا مقول فرأينا الجب الجباب وتعلم أن جهاد الفرد في الحياة العلمية والعملية أثق من جهاد الجيش الكبير ، والملاونة الإلهية تكون على العمل الفردي أقوى من الملاونة التي تعطي للجيش الكبير الصديق ، وبرهانه أن تقول : إن الفرد منا وهو عبد في العلم غلبا فيه ، وفي منافع النوع الإنساني إذا كان أهلاً لذلك ، يلقى مشاق لا يلاقها الجيش في غزواته ، أي أنه إذا كانت الصعاب التي يلاقها الجيش توزن في صورته ، ما يلاقه الفرد والمدة مضاعفة بعدد أفراده كان الجيش في مشقة لا تطاق ، ولذا رأيت الله عز وجل يساعد أصحاب النبي ﷺ ويعطيهم غنائم غير ، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيحبه نشر العلم ، وحفظ الأمن ، وأن ما يضلوه مع الكفار أشبه بالسكنى في جسم الإنسانية ، وبعد هذا السكنى سيكون الشقاء التام . وعلموا هناك من طريق النبوة ، فاعلم أن الفرد الواحد المجاهد يقع في مشقات لا تعد لها إذا كان مجاهداً للجموع ، وتكون الملاونة له من الله على مقدار ما يصيبه من المشقات ، فيكون العالم في علمه ، والنظم للأمة الساعى في رتبها ، واقعين في مصاعب ومشاق عظيمة ، ويكون عون الله لهم مضاعفاً على مقدار مشاقهم ، إن ذلك فقرأ قوله تعالى : « لا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم يروها وجعل كفة الذين كفروا السفلى وكفة الله هي العليا والله عز وجل حكيم » .

وأنت تعلم أن نصره وهو الفار أحجب من نصره وهو في بدر ، أو أحد ، أو سين . يتقدم جيشاً عظيماً ، إذا عرفت ذلك فاعلم أن حاله أنت اليوم وأنت تعلم العلم . أو تعرض على رقي أمك الإسلامية . خرج عن هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا ، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونورا ، فإذا نصرته وهو وحيد ليس معه إلا أبو بكر ، فرب أنت كما اتفق لي ، لاسيما أثناء هذا التفسير ، فقد رأيت الجباب في هذه الحياة ، ووقت في مشا كل ملهمة ، ولكن جاءت أظاف الله أسرع من البرق ، فأوقفت الشر بل أنزله ، وتكرر ذلك مراراً أثناء هذا التفسير ، سواء أكان ذلك في الأمور الدنيوية أو المسائل العلمية . ومن ههنا أن بعض المسائل أكون في حاجة إليها ، والآية تتطلبها ، فلا تعفى دقائق حتى أعثر في الطريق على ما يغني عن المطالب ، وأذكر مرة أنني كنت سائراً في شارع غربت بإقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضى الله عنها وأنا أفكر في آية : « إن في خلق السموات والأرض إلى آخره ، ووجعت أن اللاد والبار لا بد من استيفاء الكلام عليها ، فالتى يسيرها إما الهواء ولما البنار ، فطريبي أن الكهرباء أيضاً لا بد من أن يكون لها في ذلك عمل ، ولكن لا يمكن أن أكتب ذلك إلا إذا اطلعت عليه ، فحقتنى نفسى أن عادة الله لا بد أن تتم معى ، وإنى قريباً أجده فهمها ، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب ، فوجعت رجلاً معه مجلة لا أذكر اسمها . فقلت أرنها ؟ ففتحتها فرأيت في الصفحة التي وقعت تحت نظري في سطر من أوسطها هذه المسألة بنصها : بحيث أن نظري لم يقع إلا عليها ، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أورد ما دلونها ،

فاشتريتها منه وقلت الجلة التي في الجلة الخالصة بالكهرباء التي بها تسير السفن ، فانظرها في سورة البقرة ، فانك تجدتها في تفسير الآية ، وتجد الجلة منقولة بحروفها ، لأنني لست من علماء هذا الفن ، هذه مسألة واحدة وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب ، وانما ذكرت لك هذا لنظم اني اكتب عن يقين ، وأن النور القاطن من الله محيط بنا من كل جانب ، وانما نحن الذين نحرمان أنفسنا منه فيشقى الجاهل به ، فاذا أعلن الله رسوله ودور في الفار جاذ في رفق أمته . فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتب أثره . كلا والله ، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك ، يمثل هذا تعرف بقوة وصحتها ، ويمثل هذا فليعني للمسجون .

فليجد الدلاء في فهم الناس هذه الحقائق ، فلهمري كيف يقول الله « ولتكون آية للؤمنين ويهديك صراطا مستقيما » . أليس ذلك ليكون نبراسا لنا فنعلم أن الله مؤيد للعاملين في أعمالهم الجزئية ونسكن في تلك الألهامات السرية التي يحس بها الانسان في نفسه ، وتلك المساعدات الوقتية التي تحصل لنا عند جدنا في المنام العامة ، وحيش لا يحصى لنا من الثبات في أعمالنا والمثابة فننوز كما فاز الأتولون ، ونحظى بمحاطي به المتقدمون ، والله لا ينجح أبو الحسين .

تذكرة

في مولزة آيات الأحكام بآيات الأعمال الاخرى

فاذا سمعت السادة الخفية ، والسادة الشافعية ، يدققون النظر ، ويحققون الفكر ، في آية : « حتى بلغ الهدي عمل » فيقول قوم ان الحرم هو الذي يذبح فيه الهدي ، ويقول قوم . كلا . فلينحر المصريح أحصر كما تقدم مع أن الخلب فيه سهل . فبالك يمثل هذا المقام الذي يقول الله فيه : « ولتكون آية للؤمنين ويهديك صراطا مستقيما » . بحمد الله غناكم خير آية لنا ، وهداية لسبلنا ، وطريقا لوصولنا ، ولم يقل في الهدي شيئا من ذلك ، بل قال : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . فانظر كيف أرجح الأمر في التباح سواء أ كانت في منى ، أم في الحديبية ، أم في غيرها لأمر واحد وهو التقوى ، وانما هذه وسائل لها ، فان بذل المال معناه التبري من المال تلا يلقى بالقلوب فيوقها في شرك هذه الحياة الدنيا . فاذا كان علمنا هكذا يدققون في الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل ما نحن فيه . لقد كان أئمة الفقه كمالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وزيد بن رضى الله عنهم وأمناهم يدققون في الأحوال النفسية عملا ، ولم يكن عندهم الزمن الكافي ليكنوا هذا الناس ، فتركوه للأجيال المقبلة ، وكأنهم يقولون : هانحن أولاد دققنا في مقدمات الأعمال ، فطليكم النظر فيها لانتاج إلى بحث شديد كبحتنا وهي المقاصد ، ولهم الآخرون ماركه الأتولون ، فاذا نحن أهمنا كم دقيقات الأمور فلهوا الناس أتم الأمور التي هي أرواح كقوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » وكقوله : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وكقوله « وإن الله لمح المحسنين » وكقوله « إن الله مع الصابرين » وكقوله هنا « ولتكون آية للؤمنين » .

إن الله يساعد المؤمن المجاهد في نفسه أكثر مما يساعد الجيوش في الجهاد ، ألم تر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » ، جهاد النفس جعل أشد من جهاد العدو فيكون العون فيه أعظم ، لأن الجدى في الجيش معه اخوانه ، وليس مع الفرد في نفسه إلا الله كما تنظم في آية العار : « إذ يقول لاسحبه لائحون إن الله معنا » .

دفع وهم

إياك أن يمر بظلمتك أن هذا القول ويحويه معناه أنه لن يصيبك هم في الحياة . كلا . لذا جاء هذا الخطأ فاعلم أنه خطر كاذب . يقول المسلم لذا حزنه أمر : كيف أقع في هذه الندامة ؟ أليس مسلماً ؟ أليس الله بكاف عبده ؟ أليس الله يضاعفني لاسياً وأما أجاهد في تهذيب نفسي ، ورفقاً أمتي ، وأنا أهل قتلك ، وأنا مخلص ، فليتل هذا يقال : إذا ظننت أنه لن يصيبك أذى ، فأنت وأهم ، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم ، وجعلها أقل ، وعملها أشق ، ويكون العون على قدر المشقة ، ولن يرتقي امرؤ قط إلا بما زاول من الأعمال ، وما قلبي من المشاق . وهذه الفكرة في الاسلام هي التي قصدت بالهم ، وأورثتهم الخمول ، فيقول الرجل : ألسنا مسلمين ؟ فلماذا سلب الله الثمرة علينا ؟ أليس النبي شفيح لنا ؟ أليس الله مع السابرين ؟ أليس الله ينصر من ينصره ؟ ونحن نصر الله فلماذا لا ينصرنا ؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذي عليه المسلمون ؟ فلنجادل بالتي هي أحسن في نقطة الشفاعة ونقول : أيها المسلم : أليس النبي شفيحاً ؟ فيقول بلى فيقول أليس العالم شفيحاً ؟ يقول بلى ، يقول أليس الشهيد شفيحاً ؟ يقول بلى ، يقول والى والدالة والشهيد إذا ظهر في بلد أو يكونون سبب كلها ، أم يكونون سبب نشاطها ؟ فيقول بلى سبب نشاطها لا عمل . نقول لماذا ؟ فيقول لأن العالم الغيبية وعالم العلماء وتقديم الشهيد . فكل ذلك يحدث في الناس استعداداً للعمل ، تقول فلماذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبي قد كسلوا فما شأنهم ؟ فليس له إلا أن يجيب : ليس هم حظه من السعادة ، بل هم أكثر عذاباً ممن لم يكن عندهم عالم ولا نبي ولا شهيد لأهم وأوأ طريق الرشاد فلم يتبعوه ، وعرفوا الحق ولم يتبعوه .

قول : هذا المثل منطبق على بعض المسلمين ، يرون نبينا ﷺ وأصحابه يتجشمون المشاق في الحر والبرد ، ويلاقون الأعداء في الجبال ، ويقسمون رقابهم للقتل . كل ذلك والمسلمون يأخون ، هم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الانسان ويعطى الجزججان ، فاذن الشفاعة لها معنى غير هذا ، فليعملوا كما رأوا في السلف الصالح ، واذن يلحقون بهم ، فأما كونهم يلحقون بهم وهم يأخون فهذا غير مقبول ولامة يقول : إن يسير هكذا : كل عالم في بلد يكون سبب لك . لها ، وكل نبي يكون سبباً لك ، لأنه ، فتكثر الآية مكرمة ، والعقول متقوية ضائعة . وعالم أن الله لم يخلق إلا ليعبأ ويرغبنا . والى ربنا . لا كسل ، فلماذا قال : « ولينصرن الله من ينصره » فليكن المسلم مأمراً للعصية ، مفكراً مطالعاً ، حارساً على العلم ، وليكن المسلمون جاذبين لمفكرين .

فرحم الله امرأاً أهدى إلى الناس ما كتبناه في هذا التفسير ، وأعطاهم ما يطلبون منه . ورحم الله امرأاً نشر هذه الأقوال بين المسلمين . ورحم الله المؤمنين النافع المسلمين . انتهت الطيفه الثالثة .

الطيفه الرابعة في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل

هذا المعنى يقوى المعنى الثاني سبق في الطيفه الثالثة ، وملخصه تقوية قلبك أن تكون مريباً لك . علمياً ، ولأنتك مادياً وأديباً ، وانه يكون معك ، وأن هذه سنة قديمة في الأبياء وأنبأهم العلماء ، والله ولي المؤمنين .

فصل في إيضاح الكلام على يمة الرضوان

روى ابن سكرين حنس لما أصراف على النبي ﷺ وحببه كما ختمت مان ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إنجاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل لك من أمرهم ،

ولما قل **عليه السلام** لعليّ: إني رسول الله قل لا والله لا أعزك أبدا قال فأرنيه فأراه إياه فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم بيده وكتب : هذا ما قضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء : على أن من أله من المشركين ردة إليهم ، ومن أله من المسلمين لم يردوه ، وعلى أن يدخلها من قابل ويقم ثلاثة أيام ولا يدخلها بغير أن السلاح السيف والتروس ونحوه ، فقالوا ليرسل الله أن يكتب هذا ؟ قال نعم ، أنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم يجعل الله له قريبا وغريبا . انتهى القسم الثالث من السورة .

القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام في المنام وهو بالدينة قبل أن يخرج إلى الخديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقون رؤوسهم ، فأخبر بذلك أصحابه فخرجوا وحسوا أنهم داخل مكة طمحين ذلك ، فلما انصروا ولم يدخلوا شق عليهم ذلك ، وقال المناقون : أين رؤياه التي رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل . وما روى أن عمر بن الخطاب . قال : أتيت النبي **صلى الله عليه وسلم** فقلت أنت نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق ؟ وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت أليس قتلتنا في الجبة وقتلناهم في النار ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى إني في ديننا إذن . قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو أسرى ، قات أولست كنت محذرتنا أما سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت لا . قال فأنك آتية ويطوف به . قال فأنت أبأبكر ، قلت يا أبأبكر : أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الهدية في ديننا . قال أيها الرجل : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس يصحى ربه ، وهو باصره ، فالتمسك بذكره ، فإني أله على الحق ، قلت : أليس كان يحذرتنا أنه سيأتي البيت ويطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرتك أنه آتية العام . قلت لا . قال فأنك آتية ويطوف به ، وهذا قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الزواجا) أي صدق فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق أن الحكمة البالغة لأن فيه ابتلاء لتمييز المؤمنين الحاصل من المناق ، والله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) حال كونكم (آمنين) علق بالمدينة تعليلا لئلا أن يلزموا الأدب فلا يكموا على مستقبل لاعلم لهم به (علقين رؤوسكم ومقصرين) أي حملنا بعضكم ومقصرنا آخرون (لتخافون) جملة حالية مؤكدة (فاعلم ما لم تعلموا) من الحكمة في تأخير ذلك (فجعل من دون ذلك) أي من دون دخولكم المسجد أوقفحة (متعافيا) هو فتح خير ، ليعتدوا إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر المودود ، وقد قدم شرح ذلك شرحا وافيا (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي ملتبسا به (ودين الحق) أي ودين الاسلام (ليظهره على الدين كله) أي على جنس الدين كله بنسخ الشكوك وإظهار فساد العقائد الزائغات وبسلبت المسلمين على أهل الأديان في الأزمان العارية ، وبإتيانهم بأمر الكثرة الأثرية والحفاظة على نظام الأمم ، وإتيانهم بأمر انوارية بينهم ، وتعليم الناصين في الأزمان المستقبلة إذ تسبح الأرض كلها كأ أسرة واحدة ، ويكون المسلمون هم الآخرون بيد الأمم ، وذلك في أيام عيسى التي هي رمز للسلام العام في الأمم ، ويكون المسلمون يدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه في السورة السابقة إذ يتضام العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الإسلامية المتاخمة للبارك أوصفتي (سورة آل عمران) عند قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أتوا نبييا من الكتاب ، وذلك بأن يتعلم أبعاد العرب في شمال أفريقيا والشام والعراق والحجاز العالم الابتدائية وروية ولعالية ، وبذلك يعرفون قدر أمتهم ولعنهم ودينهم وعوادهم فيتحدون ولوطا الزمان ، ثم يتحدون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والحوار ، واسم أم شرقية ، ثم يأخذون بيد المسلمين في سائر الأقطار ، ثم

يعلمون القول أنهم يريدون السلام العلم بين الأمم بعد أن يكون جيشهم أقوى الجيوش ، ولكنهم أعلى السكك ،
 مم هناك هناك يقال أنهم « خیرامة أخرجت لناس » . وهناك هناك يقال « ليظهره على الدين كله » . وهناك
 هناك يقال : إن المسلمين رجة للعالمين تحقيقاً لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فإنك أن يقول لك فيه أين الجهاد ؟ فتجيب بما في السورة السابقة عند الكلام على آية : « حتى تضع
 الحرب أوزارها » . وقل له : فليكن جيش المسلمين أقوى الجيوش وهم الآن في وسط الكرة الأرضية ، ولأن
 يحفظون للوازنة ، ولا يكون في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، فالأمم كلها مسلمين وبعث أصبحت الأرض كلها
 حكومات متحدة والمسلمون يكونون هم القائمين بأمر هذا الاتحاد وهذا زمانه ، وليس يكون نزول المسيح
 إلا بعد هذه الملتزمات ، فلو أنه نزل بغير ذلك لم يكن تغيير طباع الناس في عدد الأصابع من السنين ، فنزول
 المسيح إنما يكون لأمر قد أشرفت أتوارها ، وحصلت طباعها ، ويصوم ذلك النظام آلاف وآلاف من السنين ،
 ويقال لأهل الأرض إذن أنهم على منحنى المسح ، ولقد قام بأمرهم أمة الاسلام ، وهأنذا قد بينت هذا في
 سور كثيرة . ولما كان هذا وهذا لابد من تحققة أعقبه بقوله (وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعدته كائن ،
 وعلى أنه رسول الله ﷺ ثم أخذ يبين ذلك فقال (محمد رسول الله والذين معه) أي أصحابه المؤمنين ،
 والمطوف والمطوف عليه مبتدأ خبرها (أشداء على الكفار رحماء بينهم) أي يغلظون على من خاف دينهم
 ويترحمون فيها بينهم كقولهم : « أدلة على المؤمنين أمرة على الكافرين » ، (ترامهم كما سجدوا) لأنهم
 مشتاقون بالسلافة في أكثر أوقاتهم . (يعتقون فضلا من الله ورضوانا) الثواب والرضا (سيباهم في وجوههم
 من أثر السجود) أي السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود ، يقال سده إذا أهله ، وكان أن
 المتأقنين يعرفون بسيباهم كما جاء في السورة السابقة : « فلتعرفهم بسيباهم ولتعرفهم في حق القول » . هكذا
 هنا ، فلا شقاء علامات تظهر في وجوههم وسحتهم وحيثهم . كما أرحم الصلاة ابن خلدون في مقدمته ،
 هكذا الفضلاء ، ولكن القول التي تعهم ذلك نادرة أوقلية . وإعلم أن كل ما يضل الإنسان أو يتصوره يؤثر
 في ظاهر جسمه أولا ، ولكن الفطن تغلوت في معرف ذلك تغلوت كثيرا ، وسيباهم التي في وجوههم هو السم
 الحسن والخشوع والتواضع والسجدة (ذلك) أي للذكور (مثلهم) صفتهم (في التوراة) وعليه وقف
 (ومثلهم في الانجيل) مبتدأ خبره (كمنزح أخرج شطاء) فرائضه ، يقال أشطأ الزرع إذا أفرخ (فأزره)
 فأعانه وشد أزره وقواه ، ومنه قوية أي بكر لنبي ﷺ فهو أول من آمن به وخرج معه سبى السادة .
 (فاستغنى) فتقوى ، هكذا تقوى رسول الله ﷺ بمال عثمان مثلا على الفرو والجهاد ونحوه (فاستوى
 على سوية) جمع ساق : أي على أصوله ، ومثاله اظهار أمر النبي ﷺ في قريش ينحوي على بن أبي طالب
 وعمر (يجب الزرع) بكثافته وقوته . يقال : « مكتوب في الانجيل انه سيخرج قوم يبنون نبات الزرع ،
 يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ومعنى يجب الزرع هنا : أي جميع المؤمنين ، وقد سماهم الله
 وأكرمهم واستورا وغلبوا (ليغلبهم الكفار وهذا الدين آمنوا وعلماوا الدخات منهم مغفرة وأجرا عظيما)
 وقوله « منهم » بيان للذين آمنوا . وإعلم أن مثل التوراة التي تضمن الرحمة على الأولياء والشدة على
 الأعداء يستلزم كثرة العدد والرفق لأن المتراجين متحابين فيعظم شأنهم ، فإذا تحددوا لاجتماعهم على العبادات
 من ركوع وسجود واتصافهم بأوصاف الرحمة والشدة في مواضعها فذلك يدعو إلى رقيهم تدريجيا كل رزق ،
 وكان هذه المعاني التي تضمنها الثلاث متلاحقة متسلسلة ، فكأن التوراة لما كان أقدم من الانجيل وأساسه
 ذكر فيه مبدأ ما به القوة والكمال ، وكان الانجيل لما كان بعد التوراة ذكر فيه ما يترتب على ذلك الأسس
 وهو النماء والقوة والعزة وظهور الفقرات . ولما كان التوراة كتاب أحكام وشرائع نسب إليه المثل التي هو
 من جنس شرائع كالسجود والركوع والأعمال الخلقية في مواضعها ، ولما كان الانجيل كتاب ارتقاء

للعواطف ، وبث الفضائل ، واستخراج القوى السكينة في النفوس ناسب أن يذكر في مثله الزرع ونماؤه .
 ويروي في حديث وصف للمؤمنين ما معناه : « ان أنجيلهم قلوبهم »
 هذه أوصاف الأمة الإسلامية ، فانظر لها الآن وتأمل في تحاذيها وجهلها الفاضح ، حتى أصبحت مثلا
 مضرا بالخير والجهالة للهواء ، وسبيل الخلل ، ويحسن المالك ، ويخسر الزرع ، ولما كان هذا المثل
 المضروب بالزرع في هذه السورة يحدث في قوسنا بأسا من ارتقاء المسلمين ، لانه قال : هاتين أولاء اليوم
 أبناء أمة الاسلام وهذا المثل ينطبق على آياتنا الأولى ، أما نحن فأتنا أصبحنا زرعاً هشياً نفروه الرياح فكيف
 يجتمع صفه وثيقه ، وقد مضى زمانه ، وذهب أباه ، ويستبدل القائل بما هو حاصل اليوم ونفروه في الجرائد
 من التحاذل والتباذ والتباعد بين المسلمين ، حتى أصبحوا عند الفرنجة كالخمد والعبيد ، ألم تر إلى مجاه في
 الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ م أي قبل كتابة هذه الأسطر يوم
 واحد مانصه :

« باريس في ٢٢ يونيو — تلقت جريدة الطان تفرافان مراسلها في مدينة فاس قال فيه ان مولاي
 يوسف سلطان المغرب الأقصى أهرب للرشديون عن رغبته في إصدار منشور يشكر فيه أعمال عبد الكريم
 الماسي بالوحدة الدينية ويقول ان عبد الكريم لا يملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين ، وبالنظر إلى تمحش
 الأمير عبد الكريم الذي أعلن انه يريد الاستقلال بعيد الأنهي في فاس قرر مولاي يوسف ردا على ذلك أن
 يبقى في فاس ليحتفل بالعيد احتفالا عظيما » اهـ

هذا هو التفراف المرسل المذاع عن مولاي يوسف ، فانظر إليها القدي كيف أصبح المسلمون العوبة في
 أيدي الفرنجة ، وانظر هذه المغزيات ، الأمير عبد الكريم قام لتحري بلاد مراکش وطرد الفرنجة منها ،
 والفرنجة يسطادون أناسا يحملونهم مواكباهم بأمرهم فيذبحون أوامر لأوثك القبح يناوون الفرنجة ، هذا
 المثل الذي يتصف به بعض المسلمين اليوم وان كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كلترك والقرس والأفغان
 هذا هو المثل السوء الذي يثله المسلمون اليوم ، لاسيما أخواننا أبناء العرب ، وذلك للجهالة العمياء ،
 والنوم والعسى ، فإذا تبدى لك هذا فالزم أن الله قد علم ذلك قبل أن يتحقق ، وقال : « ولا تكونوا كالذين
 أنزلوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » اعلموا أن الله يحيي الأرض
 بعد موتها ، فتعقب آية قسوة القلب والنسق بإحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى ما هو مقرر في سنة الله
 أن الشيء متى وصل إلى نهايته اقلب إلى ضده ، فالأمة الإسلامية اليوم وصلت إلى مازاء ، وبعد هذا الموت
 الحياة ، فإذا كان المسلمون صاروا اليوم هشياً نفروه الرياح فقله يقول : « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد
 موتها » فلئن مات بعض المسلمين اليوم فإن الحياة بعد الموت ، وسيظهرهم الله على الأمم ويدرسون عالمها
 ويقومون بأمرهم ، هنا هو الذي سيكرن ، والله هو الأول والآخر وإلى الله ترجع الأمور .

اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ القدي أن هذه اللطائف لم ترد بخاطري إلا عند الطبع ، واللطائف المقدمة إنما كانت أيام
 التأليف منذ بضع سنين ، وهاك بناها :

- (١) في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحا مبينا .
- (٢) في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .
- (٣) في قوله تعالى : ولله جنود الأرض وكان الله عليا حكيما .
- (٤) في قوله تعالى : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية .

الطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً

هذا ما فتح الله به على يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣٦ م : —

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام : أرض سبخة ، وأرض حجرية ، وأرض طيبة صالحة للزراعة . فالأولى يقع عليها المطر فلا تحفظ الماء ولا تثبت ما ينفع الناس ، والثانية تحفظ الماء لغيرها ولكن لا تنفع به ، والثالثة يثبت فيها النبات وينفع به الناس . فهذه الثلاثة انتفعت بالماء ونفعت الناس بغيرها ، فساكن منها الحقول والنبات والأشجار والأعمار والأزهار والجبال .

الله أكبر : إن عقول أهل الأرض مقسمة أقساماً تضارع هذه الثلاثة (وترى أدول هذا الموضوع في حديث البخاري : إنما من ما بعثني الله به من الهدى والعلم الخ) إذن من شرط النفوس المستنعة بالعلم النافعة لغيرها أن لا تشبه الأرض الحجرية ، ولا الأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التي تقتريها النفوس الانسانية لن يتم لها ذلك إلا إذا كانت فيها هي أنفسها جرائم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكأن أن الأرض التي ليست سبخة وليست حجرية ، بل هي أرض طيبة يثبت فيها الشجر والكلأ وبهم نفسها ، لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الانسانية النيرة العيشة التي لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهي أشبه بشموس والعالم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب إلا النقص الذي تنظر عليها النفوس في مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التي ظهرت فيها الحقائق : الحقول يأتي إليها الناس من كل حدب يلتفتوا بمرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخذون تمراتها ويطوفون بها في البر والبحر لبيع بعد أن يصكروا قد انتفعوا بما يستحقها منهم .

(٤) ولا جرم أن هذه الأرض تختص بأقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض السبخة إذ لا ثمرة فيها .

إذا فهمت هذا فانظر في آيتنا التي نحن بصاحبها واعلم أن الفتح في حقيقته إلهام فنيح العلم وكشف الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقي ، فإن الأرض ومروءتها والارض والارض والارض . وكان ما إلى الأرض لا قيمة له بالنسبة للعلم لأن العلم باقي والعالم قانية ، فاعنوس السريعة أن تفرح قط إلا بالاكشاف الحقائق والوقوف على الأسرار ، أما ما عدا ذلك فأنما هي ظواهر ، والظواهر يميز بها الجهال .

ولا جرم أن الفتح العلمي واكتشاف الحقائق للنبى صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وثلاث نتائج ، أما الأصل القدي لا بد منه فهو صفاء النفس وخلوها من الجرائم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخلوها من تلك الجرائم المؤهلة للذنوب هو الأهم الأهم والأولى بالعناية الإلهية من التنبأ عن اقتراف الذنوب ، فما مثل النفوس في الذنوب إلا كتل الأجسام في الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمرسون المرضى بالمحافظة على الصحة حتى لا يلقوا في الأمراض ، فهؤلاء هم الأطباء الحقيقيون .

ولقد تقسم هذا في (سورة الشعراء) وفي (سورة طه) وفي (سورة الحجر) وفي (سورة الأعراف) فقد بينت هناك الطريقة المثلى التي بها يكون الجسم صليحاً لا يتورع مرض إلا قليلاً ، فأما أكثر الأطباء في هذه الأرض فانهم في شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يراؤوا للأصحاء استرسوا من الأمراض بالابتعاد عما يضركم ، فبذلك ليس من أعمالهم إلا قليلاً ، لأن خير علاج ما كان راجعاً إلى أصل النية لحفظ صحتها حتى لا يتورعها المرض ، وأكثر الأطباء يملكون ظواهر الأمراض ، ولا يصلون إلى أصل

لجرائيم والاحوال التي كانت سبب المرض ، هكذا النفوس الانسانية لها ذنوب باستعداد لها . وغير ما تعالج به هذه النفوس أن تصفى من أصل نظرتها من جرائم الذنوب ، لا أنها تعالج ذنبا ذنباً ، وكما وقع ذنب ينفر لها كما يفعل أكثر الأطباء في أرضنا ، إذ يعلجون كل ذنب على حده ويفرون ورامهم أصل الجسم فلا يعلجون عنه شيئاً .

ولاجرم أن الله عز وجل لا يعامل نبيه في اصلاح نفسه معاملة أكثر الأطباء في أرضنا ، بل يعامله معاملة الطبيب الحقيقي الذي يخلص الجسم من جرائم الامراض ، فبهاذا نجلى لنا وظهور ظهور الشمس في رابعة النهار ، إن غفران الذنوب ليس معناه انها تقع ثم تمحى ، فهنا ليس كالا إنما الكمال أن نفسه صلى الله عليه وسلم خلقت كما خلقت الكواكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يستريح الظلام ، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لانكشاف الحقائق ، فإذا سمعنا الله عز وجل يقول : « ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » عرفنا أن هذا معناه استحالة الذنوب بأصل العطرة كالجوهر في صدتها لا يستريحها قذى .

هذا هو الذي ذبح الله به على في معنى : « ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فليخلص المعنى اما كشفنا لك الحقائق كشفاً مينا لتتصف بأربعة أمور : —

(١) أمر مبدئي وهو صفاء نفسك وجاها بحيث لا تستند قذوب متقدم ولا قذوب متأخر ، وكيف تستند له وهي كالجوهر ، أو كالشمس لا يقبلان الظلام .

(٢) وثلاثة أمور تكون نتائج (الأول منها) أن تتم النعمة عليك في الدنيا والآخرة ، وذلك بأن تسكن نفسك راضية مرضية في الدنيا والآخرة ، وتلقى الله وراه ، وتقر عينك بسعاد من ابتغى في الدنيا والآخرة (الثاني منها) أن ينتشر نور نبوتك في الأرض في أهلك وبهد مفارقتك الأرض ، وهذه النعمة مفيدة للأول ، فالأولى راجعة لرضا قلبه وبهجتها ولقاء ربها ، وابتهاجها في الدنيا والآخرة ، وهذه الثانية راجعة لاسعاد الأمم وهذا بهم لأقوم طريق مستمد من هدايته ﷺ فهذه راجعة للعمل ومقابلها راجعة لبيعة النفس (الثالث) علو هذا الدين على غيره وظهور حقايقه لمن درسه بحيث تعلم أن له القلوب ، وهذا هو النصر العزيز .

واعلم أن فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، أو فتح بلاد الاسلام بعده ﷺ أو غيره كل ذلك آثار للفتح العلمي والكشف الإلهي ، فكشف العلوم له صلى الله عليه وسلم أشبه بنور ولهذا اثمر آثار كثيرة ، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم ، فهذا فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم ، والتعاليم الدينية أو من آثار انكشاف الحقائق له ، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الاسلام شرقاً وغرباً ، كل ذلك فروع لأصل واحد ، والأصل الواحد هو انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم القدي هو النعمة الكبرى والكوثر الفاضل ، وعين الحقيقة ، وما سوى ذلك نتائج له ، وهذا الرأي الذي اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الصالح أصل جميع الأقوال كلها .

آثار الفتح النبوي في زماننا هذا

هل لك أن أذكرك بها الأخ بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليه بما فتح الله به على أمنا الاسلامية فتنا سينا ، وذلك لفتح من آثار الفتح النبوي .

اعلم أن أم الاسلام أيام النبوة زبدها بلبل فتحت البلاد شرقاً وغرباً ، وملأت الدنيا نورا وعلماً ، ثم أخذت تنهد من وتزوي ، ذلك أنها ولا كان أمرهم شوري بينهم ، ولكن لما اتبعوا أهواءهم ، وجعلوا الملك بحسب الورثة لا بامتصاى الامة داد نامت الأمم الاسلامية مئات من السنين نوما عميقا عفاها لهم وزجرا

لما جاء بيننا الحاضر وعرف الحقائق ، وأخذ يتأدب بما أذبه الله ، رجع عما صله الآباء من الغرور والجهالة والنظم شبا فثبت ، وأخذ الاسلام يظهر قليلا قليلا حتى أفترت أم القرية بذلك ، فهل لك أن تسمع ما قاله الأستاذ (لورب استودارد) الأمريكي مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامي » فقد جاء في الجزء الثاني منه تحت العنوان الآتي ما نصه :

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة المهيمنة للشاغل مكانا خطيرا في تطور الشرق في هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقع المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر ، لا بل تتدفق على كل بلاد ، وتطموح على كل رقعة ، حتى غدا للغرب ^(١) من أكبر عوامل التبدل وال انقلاب في العالم الاسلامي ، حتى وفي الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة ، وسنسط الكلام في موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الأوروبية من التأثير الشديد في تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحتراز ، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الأوروبية هي السبب والعامل في جميع هذه الاستعالات والانقلابات الحديثة في العالم الاسلامي ، فقد سبق لنا الكلام مبسوطا . مينا فيه كيف أن عناصر المزاج الاسلامي ما انفكت طيلة القرن الأخير بفضل بعضها بعضا اقلاما شديدا ، ميدثر منها ما يدور ، ويستجد فيها ما يستجد ، وتتلافى قوى وتتولد أخرى ، وذلك جميعه على ما هم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج . إما هو بعد ذاته تجدد دُم في الباطن ، فسله بالغ كل البالغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره بما لا منسوخة سنة انشوء والتجدد عنه ، وعلى ذلك فما هو واقع مشهود في العالم الاسلامي اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب أن لا يستبرح محرم عما كان للغرب وتثبه به بحسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلا مكثوا لنشء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذا مفرغا في بوتقة شرقية وفي قالب اسلامي ، ويصنف ذلك أن لا يغيب عن الأذهان أن الشعوب الاسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوبا متدلية منحلة كزنج افريقه والجزائر الاسترالية ، بل ايها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الحواف ، حضارة هي تاج اسلامي صرف ، تتكون من سبع المسلمين وثروات جوردهم ، ومعنى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعت هذه الشعوب - لا لامية من تشديد المعاد ومروج ذروات المجد فيما مضى أمنا انطلق قولنا الآن اننا ندين خلا ، هذا العليين المقاتل في الصام الاسلامي تجمدا حقيقيا جميعا وانما ، ولا غرابة في ذلك ان عاد اسلام يستعيد من عزه الفارب وصلاح السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قدام من الحضارة والعمران .

إن سيطرة الغرب الحالية على الشرق لا بد لها في التاريخ من حيث العظمة والخطورة والمدي والجل في كان اليونان ورومية من قس من سيطرة المحدودة . نطلق ع بعض من العالم لا يعدد بالاضافة إلى سيطرة العرب اليوم شيئا مذكورا ، والغريب في حيث هذه السيطرة العرمة أنها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بد سيله يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل

(١) مراد بالاعترب التخليق بأخلاق العرمة ، والتشبه بهم ، وأخذ أخذهم ، في طرار المعيشة وأساليب الحياة . ويشد . ميت خمسين . كما تسمى لاصوب . الأذنين والمستحقات ، ولعني كقتباس الامكار والآراء الاجتماعية والدينية . و تعرب خبر كمة عربية رأيناها تعرب الفظة الاسكينية المذكورة

— (المرت)

وساقلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالمطرق والمساكن الحديدية والبرد والبرق والكهرباء والصناعات والمجلات ، وكشبيوع جديد الآراء والأممكار المتواليه الازدياد في كل مصر شرق ، وبات السفن التجارية تخضع عباب بحور الشرق ، وترسو في كل نهر من نهوره ، وطعمت التجارة تمتد ناشرة وفرا البصايات والأرزاق الفريية في كل بقعة من بقلع الشرق ، فذلك تغير الحال تغيرا سريعا ، فالأم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الحالى تحيا حياة الثلاثين قرنا التي كرت من قبل ، غاث اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائي في مفداها ومراحها ، واخسخت العادات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة انفسنا كاذ يكون تاما ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبدلا كبيرا ، وسنفضل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوها ، باعطين الكلام في هذا الفصل تمهيدا لما سيحي .

إلى أن قال : « غلت روح العداء للغرب طية القرن الماضي تشدد في مكان ومكان على تفاوت ، ولما كانت عوامل التصب وردة الفعل كاثية على القوام ، فما برح الكره للغرب شامعا عاما . بيد أنه (على توالى الأيام) صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يبدل . ويتغير على مقتضى الزمان والمكان ، وقد كان الأسيوار للمسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول ، وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب : كيف اعتزم المسلمون الأسيوار اتحاد القواعد التي جرى عليها الغرب في قديمه وارتقائه ، وبجعلها أساسا للقيام بما أنشؤوه من الإصلاح الاسلامي باعتبار جهته : الدينية ، والمدنية . فقد جهد ساسة تركية الأسيوار الذين كانوا يدبرون شؤون الدولة في الربع الأخير من القرن الماضي جهدا كبيرا للقيام بالإصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد أسيوار غيرهم مثل جهدهم في الأقطار الاسلامية الأخرى في سبيل النجاة عيها ، وغير مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا في سبيل إصلاح تونس ، وإلى القارئ الكريم لباب الخبر : إن هذا القائد المقدم ، الحركسي الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويجتهد عنده تمسكا كبيرا ، ما توارره ولم إليه مقابله الأمور ، وفي سنة ١٨٩٠ قام خير الدين باشا بسياسة إلى أوروبا ، وناق في ممالكها . وشاهد موعراهما وحضارتهما ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وهجائه وإد ائمن بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب انعطاف والمناهج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد وادعائها ، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قيا ما يثله تجدد تونس في عهد قريب ، ولم يكن خير الدين يقيضا للغرب ، غير أنه قد أيقن كل الايقان بالمخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدققين من الغرب اذا توانت الممالك الاسلامية في الإصلاح الصحيح ، فراح خير الدين بتشي شديد الابتلاء ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكفه عزم أكيد أن يسوق أهل بلاده ، ورضى قومه في طريق التجدد والعلا والارتقاء ، ليلعوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها ، وتقوم بالقياد عن حياض حريتها واستقلالها ، واقتنع الباي كل الاقتناع بأراء خير الدين وخطه مشروعه ، فعرض إليه تنظيم شؤون البلاد ، وأطلق يده لتأديها يد في القيام بضروب الإصلاح ، فظفر خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل ، مذللا جميع مآثيه من المقاومة من قبل الموظفين الرحيين ، غير أن ميتة عاجلته باكرا ، فانتقل إلى جوارحه ، فترك مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يفض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى حاص مرفنا بسطت سيطرتها على تونس ، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها أنه أفا كتابا قيا موسوما « بأقرب المسالك في معرفة أحوال الأمم والممالك » (١) منه . فيه هم أبناء بلاده ، واستمرهم إلى التجدد والارتقى ،

(١) يوجد شيء من النص في تاريخ لرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين

وحلهم من سوء عقب التتواني ، فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في قوس الاسوار ورجال الاغزاب الوطنية في الشرق الأدنى عتة ، وافريقية الشمالية خاصة ، حيث كاد الكتاب يقتس عند أهل تونس والجزائر ، إذ كان باعث قويا على استيقاظ الصبية الجنسية ، فقيه استصرخ خيرالدين بين قومه لتعظيم الأغلال القديسة ، وبسط لهم ضرورة الاقتلاع عن الانحطاط القلبي عجد الماضي ، افتخارا بالماحد القعود بهم عن استئناف طلب الملا طريفا ، ودعاهم للوقوف على ماق العالم الغربي من وسائل التقدم وفرائع العمران . وبما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفوا بلانصب ، ولأها منعة جادت بها الطبيعة لأسباب ديفية ، بل هما ثمرة للتقدم في الفنون والعلم ، واكتناه أسرارها استكتناها توفرت معه وسائل التراء باستخراج كنوز الارض ، وإحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجمع هذا إنما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما في آفاق الممالك الغربية لاثاك لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامي في الاجيال الماضية عالم التقدم والصلاح والعمران ، لأنه كان في مصوحة من الحرية ، سالكا سبل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموه فأخذ يتخبط في الميخنة . وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل ، روح الحرية والعمل والارتقاء .

ثم قال : « وقد اشتقت روح السداء للغرب واشتعلت نارها إجماعا اشتعل منذ أوّل القرن الحالي . فال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العالمية في هذا السدد : « إن هذه الموهلي التي دهنتا ، والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة ، قد جندت في أحماق جميع المسلمين عواطف التأسى والتواني الاسلامي ، من حيث أشعلت صدورنا ممتا وكرها وعناء للبغاة المعتدين علينا » .

إلى أن قال : « بقيت الحقيقة الثابتة ، يجب أن يقال : إن سيطرة العرب السياسية على الشرق وإن طدل أمدها ما طال ، وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت هي قائمة على أساس متداعي الاركان ، متضعع الجواب سريع التفوؤ والنزول ، وما دام المسلمون الغربيون في الشرق فهم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئا من الود والحب والاخلاص ، ولاغربة في الأمر ما ظلت منزلتهم أبدا . منزلة المخيل لغريب ، المفقوت المكروه ، وزد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربي والسيطرة الغربية يتناقضان ويتقلصان غلا ، وبخلفان وطأة بزيادة تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتراء . ولايزين عن الدل أن الذي كان عند أمل جريل سلف داعية للرضا ولازياج قد غده عند أهـن الجيـل التالي سببا للتجهـم وانقمـة والاضطراب فيبتقون تبدله والانتقل إلى ما هو خير منه وأفضل ، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق .

الاسلاميين في القرن الماضي ، وكتابه « أقوم المسالك » هو من خيرة ما ألف لكسريقود الجود لغار القاتل ، وحطم سلاسل التقليد الأحمى المبس عن الشرع ، وأيقظ المسلمين إلى أنهم لم يبادروا إلى التسليح بالعالم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل ، فجاءت دعوة خيرالدين متأخرة ، إذ كان تـكـالـب أوروبا شديدا ، وضربها وحيا ، وسببت الاسلام لايزال عميقا ، همّ جمع ما تكهن به خيرالدين ، ولما استولت فرنسا على تونس وحل خيرالدين إلى الاستاقاة ، وولاه السلطان عبد الحيد الصدر العظمى ، متتدا بإياه لإصلاح المملكة . لا . لم يمس بريئا ، قتمى الامر بقلته ، وبقي في الاستانة إلى أن توفي وذلك في نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاعرك . وهو من الأدباء الناضج . وصالح باشا السلطان الذي شقه بالحداديون تهمة انه دبر مؤامرة لقتل المرحوم محمود شركت به ، وتشبع به السلطان ساكن بخان محمد الخامس لديهم ، لكنه زوج ابنة أخيه أي « هو الأسرة » . نرتمر شذاعته . ولخيرالدين باشا أيضا ولد اسمه محمد بك ، وهو وأخوه طاهر الآن بترنس له .

(شكيب أرسلان)

« على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقيين قد شرعت تهوى ، وأخذت أوصالها تنفك ، وبنائها يتساقط ، وضغطها الكامن فيها يبدو مزججاً ، وفسادها يظهر . جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية ، فقد كان لتلك الحرب في قوس المشاركة طليعة من التأثير العنوى الشديد المايستطاع وصفه ، ولا يعلم حده ، وقد ظلّ الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولا قوة حيل أوروبا للمتدنية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناس لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعاً مشثوماً ، غير أنه لما دمرت دولة أسبوية دولة أوروبية من الطراز الأول ، وخضعت شوكتها ، ودقت عنقها دقاً ، كان لتلك دوى هائل وقع عظيم في كل جانب من جوانب المشرق ، ورقعة من رقاعها ، فادت آسيا وأفرقيها من أقصاها إلى أقصاها طرباً ، وجرت في عروقها نشوة الظفر وجيا النصر ، وعثوا الاتصار الياباني الهيبية العظمى ، والآية الكبرى : وصف مبشر اسكتلندي ما كان لهذا النصر للمين من شديد التأثير في قوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحاً وإبتهاجاً ، وترتحت ترغ الخلل الجفدان ، وبات القرويون فضلاً عن أهل المدن والخواضر يرددون أحداث النصر الياباني في حلقات مجالسهم وجمعاتهم وبرتاتهن تريلا ، طوافين البيل كله حول المعابد والميا كل ، وقد قال لي أحد شيوخهم في تلك الفصون : « لم تثلقي الهند نبأ طاب له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية ، وأخبرني قنصل عثمانى أقام طويلاً في آسيا الغربية أن الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم ، وجعلوا ليهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتقليها والتهليل وإقامة حفلات الأفراح لها ، أجل : مادات آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، واقلبت هجمة القرون اسبقاقاً ، فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق قوّة لغامرة الأحوال في سيل بقائها ، وهبت آسيا هبة أخرى لقسرها في التاريخ ذكراً جديداً ونبأ حديثاً . »

وبما لاحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخافقة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها إلى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل أن الحرب هذه إنما كانت وسيلة عارضة لاهة في تنبه آسيا وأفرقيها تنبه الاعتزاز ، فواحدة منذ سنة ١٩٠٤ تمجذان جد الوافي بنفسه ، الساعى في مطلب أمر لا يلقى على شيء دونه ، وبسبب هذه الحرب طفت الأفكار التي كانت تمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضاً لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، فخرج من عالم القوة إلى عالم القصر ، فدلّ جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابراً انكارها على اختار الأسباب والعوامل ، وتنبؤ العلل لانبثاق قوى جديدة في الشرق ، هي حركات التجدد الكبير والانتقال العظيم .

أضف إلى ما تقدم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثر تأثيراً عميقاً في قضية الشرق وتطوّرها إزاء سلسلة حلات الاعتداء الأوروبي التي استوتحت منذ ذلك الحين استنفاً شديداً ، ومن الغريب العجيب أنه بيد أن ظفر الشرق الأقصى في رد عادية الاعتداء الأوروبي عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حلات الاعتداء الأوروبي تتوالى على الشرقيين الأدنى والأوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شرّ ممزق ، وقد وصفنا فيما تقدم من الكلام تلك الزارة الهائلة التي زارها العالم الاسلامي متناكس الوحدة الضوئية ، مترابطة العروة الأدبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الأوروبية الحديثة تقليب غاية في الجشع والنهم فلذلك جدير بنا الآن أن نلحظ علما جميعاً مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحلقة الحديثة الظهور الهيبية في جميع الأقطار الشرقية ، من المعلوم أن الشأن الخطير الذي منه الساسة الغربيون الصلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعماري بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ م إنما كان في درع صيب . قل أرمينوس قاساري بعد غزوة إيطاليا لطرابلس الغرب قولاً سديداً : « كلما اتسع خناق قوّة منسلطة الغرب

في العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثيقة، وهرودة التضامن والمصالح المتبادلة إحكاماً بين الأمم والشعوب الآسيوية على اختلافها، ووسخت روح التصب على أوروبا والبغضاء لها، وتوغلت عوامل ذلك في قرارات دستور المشرق أجمعاً توغل، أمن الصلح والحسنة في شئ، ياترى أن ترى نثر العداء تزداد تأريثاً وإعقاداً بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التي مائز الله بها من سلطان، وأن نستجمل المعلنين المشرق والغربي للأشياء في فضائلها، وممعنان رائع، وأن تفت سماً زعاقاً في برعم الحضارة الآسيوية الجديدة، هذا البرعم القوي أخذ يفتح عن أكله في أقطار المشرق كافة ؟ .

وقال في صفحة ٥٩ وما بعدها ما فيه : « وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بآراء الإسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدنا الأول على أساس الشورى والتشريع الدينية، وأومئنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على العمل، ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الإسلامي، وكيف اهتلت الخلافة التشريعية الشورية ملكاً عضواً، وسلطنة استبدادية مطلقة، وكيف أخذ العرب (هشاق الحرية والاستقلال) يعودون أذراجهم إلى الصحراء غشياً متجهمين، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية، وضعت آثارها، خبراته على كل هذا بقي معظم ذكريل خلافة الراشدين والمعتلة الحرة، حية في زوايا الأدمغة، والأواح النادرة، مستعدة استعداداً طبعياً غريباً لظهور ثانياً . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حورية ينوء عنه كل عربي ذباد قرح الأبطال بالسلح والأرواح والأصاء، وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والإسلام إسلاماً، فمن ترى يستطيع أن يتعاضى عن القتل الذي قاله صاحب الرسالة : « إنما المؤمنون أخوة » و « المسلمون أحرار » وعمر هومنون في محف التاريخ الإسلامي في غرور أبناء صدر الإسلام الجبيب المعروف « بزمن السعادة » . أوم يظل المسلمون الأحرار، النازعون زعما الاستقلال، حتى في أشد الليالي حلكا، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبي بكر رضى الله عنه التي خطبها في العرب بعد مبايعته بالخلافة : « قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإذا استعمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني » . فالإسلام في عهد الأول إنما كان شمس الحرية مشرقة وهابة، ودنيا تحلت فيه المنافع الحرة الشريفة، وليس ملجأ على العالم الإسلامي فيها بعد من الوهن والتلل بحلب من المنصف جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الإسلامية كما قال العلامة لبسار : « إنما هي ديمقراطية شوروية، جوهرها وأصلها، وعدو شديد للاستبداد » . وقد أجهل قانباري - رحمه الله - في شأن الاحكام بقوله : « ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المنفض بآسيا العربية إلى هذه الحلة المشهودة من التضع واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين اتروا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي، وتسكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين، فأخذوا في اتحال التآويل القرآنية اتصالاً منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية . وتشهدوا في الدين تشدداً ماضياً يرى منه الإسلام (١)، وناصبوا المذاهب الشورية

(١) من أكبر استنوين عن انعطاف الإسلام أمام الله - عز وجل - من هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء، فانهم إلا سادتهم اتخذوا ثمين مبدية ثمنها، وجعلوا دينهم الترف إلى الأمراء بنسوخ جيع موقاتهم بالاذلة الشرعية ولا تلاء عليها من ثمين، وقصه آتى تحيد الحكام أو الأمراء المستبدين عملاً منكراً إلا أنواله من الآيات ولأحاديث بم ينتهين له به مشروعية نلت العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها، وتعريف السكاه عن دواضعه ودرية لضعف ووضوعات إلى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلنى وبخاترة، رد زائر يبارون في شيم من (رؤس مرت غاضرن الظاهر لعلم هذا) حتى صاروا ينفرون بهذه الأشياء بما يرى احكاموت خير له منة في سائر التي فيم الخراب الإسلام وهلاكه، فكما سقطت مملكة اسلامية في يد دولة أجنبية، أو مملكة - منسية لمنع دولة عربية عليها من الأجانب، وجعلت الدولة

والاصول الحرية العدا ، فقتلوا على جيع ذلك قتله ، خلفوا دون بزوغ جراثيمه الاسلامية (١) .
وقد أبنا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقي ، ثم أخذ يتعالم حتى بلغ منتهه
في القرن التاسع عشر ، وبسطنا الكلام على أن البقعة الاسلامية لم يكن أسرها مقصورا على الإصلاح الديني
فحسب ، بل تناولت الإصلاح السياسي أيضا ورامت تخليص العالم الاسلامي بأسره من استبداد أمراءه وملوكه
وسلاطينه المسفة الظلمة ، وتقول الآن : انه فيما كان الإصلاح السياسي الحر سائرا مسيره على اتساع في
الحركة والانتشار . فإذا بقيار سياسي جديد قد هب عليه من جوف أوروبا ، فاعترض سبيله وقام في وجهه ،
وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين وقد اقتنوا بحال فضعف الشرق الاسلامي وتشتت أمره حبال فتتق
أوروبا وشدة حوها وبأسها ، فطفقوا يسمعون وراء الإصلاح ، منذرعين بأنهم التراجع للوصول اليه ، وإذا
راموا صدق المسى ، وابتقوا التجدد الحقيقي فلم يقرب عن بالهم أن يلقى الشرق الاسلامي إغما غالبا مستقر
في حكوماته المنحلة الناعسة لواهنة العظم ، وشرك الأشرار الحكام أهل الفكر وطلاب الإصلاح في هذا ،
وكلهم أجبروا على وجوب انتاج الماهج والأساليب السياسية الغربية ، واكتناه أساليبها ، والوقوف على
جميع أسرارها ، هذا إذا كان مرادهم حقا اقتبال الممالك الاسلامية من وحدة المخطاطها ، وتجنبتنا من شر
الملك ، ثم سوقها في سبيل التقدم والارتقاء ، وقد كان السلطان العثماني محمود الثاني في تركيا ومحمد علي في
مصر خير مثالين ظهرا بالطرز الجديد من سلاطين الشرق وأمراءه ، وكلاهما كان حكمه في أوائل القرن
التاسع عشر .

خير أنه ليس منها من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية ، أو أن يربأ بنفسه من امتطاء الحكم
للطام فيخرج عنه إلى الحكم للقيد ، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه
وسطا بين حالة المستبد العادلين الأوروبيين ، والمستبدن الشرقيين ، وكان قصد هذين الحاكمين الكثيرين
طامى التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة في الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك ، تنظيها صحيحا خاليا
من المفسدة والعيب ، كما يتبنى حكومة هذه أن تدير (نفسها وفل نظامها) سيرا مطردا كسائر الحكومات
العربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعامل لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون
بواجب إلا خشية العقاب .

وتأثر محمود الثاني ، ومحمد علي ، ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتاج منيع هذه السياسة

الاجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لأغراضها المقتن من الكتب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها ،
وحسب أن عددا عديدا من علماء سورية أفتوا أثناء الحرب الصلحة بيني الشريف حسين أمير مكة تقربا
إلى جمال باشا قائد سورية يوشد ، فلما طارت دول الحلفاء في الحرب ، واحتلوا سورية ، بايعت هذه الفئة
نفسها الشريف حسينا الذي كان عندها من قبل نفيا خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيون الشام
قتضت أيديها ثانية من صاحب الجز ، وجعلت تقي بحسب هوى فرنسا ، وصعدت الملك حسينا أجنبيا .
أكثر هؤلاء العلماء يرمز منهم هذا التلون ، وكما زعمهم لأنسان حتى هذا التذبذب أجبه : « إنما هذه
تقية تبتني بها الدجاجة من الظلام » ، والصحيح أن عندهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع ،
مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم مداراة الظلام هي بالية ، بل هم بطة ضاير ، ورواد سفاسف وطلاب
وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا ، وذلك مفتيا ، وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يتقاضى أجره أعضائه قدا
دراهم معدودة ، ولا ينفذ إلى متى يسر أهل سورية من تأرب هؤلاء الجهلاء المميين ، ويظفرون إلى العزائم
لا إلى العلم اه

الرشيمة الحديثة ، غير انه على الجلة كانت ثمرات هذا الإصلاح التي بدى بعاليه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتجاع ، ولا جرم فانه قد كثر في استطاعة السلطان أو الأمير ابقاء التسامح ، وانشاء السائر والخط الحسكومية على الطراز الأوربي ، وحشدها بلجند ورجال الوظائف والأحكام المترين بأرياء غربية ، غير انه لم يكن المستطاع الا تيان بنتيجة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين للمتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه ، وأسباب حضارته وعمراته ، فذلك كانوا همزة عن التعليل بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة لأنه ليس فيهم الكثير الكفى من روح الاقدام والمضي في السمل ، ولا هم يقبلان من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفتقروا ، ولا أفقوها ، بل كانوا يحملون نفوسهم على موافقة الأعمال الإصلاحية من فتور وروح ، وغير ما كانوا يعرفون ، ويقومون به هو الطاعة العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم ، هكذا كانت الحالة في بدء الأمر . بيد انه على توالي الأيام أخذت اقوى العسكرية تقطع معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والمجدارة الحديثة ، وأما النخلة للندية فكان نصيبها من الإصلاح الحديث قليلا ، فقل أمرها مقسورا على اكتساب المظاهر الغربية من خارج لانها لم تزل كثيرا من أسرار المعاصرة والجلة التي هي شرط لازم في حال كل حكومة منظمة راقية .

أنصف إلى هذا أنه في غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يحتفظون مذهبا وطرازا عن سبقي ذكرهم يقومون أسرايا مؤلفة ، وغايتهم إنما هي اقتباس جيع الابتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما بأت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازديادا متواليا من التهنية الأحرار للتشبعين أفكارا وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنفشرات والصحف والمجلات المزايمة الاثثار ، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهديب في المعاهد العلمية للنشأة على الطراز الغربي ، وما كثر يكون الرجع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركيا نشوءا عسوسا ، وفي سنة ١٨٧٩ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عاليا ، وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » هذا أيها الذكي ما قرئ في يدري في تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وهذه صورة ملخص هذا المقام : —

((وَيَوْمَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مَا هَدَىٰ اللَّهُ لِقَوْمٍ فَرَغُوا مِنِّي وَنَسُوا اللَّهَ فَنَافَثُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَمَعْنَاهُمْ فِيَوْمَ عَلَىٰ أَسْوَاقٍ لَّيْسَ بَيْنَهُم مِّنْ صَّاهٍ وَلَئِنَّ أُولَٰئِكَ كَانُوا فِي يَدَيْكَ سَافِلِينَ))	((وَيَوْمَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مَا هَدَىٰ اللَّهُ لِقَوْمٍ فَرَغُوا مِنِّي وَنَسُوا اللَّهَ فَنَافَثُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَمَعْنَاهُمْ فِيَوْمَ عَلَىٰ أَسْوَاقٍ لَّيْسَ بَيْنَهُم مِّنْ صَّاهٍ وَلَئِنَّ أُولَٰئِكَ كَانُوا فِي يَدَيْكَ سَافِلِينَ))	((وَيَوْمَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مَا هَدَىٰ اللَّهُ لِقَوْمٍ فَرَغُوا مِنِّي وَنَسُوا اللَّهَ فَنَافَثُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَمَعْنَاهُمْ فِيَوْمَ عَلَىٰ أَسْوَاقٍ لَّيْسَ بَيْنَهُم مِّنْ صَّاهٍ وَلَئِنَّ أُولَٰئِكَ كَانُوا فِي يَدَيْكَ سَافِلِينَ))
--	--	--

انكشف الحقائق ويتفرع عليه

اشراق النفس وهو
من انكشف الحقائق

وليفترك الله ما تقدم من
ذلك وما تأخره

بهجة هذا المقال

مصارعة النجوم ، في عجائب العلوم

استيقظت قبيل فجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٩ م - الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ وقد قدمت « سورة الفتح » للطلوع ، وأنا مفكر في هجائها ، دهن من بدائنها ، إذ صنعت لي ساحة ، من نظرات النجوم ، في حالك الليل المهبم ، فأشرقت نقي إشراقها ، وأخذ الخطاط يمشو بعد الخطاط ، ونما الفكر حتى صار قويا ، ويستمر غوحي تخيل أماني بشرا سويا ، جسمه من النور ، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم ، إذ صرت في عالم الخيال ، بعيدا عن الحس ، مصروفا عن عالم الأجسام ، فأخذ يحاورني وهو يقول : لقد لحنتك منظر الكواكب الآن ، وأنت تفسر القرآن ، فحضرت لموتك ، ومثلت لآفادتك . لقد فسرت الفتح بالكشف العلمي ، وجعلت ذلك أشبه بشجرة ذات أخصان ، جذورها الغفرة والبراءة من الذنوب ، وصفاء النفوس ، وساقها انكشاف الحقائق ، وغروها الاستقامة بالأخلاق ، والنصر المين والرضوان أولا أحدثك الساعة في هذا المقام حديثا ، تكميلا لمقالك ، ودليلا للقراء : إن هذا المسئل الذي ضربته وهي الشجرة ينقصه تبيان أهم ، وتعليم أهم . فقلت في نفسي متعجبا : إن أقبل هذا الخيال ؟ ولعل خواطرا إذا تمت وهظمت تجسست أماننا ، والا فهذه الخواطر لا تخرج عن تفكيري ، ولا يعود من تقديري ، فما كاد الخطاط يتردد في نفسي حتى أخذ يقول : إني أتيت إليك من التريا في السماء ، لأنك في أكثر الليالي تنظر إلى النجوم ، وتجب من محاسنها ، فصار ذلك من أسباب اقترانك منك ، واسعادي لك ، وحديثي معك ، إن انكشاف الحقائق الذي ذكرته وما تروى عليه من القروع المذكورة يعوزه من العلم نوعان : أولا تطبيق آراء الأمم الحاضرة عليه ، ليكون تضبرا للقرآن في زمانكم ملائما لعلوم أنكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للإسلام نفوس الأمم الإسلامية ، وحتى يكون من المجهزات والآيات البينات في زمانكم ، وكما قال علماءكم « ان القرآن لا تنفي هجائه ، ولا تنقصي غرائب ، وتبذره في كل زمان حكم طريقة ، وبدائع حديثة ، تزداد مجزاه ، ويزداد أنس العلماء به » - (ثانيا) تطبيق أحوال الأمم الإسلامية الماضية بعد العصر الأول ، وكيف حصل اختلاطها ، وازداد اختلاطها ، وأقبل هرمها ، وأدبر شبابها ، وحك ليها ، لما عمت عن اكتناه السر المكنون ، واتباع طريقة المرسوم .

فقلت : أيها السيد الجليل الجليل : إن في قولك لنورا ، وفي حديثك لنبا ، فأفدني رجلك الله عما وصف ، وأخبرني عما أفدت . فقل : أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنما أقوله لك متراجا بالحرف مما كتبه الفريون في التعاليم للتلاميذ ، إذ يصفون من العلم زبده ، ويعملون تلك الخلاصات في كتب الطلبة ، ودهي ذقمة تلصص فيها القوم مقاصد التعليم في جميع الأمم ، وفي كل زمان ومكان ، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التي يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية ، فهذه قطعة من الكتاب منقولة من كتاب (مان ذي ماستر بيس) تأليف الاستاذ (كلوج) وهذه القطعة من مختارات الترجمة ، فها أنا ذا أترجمها لك

مقاصد التعليم

« إن مقاصد التعليم لا تعدو أن تكون معدة المرء أن يستخرج جميع مواهبه في الحياة : يجب أن يكون تعلم الإنسان الذي يزاول الأعمال الجسمية معناه أن يكون كفتا لها جديرا باستثمار ما هو بوسعه من الأعمال الانسانية ومرافق الحياة خير استثمار . إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهي : دعامة العقل ،

ودعاة الأدب ، ودعاة الجسم . وكل نظام تعليمي خلا من أحد هذه الدعائم الثلاث فانه لاعلمة ، ضمحل لا يقاؤه ولا يقع فيه لنوع الانسان ﴿ مثل ذلك ﴾ : اذا علمنا السبي صناعة كالتجارة ، أو علمنا كالتجسس ولسكتنا لم تتم فيه قوة حب الخير العلم ، فيحب الصدق ، والأخلاص ، وطهارة الفمير ، والصالح ، والعدل وصدق القول ، وحب المنفعة للناس ، ومسايرتهم بالحسن ، فانا إذ ذاك نكون قد أعطيناها سلاحا ماضيا به يصبح ملها في إحداث الثغب ، ويكون خطرا على المجتمع الذي تربى فيه ، وهكذا اذا برع في العلم ، ونهذبت نفسه وملسها ، وصار من البيرة الأخيار ، فإن كان في العلم فهو من أعظم الحكماء ، وإن كان في الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ولسكتنا أغفلنا تربية جسمه ، ولم نلق حضارته ، ولم نحسن تقليدته بما يناسبه ، ولم نحمله مما يكون ضررا عليه ، فإن هذا يهززه قوة طبيعية ، وأخرى حيوية ، ليتوصل بها إلى منافع الحياة والتمتع بها ، ويهززه جسم حديدي هو بلاصراء في أشد الحاجة إليه ليخاطربه ويجهاد في معترك الحياة ، انتهى

ثم قل : فهل لك أن أحدثك من تطبيقها على الآية . فقلت : إني إلى ذلك واثق . فقال : أنت حينما كتبت الجدول الذي رسمته في ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة ، تلك حضرت إليك ، فالتقوة العلمية من القوى الثلاث يشار إليها بانكشاف الحقائق في الآية ، والقوة البدنية يشار إليها بالصبر على الأسماء : « وبصرك الله نصرا عزيزا » ، إذ لا يكون إلا بقوة البدن (في الفزوات) ، والقوة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله : « وجهديك صراطا مستقيما » . إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هي نفس هذه الآية ، قوة الجسم ، وقوة العلم ، وقوة الأدب ، هي العول عليها في زمانكم .

ثم ضرب مثلا ، فقال : إن الأمم الإسلامية أشبه بجسم واحد رأسه في زمن النبوة ، ورجلاه في الأزمان المتأخرة ، فهذا الجسم الإسلامي قد أعطى القوة الجسمية بدليل غزواتهم ، وأعطى القوة الأدبية بدليل نظام محاسنهم ، وأعطى القوة العلمية وهي الدين والعلوم فاضوا إلى حين . ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئا فشيئا ، وأخلاقه تحط ، وعلمه ينقص . وهنا أن أن أذكر :

تطبيق الآية الثاني على الأمم الإسلامية

إن هذا الجسم الإسلامي أخذ يرجع القهقري شيئا فشيئا ، فانظر كيف يقول ابن خلدون في مقدمته ما خلاصته : « إن هنا أصحها أصليا وله فروع ، أما الأصل فهو الدين ، فإذا رأيت أمة أو أسرة تحب أهل الصلاح والتقوى والدين ، وتقرم بذلك ، فإن هذه الخصلة يتبعها فروعها ، وهي الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة البهجة الضعاف ، والفقراء ، والصلد . وينبع ذلك سياسة الأمم ، وحفظ الدولة ، ونظام البلاد ، وهذا قانون لا ناقص له ، فإذا رأيت قبيلة أخذ يرجع القهقري في سياسته ، فابحث في أخلاقه ، فإنك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أقل نجمها ، ثم أرجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت في الانحلال ، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظرهم إلى أمور غير عجدية ، فلا يحبون الصالحين ، ولا هم لهم يظنون . إذا علمت هذا فانظر كيف يقول : « إن المسلمين لما قاموا فاجتمع بالدين ، واستمسكوا به ، بقي ملكهم ، فلما خلعوا رقبته ، قلص ملكهم ، وذهبت ريعهم ، وأصبحوا حصيدا لخمدن » ، فالكلام على الدين ، ومع العلم طبعها هو القوة العلمية ، والكلام على رجة الضعفاء والعدل إلى آخر ما تقدمت هو القوة الأدبية ، فأما القوة الجسمية فإن لها شأنا آخر ، وهو كلام النبوة ، وذكرته أنت في ﴿ سورة النمل ﴾ عند الكلام على آية : « إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أمرة أهلها أدلة » مع آية : « فلك يوتهم خاوية بما ظلموا » إلى آخره .

فهناك أولا حديث : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وذكر هناك أن بقية الحديث في (سورة الأقل) إذ صرح عليه السلام بأن الغنائم وفنوح البلدان وإن كان خيرا للنفس الصالحة فإنه يكون شرًا للنفس الفاسدة الجاهلة ، فإن نفس الغنائم تكون سببا للترف والنعيم ، ثم عقبه القائل (عائيا) قال عليه السلام : « كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ، ووضعت بين يديه الصنعة ورفضت الأخرى ، وسترتم يوتكم كما ستر الكعبة ، قالوا يارسول الله : نحن يومئذ خير منا اليوم نكفي المؤونة وننتزغ للعبادة ، فقال بل أتم خير منكم يومئذ » اهـ

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضغفان الأبدان ، والأبدان هي الحلقة الثالثة . إذن الدعائم الثلاث لتعليم في كلام علماء أو وبا نظير الدعائم الثلاث في آية الفتح ، وصدق تطبيقها فعلا على الأمم الإسلامية ، فهم أولا كانوا أقوىاء علما وأدبا وجسما ، فدام ملكهم ، فلما وقوا في الترف ضغف الأجسام وذهبت الآداب ، وقل الدين ، فذهب الملك .

إذن ظهور هذه المعاني اليوم مبجزة القرآن في هذا الزمان ، وقيل أن أختم حديثي معك أيها الجوهري أقول لك : إن قوله تعالى : « وإنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ نضرب له مثلا بقول القائل : « ياقلان : إن الله أحملك الصلاة لتنظف بدنك ، وتنجي ربك ، ولينشرح صدرك » ، ففروضه من شروط الصلاة يتقدمها ، والآخران في نفس الصلاة وبعدها ، هكذا هنا المغفرة أي عديم وقوع الذنب متقدم على الفتح كالوضوء ، والبقية مصاحبة أو متأخرة عن الفتح كسألة الصلاة للمغفرة ، فإن المنجاة فيها ، وانشرح الصدر فيها وبعدها ، ثم إن الاستقامة ، والنصر ، وانكشاف الحقائق المقابلة لأعمدة العلم الثلاثة في كلام الأمم المعاصرة لكم تكون نتيجة السعادة في الدنيا والآخرة ، وهو المعبر عنه في الآية بقوله : « ولستم نعمته عليكم » وهي الرضوان ، والرضا هو تمام السعادة اهـ

فما كاد يتم حديثه حتى أفتت من شئتي ، واستيقظت من سئتي ، وفتحت عيني إذا نورا الصبح مشرق والمؤذن يقول : « حي على الصلاة ، حي على الفلاح » ، فكبت ماوعيت ، وقلت : الحمد لله رب العالمين . كتب صلح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٩٣١ م .

تذكرة

ثم بعد ما كتبت ما تقدم ، واسترحت قليلا ، أجلت فيه النظر ، وأخذت أقرأ القطعة الانجليزية ، وإذا بالترجمة هي عينها ، غاية الأمر أنها أوضح من الأصل الانجليزي بضرب بعض الأمثال ، ثم أخذت أفكر في الأهمية الثلاثة المتقدمة ، وجالفتك في معاني الاسلام الحسن ، فإذا لوجبت ؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتحة بالتكبير مختمة بالتسليم ، ووجدت أن هذه الأفعال وما مثلها من السبق والزمي ، للمشروعين في الاسلام ، المتوطين للأبدان وعظائنها ، المتوكلين منذ قرون ، لجهل الأمم الجبسية (التي قامت بدين الاسلام بعد الحرب) بمقاصد هذا الدين ، حتى إذا أيلم دراستنا بالأزهر كنا نقرأ « السبق والزمي » ولا نفعل بهما اتباعا لأسلافنا ، وجهلا بديننا ، ووجدت الحج والسيام كلاهما من متوقيات الأبدان كالكلمة ، فالجح فيه كثير من الحركات ، والسيام فيه تصفية الجسم من العفونات ، أقرأ هذا التكم في أول (سورة الضحى) تجد ما للسيام الطهر من الفوائد ، وهو الذي شرع ما يقرب منه دين الاسلام ، وقد قال رئيس ألباننا بمصر في خطبته السنوية في انتعاشه العلمية في هذه السنة : « إن استبانات لها أيام تصوم فيها إذا سرمت » وأناس غفلوا عن ذلك ، انظر ذلك في الكتب السنوي الثاني الذي أصدره المجمع المصري لثقافة العلمية سنة ١٩٣١ م أي هذه السنة .

المسلمون يصلون ، ويسومون ، ويحجون ، ولكن اذا عرفوا فوائد تلك الحركات لم يحصل تهاين فيها ولم ترك كثيرا من أهل العلم في بلادنا تاركين الصلاة جهلا بمفاسدها ، وغفلة عن حقائقها .

فهذه جماع الترية الجسمية في ديننا ، وهي إحدى السلطات . يقول علماء الترية حديثا : « ليس المدار في حركات الجسم على رفع الأقال ، بل المدار على مقدار الحركات ، ويجب تحريك كل عضو حركات كافية ليحصل المقصود ، ولقد جفا خبر الرياضات رياضة انشى ، لأنها تحرك جميع الأعضاء ، ولما طبقها بعض علماء الترية المسلمين على حركات الصلاة دعشوا وقولوا : قيام ، ورفع يدين عند الاحرام ، فركوع مع رفع اليدين ، ورفع الرأس مع تحريك اليدين ، فسجود ، بطاوس ، فسجود آخر ، فقيام ، ثم جلوس للنشيد ، ثم تعدل الحركات فتكرر .

هذا أعظم نموذج للترينات الجسمية ، هذا ما سمعته من علماء الترية في زماننا ، ولكنى ليس أمامي نص الكتاب ، ومنى وقع في يدي الكتاب بهذا النص أثبت إن طالت الحياة .

مسلمتان : السامرة الأولى

حدثني تاجر بيع الخشب بالرج ، كنا نشتره منه لسواقى منبرتنا بتلك الجهة . قال : قد جاءنى سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية ، فرأى أنوضأ وأصل ، فسألنى ما هذا ؟ فقلت صلاتنا ، وشرحت لها ذلك شرحا كافيا في المساوات الخمس ، فأظهرت الدهش وقالت : إذن أتم لا تمضون . فلما قصت على القصص . قل : وما السر في قولها ؟ قلت : هذه سيدة متعلمة في بلادها ، وهم يدرسون علم الترية البدنية والحركات المصلحة للأجسام ، فهم متشعبة بذلك ، وبأن غسل الأعضاء في أكثر أوقات التها ضرورية لازالة ماعلق بالجسم من القرات المؤذيات الموجبات للأمراض . فلما رأت ذلك أدهشها اتنا قوم جهلاء ، فعل هذا ونحن عنه غافلون ، وبهذا لا تترينا الأمراض . انتهت السامرة الأولى .

للسامرة الثانية

كنت جالسا في بلدة المرج أيضا عند الضابط الذى هناك ، وكان هناك بعض أعيان البلاد ، وقد دار الحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضا ، لأن لها بعض المشاكل القضائية التى أوجبت معرفتهم بها . فهناك حديثها : « قالوا إن فلانا (سموه باسمه) من بلدة كنا في مديرية القليوبية ، وقد سافر إلى ألمانيا ، وتزوج هذه الفتاة ، وحضرت معه ، فلما رأت أباه وأمه اليهود بن يتوضئون ويصلون . قالت لهما : ما الخبر ؟ فقصا عليها قصص الاسلام وقواعده ، فأسلمت حالا ، وداومت على الصلاة ، وقالت : هذا خير دين ، هذا دين حبيب ! فأما زوجها فانه بقى على حاله أى هو مسلم لا يصل .

نظرتى في أم الاسلام المستقبلية

إن أم الاسلام المستقبلية سيقومون هذا وأمثله ، وحتى يسارعون إلى قراءة تلك العلوم ، وستكون صلاتهم غير صلاة آبائهم في العصور الأخيرة ، فهم لا يدخلون فيمن قل الله فيهم : « وإذا قاموا إلى الصلاة قموا اكسل » ، وإنما لا يكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة ، فأدركوا سر الحركات ، فهم إذ ذاك يصلون بمحض المحبة لا بالخوف ، كما يفعل أكثر المسلمين في الأهرام الأخيرة ، ويقولون إذ ذاك : لذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة ، اختيارا منا لا خوفا ، وذلك لأجل صحتنا ، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات للذكورة في الصلاة أولى ، لأن فيها تقوية الجسم ، وهذه إحدى السلطات الثلاث في الترية العمة ، وفيها تذكر علم الأخلاق والمحبة العامة (يطلب الهداية والاستقامة) في الفاتحة ، وفيها

الدعامة الثالثة ، وهي ذكرى تثقيف العقول بالحمد لله رب العالمين ، وبذكر المسلى في سجوده وركوعه السمع والبصر ومحباتهما ، وفي ذكره السموات والأرض في أول افتتاح الصلاة وهكذا .

وسيقولون أيضا : إن العلم سيجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لاعلى الخوف ، والعبادة على سبيل المحبة هي المجدبة النافذة ، أما عبادة الخوف فانها أدنى منها مراتب ودرجات . إن الانسان اذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة ، وكل عمل يصحبه المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم ، وهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر .

يقول المسلمون بعدنا : إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ونسوا ماذكروا به أخفوا يدرسون القرآن بلاعقل ، فلا علم ، ولا تهذيب ، ولا قوة جسمية ، فلك ذهب ملكهم ، وزال سلطانهم ، وهانحن الآن في مبدأ حياة اسلامية جديدة نتجده ماندمه الأولون ، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة :

المسامرة الثالثة

لما اطلع على ما تقدم صاحي القى اعتاد عاداتي في هذا التفسير . قال : فقد عولت على أن أصل الفتح انما هو الفتح العلمى ، وبعثت الفتح العلمى بالسيف ناجا ، وهذا حسن : فأرجو أن تزيد المقام أيضا بمثال معروف تنبأ به النفوس وتهش له . قلت : ألم يكفك أفعال رسول الله ﷺ كما قسم . ألم يكن قوله وتطيعه قبل نشر سلطان الاسلام ؟ قال بلى : قلت : كففاك ذلك . قلت : ولكن أريد مثلا يكون قريب المتناول : لان النبي ﷺ ينظر الى الناس نظرة يشتم منها أنهم يقولون نحن لسنا منه : فهو مؤيد بلوى والقوة : أما نحن فلا ، فاذا أتيت بمثال ضربه يكون ذلك أقوم قولا ، وأهدى سبيلا ، وأحسن مثلا ، وأقرب مثلا ، قلت : ان أم الاسلام ما حفظت ملكها الا بالعلم : فلما زاد عليهم زاد ملكهم . فقال : هذا كلام عام . قلت : ان مسلمى الهند كانوا هم أصحاب الأمر وانتهى في البلاد الى نحو القرن الثامن عشر ، ولكنهم كانوا جهلاء : فلما احتل الانجليز البلاد وحاربهم غلبوهم فأصبحوا ضعفاء في البلاد لاحول لهم ولا قوة : فلو كان عندهم علم لم يلب منهم الملك : فقدم الفتح العلمى هو الذى أورد زوال ملكهم . قال : وهذا أيضا كلام اجالى . قلت : لاذن فلا سمعك ما جاء في تاريخ تأسيس كلية عليكره ، فان ذلك يكفيك . فقال : حدثني رعاك الله حديثها . قلت : ان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة أخذ يقدم الفتح العلمى لينقل منه الى الفتح العلمى كما فعل ﷺ . قال : أرجو إصباح المقام . قلت :

جامعة عليكره ، وعملها العظيم في الهند

أتى الاستاذ غفر الدين أحمد مسجل جامعة عليكره محاضرة تقيسة في هذا الموضوع على جمع كبير في جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها (١) فيما يأتى :

حضرة الرئيس ، حضرات الاعضاء ، أيها السادة ،

إنى أسكر الله على أن أتاح لي فرصة التكلم الميلة الى رجال الحاضر وسادة المستقبل . وآسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتك العربية التي هي أيضا لغتي : لكن لو كنتم . كانا في الهند ، وكنت أنا مكانكم لاعتذرتكم الى كما اعتذر اليكم . على أنه لا داعي لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة فقد اخترت موضوعا يحبه المسلمون في الهند ، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه . ذلك الموضوع هو عليكره . وهو اسم أرجو أن يكون معروفا لكم فاننا في الهند نعرف الأزهر ، وقد كنت أقبل الأزهر حين ذهبت لزيارته . وفي الهند من

(١) مبنية على مذكرات أخذت أثناء الاقامة :

يقبل عليكوه :

ان عظمة عليكوه تقوم على شيئين : الأول أنها أعطت الهند أدل العيا في الترية التي لا بد منها لمن يريد أن يعيش ، والثاني وهو أهمها أنه لولا عليكوه لما كان في الهند اليوم مسلمون تسمعون عنهم ، ويسمع لهم . كان يكون هناك مسلمون : لكن مسلمون لا يابيه أحد بهم ولا يهتم لهم في شئون الهند وزن . أما اليوم فان المسلمين - وان فقدوا في الهند حكما ، وان كانوا أقلية في الهند - فان لهم منزلة فيها لا يستحي مسلم أن يذكرهم أو يذكروها . ذلك بفضل جامعة عليكوه التي هي أمم ما يملك المسلمون في الهند بعد أن فقدوا الحكم . وستكونون أقدر على تبين صدق هذا القول اذا عرقت شيئا من حال الترية في الهند قبل عليكوه :

كان للمسلمون حكم الهند قبل أن يذهب الانجليز هناك ، وكانوا حكم الهند لما ذهب الانجليز هناك للتجارة . وقد مكث الانجليز في الهند تجارا نحو ٥٠ سنة انقضت فيها اورية الحديثة ، ولكن بين غير المسلمين ، لأن المسلمين أنكسروا على أنهم هم الحكم وظنوا أن لاحتاجة بهم الى تعلم العلوم التي تنفع التاجر والمانع وما اليهما من طلاب الرزق أو طلاب القوة : لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم . هذا طبعا خطأ كبير لكنه خطأ وقع فيه المسلمون : فلما فقدوا حكم الهند في القرن الثامن عشر ونزلوا الى مرتبة المحكوم الذي لا بد له من الجهاد في الحياة ، وجدوا أنفسهم لا يحسنون من طرق الجهاد في الحياة شيئا . كانوا يحسنون طريقا واحدا هو طريق الحرب : فلما غلبوا في الحرب وزال الملك عنهم وجعلوا أثر ذلك في أنفسهم ، ولا يحب ، وانسدت في وجوههم السبل ، ونزلوا الى درك من القلة سحق ، لكن كان لازال بأيديهم بقية من قوة ورونها من أيام الحكم فعاثوا عليها وان لم يحسنوا تقيمتها : حتى قامت فتنة الهند في القرن التاسع عشر ، وهي فتنة كبيرة كان فرضها التخلص من حكم الأجنبي في الهند : لكنها لم تنجح لان القوم أقاموا بها لم يكونوا أكفأ لها ، وكان عاقبة النشل فيها أن أزل العقاب بكل من كان له فيها يد ، ولم تكن هناك أسرة مسلمة الا وكان لها في تلك الفتنة يد ، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلمة الا وتكتبت في نفسها أوفى ما لها ، وزال عن كثير من المسلمين حتى تلك البقية من القوة التي كانوا من قبل يعيشون بها فأصبحو في حالة من اللذلة والجهل وأمور الحياة لا يدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهددين بالعناء الاجنهي ، عندئذ قبض الله لهم رجلا من أكرمهم بيتا وأكبرهم قلبا وأوسعهم عقلا وأبعدهم حمة : هو السيد أحمد خان جاء من بيت محمد ، فقد كان أبوه رئيس وزراء ، وكان جده رئيس وزراء : لكن تلك الأحداث قد زلت به كما زلت بغيره ، واضطره الى العمل فلم يفت ذلك في عضده ولم يذهله عن أن ينظر لنفسه ولقومه :

نظر السيد أحمد خان فوجد أن العناء هو أن المسلمين لم يصلوا أنفسهم حين كانوا حكاما ، واذن قالوا هو أن يتعلموا الآن إذ صاروا سوقة :

شعر السيد أحمد في سنة ١٨٩٥ أن لابد للمسلمين من أن يسلكوا طريق الترية العلمية ان كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم ولا يفنوا في غيرهم ، ولاتكني الترية العلمية وحدها : بل لابد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الاسلامية وآدابهم ، ومن أين لهم الجمع بين الترية العلمية والثقافة الاسلامية ، ومعاهد الترية الحديثة في الهند كلها معاهد غير اسلامية : عندئذ أيقن أن لابد للمسلمين من جامعة علمية اسلامية . وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم ، لكن كيف والصعوبات في سبيله كثيرة ؟ هناك مشلا صعوبة المد فال جامعة لا تقوم الا على مال كثير ، وهناك صعوبة اللغة ، فان اللغة الأوردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم حسب الذي ذكرت لكم ، وكان الوقت أضيق من أن ينسج للتكبير في ترجمة أوفى مصطلحات :

لان الخطر كان عظيما قريبا ، وكان لابد للنجاة منه من عمل حاسم سريع . قلب السيد أحمد خان الامر على وجهه فرأى أن ليس لمشكلة المال حل الا بالتدريج ، يبدأ بمدرسة ولو في كوخ ويترق بها كلما ترقى وسائله حتى تصبح كلية ، ويترق بهذه حتى تصبح جامعة . أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل الا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة في الهند لغة لمدرسته أيضا ، ولكيته بعد اذا صارت المدرسة كلية ، ولجامعت اذا صارت الكلية جامعة ، اذ عندئذ يمكن أن تتفرغ الجهود لاكتساب العلوم والفنون المبسوورة في تلك اللغة ، ولكن اتخاذه اللغة الانجليزية لغة للتعليم في مدرسته يعرضه لسلط طائفة الملايين المسلمين ، وعامة المسلمين هم طوع هذه الطائفة : أي طائفة شيوخ الدين بين المسلمين في الهند . ومن الطبيعي أن يكره المسلمون شيونا وغبر شيونا ، لغة الدين أذلهم وعلبهم لذلك وصبرهم الى محارروا اليه ، وأن يستخطوا على من يريد ادخال تلك اللغة في أي معهد اسلامي ، فضلا عن جعلها لغة التعليم فيه ، لكن لابد مما ليس منه بد ، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الفناء ، واذا سلط الشيوخ في الأول فسيبدركون اذا تبينت لهم حقيقة الموقف أن البدء عضال يحتاج الى دواء قد يكون السكت ، وسيحمدون في الآخر من أعد لهم الدواء وإن سلطوا عليه في الأول ، هكذا فكر ذلك الرجل القدر السيد أحمد خان ، وهكذا قرر ، فأسس مدرسة في بضعة أكوخ عند طلبتها نحو اثني عشر ، وميزانيتها حوالي ٤٠٠ جنيه ، ولقبتها الانجليزية ، وولدت عليه اثره الشيوخ ، عائرة كثير منهم ، فان هناك شيونا وشيوخا . ففي الشيوخ رجال تمنو لهم احياء إجلا لا عن استعطاق ، ولكن فيهم أيضا من لا يتجاوز نظرهم حاضرم ، ولا يحكمون الاعاطتهم مع خلق في هذا التعظيم ، وهؤلاء لقي منهم السيد أحمد خان اذى كثيرا ، ولكنه كان متوقفا ذلك ، وموطنا النفس على تحمله ، لانه كان يعلم أن غيره وخبرهم ، ومستقبله ومستقبلهم ، بل مستقبل الاسلام نفسه متوقف على المضي فبا استخار الله فيه وعزم عليه :

هكذا يا حضرات الاخوان : بدأت جامعة عليكرة ، والآن هي من أكبر الجامعات في الهند ميزانيتها

٦٠٠٠٠ جنيه ، وطلبتها ٢٢٠٠ طالب :

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكرة سنة ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٨٢ أي بعد سبع سنوات فقط من تأسيس عليكرة ، ألقت حكومة الهند لجة تبحث مسألة التربية في الهند ، فكان رأيها الورد في تقريرها أنه ، واذا اتبع في الهند مثل عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية في الهند . فليكرة كانت الرائد الذي شق الهند طريق التربية الوطنية ، والقي أعلى الهند فكرتها من التربية القومية : قال السيد أحمد خان ، ان مناهج التعليم والسياسة العامة في التعليم والتربية ، يجب أن تكون يد جامعة أو جامعات أهلية لا بيد الحكومة ، لكن لابد لشل جامعة عليكرة الأهلية الاسلامية من الانتعاج بتجارب الجامعات التي سبقها ان كانت تريد أن تحقق الغرض الذي أسست له . وغير المسلمين اتفقوا بتجارب الجامعات الأوروبية فلماذا لا يتنعم المسلمون بذلك أيضا في تحقيق أغراضهم الاسلامية ؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتي كبرج وواكسفورد ليرى نظامهما بينه ويختار منه الصالح . ذهب معه ابنه القاضي الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهود ، ودرس المسألة هناك عن كسب فوجد بعد الفرس والته كبير : أن مجرد مرور الامتحانات لا يستحق أن يكون مشلا أعلى للطلاب ، وان مجرد منح الدرجات لا يصح أن يكون غاية عليا للجامعة : لكن تربية الخلق ، تربية الشخصية . تكوين الرجال هو الذي ينبغي أن يكون الغرض والهدف . وقر : رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكرة تكوين الرجال وتخرج القادة : أي تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم الى رجال ينهضون بأعباء الأمة الاسلامية في الهند ، ثم يخرج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهود المسلمين . هذا كان أهم ما يبتص المسلمين في الهند ،

وقرر رأى السيد أحمد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكرة سد هذا النقص . لكن تكوين الرجال القادة يصعب جدا اذا كان الطلاب يفتقد خارج الجامعة ما يكسب داخلها ، أو بالأحرى اذا كانت جامعة تلك هي غايتها لا تشرف على الناهية الا في جزء من يومه وترك الباقي للغرف والمصادفات ، قرر رأى على أن تكون الجامعة داخلية يعيش الطلاب فيها كما يعيش في بيته ، ويعيش بين أساتذتها كما يعيش بين أهله ، وأقبس السيد أحمد من كبردج واكسفورد نظامهما في ذلك ، واستعان بمطبعة من كبار أهل العلم والترية أمثال السير رالي (١) والمستر توماس أرنولد (٢) من الأفريج ، والدكتور نظير أحمد (٣) ، وشيلى النعماني (٤) وخوجه الخلف حسين حالي (٥) لجاء بهم الى عليكرة ، وأسس فيها الحياة المتألفية التي يعيش الطلاب فيها بين أساتذته في الجامعة كما يعيش بين ذويه يطوفه في ساعات العمل ويهذبونه في ساعات اللعب ويتصحبونه من قريب ويلاحظونه من بعيد فاصدين في ذلك كله الى أن يحصلوا منه رجلا يحسن الجهاد في الحياة . ومن الطبيعي أن لا يهتم على نفقات هذه الترية اجالا الا أبناء الخواص من المسلمين أى أبناء الطبقة الوسطى على الأقل ، أما الفقراء فلناخ منهم يستطيع دائما أن يحصل من الجوائز المالية على ما يمكنه من القيام بنفقة تلك الترية . وليست نفقته من القناعة على ما قد يسبق الى النفس أول الأمر فاما تبلغ خمسة جنيهات في الشهر وهو مبلغ ليس في الحقيقة بكبير اذا قيس بمثل في مثلها من الجامعات

والحياة الرياضية الجامعية كانت أيضا مما أقامه مؤسس جامعة عليكرة من الحياة الجامعية في أوروبا . فالألعاب الرياضية المختلفة تلعب فيها . ولا تنسوا ان ذلك كان شيئا جديدا في حياة الجامعات في الهند في القرن التاسع عشر ، وقد تفوقت عليكرة على الخصوص في لعبة الكريكت وظل فريقها خبير فريق في الهند لمدة طويلة

فأتم ثرون يحضرات السادة أن جامعة عليكرة لم تهمل ركنا واحدا من أركان الترية ، فهي تقوم على الترية العقلية في أوقات العمل ، وعلى الترية البدنية في أوقات اللعب ، وعلى الترية الخلقية في جميع الاوقات . ثرون انها بذلك كله قد أعطت الهند مثلا عاليا في الترية القومية ، ونجت المسلمين من الاندثار المحقق الذي كان يهددهم بما بصرتهم به من أسوار الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكوفت لهم من رجال . وليس من رجل مسلم له مقام أو كلمة مسموعة في الهند الا وكان طالبا في عليكرة أو متصلا بها بطريق ما . فالرحوم مولانا محمد علي كان من طلبتها ومولانا شوكت علي من طلبتها ، وهذا الحاضر الفقير من طلبتها وهي لا تجد بين المسلمين رجلا ذامواها الا وتعهدته وانتفعت بمواهبه بأن يختاره رفيقا لها . مثلا أو تختبئه عضوا في مجلس شيوخها الذي هو مجلس ادارتها أو مشرفا على مالياتها ، فالتفاضل السيد محمود ابن السيد أحمد خان ، أو بالأحرى ابن السيد أحمد خان ، قد منح لقب سيرا عترافا بخدماته للعلم بتأسيه تلك الجامعة ، هو من شيوخها والسيد حسين باجعي عماد الملك هو من المشرفين عليها فيفضل الله ، وبمحسن الاخلاص في سبيله نجح ذلك العمل العظيم ولله المم الملك الآن أقدر على ادراك صدق ما قلت لكم في أول كلامي

(١) كان أستاذ اللغة الانجليزية في اكسفورد (٢) المستشرق الشهور صاحب تاريخ انتشار الاسلام وقد صار بعد سبرتوماس أرنولد وقد زار مصر منذ علم وأتى فيها محاضراته في الفن الاسلامي ثم توفي بعدها بقليل (٣) كان رحمه الله من أكبر الكتّاب في الهند ومن أول من جاهد في سبيل ترية الفتاة الهندية للسلسلة كتب كثيرا من الروايات بالأردية

(٤) كان رحمه الله أكبر عمدة في تاريخ الداهين في الهند ، وهو مؤسس دار المصنفين في الهند وما يتبعها من دور الطبع والثقافة :

(٥) كان رحمه الله أكبر شاعر قومي في القرن التاسع عشر

من انه لولا عليكرة لما كان اليوم في الهند مسلمون . انكم خلع الهند لاندركون كيف كان يشعر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم . ونحن الآن نعرف أن المسلمين كانوا يكونون اليوم في الهند خداما أذلة لولم يقبض الله لهم ذلك الرجل الذي أسس تلك الاكولج التي صارت بسدكليات (١) ثم صارت بسد جامعة (٢) ان المسلمين أقل عددا من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل لغة وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم وأن يكون لهم قول مسموع في شئون الهند وفي شئون القرية في الهند

لكن السيد أحمد كان يرى بتلك الجامعة الى ما هو أبعد من ذلك . كان يرجو أن تصير يوما ما منار العلم والثرية في الشرق الاسلامي كله . كان يرجو أن يكون مثلها كمثل الشجرة الطيبة المذكورة في القرآن « أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بلائز ربها » وكان يرى الى أن تكون رسول العلم والعرفه والصلاح في الشرق تديره واحدى بينها الفلسفة وبالأخرى العلم الحديث وعلى رأسها تاج لا إله الا الله محمد رسول الله ، تصدو المسلمين الى المجد وتفتح لهم طريق العز وتصرهم بالحياة ، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لا يرى أن الجامعة بعدد طلبتها ولا بما تمنح من درجات ولكن بما توسع من دائرة لعلهم دائرة من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنتشر من ثقافة حتى قدك الرجل الذي لقبته مجلة لندن لما توفي سنة ١٨٨٨ بفتح القرية كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزا علميا تنتشر منه الثقافة العلمية الاسلامية في الشرق الاسلامي كله . وقد تحقق من حلم السيد أحمد شيء كثير ، فان الكوخ قد صار الآن جامعة ثابتة لكن بقيت مسألة التوسع أى التوسع في الجامعة حتى تصير ذلك المركز الثقافي الاسلامي العالم ، والحقبة القائمة اليوم في سبيل هذا التوسع هي المال ، فقد كانت جامعة عليكرة في صميمها جامعة فنون الى الآن يدرس فيها من العلوم ما لا يحتاج الى مال كثير مثل الرياضة . وليس معنى ذلك أن العلوم لا تدرس فيها فظها يدرس من العلوم الطبيعة والكيمياء والرياضة والنبات والحيوان لكن جامعة عليكرة متميزة في الفنون وتريد أيضا أن تمتاز في العلوم ، وهذا يحتاج الى توسيع كبير في المعامل والمعامل كبيرة النفقة تحتاج الى المال والمسلمون اليوم ليسوا من أهل الفنى لذى يجعلهم يستطيعون أن يمدوا عليكرة بالسبست مائة ألف التي تحتاجها من الجنيئات لهذه العاية (٣) لكن على رأس عليكرة اليوم رجل من خير المسلمين وأبهمهم همه (٤) هو الدكتور سيد راس مسعود (٥) أو نواب مسعود يلزجك كما يقبونه تكريما وهو حفيد السيد أحمد خان وابن السيد محمود وقد استطاع في سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكامن الرويات أو نحو ٢٠٠٠ ر ٢٠٠ جنيه

لكن عليكرة على ما هي ورغم حاجتها هذه الى التوسع شيء عظيم . هي على ما هي عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين طلاب الفنون الادبية على الأقل فلهذا لا تؤمونها ؟ ليس في هذا دعوة خطيرة الى الجامعة الاسلامية إنما هذا كلام بسيط يصح أن يقوله أى مسلم فان المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم . وإذا كان المهنود يأتون الى مصر الى الأزهر ؟ فلماذا لا يأتى المصريون الى الهند الى عليكرة ، انكم اذا أنتم عليكرة ستجدون شيئا لا تجدونه في مصر . ان في مصر جامعة حقا ، ولكن اسمحوالى أن أقول انها جامعة حديثة والجامعة لا تنفع قفها الا اذا كان لها تقاليد صحيحة

(١) أسست أول كلية حوالي سنة ١٨٨٠

(٢) في سنة ١٩٢٠

(٣) هذا مبلغ كبير ولكنه يناسب ما يرى اليه الرجال الكبار القائلون بأمر جامعة عليكرة

(٤) هو وكيل الجامعة لما مديرها فهو نواب جهوبال

(٥) حامل درجة الشرف في التاريخ وخرج لندن في الهندسة ودكتور في القانون

ثابتة والتقاليد الصحيحة الثابتة لا تتكون ولا تقوم الا في سنين كثيرة وقد صرحت على جامعة عليكره هذه السنون الشئيرة وقام فيها كل ما ينفع للمسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة تقاليد تجمع بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية التي قامت على القرون والثقافة الحديثة التي جاء بها العلم الحديث ؟ فهاذا لا يأتي اليها المسلمون من مصر بدلا من أن يذهبوا الى أوروبا في طلب ما تستطيع عليكره أن تقدم به ؟ اني أرجو أن يضلوا بعد اليوم . وأرجو على كل حال أن لا تنسوا عليكره وأن تكبروا ذكرى عليكره فهي التي نجت الاسلام في الهند وهي التي جعلت من المسلمين في الهند قوما أمزة وأمة مهيبة بعد أن كانوا يكونون أخلاطا عبيدا ولست أجد أولى في وقد فرغت من المحاضرة في عليكره وعملها العظيم في الهند من أن أسألكم أن ترموا الفاتحة روح مؤسسها وأن تسألوا الله العونة والتوفيق لحفيده القائم على رأسها اليوم . تمت اللطيفة الأولى في قوله تعالى « ان افتحنا لك فتحا مينا »

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : هو الذي أزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أتوار نبوية ، وإشراق نور النبوة عليهم كان يلقي الطمأنينة في قلوبهم ، وفي كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية ، ظاهرة على يد حضرة الرسول ﷺ ولا جرم أن الله عز وجل معنا أينما كنا « وهو معكم أينما كنتم » وهو الذي ملأ السموات والأرض بمجنود ظهر الجباب على أيديها ، وفي كل يوم تظهر للفكرين في هذه الدنيا أنوار وأتوار ، فالسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوة الموروث ، وبجباب أم الاسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد التفرق وإشراق الدين في أقطار المسكونة بالاحوب ولا ضرب ، ولادولة تحمي ، ولا خوف من أحد ، فهذه كلها تزيد المؤمنين إيمانا ، بل إن حال انتشار الاسلام اليوم يضاهي حال انتشاره أيام النبوة ، فهذا وحده يزيد الإيمان ، فأما المفكرين والحكام فانهم يزيحون فرق ذلك إيمانا بما يدرسون من الجباب كالتي جاءت في هذا التفسير ، وإذا كانت سكينة بني اسرائيل وطمأنيتهم أيام طالوت ، إذ التابوت الذي اتبته منهم أعداؤهم ، وكان فيه بعض علفات موسى عليه السلام ، قد رجع إليهم فكانت هذه من أمارات صدق النبوة والوحي الموحى الذي وصل إليهم من علمائهم ، فهذه لا تورث إلا التصديق المبني على الظواهر من خوارق العادات وما يشبهها ، وهذه مقدمة للباحث الحكيم التي هي أرسخ قسما ، وأعلى في السكينة كلها ، فهكذا هنا كانت السكينة في قلوب المؤمنين أولا بما يرون من هجائب النبوة وغرائبها في كل زمان بالمشاهدة ، أو بقرارة الآثار ، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بجباب الحكم الإلهية التي لا حد لها ولانهاية كالتي في هذا التفسير .

مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذي لاعلم عنده بهذه الدنيا كمثل الطبيب الذي أكتعب على التلطيب والجراحة ومداواة المرضى ، ونسى المسكين همه جسمه ، فتابته الأمراض ، وأحاطت به مهلكات القوى ، وقواطع الحياة ، وإنهالك أعضائه ، قتره مفرق الوجه ، خائر القوى ، ضعيفا ، هزينا ، خائدا . وسبب ذلك أن علم الطب قيمان : قسم هو علم صحة الأبدان وتديرها ، والحفاظة عليها ، وإغناش قواها ، باستنشاق الهواء النقي ، والحريرين الصلي ، وأفضله بأجسام أطباء زماننا المنش في الهواء النقي مع كثرة استنشاق الهواء في الغلاء ، وبالبوس في الشمس ، معرى الجسد في بعض الأوقات ، سائر العورة والرأس ، بحافظة عليها ، وأكل ما لم يطبخ من الخضر ، وأكل العاكية ، وهكذا عما سبق في هذا التفسير ، وما يأتي قريبا ، وهذا

وهذا أفضل القسمين .

القسم الثاني : هو قسم المدلواة ، وهذا يقوم به الطبيب ، فإذا أحمل الإنسان صفة جسمه بترك علم تلك القوانين فإنه يقع في المرض ، فيتلقاه الطبيب الصالح بالأعراض الباطنية ، أو بالجراحة ، أو بجرخ العين ، أو بالأذن والأنف وهكذا . فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثاني ، ينسون القسم الأول ويقيمون الثاني ، لأنه هو الذي به يكون الريح والكسب والجمرة والفتى ، فينسون أنفسهم وهم غافلون ، ومثل هؤلاء علماء الدين في كل أمة من أمم الأرض ، فهم غالبا كاقسم الثاني من الأطباء في زماننا ، فهم دائما لا يعرفون إلا ما كان من الأحكام الظاهرة المثابة الأثرية ، فكأن أن الطبيب في القسم الثاني يقول للمريض : خذ الملح الإنجليزي ، أو الصودا ، أو المنسبيا ، أو ملح القواكه ، لاسهال المعدة ، ولا يذكر قط بطهواء النبي ، ولا بنوع السكك التي يجب أن يتعاطاها ولا يحظر بيانه ذلك : فهو كالمرضع والناتحة المأجورين ، فهذه ترضع ولا تبالي بالرضيع ، وهذه تبكي وليس في قلبها أدنى حزن على التقيد ، هكذا عالم الدين غابا لاهم له إلا أن يعصر أقواله في نواقض الرضوء وأحوال الحيض والنفاس ، وما أشبه ذلك ، ولا يرفع أصبعه العامة إلى السماء ، ولا يشرح لهم شيئا من بهجاء الطبيعة ، لأنه هكذا يعلم ، فهو عن العلم بالله عجوب ، وعلى الأعمال الظاهرة مكب ، وأمة تعيش بالعمل وتغفل عن العلم أي العلم بالله وبهجاب صنعه ، مثلها كمثل الخيل في مساكنها طائفات عاملات ناصبات جاهلات . إن دين الاسلام علم وعمل : العلم هو الذي يقرأ في افتتاح كل صلاة : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » فهو يقرأها ، فإن كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والتهم أنه يكون عن قال الله فيهم : « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وفرجاتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما » والامامة الحق لا تكون للقلد الغافل ، وإنما الامامة تكون للفكر الذي يدرس النبوة وعلوها ، وبهجاء الحكمة الإلهية ، دراسة محقق ، فيزداد إيمانه كل صباح ، وكل مساء ، إذ يوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض ، حتى يرى ما يدشن عقله ، ويجب من هذه الدنيا التي تظهر لنا عابسة وهي في الحقيقة باسمة ، وينظر في آثار الله فيجد ظواهرها عملاء بشوك القناد ، وعند التحقيق لاشوك ولاقناد ، ورجة الله تتجلى ، والجلال يهر عقولا وعقولا ، وإن آيت إلا الافضاح ، لتسكن نفسك أيها الأخ ، فاجب بما تراه قريبا في العطفة التي بعد هذه من دمايل وقروح في أجسامنا وحي ، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذي أصابه الضر ، ولكن علم الطب (كما يستوضح لك قريبا بأجلى بيان) يقول لك : كلا . وهل العمل إلا قلمة بناها جنود الله القائمة في جسمك ؟ وهي ذوات حياة حقيقية وعقل ، ولما بفت هذه القلمة المخروطية الشكل حصرت فيها المكروبات الماخضة فأهلكتهم وأفتتهم ، فكان القيح والصديد روم الأموات من التريقين : التريقي الوطني ، والتريقي للمهاجم ، ويقول : إن الحلي تقرب من هذا ، فإن الناس لما جهلوا الأجسام الشمسية ، والحام البيطري ، أو حام الماء الساخن والمشي والتريينات العضلية (وكل واحد من هذه يذهب بالقنوات من الجسم) .

أقول لما جهلوا ذلك ، وهو دواؤهم الوحيد ، قل الله لهم : أنا رجم بك يا مبادي ، أرجمك بالحلي فأسلط جنودي التي في أجسامكم وهي الكرات البيضاء على جنودي للمهاجمة ، وهي الحيوانات الترية التي تحمل في أجسامها السم وتفرغه في أجسامكم فيحصى الوبليس وقتنا تقرب اقشاع وموج الماء متلاطم ، فيقع كثير من التريقين صرعى وتكون الاشلاء منهما هو الصديد كما تقدم ، وهذه جنود الله في أجسامنا المثابلات لجنوده في خارجها ، سأشرحها شرحا واثبا في العطفة الآتية ، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتي واجبالا له ، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والفرد ونحوهما ، فهذا الأسد من جند الله التي أعتها لاحداث الحياة تارة وإحداث الهلاك أخرى ، فهي لتريتها سبب الحياة ، ولتريته سبب الهلاك ، ولن ترضع النبوة

سبيلها ، أو تنقص على غريبتها إلا بما وفر في نفسها من رحمة في الأول وأهلك الثاني . إذن هنا بجل ما سأذكره هناك بهذا المثال ، فهنا جيش معنوي ونوري وعلماني : أي الرحمة والصلاب ، فهذان الجيشان المعنويان مقدمتان للجيشين الحسيين وهما جيش الأسلاك حين التعان على ذريتها ، وحين انقراضها للظلم والأرباب ، فهذا مثل جنود الله في الأرض والسماوات .

جسم الأمة كجسم الانسان

أعلم أنه لا فرق بين جسم الانسان وجسم الأمة ، فإذا جهل المسلمون عالم الأم ، ونسوا الوحدة العاتية كما هي الجاهل الغافل عن اصلاح جسمه ، وترك قوانين الصحة ، فإن الله عز وجل هو الرحيم بهم ، فسلط عليهم الأم من بين أيديهم ومن خلفهم إذ قل لهم : « أيها الأم حيوا من رقتكم ، وحاربوا المسلمين ، وادخلوا خلال ديارهم ، لأنني أريد إيقاظهم من طريق الشدة ، لأنهم نسوت ، ونسوا أنفسهم بطريق اللين كما نسى الغافل عن جسمه باستعمال الحمام الشمسي ، ولتكن في الهواء الطلق ، وأكل الفواكه ، والخضر ، فوجته بالحي ورجته بالأورام ، لأنني أأرحم ، ورجتي وسعت كل شيء ، فأنا أرحم الأشخاص ، وأرحم الأم وان كانوا جميعا يجهلون أنني أرحمهم حين تنتابهم الآلام .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام

أيها المسلمون : هذه والله هي ازدياد الإيمان ، بل هذه هي السعادة ، هذا زمان الحكمة والعلم ، هذا هو الزمان الذي قال الله فيه : « سربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهو الذي قال الله فيه أيضا : « سأوريكم آياتي فلا تستهجون » وقال فيه : « وقال الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وبهذا وأمثله فهم قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكيف نوقن بهذه الرحمة إلا بالمراسة ! فوسنا ياربنا وفهمنا ، فهنا أن إلامك لما لمضعتنا ، رحم الله أستاذي (الشيخ حسن الطويل) ، فهو أول من لفت نظري إلى هذه المعاني ، فانه لما عرض في الفرس اسم الله الجبار المنتقم الحق ، قال ياقلان : هذه الألفاظ بحسب الظهري والافتقار لاقتحام ولاغيره ، لأنه منزّه عن الغضب كإلهه عالم ، ولكن هذه أصال رحمة سميت بأسماء مما نعرفها .

وأقول الآن : الله أكبر : بهذا فهم سرا من أسرار القرآن ، ألا وهو قوله تعالى : « إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فهذا عجب أن يكون رجاءا وهو معذب ! فبالعلم اليوم ظهرت بعض أسرار القرآن ومجابهة . اللهم لك الحمد على نعمة العلم .

فلما اطلع صاحبي على هذا . قال : هذا جهل وكلام وحكمة وعلم ، ولكنني أريد أن تهمني عنوان هذه المقالة ، فأنك سميت « مسامرة » ، فأين المسامرة ؟ قلت : إن ما أقدم إنما هو مقدمة تلك المسامرة وإن هي إلا تبراس لهذا المقام . فقال : إذن حدثني حتى يتم المقام . قلت : أعرف طبيباً ناطسيا شهيراً ببلادنا المصرية ، فهو في الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين ، وله في منزله عيادة خاصة ، وهذا الطبيب لي به علاقة ، وهوانه كمن تلميذي بالدرسة الحديوية في الخفة لعربية قبل أن يدرس علم الطب ، وهذا الطبيب فلبته منذ ستة أشهر في عيادته ، فرائته ضعيفاً هزيلاً نحيفاً ، فأرغبني لمأرأته ووجهت إليه اليوم الكتيبر على ترك محنته التي بها يقدر على مداواة المرضى ، فأخذ يقول لي إن أصدقائي يأتوني في وقت فراغي فلا أقدر على ردهم وترك إجاباتهم ، فشددت عليه التذكير ، وقلت له : لا بد من النظام ، ولا بد من مراعاة صحتك مراعاة تامة ، وقت له أنني بعد مدة لا بد سأناك عن ذلك كله ، فجهت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام في هذا الشهر أكتوبر

سنة ١٩٣١ م وهو قوى البدن نشط، فلم على وبأدنى بقوله : هذه نصيحتك، وأشهد على ذلك طيبا كان معه ، وقال : أنت ترى أرض العمل في وقت ريفتي ؟ فقال نعم ، فسررت من ذلك كثيرا وأنتسرح صغرى ، وليس هذا بأول من تصدبت له من الطبقة المتعلمة من أخواني المصريين . وبما قلته في هذه المقالة : إذن عملت « بالباطحين » كما قت « بالمدرسين » والأولى كلمة معناها علم الصحة ، والثانية كلمة تدل على علم الدواوة . فقال نعم .

وهذه المسامرة هي المتعلقة تمام المطابقة كما قلنا آتينا على حال المسلمين الذين لا يعرفون إلا علم الفقه فهؤلاء الآن يقينا قد قاموا من رقبتهم ، واستيقظوا من غفلتهم ، وقرءوا العلوم ، وأنا أجد الله عز وجل إذ أن الأزهر الذي تملت فيه خلاطرات في هذه السبيل ، ركبنا بقية بلاد الاسلام ، وهذا التفسير من مقولات تلك الحركة في عالم الاسلام ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبي : حسن هذا المثل ، وجبيل هذا التنظير ، ولكني أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فهل في هذه السكينة فتح ؟ وأي أنواع الفتح هو ؟ قلت : حياك الله : أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام : معنوية وحسية ، وكل منهما جنود الإهلاك وجنود الأحياء ، ولا جرم أنه ﷺ قد فتح الله عليه فتحا علميا باظهار الحقائق له ، فأفاض على الناس بما يحتملون فهنا جيش معنوي نوراني تبعه جيش حسي وهم الفزاة الجاهلون . ثم إن ما فتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الاسلامية مثل ما افصح في هذا التفسير وفي غيره من بواهر الجباب إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تضيئ قلوب وقلوب وتسكن الحقائق كسالة الأمراض التي جعلت لفسادنا لا لإيذائنا ، فهذه حقائق واضحة لم تكن لتعلم للعموم إلا في زماننا ، أما قبل ذلك فأنها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله ولم يبيحوا للناس بطلمهم لأن الناس لم يكونوا مستعدين ، وهذه جيوش علمية نورية تقبها جيوش اسلامية حقيقية قيادة أهل هذه الأرض من أم الاسلام ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ومتى كان اجتماعهم مبني على ظهور الحقائق لم كالشمس في رابعة النهار ، فظهر لا جرم تكون قيادتهم لأنفسهم ولأولادهم وأمم ، وإذن يأمرسون بالمعروف وينهون عن المنكر . إذن الفتح العلمي في زماننا كالفتح الظهوري هذا التفسير من مضمون قوله تعالى في أول السورة : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وإلى هنا تم الكلام على الطليقة الثانية والحمد لله رب العالمين .

الطليقة الثالثة

في قوله تعالى : وثقه جنود السموات والأرض وكان الله عالما حكما اللهم إني أجدك جدا يوافق نعمك ، وبكافى مرادك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، جل وجهك ، وعز جاهك ، وإله إلا أنت ، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن نطرق فترى كلامك في كتابك كعلمك في خلقك ، وراك خلقت من كل شيء زوجين : الذكر والأنثى ، والساب والموجب ، والغالب والمغلوب والعالم والجاهل ، والحي والليل ، والذكر والأنثى ، وهكذا ، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة ، بل هي مطردة وأوليس من العجب أن غزوات النبوة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات ، وجيع حروب هذا العالم الانساني لها نظائر في أجسامنا .

يا سبحان الله : إن الله يقول هنا : ليس جندكم في غزوة الفتح وغيرها هم جندى وحدهم . كلا . بل لي جنود في السموات وجنود في الأرض ، أدبرهم بعلى ، وأنظمتهم بحكمتي ، وكل هؤلاء قائمون بما عليهم وعملهم نافع لحياتكم وحياة غيركم ، فكما أنكم جيش إلى هذه الأرض ومعكم نبيكم ، تحاربون الكفار الجاهل

المفسدين في الأرض ، الذين لم تكن لهم جامعة تجمعهم ، ولا رابطة تربطهم ، بل هم قوم مشتتون ، فيحطهم تبع بلاد الفرس والأكرسة ، وبعضهم تبع بلاد الروم والقيصرية ، غارتهم هذه الأمم بأرشاد نبيكم وتريدون ادخالهم في جاحثكم الاسلامية ، فتصبح الأمم كلها جسدا واحدا جميعا ، فهكذا كان فعل في أجاسكم ، إن جسم الانساق متين للجسم العالم للانسانية كلها ، فالكرات البيضاء في الجسم ومادها من جنود الجسم كلها تقاتل وتحارب أعداء هذا الجسم ، وتنصر عليها وقتلها ، والا فلاجسم للبشر ، ولأحياء ولا لبقاء .

وما كدت أصل لهذا المقام حتى حضر صاحب العلامة الذي استاذ محمدي في هذا التفسير . فقال هذا حسن جدا ، ولكنه كلام غامض ، إن المخرجين في الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال هجينة ، وأين الكرات البيضاء المذكورة ، وأين الحرب للشهورة بين الأمم ؟ قلت له : حياك الله ويحك ، إن الحرب في جسم الانسان تشابه الحرب التي تراها بين الأمم سواء بسواء ، والنوع الانساني لا يزال في حوب وضرب حتى يصبح أمة واحدة ، ويصبح كله كتلة واحدة ، تحارب الطبيعة المحيطة به ، لينال منتفعا ، فلزوات الحمضية فتتحلب لرقى الأمم ، والناس الآن بحاربين حريين : حوب مع أنفسهم ، وحوب مع الطبيعة ، والغزوات الاسلامية مبدءا لازالة العناصر الضارة بالجسم الانساني كما تغزو الكرات البيضاء والفارية وغيرهما الحيوانات الطارئة على الجسم الضارة به ، حتى اذا لم يبق في الانسان شئ ولا أديم أصبحت الانسانية كلها جسدا واحدا تحارب الطبيعة حولها بأذن ربها ، فكنتها إذ ذاك في زمن السلم العام الذي بشر به القرآن في سورة القتال المتقدمة ، بلصة واحدة تتلع غيرها ، ولكن هذا العبر ليس من جنسها .

حيث قد قال صاحب : أنا الآن أصبحت في حوب كلامك جميل ، ويانك بديع ، به عرفنا أن الله جنودا يطرقي السمع ، وأنت فصلت بعضها وهي التي في الجسم البشري ، ولكن القرآن كتاب عرقي مبين وكلامك وإن كان حسنا فيه التباس من وجهين : الأول أن هذه الجنود التي في جسم الانسان لم تتيق بالانضيل حركات كرها وفرضا ، وغدوها ورواسها ، وأسلحتها ومحاصرتها ، وقلاعها وتكناتها ، وانها زامها وانتصارها ، وخنادقها ، وسمومها القتالة . الثاني : انك ذكرت البلمة والاموية ، فهذه كانت ليست عريية والقرآن سهل فلذا لم يكن التفسير أسهل من اقرآن فاه لا يكون تفسيراً ، بل تفسيراً ، وقد عهدناك بما سبق من هذا التفسير كرماسهل دلل الناس فيه ، وعظم فقهه ، فقلت له : أيها العزيز ، اني لم أذكر الحرب والضرب والجهاد ، ولا البلمة والاموية إلا وقد أعددت لها عقبتها ، وأحضرت معي مقالا أذكره في هذا المقام . فقال : إن كان من مقدك فأنت لست من علماء التفسير ، وإن كان من مقال ضيرك من علماء التفسير فاهم لا يتنبرون أن يصفوا الحرب المكرويات والكرات البيضاء وصفاً ينطبق على الحروب المعلومة لنا حتى يخرج قارئ التفسير من لثقال وقد يقرن بأن الله جنودا يخرجون الانسان ، يشاهد كرها وفرضا . قلت : انك حصرت الكلام في مقامين ، وهذا المحصر قوض بمقام ثالث . فقال بينه لي ؟ قلت : إن الكلام لطيب مصري ، وهو الذي وصف تلك الأوصاف التي ذكرتها حينها في الجمع المصري للثقافة العامة سنة ١٩٣١ أي سنة طبع هذه السورة ، وهذا حجب ، وهو معجزة جديدة للقرآن ، وكيف لا يكون معجزة والناس عاشوا وباتوا وهم يقرءون : « رثه جنود السموات والأرض » ولكن أكثرهم لا يعرفون كيف تكون تلك الجنود ، وكيف غزواتها ؟ حتى ظهرت الآن فيما ستره من قول ذلك الطيب . فقال : إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضا مسعدة هي فتم : « وفي أنفسكم آلات تبصرون » وساعدة على فهم قوله تعالى : « مناخلكم ولا يشكم إلا كنفس واحدة » ففي أنفسكم واحدة يحصل ما يحصل في جميع نوع الانسان ، فأرجو أن أسع أولا خمسة المحاضرة التي ألقاها الطيب . ثانيا نفس المحاضرة . قلت : أما الخلاصة فهي أنا نرى الجسم لانسان عبارة عن مدينة محيطة محيط بها سور متين ، وهذا السور محاصره جيوش تعد

بألاف الآلاف من الأعداء ، تريد دخولهم تعيش حياة هائلة كما يريد الأوروبيون أن يعيشوا حياة هائلة في بلاد الاسلام بظلمها وارتهاقها واذلالها ، ولأبعد لها تلك الجيوش بما تدخل منه إلا المناقل للموتحة كالم فتحل منه ، وهناك تصل إلى المعدة ، والمعدة فيها صعب معدة لاهلاك تلك الحشرات ، وهذا الصبر يهضم الطعام ، ويقتل تلك الميكروبات ، ولكن إذا أسرع الغذاء في الانزلاق من المعدة وجري إلى الامعاء فان تلك الميكروبات لانموث ، ولكن تسير إلى الامعاء ، لأن مدة إقامتها في المعدة لا تكفي لإبادتها ، وقطع جراثيمها ، وهذه ما تكاد تصل إلى الامعاء حتى تلاقى حتمها ، لأنها لا تجد هناك الاكسوجين الذي لا تعيش إلا به ، ولأن الجنود المجنسة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء ، فهنا خط دفاع أول وهو الجلد ، وخط دفاع ثان وهو الصبر للعدى ، وخط دفاع ثالث وهو الامعاء المهلكة لهذه الأعداء ، فهذه الأعداء الدخالات في الجسم أشبه بالأمم الأوروبية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها ، وتبديد شملها ، وقطع دابرها ، وكنم أنفاسها وإبادتها من الوجود ، فلم تمتد السواحل ، ولكن لما أرادت التغول في البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحا وتقطيعا شنيعا ، ورجعوا بخيـّ حنين هكذا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها الصبر للعدى أهلكتها الامعاء بقلة البيرة الواصلة إليها وبجسبها في مكان مظلم لاهواء فيه فقطع أنفاسها فهلكت ولات حين مناص .

هذا ما كان من جهة الجيوش الجبرارة الواصلة من القم ، فلذا وصلت من طريق آخر وتكاثرات كان وصلت بطريق جرح أو نحوه وتكاثرات بأي طريق كان فانها تموزل في الجسم ، وقتلك بالخللايا الجسمية ، وتقطعها تقطعا ، وتتغذى بالمواد الغذائية التي في الجسم ، فهناك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم ، فتأتي الجيوش من أطراف المملكة ، وتحاصر المكان ، وقتل ما فيه من الميكروبات ، وهنا تكون القتل من الجيوش المهاجمة ، والجيوش المدافعة ، والخللايا التي وقتت في ساحة القتال ، فهذه كلها تصبح مادة سائلة صفراء ينبت بها الجسم إلى الخارج ، وهذه العملية تراها في أمثل العمل ، فهو في أثناء حصار الجنود الجسمية للجنود المهاجمة من الميكروبات يبدأ نفوذ ، فلذا وقتت الخوصة ، وانهت المعركة ، فهناك تكون المادة السائلة ، وهو القيح ، وهناك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تخفيف الجرح وتنظيم المكان بعد أن فتح الجلد بأن تأكل كل منه جزءا فيخرج القيح ، وهورم الأعداء ومن معهم ، هذه حال هذه المواقع الحربية .

ومن يجب أن الانسان اذا شاكنه شوكة في يده مثلا أحس بعد مدة قصيرة أن هناك تحت إبطه وربما هنا هو ذلك الورم ؟ وهل ذلك الورم إلا ثكثة من تكتلات الجنود الوطنية في الجسم التي اجتمعت لتهاجم الجيوش الجبرارة التي اجتمعت لتطارد الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح ، وقد يحصل للريض حتى بسبب تغفل الأخطا في الجسم ، وهذه الحلي إنما جعلت في الجسم لأن الأخطا المتضعة يوزعها حرارة ترتفع لتخلص منها ودفع شرها ، ولأن المريض كان من ذوى الإرادة النوية فلم يكثر من الطعام ، أو أكثر منه ولكنه جلس الجسم مترنما بما يفعله من التفرينات الضلعية ، أو اللشى في الحلاء ، أو الجلويس في ضوء الشمس مع الاحتراس ، كما هو موضح في أول (سورة يونس) ، أو استحم بالبخار ، أو بلقاء السلغن أو بالكهرباء .

أقول : لوصل المريض أحد هذه الأعمال لم يقع في الحلي ، فهنا حتى ودمل وقرح وأورام وغيرها ، فهذه كلها لم تسكن في الجسم لا يذأ الانسان ، بل لاصلاح جسمه ، وبهذه الآلام إلا مذكرات ، فهي سعادة لاشقاء ، ونعمة لائمة .

فلما سمع ذلك صاحي . قال : أهذا نوع الكلام الذي يقوله ذلك الطبيب المصري في خطبته الآتي ذكرها ؟ فقلت نعم ، ولكن انتهى له إنما هي عناصر الموضوع ، فأما بنؤه فانما هو من هيئة سبر التفسير

ونظامه . فقال : أحب أن أسمع خطبتك إذن بنصها . فقلت : سيأتى ذكرها قريباً إن شاء الله

إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض

من قوله تعالى : وفيه جنود السموات والأرض

وذلك ما قرأته في كتاب الترجمة في المدارس الثانوية ، ذلك أن الهم عبارة عن سائل لالون له ، وهذا السائل يحتوي على جرائم صفة كثيرة يسمونها الخلايا ، وهذه الخلايا قسبان : قسم أحمر وقسم أبيض ، وكلا القسمين في غاية الصغر ، حتى أننا لو أخذنا قطرة دم صغيرة (وهي لا تكون أكثر من جزء من ٢٠ ألفاً من البوصة المربعة) وحللناها لوجدنا ما فيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية ، وما فيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية ، ولا جرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لا تعدو أن تكون قدر سن الأبره لاخير ، فإذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكيف في تلك الأبطال الكبيرة من أعداد هذه الخلايا ، ثم إن وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين : قسم هو جلب المصالح ، وقسم هو دحر المفاسد ، فهى من الجهة الأولى أشبه بالثياليين ، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة ، ويتقاربون إلى أطراف المملكة ، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والكنسامين ورجال مصلحة البحارى بمصر أولئك الذين يصرفون ما ينزل من البراز والموائد الضارة في مواسير تدفعه إلى الخارج دفعا للضرر عن السكان ، فهذه الخلايا الحمراء هكذا تمنع فهى تستقبل مادة الحياة السارية في الهواء المساءة بالأكسوجين فتحملها من الرئتين ويحرق بها لتوصلها ، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء ، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاصلة من الأنسجة بعد تقاطعها ضاراً بقاؤها بالجسم ، فهذه الخلايا الحمراء تحملها وترجع بها جارية جريا حيثما حتى توصلها إلى الرئة وتطبخها للهواء الجوى ، فيقبلها وينبثها خارج الجسم ، ففى أثر ذلك في المرء إذا تنفسنا أمادها ، فيكون هناك مادة غنية على الزجاج تمنع رؤية صورنا ، وهذه المادة القهمية هي التي نشأت من احتراق المواد الغذائية في الأنسجة ، فهذا كله أشبه بما تفعل في مدتنا من استقبال النافع ونبذ الضار . هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء ، وهى أيضا تعطى الهم لون الحرة أما الخلايا البيضاء فإن منفعتها أشبه بالجنود المجتهد في المدن ، المدافعين عن البلاد ، الشاكي السلاح ، الشجعان الجاهليين ، الأمائل العظام . فهؤلاء إذا وردت جيوش قتالة من الخارج ، وما أكثرها في الجوى ، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا ، فإن هذه الجيوش البيضاء تقاطعها ، وتحمي حتى الحمار ، وتحامي عن السكان ، وتحفظ البيضة ، وتقاوم الأبطال ، وبيان ذلك أنها تصطبغ صفواً ، وتهمج على الجيوش القادمة ، وتخرق أجسامها ، وتكتم أنفاسها ، فتحتقن أو تلتقي عليها السم فتتموت ، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء .

فلما أطلع صاحبي على ذلك . قل : هذا قول جليل ، لاسيما أنه يقينى لأنك ترجته من كتاب محترم في المدارس ، فليس يثل أن يكون فيه خطأ ما ، ولكنى أريد أن أرى ذلك بعيني فليس اظنير كالبيان ، لأنى لو رأيت ذلك بعيني لكان ذلك من مضمون قوله تعالى : « سأوربكم آياتى فلا تستهجنون » وقوله أيضا : « ولتعلن نبأه بعد حين » وقوله : « وقل الحمد لله سبربكم آياته فتعرفونها » . فقلت أما إذا أردت ذلك فهناك نص ما قاله الدكتور ، وهو ما جاء في الكتاب السنوى الثانى للجمع المصري للثقافة العلمية ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالى ما يأتى : —

المعركة اليومية في الجسم البشري

الوقاية الطبيعية للجسم

مقدمات . العدوى والمرض . المناعة . الميكروب وقوة أمراضه . الغذاء بين الجسم والميكروب . الميكروب في داخل الجسم . الخلايا البالغة . الحرب بين الميكروب والخلايا . الوقاية التوعوية . الخلاصة

سادق : لا نزاع في أن الأمراض المعدية من أهم الأخطار التي يتعرض لها جسم الإنسان في حياته ، وتتأثر بها صحته وهي كما يعرفها كلكم تنشأ من فعل كائنات حية دقيقة من مملكتي الحيوان والنبات ، ويطلق عليها الأطباء اسم الميكروبات ، وهذه الكائنات موجودة في كل مكان ، وفي جميع الأوساط التي تحيط بنا ، إنها تعيش في الأرض ، وفي الماء ، وفي الهواء ، وعلى الأغشية المخاطية المبطنة لتجويف البدن ، وخصوصاً في الأمعاء التي تزدحم بمختلف أنواعها ، وكذلك خارج الجسم على سطح الجلد .

وليست كل الميكروبات خطيرة على الإنسان ، فبعضها لا يدخل إلى الجسم وهو على قيد الحياة ولكنه يتخطى حواجزه الطبيعية بعد الوفاة ، ويتكاثر في رقايقه حتى يحوله إلى تراب ، ولكن بعضاً منها يكون خطراً على الإنسان ، وهو على قيد الحياة ، إذ يمكنه أن يخترق موانع الجسم وينفذ إلى داخله فينمو ويتكاثر على حساب المواد المضنية للوجود فيه ، على أنه ليس من الصعب أن تحتجب تلك النيوف الثقيلة بالابتعاد عن مواطنها ، أو بإدلتها بواسطة التطهير أو التبخير ، أو بعزل الأصحاء عن المرضى ، وبهما يكن من أمر بعضها الذي لا يمكن تجنبه نظراً إلى وجوده في داخلنا أو حولنا ، فإن لدينا من ظاهرات الوقاية الطبيعية ما بهول دون العدوى .

العدوى والمرض

ولكن يمكننا الوقوف على سر هذه الوقاية الطبيعية يجب علينا أن نعرف أولاً ما هي العدوى ؟ فالعدوى هي عبارة عن الظاهرة التي تنشأ عن دخول الكائنات الحية الدقيقة في الجسم ، أما المرض نفسه أي إصابة الجسم بالعدوى فهو ما ينشأ عن وجود هذه الكائنات بذاتها ، وما تحدثه من تفتت سمومها فيه ، سواء أكانت هذه السموم نتيجة إفراز هذه الكائنات مدة حياتها في الجسم ، أم نتيجة التحلل ما دتها بعد موتها ، لذلك يجب أن نفرق بين العدوى في حد ذاتها وبين المرض ، أي بين دخول الميكروبات في أنسجة الجسم وبين إصابة الجسم من تأثير سموم هذه الميكروبات ، وتختلف الميكروبات باختلاف درجة سميتها ، فالميكروبات القليلة السموم يجب عليها أولاً أن تتكاثر وتتوالد بدرجة كافية حتى يمكنها أن تؤثر على الجسم البشري ، أما الميكروبات السامة جداً ، فإن القليل منها يكفي لتأثيره على الجسم ، ففي العدوى بالمرض القمحي مثلا كثيراً ما نرى أن دماء الحيوانات المصابة بالحلي ملأى بميكروبات المرض دون أن يظهر على الحيوان أية أعراض ، كذلك في ملاريا الطيور ، فكثيراً ما نلاحظ أن أغلب كريات الدم تحمل طفيليات المرض ، في حين أن الطير لا تبدو عليها أعراض المرض ، غير أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن في مرض الكزاز ، أو التيتانوس الناشئ من عدوى الجروح يكون عدد الميكروبات التي يمكن العثور عليها في بؤرة الإصابة قليلاً جداً ، مع أن أعراض المرض تكون شديدة وقاسية لأبلغ حد .

أعود فأفحص هذه الحقائق ، وهي أنه لا يكفي دخول الميكروبات في الجسم ، بل يجب أن تصحكون لميكروبات درجة سمية مخصوصة حتى يمكن للعدوى إحداث المرض ، أما للميكروبات القليلة السمية فتها تتأخر عن هذا التقص بشدة نوالها في الجسم ، أو بما نسميه قوتها .

أما الجسم البشري فإنه لكي يتمكن أن يقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يقي نفسه بأحدى الطريقتين الآتيتين : — (أولاً) أن يقاوم دخول الميكروبات فيه (ثانياً) أن يقي نفسه سمومها ، أو يزيل سمومها ، أو يجعل نموها صعباً ، إذا هجم عن مقاومة دخولها .
فالعنصرى وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات ، والمقاومة ، وإبطال سمومها من جانب الجسم هي العوامل التي يترتب عليها ظهور المرض ، أو عدم ظهوره ، وقد تكفى مقاومة الجسم للعنصرى إلا أن هناك ما يساعدها في مهتها ألا وهي المناعة .

المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية ، أو جنسية ، أو مناعة فردية . فالحيوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة ، فمثلاً الأمراض الطفحية التي تصيب الإنسان كالجدري والحمى القرمزية لا تصيب باقي الحيوانات كذلك بعض أمراض الحيوان كالطاعون البقري ، أو كوليرا الخنازير ، فإنها لا تصيب الإنسان ولكنها تصيب الحيوان ، وذلك لأن أنواع الحيوانات تختلف بمادة خلصة ، وهذا النوع هو الذي يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثية ضد بعض الأمراض ، كذلك هناك ما يسمى بمناعة الأجناس ، فمثلاً الحمى القرمزية لا تصيب الأجناس ذى البشرة السوداء إلا نادراً بخلاف الجنس الأبيض فهو شديد الاستعداد للعنصرى بهذا المرض ، وكما أن للأنواع والأجناس أحياناً مناعة ، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض ولكننا نعرفها ونشاهدها يومياً ، فمن منكم لا يدرك سنة ١٩١٩ م لما انتشرت الانفلونزا الخبيثة التي أطلق عليها اسم « الحمى الإسبانية » وكيف أنها كانت تصيب بعض أفراد في بيت واحد ، وترك البعض الآخر رغمًا عن تعرضهم للرض وإنه ألهم المباشر بالمصابين به ، ومن منكم لا يشاهد في أولاده أو أقربائه أن بعضاً من الأطفال يصاب بالحمى الدنكي ، أو الجدري الكاذب ، والبعض الآخر يقي سلباً رغم تعرضه للعنصرى بميكروبات هذه الأنواع .

يبدو أن هذه المناعة للأفراد ، والتي نسميها المناعة الفردية ليست مطلقة كما هو الحال في مناعة الأنواع والأجناس ، بل هي مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ ، أو ببساطة أخرى إنها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصي للرض ، أو قوة مقاومته له ، تلك المقاومة التي تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالتمرض لدرجة الحرارة ، أو لتأثير الجوع ، أو التعب . هذا في الجسم البشري ، ولتعدد بعدئذ إلى ناحية الميكروب :

الميكروب وقوة أمراضه

وكما أن الجسم له استعداده ومقاومته كذلك الميكروب له أيضاً استعداده ومقاومته ، فبعض الميكروبات لا يمكنها أن تتكاثر في جسم الحيوان لعدم سلامة حرارة الطبيعية لنموها مثلاً كميكروبات المرض القحوي ، فإنها لا تتكاثر في جسم الدجاج ، أو الضفادع ، لارتفاع درجة الحرارة في جسم الأولى وانخفاضها في جسم الثانية ، ولكنها تنمو وتتكاثر إذا خفضت درجة الحرارة في الأولى بنفس أرجلها في الماء البارد ، ورنعت الحرارة في الثانية بوضعها في أفران التبريد ، كذلك سلالات الميكروبات تختلف فيما بينها من حيث قوة أمراضها . فهي قد تصف في حتمتها إذا عشت في ظروف غير مناسبة لها ، وقد تزيد إذا لادها الوسط الذي تعيش فيه إلى غير ذلك . لا يريد أن يتعرض له في كلاً من الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبتعد عن موضوعنا ، وإنما أردت فقط أن بين لكم ماهية العنصرى وما يقبها من عوامل ومؤثرات . ودعوني الآن أن أنتقل بك إلى موضوع محاضرتي هذه وهو شرح تلك العداوة الكائنة بين الجسم والميكروب :

المدواة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب يحكم تنازع البقاء هذيان لمدوان ، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره ، مهما كلفه ذلك من عناء أو تضحية ، وهو لا يتوقف في سبيل ذلك أن يفرغ مافي جعبته من قوة لإبادة الآخر ، كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل القتلك أو المقاومة لكي يفوز بالتصرف في آخر الأمر ، تلك سنة حياتهما كما هو الحال مع باقي أم العالم سواء بسواء .

والجسم الانساني يشبه في تكوينه وترتيبه وظلمه إحدى ممالك العالم ، لأنه مكون من خلايا أشبه بالكائنات الحية ، فلأخرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشري » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى ، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعباً ، ووسائل متنوعة لصد العدو ، وألفتك به ، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التي فصلها عن عالم الكائنات الأخرى ، ولها وسائلها في الكفاح والقتل ، فالعدو الطبيعية في مملكة الجسم هي الجلد مع مايقع من البشرة القرنية ، والغدد الشحمية ، والغشاء المخاطي الذي يعطن التجاويف الأنفية والحلقية ، والمساك الزنوية ، والقناة الهضمية .

فالجلد هو ذلك السور الذي يشبه في أهميته ما كان لسور «بكين» بالصين من أهمية في صد غارات الأعداء عليها ، بل هو الدرع الذي تتساقط تحته قابل العدو عاجزة عن تخطيه ، ونحن إذا اخشنا تلك الطبقة التي تغطي وتحمي كل جزء في جسم الانسان ، وجدنا على سطحها أنواعاً لا تحصى من الميكروبات . منها العاطلة . ومنها المرضية كالميكروبات الفطرية السديدي ، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة (كالميكروب السرني أو الكزاز) لا يمكنها أن تتغذى من ذلك الفرع القوي ظلالاً لا يوجد فيه أية ثمرة تتسرب منها إلى داخل البدن ، وهذه القوة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوة ميكانيكية حسب ، بل هي تتوقف أيضاً على بعض عوامل أخرى تشمل بها ، فهناك مثلاً العرق المعروف بمحوضته التي لا تلامح حياة الميكروبات وخصوصاً الميكروبات المرضية ، وهناك حركة التجديد المستمر في الطبقات السطحية للجلد حيث يذف هذه الأجزاء أولاً بأول ، فيزيل باستمرار ما يجمع عليه من كائنات حية ، خصوصاً إذا ساعدناه في أداء مهمته باتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل ، فأعطينا حقه من التسهيل والاستعجال .

الميكروب في داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإن جسم الانسان أو الحيوان وهو يتنفس أو يأكل أو يشرب يجتذب إلى داخله هذه الأعداء ، عند ما تكون معلقة في الهواء ، أو مبنية في الغذاء ، أو سابعة في للشروبات . (وبعبارة أخرى) تتصل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطي للقم والحلق والمعدة والأمعاء وأعضاء التنفس ، ولو أن الغشاء المخاطي بطبيعته أقل مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد إلا أنه يمتنع عنه بأن به مادة مخاطية غريزها ، وهذه المادة الزبجة التي كثيراً ما تعافوا أنفسنا لها مهمة جليلة في قنص الميكروبات كما يتمسك ورق الصمغ التراب ، ثم بعد قنصها تطردها إلى خارج الجسم بواسطة العطس ، أو البصق ، أو السعال ، أو الخط ، ولكي آين لكم شأن هذه نفوذ الخبيثة في طرد الأجسام الغريبة إلى الخارج أدركتم أن العلامة (هيس) لاحظ أن العامل الذي يشتغل عشر ساعات يوميا في الأسمت يستنشق في السنة ما يقدر بـ ٣٠٠ جرام من هذا التراب ، فإذا استمر في عمله هذا عشرين عاماً يجب أن يكون قد استنشق نحو

سنة كيلوجرامات من الأسمنت أودعت في جوفه كلها ، اللهم إلا اذا تخلص منها بواسطة الطين أو البصق كما ذكرنا ، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تتصوروا القدار الكبير من الأجسام الغريبة التي يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أشنيتة الخاطبة وعملها العجيب . وليت وظيفة الغشاء الخاطي وظيفة ميكانيكية ، بل إن له أيضا قوة خاصة في إبادة الميكروبات ، فقد دلتنا الاختبارات على أن غطاء الأف ، ودموع العينين ، لها هذه القوة ، لاحتوائها على نوع من الجراثيم ، تسمى الجراثيم الحية « لينزيمات » تذيب وتحلل الميكروبات فتقتلها اذا ما اختلطت بها ، ونحما من وجود هذين الجاذبين : الخاطي والجراثيم ، فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القصبة الهوائية وشعبها ، ولكنها لا تبلغ إلى الرئة نظرا لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلا في طريقها ، ذلك الخائل هو الأهداب الموجودة على سطح الغشاء الخاطي لهذا الجزء من الجهاز التنفسي ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أي إلى جهة الفم ، طاردة بذلك كل ما يكون قد بانها من أجسام غريبة ، أو كائنات مؤذية . أما اذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة فانها تلتقي هناك بالصبر المعدى الذي يصتوي حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ في الأف ، وتلك النسبة كافية غالبا لقتل الميكروبات المرضية ، غير أنه يحوق عمل هذا الحامض « أولا » إن الميكروبات تكون غالبا مغطاة بجزيئات الطعام التي تحول بينها وبينه « وثانيا » ان المعدة قد تكون سريعة العمل في اخراج ما فيها إلى الامعاء ، فتموت الميكروبات بها سريعا قبل أن تقع تحت تأثير صبرها المظهر ، ولكن أثبت لفحساتكم قوة الصبر المعدى في قتل الميكروبات اذكر تلك التجربة المشهورة في تاريخ علم البكتريا التي قام بها العلامة (بيتينكوفر) وتلميذه (ايريج) التي أرادا بها أن يثبتا تأثير جراثيم الكوليرا على معدة سليمة وأخرى مريضة ، فتناول أولهما معدة ستيمرت مكعبة من مزرعة الميكروبات في المرق ، أي أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات ومع ذلك لم تظهر عليه أى أعراض مرضية مطلقا ، أما تلميذه الذي لم تكن معدته مصححة كمعدته أستاذة فانه أصيب بكوليرا حقيقية ، وكذا يلقى حقه ، وهذا يدل على المهمة الخطيرة لهذا الصبر .

بقي أن نعرف ما يحدث اذا ما وصلت ميكروبات الأمراض إلى الامعاء ؟ وهنا أيضا تجد نفسها أمام عقبات وتهدد حياتها عدة أخطار ، فأولا عدم ملائمة الجو هناك لمعيشتها ، ففي الامعاء لا يوجد غاز الأكسجين ، وهو ذلك العنصر الحيوى لفاعلية الميكروبات المرضية والتي لا يمكنها أن تعيش بدونها ، وثانيا التزاحم الذي تلاقيه من الميكروبات الحيدة التي تحيا وتعيش في هذا الجزء من الجسم ، ففي الامعاء يعيش دائما ميكروب هادئ ودع سلم يسمى (ميكروب القولون) يعيش بين فضلات التخنية كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل في عملية الهضم ، وهذا الميكروب يحكم جويته يحرم الميكروبات المرضية من غذائها ، فيحرمها بالتالى سبيل الحياة . بل هو يعمل أكثر من ذلك ، لأنه يمنعها من النمو والتكاثر بما يفرزه من مستحضات وفضلات . إن هذه الحقائق التي ذكرتها إن هي إلا صورة من الموانع الطبيعية التي تقى ملكة الجسم البشرى ، ولكن الخطر الحقيقي يحدث اذا ما اخترق العدو الحدود ووطأت قدمه أرض هذه الملكة ، هل يسلم أهل البلاد ويقفون سلاحهم أمامه ياترى ؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كيانهم وحياتهم ؟ ذلك ما سأوضحه لحضراتكم فيما ييجي من الكلام :

الخلايا البالية

إن الجسم البشرى كسك الكائنات الحية ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وكل كائن حي يعمل لحل وهضم كل ما يدخل إليه من مواد عضوية أو غير عضوية ، وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أخرى تدخل في تركيبه أو بنيانه ، هذه العملية تشاهد في أبسط صورها في الحيوانات المركبة من خلية

واحدة ، وهي التي نسميها « الاميبا » فهذه الاميبات تزحف بواسطة أرجل تطلق عليها «الأرجل الكاذبة» لتتجذ في البعث عن غذائها المتكوّن من الميكروبات والمطعاب ، فتأخذها في داخلها وتهضمها . ولما كانت عملية الاختناء هذه قاصرة على الالتئام بالقيلع ، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة ، أو البلعمات ، كما اتنا أطلقنا على هذه العملية اسم « البلعمة » .

وليس عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات البدئية ، بل يكاد يكون في كل حيوان بض من الخلايا مازال محافظا على هذه الخاصية ، فمثلا توجد في جسم الانسان خلايا الدم البيضاء ، والخلايا البطنة لتجاولف البطن والسدر والأوعية الدموية والليمفاوية ، وهي خلايا لها قدرة على التهام وبلع الأجسام الغريبة وهضمها . أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوّة بلع الموائد الغريبة عنه ، فلنعد الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم .

دعونا إذن نتصوّر أن واحدا منا قد وسّره إبرة ، فلذا كانت الإبرة نظيفة فإن الانسان يشترط بالألم الوقتي ، ومن ثم يلتئم الجرح ، وينتهي الأمر ، ولكن الحال تختلف إذا كانت ملوّنة تحمل بعض الميكروبات التي قدر لها أن تنفذ من الجلد داخل البدن ، فلو كانت هذه من الميكروبات العاطلة الراملة التي تتغذى على للتخلفات النباتية ، أو الحيوانية لكان الأمر ، لأنها تموت أو تتحلل بواسطة خلايا الجسم الحية ، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التي تستذوق الدم وتستمره ، وتعرف حلاوة ما يحتويه البدن من عاسن الغذاء فاستطاعت ، وتغفّت عن غيره من الطعام ، تقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر ، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة ، لأنها تميز عن تلك بسموها التي تتهاجم بها انخلايا فتطهاها وتشاها عن القيام بواجبها .

الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات ، وهي أعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار في الجسم ، ولم يبق أمام قوّة الدفاع وهي الخلايا إلا أن تمنقذ حيلها ، وتقوض غدر حروب ضروس لارحة فيها ولا شفقة ، حوب للحياة أولوت ، لا تختلف في مصداقها وآلاتها عن حوب الجيوش البشرية كما أن جنودها لا تنقصهم آيات البطولة والتضحية ، والآن اسمعوا لي أن أروي لكم قصتها كما رواها تحت الميكروسكوب :

تدخل الميكروبات مملكة الجسم ، فتجد نفسها في أرض جديدة غريبة هنا ، فتجمع أمرها ، وتز شملها ، ثم تسار على انخلايا المجاورة لها تبتز منها غذاءها ، ثم تتكاثر على طريقها بالانطلاق إلى اثنين ثم أربع وهمّ جرا ، وبعد ذلك الاستعداد لتقدم في هجومها ، فتقت من أجسامها سبا فتلا ترمي به أفراد المنطقة التي احتلتها ، واذ ذلك لا تستطيع الخلايا أن تقف مكتوفة اليدين ، بل تقعد على الفور إلى الدفاع عن نفسها ، فتتلف عليها سيلان من المصل السموي ، يجوز من فعل هذا الدم ، ويخفف من حدته ، ثم تنجلى المعركة الأولى من قتلى وأخلاء من خلايا الجسم ، ثم تتحلل هذه الأشياء إلى عناصرها الأولية كما يتحلل كل شيء عند حنائه ، وتحمّلها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذي يتهدده ، وبالكثرة التي حلت به ، ولانث أن نرى الحياة تخرج من معاقها ، وما تلك الحياة ؟ وما هؤلاء الجنود ؟ إلا انخلايا البيضاء ، أو البلعمات التي ذكرناها ، والتي يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن ، إذ لا يمضي زمن طويل حتى تمتد الأوردة الشعرية فزيد كمية الدم صوب المنطقة الحاصية ، وعند ما قامل البلعمات السابعة في مجرى الدم إلى تلك المنطقة فنقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما تزحف الاميبا ، فرادى في أول الأمر ، ثم

جاءت بالثلاث وباللوف ، وعندئذ أصبح الحرب سجلا ، فليكتروات تنفث سموها ، والجسم يرقل عملها بسيل من الحسل ، فتنتفخ المنطقة المصابة ونحمر ، وذلك ما تعرفوه بالالتهاب ، ثم تشترب البلعمات رويدا رويدا من العدو ، وتأثيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، ونحوه من كل النواحي ، ثم يأثيها اللد من أن الآخر ، فترداد عددا ، وتشتد حصارا عليه ، ثم تبني سورا منيعا حوله يصد عنه باقي الجسم ، وإلى هنا تكون قد انتهت للنلوشات والتاورات ، ويتبدى بعدئذ الجورة البشرية ، فتتقدم كل بلعمة إلى الميكروب الذي أمامها تعلق عليه بجسدها حتى تبثله في جوفها لمقتله ، وقد ينجح الكثير من هذه البلعمات في قلة الله وقد يموت البعض شهيد الواجب ، ولكن العدو لا يستسلم لليأس ، ولا يسلّم بسهولة ، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يلاها بمحاربين آخرين ، بدل العشرة مائة ، وبديل المائة ألفا ، هذا من ناحية الميكروب ، أما من ناحية الحلأيا فإنها أيضا تصلها التجدة واللد ، ونستأف المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة ، ولكن إلى متى تستمر فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتتقاتل : بل إلى متى تتحمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن أن تستمر الحال طويلا ، وإذن لاندوحة عن التبعة العامة لكل محارب ، وكل من يمكنه حمل السلاح .

الآن تبرع كل بلعمات لهم إلى القتال على جناح السرعة ، ويخرج الريدف منهم والمخزون في مستودعات الطحال ونخاع العظام إلى ميدان القتال ، وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر « الجسم في حي » لقد حشد الجسم الآن آخر رجل في نكباته للقيام بأخر مجهود ، فلما نصر ، وإما هزيمة ، وهل يتم له النصر ؟ من يدري ربما كان كذلك ، لأن العدو وإن كان قد زاد عددا إلا أنه لم يتوغل كثيرا في أرض الوطن ، بل أصبح محاصرا في مكانه ، وإذا كانت المملكة الجسم قد جربت حرب الخنادق ولم تفلح فيها كثيرا فلم يبق بد من تغيير خطة الحرب كما يفضل كل قائد ماهر في مثل هذه الأحوال .

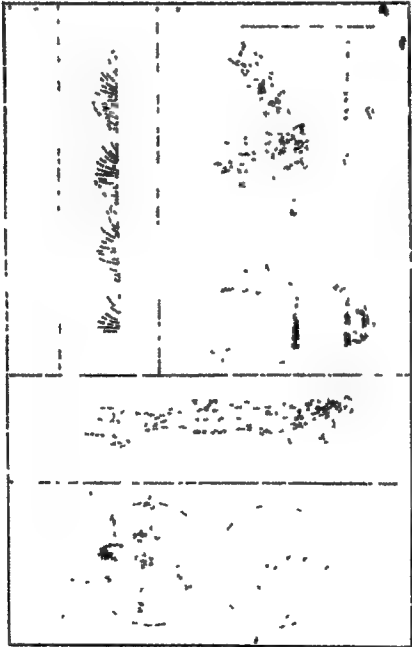
الآن يبدى للمملكة في تصحية جزء منها لكي يدلم المجموع ، ومن ثم يقع تمهيد هذه المهمة على عاتق البلعمات أيضا ، فهي يتبدى في اتلاف النسيج المصاب أولا بقتل الحلأيا وتأثيها بهضمها ونحوها إلى عسيدة سائلة ، فينشأ عنه تجويف مملوء بهذا السائل ، أو تملأون ما هو هذا التجويف ؟ هو الحراج الذي يظهر في موضع حصار الميكروبات ، والسائل هو ذلك الصديد الأصفر الكؤن من أنسجة مهضومة ، وآلاف من البلعمات وملايين من الميكروبات ، ثم يأخذ هذا الحراج في الازدياد ، وكل ازداد حجما كما صار ألين وأبيع حتى إذا لمس أحسن الإنسان بترجيع السائل فيه ، ولبت عمل البلعمات يقف عند هذا الحد بل أنها تنجبه صوب الجلد فتلفه وتضمه من أسفل حتى ترق طبقة وتحدث ثمة فيه فيندفع الصديد إلى الخارج ومعه الميكروبات .

الآن والآن فقط قد طرد العدو خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غالبا ، فقد كدها ثما غالبا وتصعيت في أفرادها ، ولكن يهون كل ذلك مادامت للمملكة قد أخذت ، وهنا يبدأ بال الجسم على مصيره وكيانه ولكن البلعمات هؤلاء الحماة الأشداء لا يهدأ لهم بل وفي الجسم جراح فيصعدن إلى عملية الانفعال لأنهن أبناء المملكة البررة وعنتها في الحوادث والملمات ، ويجب عليهن أن يطهرن ميدان القتال من جثث أعدائهن ، ومن أشلاء مواطنيها ، حتى يمكن للجلد أن يتجدد ويسد الثغرة ، ويكون ذلك بأحداث ندبة تبقى على عمر السنين والأعوام كمنصب تذكارى بنى بمكان المعركة والنصر الذي فاز به الجسم ضد أعدائه المغيرين ،

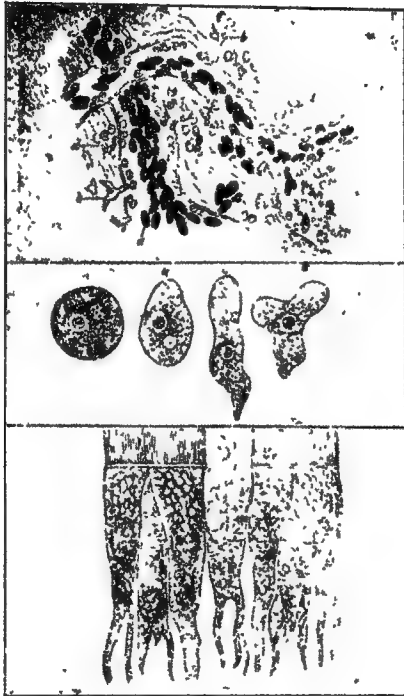
سادى : عند ما وصفت لكم المعركة الأولى قات لكم : ان البلعمات تقترب رويدا رويدا من العدو ، وتأثيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، ونحوه من كل النواحي ، وتحاصره إلى أن تبني من نفسها

سورا منيما حوله ، يفصله عن باقي الجسم ، ولكنه قد يحدث أن يكون العدو من شدة البأس والقوة ما يمكنه من أن يحطم جزءا من هذا السور وتفسد بعض جنوده داخل للمملكة ، فما العمل إذن ؟ هل تتركه المملكة ينسب في أحشائها فيعيش في البلاد فسادا يودي بحياة كل من يقابله في طريقه من الأحياء ؟ أم هل تخفف المملكة أهيئتها لمثل تلك الكوارث ؟ نعم إنها لم تكن غافلة عن ذلك منذ نشأتها ، لأن في دأملتها حوما وقلاعاً ملأى بالجيوش على أتم استعداد لمثل هذا اليوم الصعب ، وتلك الحصون والقلاع هي التسدد اليمغلوية ، فإذا ما اخترق العدو جوانبها الطبيعية ، ويخطى خط الدفاع الأول فإن مجارى اليمغا تحمله إليها فيلحق حفره فيها ، وذلك لأنها عبارة عن ثكنات ملأى بالبلدات المقاتلة .

ويوضح لك أيها القارئ ما تترامه في هاهنا الصفحة في (شكل ١ و ٢) فافتره ترى الجب الجب ! وهالك صورته :



بين — — (موقع) : حركة الأعداء الهجومية . (نكت) : شكل المصنعات لدى خروجها من الأوعية الشعرية وسط : المدد والجارى اليمغلوية — يسار : تجمع المصكرويات بواسطة للآزلات (شكل ١)



(شكل ٢)

فوق : تمعد الأوعية وابتداء انتقال البلعمات إلى المنطقة المظلمة .

وسط : شكل الأميبا .

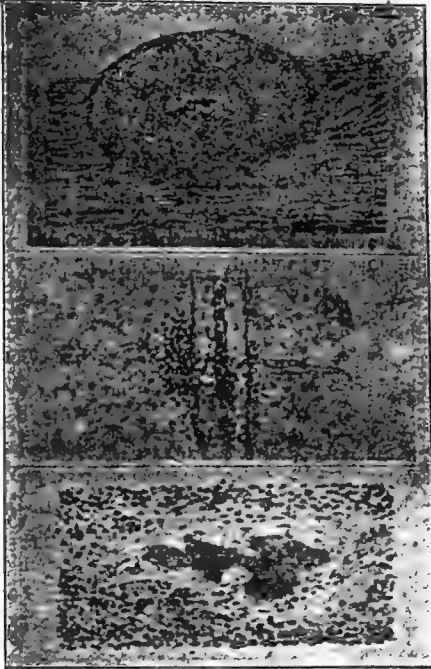
تحت : الخلايا الهدبية المبطننة للقصبة الهوائية .

ولكن أقرب ذلك إلى التهم أمول : إن أغلبكم يعلم أنه عند حدوث بعض الجروح في اليد ، أو التواء ، ينشأ من ذلك ورم صغير مؤلم تحت الجلد ، وما ذلك اليوم الصغير إلا عبارة عن غدد ليفوية تهيئ نفسها للدفاع عن الجسم فتملأه بالبلغمات التي تثب في سبيل الميكروبات المبرية عليه .

ولكن قد يحدث أن العدو بفضل قوته وضعف مقاوميه قد يتغلغل أيضا خط السطح الثاني كما يحدث أحيانا في الحروب العادية ، أي أن القلاع (أي الغدد الليفوية) لا تهوى على صد غارات الأعداء لهاجة فإذا يكون العمل بعد أن أصبح العدو الآن حرا طليقا في حركاته ، لاجنود أمانه تقائه ، ولا حصون تحرقه ؛ بل هو ينصب في البلاد ، سائرا في طرقها الرئيسية ، أي في الأوعية الدموية ، ملتصقا الغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها ، إذن الويل ثم الويل لهذه المملكة البائسة التي تمسح قترى أن في كل زاوية من زواياها ، وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنبا يذيقها الهلاك والردى .

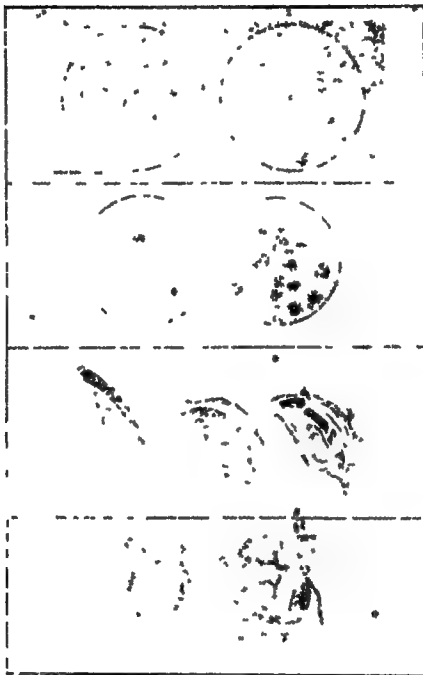
وإذا كان هذا هو الحال في عمالك الأمم فليس هو كذلك في مملكة الجسم البشري القوية المنظمة ، وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها ، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع ، إن في دمها التي يجري من قعر رأسها إلى أخمص قدمها ، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر من الوسائل ما هو أشد قوة وأكثر فعلا من الوسائل الأخرى التي شاهدناها إلى الآن ، وهذه الوسائل المتخزنة للأيام الصعبة أي عند ما يتسمم الدم وتسعر اليرقان فيه . قلت الدم ، والأخرى بنا أن قول مصف الدم أي ذلك الجزء للناقص منه الذي يمكن فصله بعد تحضره من الجلطة الدموية ، إن هذا المصل الذي يحتوي على مواد هامة تبيد الميكروبات سماها الصلابة (بوتنر) الذي كان أول مكتشف لها ، والتي يمكن أن يصبر عنها بالعربية «المواد الداعرة» وبالطبع لا يمتدح مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما تشاهد ظاهرة البلغمات تحت الميكروسكوب ، ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة ، وذلك أنه إذا أخذنا جزءا من المصل الدموي ، وأضافنا إليه قليلا من الميكروبات الحية ، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج وفترات متعددة وزرعناها على البشائر الملائمة لنموها الميكروبات رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المسبب يقل شيئا فشيئا حتى ينتهي الأمر إلى عدم العيش عليها ، لأنها تكون قد ماتت وأيدت من جراء تأثير المصل عليها ، كذلك توجد في المصل مواد أخرى أقل فعلا من المواد الداعرة ، فهي لانهلك الميكروبات وقتلها ، ولكنها تشل حركتها فقط ، وتجمعها على بعضها كتلاكتلا ماصة إليها من المرح داخل البدن ، وفي الوقت نفسه تسهل للباصات إلتئامها وتبسيبها ، هذه المواد هي التي اكتشفها كل من «جروير» ، «درهم» ، ويطلق عليها اسم «الاجلوتينات» أو «اللذات» سادى : إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هي وقاية خلوية خلطية ، أي انها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكلة ، أو اللعلمات ، إلى أحاطا لبدن ، أو المصل الدموي . (ومرئى في الشكلاين الآتئين فى الصفتين التاليتين وهما شكل ٣ و ٤ ما يوضح لك هذا القاء) . بقى أن نتحدث قليلا عن الوقاية النوعية ،





(شكل ٣)

- فوق : اتجاه البعثات نحو الجبل لمنه .
- وسط : خروج البعثات إلى ميدان القتال .
- تحت : البعثات تحاصر الميكروبات .



(شكل ٤)

- فوق : إزادة الميكروبات بالمواد الناحسة .
 تحت : إلتهاام البلعونات للميكروبات .
 تحت : إلتهاام البلعونات للميكروبات .
 تحت : البلعونات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

الوقاية النوعية

إن البدن لا يقف حيل العدوى عند حد الاستجابة بوسائله الطبيعية في مكافحتها ، بل هو قادر أيضا على تجديد ما فقد من المواد الواقية ومن البلسمات للكفاية التي تكون قد سقطت في ساحة القتال أثناء المصارع ولكن عملية التجديد هذه لا تقف عند حد الاستجابة لحسب ، بل انها تنزع في العادة إلى التعويض المفرط ، وانه لمن أجهب النظم في الكائنات الحية ما نشاهده فيها عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقوم بنوع خاص منصف هذه العدوى ، فخلا اذا كانت العدوى حى تيفودية وجه البدن كل قواه إلى تحضير المواد الواقية ضد ميكروب التيفود ، وان كانت العدوى كوليرا مثلا قام البدن بتحضير المواد الواقية ضد ضيات البضبة الأسبوية وهكذا دواليك أى أن الوقاية تصبح كما يبر عنها وقاية نوعية .

سادى : لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على حكيائه من غارات الميكروبات وسمومها ، ولست أخفى عنكم انها محاولة ناقصة ، إذ يضيق في المجال لو ذكرت لكم كل الحقائق التي أظهرتها الأبحاث العروضة ، والتجارب العلمية ، التي أجريت في السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض ، ولكن يكفي أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه .

الخلاصة

والخلاصة أننا حقا مدنيون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم ، وبالخروج إلى الخلايا الأكلة (البلمعات) في الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة ، وهذه الخلايا لا تقوم بعملها الجليل الذي وصفناه إلا لأن تلك هي وظيفتها التي اختصت بها بين أفراد ملكة الجسم البشرية ، ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل .

وقد عرفتم الآن كيف أن الجسم يبذل في حياته اليومية للملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك ودون أن يعلن عن نفسه ، أو يقتخر بعمله ، انه في حرب صباح مساء مع أعدائه ، مضحيا بالآلاف من أفرادها في سبيل الحياة ، ولكنني أشعر أنكم تتساءلون فيما بينكم قائلين : اذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة ؟ ولماذا نتألم الانسان الأوبئة بين حين وآخر ؟ والجواب على ذلك هو انه في بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدة وقسوة بحيث يجتر الجسم فريسة أمامها قبل أن تأنيه النجدة من جنوده ، على أنه اذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتدخلوا الحيلة له فذلك السبب هو تقصير الجنود ، وقصص مهمات الدفاع والكفاح ، والمعروف أن قصص وسائل الدفاع يكون عادة في الممالك الضعيفة . وكذلك الحال في ملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تكون أيضا ناقصة ، أولا تلاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء ، ولم ذلك ؟ ليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف في تركيب بنيتهم ، ضعاف في أجسامهم ، لسكانهم في منازل النجاسة التي لا تتخللها الشمس ولا الهواء ، ضاعف بذاتهم القليل الضليل ، ضاعف بتبعهم ونسبهم في الأعمال الشاقة المضيئة التي يجب أن يقوموا بها لكسب معاشهم ، فلذا عرفنا ذلك ، أصبح لزاما علينا أن تقوى أجسامنا ، وتزيد في مكافحة أبداننا كن نعطي جنوده القوة والنشاط للكفاح والدفاع .

فالى العمل بنظام ، والى الراحة بقسط وافر ، والى الغلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات الزواج .

إننا بهذه الوسائل نكون حقا قد غنا بالواجب علينا نحو أجسامنا ، وهياها للدفاع عن أعضائها . انتهى ما أردته من المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب ! وقال : لله در هذا الطبيب الخطيب ، لقد أجاد وأجاد وأبدع في تصوير هيئة الجسم والجنود المجندة فيه مما لم يسبق له فيها أعلم نظير ، ولكن لما كانت آية : « ولله جنود السموات والأرض » غير خاصة بجسم الانسان ، بل ان الآية عامة ، وقد فتح الله القلب بهذا القول أحييت أن تسمى قولاً عاماً به فهم كيف تكون تلك الجنود المجندة في السموات والأرض بقدر الامكان . فقلت :

فصل في جنود الإحياء والاماتة . أو الظلمة والنور

- (١) جند الكهرباء السالبة والموجبة .
- (٢) وجند الجوامد ، والسوائل ، والغازات ، والتبران ، والمياه .
- (٣) وجند الميكروبات التي للحياة ، والتي للاماتة .
- (٤) وجند الأغذية والسموم للحياة والاماتة .
- (٥) وجند الحشرات ، والطيور ، والحوام ، والبهائم ، والأفهام ، إحياء وإماتة .
- (٦) وجند النوع الانساني إحياء وإماتة .
- (٧) وتبين أن نوعي الجنود المذكورين يكونان ملاذيين ومعنويين ، فهنا أربعة أنواع من الجنود
- (٨) تبيان جنود الاماتة في أم الاسلام التي منعت شملهم مادية ومعنوية قبل زماننا .
- (٩) وجنود إحيائها في هذا الزمان بقسميها : معنوية ومادية .

مسامرة

قال : حدثني رعاك الله عن هذه الجنود كلها ، فان هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة ، ولم يكن ليخطر لي أن الأمر يتسع حتى يصل إلى هذا الحد ، وأن في الأضواء والتبران والمياه جنوداً ، فقلت في الأمر أسراراً وأتواراً .

الكهرباء السالبة والموجبة

فقلت : اعلم أيديك الله بنصره ، وأعزك بأعزازه ، ان هذه المادة التي نعيش فيها (كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) لا وجود لها : فهذه الشموس والأقمار والسيارات والتوابت والأرضون وما عليها من الأحياء والجمادات ، كل هذه لا وجود لها ، وما هي إلا ذرات ضوئية ، أبدعتها الحكمة الالهية ، فكان منها السالبة ، ومنها الموجبة ، هنا خبر هذه الدنيا ، وهذا أول الوجود المادي وآخره ، وليس لعلنا عصرنا علم فرق هذا ، فهذه العوالم كلها علوان هذه الأنوار سالبة وموجبة (انظر معنى السالب والموجب في « سورة الرعد » فهناك شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً عند آية : هو الذي يريكم البرق الخ) ولا يقرب هذا لنا إلا مانعه في نفوسنا .

الله أكبر : نحن نحن في أنفسنا بصور ، وهذه الصور لامادة لها ، وهي تظهر فيها ولا يطلع عليها أحد إلا نحن في غيلاطنا (وأنت قرأت هذا المقام في « سورة القتال » عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » في رسالة « سماء الفلسفة » وهذا المقام هو الذي به أسكن الخروج من الورطة التي وقع فيها أم وأم عن قبلنا من أليم سقراط وأفلاطون إلى الآن ، وهذا هو الفرج الذي فتحه الله للانسانية للخروج من مأزقها الفيلسفي) فهذه الصور التي نحن بها في نفوسنا بلا مادة تصور فيها تسهل لنا تصور ما يقوله علماء عصرنا : « إن أصل المادة إنما هو اسكهرباء السالبة والموجبة ، فإذا كان الانسان يحسن في نفسه بصور لامادة لها

فليس عجيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها مكتوبة من كهرباء تشتعل على سابلة وموجبة ، وبالكهرباء السالبة وبالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها ، فلامادة لهذا الوجود العظيم الذي اخترعه صانع الكون كما لامادة للصورتين المحسّين بها في قوسنا ، والتي عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقاوتنا في حياتنا .

خطاب الله عز وجل للعوالم

ولم أجد قولاً جامعاً لما أريد في هذا المقام مما اتقاه الله بطريق الإلهام على أحد الصالحين للملازمين لقراءة هذا التفسير وقد كراته ليلاً ونهاراً ، حضر عندي منذ أليم وقال لي : بينا أنا أذكر الله ليلاً إذ خيل لي كأن الله عز وجل يخاطب العوالم مبتدئاً بالكهرباء الأولى وهو يقول : أيها الكهرباء ، أنت من آثار نوري فلتسهرى في حركاتك اسراعاً حينئذ ، ولتكن حركاتك في الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة ، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأحمر إلى البنفسجي ، ولتكن هناك سبعة ألوان ، ولتكن مزجاً واحداً ، وهيئة واحدة ، فظهر للحيوان نوراً للشمس ظاهراً للعالمين .

إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدبرت الكهرباء كما أمرها الله ، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والبوكرية .

خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال : هأنت ذه قداً تبت طاعة وامنتت أمرى ، فهذه أول خطوة من خطوات مخالفتي ، ألافاسى : جدى الدير مسرعة ، ولتكن لك في الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة ، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأحجار وكل نبات وكل حيوان ، ستظهرين أيها الكهرباء لمون الناس والحيوان بهيئات مختلفت ، يحسونها قيعرون : هذا غلر ، وهذا سائل ، وهذا صلب ، وفي الحقيقة لا غلر ولا سائل ولا صلب ، ماهذه إلا أضواء كهربائية انتشرت سرعتها حركتها فاختلقت أفعالها فسميت حجراً وشجراً وماء وهواء ، هذا أول الأمر وآسره . وفي حقيقة الأشياء ولامادة ، وماهى لإحركات في عالم لا نوره ، وهذه الحركات متنوعات ، وهذا التسوق نتائج عجيبات . أيها الهواء : ليكن فيك جند للأحياء وجند للاماتة فإذا اشتدت هوائك وقوامك فأنت إذن جند الملاك ، تهدم القصور والصور وتقتلع الأشجار ، وإذا كنت حاصلاً من الأعراض المؤذية من البرد الشديد ، والحر الشديد ، فأنت رجة للعالمين . وأنت أيها الماء : قم بمنافع عبادى ، وكن حياة كل شىء ، وإذا أمالك غرض مما ذكرناه فأنت من جند الإلهة والاملاك ، وهكذا قال الله لكل حجر وشجر ونبات وسيرن : إنك جميعاً تكونون جنودى في حصول الحياة كما تكونون جنودى في إحداث الامات . أيها القلوب سى .

هناك صرحت تلك المخبرات بآلة واحدة وبات : رب . لم لم تكن بئند الحياة حسب ؟ ولم جعلتنا للضدين ؟ قتلنا : أيها المخبرات : إنك لا تعلم ما أعلم ، أأنك من المادّة ، والمادّة ضيقة العطن ، قليلة العطن ، لانس كل ما أعلم من الصور والأجود والأحوال ، فعلى يسع من الصور ما لا تحسبها مادتك كما تهتمه حقولك ذبح شجرة رجرة رجلة فقتل ما كان موت ، فيكون بخل في العلية ، ويكون العالم المدنى جبراً راجعاً إلى آلاف الآلاف من السنين ، وبلايين الملايين من القرون والأعقاب ، فأى بخل أقطع من هذا ؟ فوه هجرت مادتك من فاع هذه الصور كلها ، ولم تتحمل إلا صورة بعد صورة

تألفت فيها وقدّرت الموت والحياة ، وأنفذت جندين : جنداً للأحياء ، وجنداً للآلدة ، لتسع المادة ما تحتمله من صور الأحياء بقدر الامكان ، فهاكم أولاء بإعباري :

(١) هذه الفترات الصغيرة التي تعيش وتتكاثر في الأرض وتتوالد بلا حد ولا عدد ، وتقتت المواد الأرضية التي تصبح غذاءاً للنبات ، فهذه المادة نبات فطري يعمل حياة النبات للعلوم فهذه جنود نباتية أعدتها للحياة .

(٢) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر في المواد المتخمرة فعدها للفساد وللهلاك (وهذا تقم شرحه في بعض أجزاء هذا التفسير)

(٣) ثم انه لا طير ولا دابة ولا حشرة إلا ولها عطف على أبنائها ، فهي تبنى العش ، وتعلم الفرخ ، أو ترضع اللبن إلى آخر ماها لك ، فهذه بهذا الاعتبار جنود الحياة .

(٤) ولا أسد ، ولا نمر ، ولا فهد ، ولا وحش ، ولا مقر ، ولا شاهين ، إلا وبعثت حياتها موقوفة على أكل الأرانب ، والفئران ، وجميع أكالات الحشرات من الحيوان . فهذه من هذه الناحية جنود الاهلاك .

(٥) ومن جنود الاهلاك الجراد الذي يسطو على المزارع فيأكلها فيجوع الانسان ويموت .

(٦) ومنها الخمل الحاربة لخل آخر تهللكه بلاشفقة ولا راحة في جميع الأزمان .

(٧) أنا سلطت الضفكيت على القباب إذ تصطاده بشبكاتها اللطيفات .

(٨) وسلطت طيور (النمر) على الجراد فيكون لها طعاماً سائفاً ناصحاً لا أكالات (مذكور في سورة آل عمران عند قوله تعالى : بدك الخيل الخ)

(٩) وألمحت بي آدم أن يأكلوا السمك ، والطيور ، والأنعام ، كل هؤلاء جيوش الامانة والاعدام .

(١٠) كل هذه القاتلات للهلكات عاظت على أبنائها ، وفلذة أكبادها ، فهي جنود السموات والأرض ، جنود الأحياء ، وجنود الاهلاك .

(١١) وهناك جنود في نوع الانذان ، وهذه منها الخيرونها الشر .

(١٢) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يعملوا عبادي اعمل والذين ، وأمرت بعضهم أن يستعمل السيف أحياناً ، وأمرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية ، وجنود حسية ، فالأولى هي المواعظ والحكم ، والمجاذبة بالتي هي أحسن ، والثانية هي الجنود المجتدة بالسيف والسنان ، والضرب والطعان ، وأمرته أن لا يستعمل الجنود الحسية المادية الجبرمانية إلا بعد أن يرسل الجنود المعنوية

النورية ، فتكون تلك الجنود لاهلك الباسين ، وحماية لطيفين ، فالجنود النورية العلمية ، والجنود الحسية المادية الانسانية تكون لاختارة فنيين ، ولخدمتهن المهتمين .

(١٣) هنالك ظهر في الوجود أمة اسلامية عظيمة ، لها كيان خاص ، راحة منتظمة ، كأنها هيكل إنسان حي ، هي أمة كفر ، هم كلبس الواحد .

(١٤) ولكن عدل رحيم حكيم ، وقد سبق إلى ذلك لكم : من مدني فقت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة ، فاذأ بقيت هذه الحيرة ، الاسلامي بلاق مستمر فيه كان ذلك خلافاً في الظلام ، فلا بد من التغير والتبدل ، تستعمل شدة لأرضية جميع الأراضع الممكنة .

(١٥) هنالك سلطت الشياطين على قلوب ملوك الروم ، ونباسين ، ولاخشيديين ، ولطولونيين والسلجوقيين ، والألمانيين . والزياريين ، ولعزوين ، ولعندنيين ، ولعظميين ، وللماليك البرية والبحرية ، والعمانيين ، وغيرهم ، غرسوس . إلى كثير منهم بأسرف في المطاعم والملابس

والنساء والنظم والقتل ، وسلطتهم أيضا على رجال من أهل العلم ، فأخذوا يقتلون في الأمم الإسلامية مقالات تحض على افتراق الكلمة ، وتشتب الرأي ، وذلك بتأويل الآيات ، ووضع الأحاديث ، والجدل والمناظرة ، فكانت (١٧٧) فرقة ، وكل فرقة أصبحت فرقا ، كل يذمى أنه هو الحق بلدين وسواه في خلال مابين ، ها أنذا إلهادي صنعت في هيكل الأمم الإسلامية ماضته في هيكل الحيوان ، هيكل الحيوان تحمل أجزائه ، وتفرق أعضائه ، ولكن عناصر جسمه باقيات في الهواء والماء والقرب ، هكذا أم الإسلام باقيات ولكنها متفرقات ، فلا زالت تبعثر وتتناثر قليلا قليلا ، فوالث الملة الأموية ، ثم العباسية ، ثم الملوك الأخرى ، واستقل كل جزء حتى عصرا الحاضر إذ أصبح الإسلام قطعا متناثرة ، وأجزاء منبوذة ، وقد اتهمت الأمم التهاما ، كما هي شأن القريسة في الصحراء (قبل سنين أما الآن فلها أخذت في الانثام)

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كوني حبر عرقة في طريقي اللثائين ، وحارفي الصين ، واقصدي بلاد الشرق بالمرصاد ، فتوغلت فرنسا والسكتر في بلاد الإسلام ، ومنعتها عزة شاملة لترجع إلى عناصرها الأولية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه .

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى ، قتلت لأوروبا كفى من الشرق والشرقيين ، فقد جاء دورهم ، وهم سيكونون أنفع لعالم منكم أجمعين .

(١٨) فياروسيا دعي النصرانية التي خفت الإسلام خنقا ، وكوتى شيوعية بلشفية ، ولتقم بجانب تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان وإيران ، فقم بالشرق ، وكفت بالغرب ، واستغيطي بأمة الإسلام : هذا دوركم أيها المسلمون ، قوموا من رقدتكم ، وقدم قرونا فاستيقظوا قرونا ، أتم اليوم جيوش الأحياء والأهالك ، وفيكم جيوش اللعنوبة والتورية والحسبة الجرمانية ، وكفى يا إنكسكترا بويلفرنسا ، وبإيطاليا عن ظلم عبادي المسلمين ، قد انتهى دوركم أجمعين .

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين في الهند والصين والأفغان وبلاد جاوه والملايو وشمال أفريقيا وجميع آسيا وأوروبا أن اتحدوا وكونوا بدا واحدة ، وكونوا خير الأمم أجمعين ، وفي نفس الوقت قلت : أيها الفرنسيون : اجهبوا هود المسلمين في مراکش ، وابلوهم بالشر ، وأتمم يطلين اصنعوا شرا في طرابلس ، لأنى أريد بشركم ارتقاء واتحاد أم الإسلام (وهنا قال الاستاذ الصالح لى : فما كادت الآلة ان تصلان بعض الشر في زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم في سوريا والهند وبلاد جاوه يقطعون بضائع الأمتين ، ويهزمون مدارسهم ، وهنا ظهر في الإسلام عالم جديد لم يكن معروفا من قبل ، وهنا ظهرت أمته وهي التي ستكون كما قال الله فيها : « دكتتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلا ، أمة كانت متقاطعة متدبرة (إلا في العصر النبوي وما يقرب منه) ، أمة هاجها الصليبيون أيام صلاح الدين ، فلم يبق في وجوههم إلا بضها ، أما الباقون فانهتم لظفوا عنها في شمال أفريقيا وفي غيرها ، أما اليوم فإن الحوادث المزججت جعت كلتهم ، وسيكون لهذا في القريب العاجل شأن عظيم) . انتهى كلام الصالح المتدخل خطاب الله انشائي له .

(٢٠) ثم يقول سبحانه : وألممت رجالا ورجالا في بلاد الإسلام أن ينصحوهم بل الشمت ، وبعثتهم جنودا معنوية نورية ، فتنت معاقل القلوب ، وتحتل النفوس ، وتهزم جنود الشياطين وتطاردهم ، وتقتل هروشهم ، وتهزم جوعهم ، فتقضي على التمرات القديمة ، للمفرقات للكلمة ، فلا يبقى تلك السفايف ، ولا تلك السموم الفتاك الممزقة لهيكل هذه الأمة بأنواع التبطات الموضات ،

والبدع ، والاحتياز للفرق المتشعبة ، والطوائف المتفرقة ، فلن يضر هذه الأمة بهذا اليوم اختلاف المذاهب والشيع ، وتفرق الأهواء بطرق الصوفية ، وتمازج الرئاسات ، فان نور العلم سيجمعهم أجمعين ويرون أن هذا التنوع والاختلاف ليسا في أصل الدين ، بل هما في عوارض عرضت عليه من خارجه لامن داخله ، فيلتصمون ويتحدون اتحادا جوهريا ، وإن اختلفوا اختلافا عرضيا ، وهم يتقون .

(٢١) ومن جنود الأنوار تلك العلوم التي بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس في الأرض وفي السماء فهي هي الرباط الجامع للأمم على وجه الأرض ، ولأمة الاسلام ، وبها لا يضرها يدرك للمسلمون سر التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفهمون سر الأحداث الواردة في فضائلها ، والأقوال الواردة عن الأنبياء في محاسنها ، وكيف تكون سبحانه الله مل للزمان ومتهى العلم ؟ وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة ؟ وما هذه الرموز والأعاجيب ؟ لن يعرف المسلمون تنزيه الله في أمثاله التي يقتضيه التسبيح إلا بدرك بعض أسرار الطبيعة ، فلذا علم المسلم علما ليس بالظن أن القروح والسمائل (فيا تقدم قريبا) وأن الحى وأمثاله لم تخلق في الانسان إلا لاسعاده ، ولولم تكن تلك الآلام قضى عليه ، فانه هناك يفهم ماهو التسبيح ، وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة ، لانه لاسعاده في دنيا ، ولا في آخرة ، إلا بالاطمئنان وإدراك الحكمة في خلق هذا العالم ، فلذا رأى الانسان أنه محروط بعالم كله تنازع ، وكله مصادمت وأمرام وبلاء وموت وذل وهلاك ، فانه لا يهنا له بال ، ولا تستقر له حال ، بل هو في عالم مزعزع الأمن ، لاقية فيه ، بل عالم كله قص وشين ، فلا أمان فيه ولا اطمئنان ، وهنا قال ذلك الصالح : (فلا تكن أنا صحيح الجسم ، كثيرا لطيرات ، فتدق على النعم من كل جانب ، ولكني أجد الناس حولى يموتون ويمرضون ، واخشرات تموت ، والبهائم والطيور ، وكل لكل عدو ، فاني إذ ذاك لا يستقر لى قرار . فلذا أدرك العقل أمثال هذه الأسرار التي ظهرت في هذا الكتاب وفي أمثاله ، فانه يصبح في نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته ، وإليه الاشارة بقوله تعالى : «دعواهم فيها سبحانهك اللهم» وصرح بالحقيقة الناصحة فقال : «وتحيتهم فيها سلام» وفي آية أخرى قال : «إن المؤمنين في مقام أمين» وفي أخرى : «سلام قولنا من رب رجيم» .

هذه هي الأسرار التي في الاسلام ، وفي آية أخرى يقول : «ولللائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فتم عبي البار» .
لاسلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتي في هذا التفسير ، ولن يكون سلام في بلاد الاسلام إلا بجنود الله الجندة العنوية النورية التي تحتك بجنود الجهل الخفية على عقول القرون الاسلامية لتتسككة فتقطع دابرها ، وتقل - جوهرها ، وتلك الجنود إنما هي الحكمة التي يذنها الله في قلوب المسلمين شرقا وغربا ومنهم قراء هذا التفسير الذين سيكون منهم ملهمون وهم مفلحون ناصحون اه
فلما سمع صاحب ما قصته عليه من تلك الخطرات والخطرات تلك الصالح . قال : هذا كلام حسن ، ولكن من ذا الذي يدهى أن الله يخاطبه في زماننا ؟ وكيف تنقل خطابا عن صالح يدهى ذلك ؟ فقلت : انه لم يقل إلا أنه خيال ، ولكن هذا انياله مبنى على العقل . فقال : ولكن فيه مبالغة في أمر المسلمين وانهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيما . هذا ما يقيد هذا العقل . فقلت : سترى في الطوائف الآتية في كلام (لوزوب استودارد) ان الأمم الاسلامية ارتقت اليوم طفرة ، وقد فضت غبار الكسل واستيقظت ، وضرب الأمثال ، وأتى بما لاحظه من ضروب الخبيث في مقالات متتابعات ستفضح انفسا تملأ فيها سراه إن شاء الله تعالى كما

قلته لك . فقال : ولكن ما بالنا نرى بعض الأمم الأوروبية تضغط مضغاً شديداً على المسلمين . قلت : ألم يتضح لك في هذا المقال اقتضائنا أن ذلك الضغط إنما هو لايقاظ الأمم الإسلامية كما تقدم في ذلك المطلب الخيال ، ألم تعلم أن الجيوش المصنوعة النورية العلمية هجمت على قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فهذبت وفتحت ، وبنت الشرور وملأتها بالتفريات .

جيوش النور عمت بلاد الاسلام الآن ، وستفتح ما بقي من حصون الجهالة ، وتفتح المعازل والقلاع ، وستعزل كل شحنة ، وكل حصن ، وكل معقل في بلاد الاسلام ، وماضط الأوربيين على أمثال مرا كش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تسكّر الميكروبات في الجسم ، فيكون دمل قبيح فيصح الجسم أوكاً تكون حي وهي لم تخلف إلا لصحة الجسم ونظافته وسعاده ، لا لإضعافه وإهاته ، لاشر في الأرض إلا غير كما لم تكن الحي إلا لصحة البدن (كما تقدم قريباً) وهلمهذه جيوش النور تفوز القلوب الإسلامية فتصلحها ، وتقيمها جيوش النور فتفوز الأمم الظالة أولاً بالأعراض عن المعاملة ، ثم تستقل وتعلم بين الأمم أجيبين ، فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الإسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها باباً للشفاء كما جعل الحي والأورام أبواباً لصلاح الجسم ، إن العلم اليوم كشف الحقائق ، إن هذا هو الزمان الذي ظهر فيه معنى : « سترهم آياتنا في الأفق وفي أنفسهم » .

إذا أيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لامتني لبقائها إلا أن تذل وتضعف كما يموت الانسان إذا لم يصلح لبقاء في الحياة ، وإذا أذلها الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها .

إن العلم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعها « لاظم اليوم إن الله سريع الحساب » وما عرفناه من الحقائق القليلة دنا على بقاياها ، فأرى فرق بين الموت وبين الجرح والحي ، فإذا كان الجرح لصلاح البدن فهكذا الموت لصلاح الروح وخلصها من أدران البدن كما خلس البدن من اللؤذيات ، وشفاؤها بزواله كما شفى المريض بخروج الصديد والحم من بدنه بالقرح لأن البدن الضعيف قرح للنفس ، وكشفه الأمة من قرحي شملها ، وتشتت جمعها ، بدخول الأعداء بلادها ، فيكون الرقي بسبب لجراحها ، وتعلمهم فيها ، وعندهم لها ، ما هي إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للصلاح ، وهذه كلها جنود الله عز وجل : « وفيه جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكيما » .

فلما سمع صاحب ذلك : قال : صف لي جنود النور إماما لتضير الآية ؟ قلت : جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة ، فكل مخلوق في أرض أوسماء له صورة تراها العيون ، فتكون في الخيال ، فيفهمها العقل فتكون علما لأولى الأبواب ، وهذه الصور المخلوقة في السموات والأرض أبدعت بطل وإرادة وقنرة كما هو معلوم ، والإنسان لسان وشتان وحلق والصوت يتدد بينها ، وله عقل وإرادة ومعان في نفسه ، فهو يخرج تلك المعاني بهيئة أصوات تكون حروفاً فكلمات ، فهذه الكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسميها الأذن كما رأت العين صور الموجودات ، والعقل يتقبلها على علائها ، ويعيشها كما يعيش المبصرات ، فهذه جنودنا من جيوش النور وهي جيوش الانساع والابصار ، فكما أخذ النور الصور من الجلمد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون هكذا أخذ الهواء الألفاظ التي فيه الواردة من ضغط اللسان والشفقين والخلق وأوصلها إلى الأذن ، وهناك جنود عقلية وهي المعلومات المستتجات في العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية ، فكلها جنود عقلية لاسية ، منيرة ، جلية ، لاتبع شيئاً من الجهالة إلا جعلته كارييم ، وقد كثرت اليوم في بلاد الاسلام وكما رأينا أن المادة تختلف اختلافاً في صورها لاحتد لمرآة ، هكذا الصور اللفظية التي أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لاحتد لساها : تنوع في المادة وتنوع في الكلام ، للمادة الجلية برعت وأبدعت في الاصلاح عن مكنون الجمال الإلهي وكلامه النفس الذي لا حروف له ولا صوت ، فالأشجار تمدتنا ، والأزهار تؤنسنا ،

والنجوم تدمشنا ، وإلجبال تمنشنا ، وكل ذلك آثار تلك إلجبال والكمال ، ما العالم إلا حركات ، فان كان في الأثير فهو المادة ، وان كان في الهواء فهو الكلام ، الصور المادية لا تكون إلا بدوران الأضلاك والليل والنهار والصور الفظية لن تكون إلا لسان وشفة وحلق ، ويرتد الصوت بالتهنيق والإفريقين الحلق والشفقتين ، فهنا تنوع ، حروف ، فكمالات ، بجمل ، فأمثال وخطب ومواضع مقتضى تصور القول .

تقنن في صور المادة وتقنن في صور الألفاظ

أحدث الناس بسفاه تقوسهم قصما وروايات ، وأودعوا فيها حكما وعلما ، تقليدا لتلك الحكمة العالية للبدعة في المادة جلالا وجلا ، فجبال للمادة حياة للمتلمسين ، وجبال الكلام لهداية الانسان ، لصور المنظورة ملايقناهي من المنفعة وإلجبال ، أو السطوة والاذلال ، والصور الفظية مالا حله من الهداية والاضلال جنود جوار : تردّد الشمس في أبراجها ، واقمر والكواكب في منازلها ، فتكون صور الموجودات ، ويرتد الصوت بين الخارج كالخاء في الرحمن الرحيم والجد ، والعين في العالمين في ﴿ سورة الفاتحة ﴾ ، والعين في المضرب عليهم ، والمهزمة في إياك ، والهاء في الله ، (وهذه حروف حلقية) وبين الادم وإلجبال والميم وغيرها من حروف شفوية أو نحوها فتكون تلك الحروف ، وتكون تلك الكلمات : كما يرتد النهار والليل ، والصيف والشتاء ، فتكون تلك الفلوات .

هجب ! جنود لفظية ، وأخرى نورية ، وثلاثة عقلية ، وكلها بالحركات ، واختلافها باختلاف أما كتبها ، واقتت الفايات ، إن لموت لولة وصوله كما ان للطبيعة دولة وصوله .
هلهوذا الزمان التي ظهرت فيه دولة انسان وضود الرحمة لأم الاسلام ، نلموا أجيالا وأجيالا ، وكانوا في القرون الأخيرة طمعا وجها ، إلا حكماءهم وعلماءهم العظام الذين كانوا غير آمنين ، أما اليوم فانهم أخذوا يصولون ويحولون ، ويؤلفون ويصنعون ، ولقد امتنت صولة اقل الناس عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب ، وأسرع للمسلمون لترحيب بجنود العلم ، جنود التور ، وأخذ المسلمون يضربون لهم الأمثال ، فهبوا من رقدتهم وبنوا بيتا جديدا من أجدانهم وهم مجتهدون .

فقال صاحب : إن هذه المعاني غريبة عن هذا الموضوع ، ولكنها دخلت فيه بيته أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لي كيف خطرت لك هذه المعاني ؟ وفي أي وقت ؟ فقلت : هذه المعاني خطرت لي أمس (يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣٩ م) فاني كنت في منبرعتنا بلرج ، وبينما أنا راجع وقد جرت عادتي أن أكون في ذهاني وأباني ماشيا على قدمي ، وذلك ربما يبلغ ١٢ كيلو أو أكثر . ويكون السحاب والاياب في يوم واحد غالبا ، أوفي يومين إذا بت هناك ، فبينما أنا راجع إذ نظرت منبرعة (ذرة شامية) غشي وألقبت تحتها حشائش تبلغ النراع ارتفاعا ، لها زهر جليل ، وقرور طويلة دقيقة ، وذلك الزهر ذلول أبيض ، بين للورقة ، ولها قليل من الرائحة الطرية ، وتلك الحشائش تنزع ذات العين وذات النبال ، تحت أعواد القرة للمائسات القدود ، الجرا شعور ، اللاتي تنس على « المنظر » وهو التي يسميه العامة الكوز ، وهو الذي فيه الحب ، فأجيجني ذلك المنظر ، وكأنني لم أر هذه العجائب إلا ذلك الوقت ، وبينما هذه للنظر آخذة بمجامع حلق من طريق البصر ، إذا طنين أدياب ، وغوير الأعشاب . يطربني من قبل السمع ، فهناك طرب فورة طرب ، والفلاحون يمدون ويروحون حولي ولاهم يشكرون ، فأخذت بعض تلك الحشائش ، وسأت الفلاحين عن اسمها ؟ قالوا : هذه لم نرها إلا منذ سنتين اثنتين ، ولا نعرف لها اسما ، وهناك تدكرت حادثة حدثت لي أيام أن دخلت مدرسة « دار العالم » ، فبينما أنا مع التلامذة في السنة الاولى ، ولا عهد

إلا بالأزهر والحقول ، وقد أنست بها وبجمالها ، إذا بالدرسة تصطفى من التلامذة ثلاثة وأنا منهم لتكون
مع المرحوم أستاذنا (الشيخ حسن الطويل) في الأوبرا الخديوية ، لأن الخديوى توفيق باشا سيكون فيها
تلك الليلة . وهذه أول مرة رأيت فيها الخليل ، فرأيت إذذاك مجاً ما هو فيه حباً غيراًى لا أتصوره ، ولكن
لما فشتت في نفسى عن الجلال الذى كنت أحس به في الحقول ، وطمنين الحشرات ، وطمائل الأغصان ،
ومنظر السحوم ، ألميت أن ذلك الخليل الطيبى في الحقول كان أبهر عند نفسى وأجل ، وخيل لى أن هذا
رؤيته عند نفسى كرتية الجبال الصناعى بالنسبة للجمال الطيبى ، وصرت أنجب من نفسى كيف كان ذلك
حكماً ، فهذه هى الفكرة التى خلطت لى عند مشاهدة ذلك النبات فى القرة أسى نفسى ، ثم خلط لى أيضاً
ماتنقم من دور المادة رمور الأفاط وجنودها ، وأن الأمم التى لانهب عقول مصلحتها لإحداث الصور
المعظية لاصلاح شأنها لأجابه لها ، خدمت الله على ذلك ، وقلت : ها هوذا هذا الكتاب جند من الجنود
التورية والحمد لله رب العالمين .

نقل صاحبى : الموضوع طال فهل تسمح لى بتلخيصه ليصوره الأذكياء . قلت نعم :

(١) نحن فى « سورة الفتح » والله قد فتح لى صلى الله عليه وسلم فتحاً مينا .

(٢) هذا الفتح بجنود الثانية مسلمة .

(٣) ومعلوم أن زمن النبوة يقضى والباقي إنما هو الدرس والفهم ، فأخذ الله سبحانه بهم المسلمين

ماهى الجنود ؟

(٤) فذكر أن الجند ليس خاصاً بالجنود التى ترونها . كلا .

(٥) فى السموات جنود وفى الأرض جنود .

(٦) ومن جنود الأرض الميكروبات التى تهتم بجسم الانسان فتعرضه أوتهلكه ، وجنود أخرى

فى نفس الجسم تطاردها فى كل أطراف ملكة الجسم .

(٧) وهناك تكون قلاع ، وحصون ، وحرب ، وخنادق ، وتحتج الجنود ، إذن هذه من جنود الله

المدكورة ، لأن هذا درس عام لخاص بزمان النبوة يدرس على مدى الزمان .

(٨) وهناك قسمت الجنود أربعة أصناف : حسية ومعنوية ، فالحسية لإهلاك الأعداء تارة ، ولإبقاء

الأولياء تارة أخرى ، وهذا طاهر فى النفس والجسد والأسود والحمور والسباع والاسنان ، ومن

الجيش المعنوية إما لإصلاح وإفساد ، فالاصلاح بالأقوال الجلية ، والافساد بالقول الغلب والفضائل

والافتراء ، فالأولى جنود نورانية ، والثانية جنود ظلمانية .

(٩) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تعديتها أضواء اسكواك ، تقتطع فى الأصغر ، فتدركها

الصائر متعاقبة وتحدث لها نتائج ، ومن أعلام تعديتها الشفتان واللسان والخلق والحك إلى آخر

ما لى هم التعميد وفن القراءة ، ومن نفس العقل واستنتاجه ، فهذه كلها جنود مبصرات

أومحركات أومعقولات .

(١٠) وأن الأمم الإسلامية اليوم قد أمته الله بجنود تورية ، منشؤها العقل ، ومعزوها اللسان

والشفتان الخ .

(١١) ويوب عنى كتب المشورة اليوم فى بلاد الاسلام التى أقسم الله بها فقال : « ورق منشور »

(١٢) وهذه الجنود التورية ينشأ الله فى بلاد الاسلام لتطهرها بما يشبه العمليات الجراحية فى أجسام

الانسان . وذلك بصحة الأمم عليهم ، وذلك لهم ، فهذه الجنود العلمية أسب بليكترويات فى جسم

الانسان واحد الخ ، بسطو على ميكروبات القاعة فتطابها وتطرد منها من الجسم على هيئة

قيح وصديد ، وذلك هو الحاصل الآن في بلاد الاسلام ، فن العلم المنتشر اليوم فيها يطرد عدوين :
عدوًا معلنًا غلمانيا وهي الحرافات والجهالات والضلالات ، وعدوًا خفيا جرمانيا ماديا وهم الأمم
الاروروبية ، وهذه الأمم لن تبقى في أمة ظهر فيها نور العرفان .

(١٣) ولما سألتك عن هذه الطائفة الأخيرة متى خطرت لك ؟ ذكرت لي أنها خطرت لك لما كنت
راجعا من منزركم وأنت متوجه إلى المروج ، وانك إذ ذاك أبهجك ، نظرا لحشائش النور لم تعرف
لها اسما تحت القرة ، وولدت بين ابتهاجك بمنظر الطبيعة ومنظر الصور المتحركة ، وذكرت
حادثتك في ذلك أيام دخول « دار العلوم » .

هذا مجمل ما تقدم . قلت : لله درك ، قد نلت فأجبت وأحسنت . فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم قل
لي : ولكن لا يزال لهذا المقام غايًا . قلت : وما هي . قال : إن الجنود الثورية يوزعها لإصلاح أئمة ، وعلم
أجل ، وحكمة أئمة . قلت : إن الجنود الثورية على قسمين : أولها الجنود الثورية الحسية ، وثانيها
الجنود الثورية العقلية ، والقسم الثاني أحق باسم الجنود من القسم الأول . قال : حدثني رعاك الله عنهما ؟
قلت : لأقتم مقامة فأقول :

الناس أضياف ربهم في هذه المادة يحرسهم يحنوهم

قال : إن هذا العنوان غريب جع بين الضيافة والحراسة للجنود ، قلت إن هذا سببا . إلى أس
في ليلة السبت التي هي آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٣١ كنت في منزركم وقد جرى حديث الصياقة وجاء
حديث حاتم الطائي مع خطوبته (ماربه بت عفزر) وهي من مناب ملوك العين ومعه البقي ونابعة ،
فهؤلاء الثلاثة لما دخلوها لأنفسهم قالت لهم : سأروج أكرمكم وأشركم ، فأصروا ثم لبست ملابس ههوز
ومررت عليهم في ديارهم ، وكل منهم قد ذبح ناقة له ، وأخذت تستجديهم ، فأعطاهم حاتم أحسن دفي الناقة
وأعطاهم الآخرين ذلي الناقير ، فلما حصر ثلاثة عدوا بعد ثلاثة أيام ، وأتوا لها فاطمة ، ووضعت الطعام
أمامهم ، وجد كل منهم أن ما أمامه هو التي أعطاه لامرأة شطاه (هي نفسها) فقبل الرجلان من صلها
فأما حاتم فله ربي ما أمامهما من الطعام وأعطاهما مما أمامه ، وقال كل منهما شعره قبل الطعام ، وكان
شعر حاتم الأبيات المشهورة وهي :

أماويّ ان للمال غدا ورائح * ويبقى من المال الأحاديث والهدرك
أماويّ إلى لا أقول لسائل * اذا جاء يوما حلّ في مالي النادر
أماويّ ان يسبح صداى بقفرة * من الأرض لاما لم تدر ولاخر
رى أنما أخفت لم يك ضرتي * ون يدي عما بخت به صفر
تقد علم الأقوال لو أن حاتما * راد تراه مال ككن له رو

فأما أشعر الآخرين فلها كانت كلها غرا على هذا البحر ، وبأغرة من طعام حتى ، أرجلان ويبقى
حاتم وزوجها . انتهت الحكاية في السامرة ليلة أس .

انتقال قصي بعد ذلك إلى الضيافة الإلهية

وما أتت هذه المسمرة حتى أخذت نفسي تمكّر في هذه الدنيا : الله أكبر : طرت من الدنيا : فأم
القرية عند منزركم والقمر في السماء ، وهبك طاري وقات في قصي : فحينئذ بنا الشاسيقون ويدهوا
وربنا رب الدار إذا قدم لهم طعاما ، روة لهم مساجدا ، ومدهم فرائد ، وده حرن أعينهم عن كل جدل

في الأرض وبها ونفسه ، ويضون الجبال العالم في الأرض والسموات ، وهم غافلون ساهون لاهون من رب دارهم الكبرى ، وقنادله المعلقة في السماء ، وأصناف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات ، حقا « إن الإنسان لظالم كفار » .

يصلح رجلا أجلسه في دار ضيقة محصورة ، وأعطاه بعض طعام وضياء ، وقد جهل الدار الواسعة ، وهي الأرض والفضاء الأكبر وهو السماء ، والمائدة الواسعة ، وهي هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرة الجلية للنظر ، والأنعام ، ولقناديل المنسج ، للشرقة ليلا ونهارا ، فيألت شعري أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة ، اللهم إنك حبست هذه الأرواح في الأجسام ففطنت من جبالك .

الجنود صفان ، ولا حصر لأفرادها

وإن كان رب الدار خدع وحشم وحراس ، فهم قوم محصورون ، ولكن للدار الواسعة ، وهي هذه الدنيا حراس لا حصر لهم ، وهم قيمان : قسم هي الأنوار المشرقات المحسوسات ، ذات البهجة والأنوار ، وقسم هي العقول الكبيرة والصغيرة ، وأتواع الأهل والمفرائز .

هجا ياربنا ! أرضنا فيها أنوار جزئية : في شمع الصل ، والبتول ، والغاز المستخرج من الفحم ، وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون ، وبذرة القطن ، والسمسم ، والقرطم وأضرابها ، وأنوار الكهر باء . سبحانه اللهم وبمحمدك : ماهذه الأنوار ؟ هي لنا هداية ، ولولاها لكتنا في الأرض عميان لا نرى شيئا ، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمصادرة أبصارنا لطرقنا وأعمالنا ، وهذه الجنود لا حصر لها ولها قائد أعظم وهي الشمس ، لولا الشمس لم يكن شمع الصل ، إذ لولاها لم يكن مطر ولا سحب ولا رياح ، فلا نبات يحمل زهرا ، ولا نخل يشارته الصل فيأكله فيمربصلا ، ولولاها لم يكن زيت يستخرج منه القرطم والسمسم والزيتون ، إذ لا شجر فلزيت ، ولولاها لم يكن غاز الاستنصاح الذي خزن منذ مئات الآلاف من السنين ، خزونه الشمس في الأشجار بأشعثها فاستخرجها الناس الآن .

الله أكبر : الشمس قائد ، وجميع الأنوار على الأرض جنود ، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء : وهي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنيلي والبنفسجي ، وهذه كلها تصبح لونا واحدا ، وهو النور المعروف ، وهذه الألوان بيننا نراها في جيع أنوارنا التي ترونها .

الله أكبر : الجنود الحسية التي تكفل هدايتنا في الحياة الدنيا وهي الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهي الشمس ، وهذا الصف من الجنود مثل لما هو أعلى منه وهي :

الجنود المعنوية المعلقة

جل الله : أبان لنا جنودا نراها بأعيننا ، وأظهرنا أنها مشتقة من قائدها الأعظم ، ثم وهب لنا عقولا وهي الجنديرة باسم الجنود ، هي التي تستحق الاعظام والجلال ، فلنن هدتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا برأسية حيوتنا ، وهل لميوتنا عمل إذا لم تكن لنا نفوس وعقول ! كل إنسان ، وكل حيوان طفق عقول تدبرها ، وتقوم بأودها ، وتصور حياتها ، وتحفظ كيانتها . فلننقل عقل ، ولننموسة ، وللصرصار ، بل للمعينة الواحدة من خلايا الجسم ، وللتدلايا الأولية التي تميش في الماء الآسن ، ولا يخبها إلا أن ينقطع عنها الغذاء . لوياً كلها الأعداء ، فشكل هذه لها عقول على مقدار محتاجه . قال الشاعر :

سقى الله أرضاً يربى الغناب أنها * بعيد عن الآفات طيبة البقل

بنى بيته فيها على رأس قنة * وكل امرئ في حوقة العيش ذوقل

هذا قول العربي الجاهل ، وهونفس ما قرره علمه النفس في عصرنا الحاضر إذ قالوا : « كل قوة إدراكية في حيوان أيا كان فهي عقل ، سواء أكان ذلك الحيوان إنسانا أم حشرات ، أم طيرا ، أم ميكروبا » كل ذلك يسمى عقلا ، وهذا الاطلاق قصه الله الشيخ الخواص ، وقد عد على الناس في جهلهم أن للحيوان عقولا ، إذن الصوفية المسلمون نظرنا قديما بما أتى به العلم الحديث .

الله أكبر : هذه العقول الانسانية ، والعقول الحيوانية ، التي لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها حد ، هي هي جنود الله في أرضنا ، جنود وأى جنود ، جنود تهندس المباني والمسكن والقلاع والحصون ، جنود تهندس أفراس الصل ، وتظهر نسج الضكوب ، وأجام الآساد ، وأعشاش الطيور ، وجسج الثعالب ، وكرزهاوفوها ، وجعلها في جلب قوتها ، وتدير الحرب والضرب ، في حرب القمل ، وتربط الجيوش القليلة ، وبناء المدن الثقنة لحشرة الأرض .

الله أكبر : هذه جنود الله ، المهم أنت الحكيم ، أنت العظيم ، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بني آدم وحيواناتنا ودوابنا .

جنود العقول الانسانية والحيوانية

وما يوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا الله جنود عقولا ، وعقول الحيوانات في أرضنا ، أنت هديتها بداركها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب ، وأضواء السرج الأرضية ، عقول جزئية ، أو جنود أرضية ، استخرجت الأنوار الأرضية فاستعملتها ، استخرج الإنسان من الشمع نورا ، ومن الناز المستخرج من الفحم ضوا ، وهكذا من البترول والكهرباء . جنود عاقلة استعانت بجنود محبوسة وهي التي استخرجتها . يا الله هب لنا ! تحيط بنا أنوار الشمس ونحن لا نحمد عليها ، فهي منسية ، فأخذت تذكرنا بالظلام ؟ ونحكم علينا أن نستخرج من الأرض نورا نستغنى به ، عقولنا اضطرت لاستخراج النور من مواد الأرض ، جزئي استخرج جزئيا ، وهذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس ، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة ، وهذه مثلها ، فولا الشمس لم تكن أنوار هذه المواد الأرضية ، لأنها سببها .

الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

وهل يجوز في العقول الانسانية أن يستند الضوء الجزئي إلى ضوء كلي ويكون مشتقا منه ؟ (أي ان أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس في السماء) ثم يكون الضوء المنوي العقل مستقلا غير مشتق من عقل أكبر منه ، وهل تكون هناك شمس هي أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحبوسة ، ثم لا تكون هناك عقول كلية منها تستمد هذه العقول الصغيرة علوما وإلهاماتها ، هذا لا يكون ، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وإنسانية عقولا أكبر منها هي منطلقاتها ، ومبداة آرائها ، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس ، نسبة لقراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضوء الشمعة إلى ضوء الشمس .

هذا برهان صادق لا خطأ فيه ، يرجع للقضايا البديهية ، وللمعلومات الأولية ، غاية الأمر أن النوع الانساني اليوم نوع حيواني ، غافل عن هذه الأمور لعانية ، جاعل في أحول ، تألم إلا أنه غرق في الأمور العملية ، كان يطير في الجو ، ويهلك المدن ، ويغزو البلاد ، اتأس اليوم في أرضنا أطفال جهال ، عيونهم مقفلة ، لا يحسون بما حولهم ، إن عناصر عقولنا هي عناصر العقول الكبيرة ، كما أن عناصر الضوء في الصكهرباء والبترول هي نفس عناصر ضوء الشمس ، وهي الأنوار المسعة . وإذا كان في ضوء البترول المسعة الألوان

المعروفة ، ونظيره ضوء الشمس الذي هو أصله ، فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ومفكرة وخيال وحس مشترك وهكذا ، فهذه كلها عناصر عقولنا تحلل إليها وترجع لها بعد تحليلها ، هكذا تلك العقول الكبيرة ، لا بد أنها تكون لها ذاكرة وحافظة الخ منها استمكت عقولنا هذه العناصر ، ويختلف الأكبر والأصغر عناصرها بحسب صغرهما وكبرهما ونوع عليهما وأحوالهما ، وما هذا إلا مجرد تشبيه لا يطبق تطبيقاً تاماً ، لأننا نجعل أحوال الأرواح المجرّدة .

النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة ، فضاء الشمس ، وضوء نحو البترول نراها ونحلمها ، وعقولنا وعناصرها التي منها تكونت نحن بها ، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة معقولة بالوجدان ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة ، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة ، فإذا كانت عقولنا لا تنتفع بضوء أرضي إلا إذا استخرجت بخلتها ، وما تستخرجه تنتفع به ، هكذا تلك العقول الصغيرة التي منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشمس في عالم الأخير حتى تستكمل وتقوى وتقوى وهي التي تسخرها بإذن الله في إيجاد ما أراده الله في هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمة ، كما أننا نحن نصنع طعامنا مثلاً على ضوء الكهرباء والبترول الخ .

عقول كبيرة تفشى مشموسا كبيرة ، وعقول صغيرة تصنع منازل وماكل وشما وعسلا ونسج عسكبوت ، عقول كبيرة تنتج عقولا صغيرة ، فالأولى للسماوات ، والثانية لأهل الأرض ، شمس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة تستحق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية ، أضواء الشمس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية للمضيئة ، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها ورمّ ركبت ، فهكذا يجب أن نقول في العقول الكبيرة التي تدبر الشمس ، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالبا يكون بلكم ، كما أن الاختلاف كذلك في ضوء الشمس وضوء البترول .

نتيجة هذا القول تفسير آية : ولله جنود السموات والأرض

وليات كثيرة في القرآن

بهذا وبهذا وحده فهم : « ولله جنود السموات والأرض » . الله أكبر : عطف جنود الأرض على جنود السموات ، لأن الثواني مشتقات من الأوائل ، بآله إني في أثناء هذه للباحث العقلية ما كان ليخيل لي أن في هذا العطف سرّ العجب ، فتم أن جنود السموات على جنود الأرض ليفتح لنا بذلك بابا كان مغلقا على أكثر الناس : ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

جنود الأرض مشتقات من جنود السماء ، تلك قدم المشتق منه على المشتق ، وهذه هي أسرار القرآن : فئة جنود في السموات ، وهي التي نسميها ملائكة ، ثم علماء الأرواح قولا نفس هذا القول ، وندّم ما نقلته في هذا التفسير مرارا أن الأستاذ أوليفرودج يقول : « إن هنا عوالم روحية تحيط بنا نسبنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا ، وهي تهتم بأمرها ، وهي تحافظ علينا » .

إيه أيها المسلمون ، إيه أيها المسلمون ، هذا هو كتاب ربكم ، كتاب ربكم نفس العلم الحديث ، إذن هذا القرآن جاء لأمر بهنا ، ثم هو كلام الله ، وكلام الله أنزل لعباده المساكين في الأرض ، ليس من عجب أن يقول هذا القول علماء الأرواح في زماننا ، ثم يقوم الرهان الحسي الذي ذكرناه عليه ، نراه في نفس

القرآن ، نسمع الله يقول لنا : أنا لى جنود فى السموات ولى جنود فى الأرض ، فياخذها أكثر من قبلنا أخذنا مجرداً من البعث ، ومن عرف من آياتنا منها شيئاً كتبه خوفاً من العقبة .

هاهوذا أيها المسلمون وضع الدين ، القرآن نزل لفتح ملحونا وبياض بنا والحمد لله رب العالمين .
فقال صاحبى : إن أصل سؤالى لك إنما كان موجهاً لإيضاح الأنواع الحسية والمنعوية ، فكيف حضرت هذه البراهين فى ذهنك ، وهل كانت هذه فى ذاكرتك ؟ قلت نعم . قلت : وكيف ذلك ؟ قلت : إن أمرنا لوجب ! لم تسألنى سؤالاً إلا كان جوابه متطابقاً فى نفسى قبل أن تسألنى ، فكان هناك بين روى وروحك وسائل أو رسائل به العلم روى ما توبه أنت إليها ، قرتب السؤال والجواب أولاً ، حتى إذا سألتنى كان العلم حاضراً فى النفس . قال : أنا لا أفهم هذا ؟ قلت : أريد بهذا القول أنك قبل أن تسألنى مثلاً فى هذه المرة كنت متوجهاً إلى ناحية الأزهر ، وقص هذا السائل كنت كأنى أطالها أمامى فى محبة وكأنى أفرها فيها ، أنا أمشى والناس حولى ، ولكن هذه اللغز وأنا فى شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتى ، وهذه صورتها :

(عقل) سماوى يصنع ويدبر (الشمس)

سماوى
يدبر
الشمس



سماوى
يدبر
الشمس

(عقل) أرضى به يستخرج سراج ينتفع به

هذا ملخص ماضى كله ، كنت كأنى أطالها فى محبة أمامى ، فلما سألتنى أخذت أكتب لك ما طالته هذه هى الحقيقة ، وليست هذه المحبة أمام عيني ، بل هى فى مخيلتى ، ونفى كتبت ما طالته ووضعت فى الورق نذهب تلك الحقيقة من خيالى ولا رجعة لها بل أنساها ، وإذا أردت استرجاعها صعب على ذلك .
فبالت شعري : ما هذه اللغز ، وما هذه الحقيقة إلا أنها من عوالم محيط بنا ونفوسنا متمثلة بها وهى التى رسمت لنا هذه الخطط ، غاية الأمر أنها لا تعطى العلم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأمم ، وما نصيبه لنا من العلم الآن قد استحدث له أعما الحلية ، وعقولنا الانسانية ، وبها فهمنا آية : « ولى جنود السموات والأرض » وقد قسمنا الجنود إلى مملكة وحشية ، ولأجرم أن قوله فى الآية الأولى : « وكان الله عليا حكيماً » إنما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين ، ولكن لما قل : « ولى جنود السموات والأرض » وكان الله عزيراً حكيماً » كما قسمنا كانت العزة مناسبة لجنود النرائى عنت للتعذيب ، إذن التقسيم الذى قسمناه للجنود من مقاصد القرآن ، ففسر الآية توحد تقسم الجنود ، فجرّد ذكرتم منها برة ، وجنود لم تذكر معها بل ذكر العلم ، وهذا المقام به فهم : « والمديرات أمراً » وفهم : « وإن حكيم حافظين »
كراما كاتبين يعلمون ما تاملون » ، وفهم : « إن كل نفس لما عليها حافظ » ، وفهم : « ما يلقط من قول إلا فيه رقيب هتيد » ، وفهم : « فالتسليمات أمراً » ، وفهم كيف أمرنا أن تؤمن بالله وملائكته إلى آخره ، وفهم : « إن الله وملائكته يسلمون على النبية » ، وفهم : « شهد الله أنه لا إله إلا هو »

وللائكة وأولو العلم « فصفت أولى العلم على اللائكة لأنهم كلخصرين منهم ، وهذا يجب : أن يكون ما ذكرناه هنا (من العقول الكبيرة السالوية والعقول الصغيرة الأرضية) إنما هي آثار العناية الربانية والله معلم اللائكة وهؤلاء يفيضون الإلهام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم ، قلقة عام العلم ، واللائكة يتلقى منه (الخ) هوالذي جهته الآية في ثلاث كلمات .

ملخص ما تقدم وما بينى عليه

- (١) الله أكبر : في الجسم جنود هي لليكروبات السلطة الفاضلة فيه ، والتخلل التي في الجسم المدافعة عنه ، فهذان صفان من الجنود : جند مهاجم ، وجند مدافع .
 - (٢) وفي العالم المشاهد مثل ما في الجسم جنود مسلحة لمحارب جنودا كافرة .
 - (٣) في العالم كله عوامل الحوادث ، وعوامل القضاء ، فهما جندان كجندى الجسم وجندى الانسان .
 - (٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن ما يصل إلى القلب إما لمة من الشيطان وإما إلهام من الملك . إذن هما جيشان أيضا مرسلان للنفوس كليشين المرسلين للأجسام ، فإذا جاء الشرع بالوحي الأول فقد جاء علم الطب بالتالي أشبه بضرب مثل للأول .
 - (٥) جيشا النور والظلمة ، والحار والبارد ، كل يقب الآخر وينظره كجبوش الجسم المحسوسة وما تبعها
 - (٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النور الصغرى التي يصنعها الانسان فيها تهتم بجنود العقول الكبرى وهي اللائكة وجنود عقول الانسان والحيوان في الأرض .
- هذا ما فتح الله به في فهم قوله تعالى : « وفيه جنود السموات والأرض وكان الله عليها حكما » . وقوله : « وفيه جنود السموات والأرض وكان الله عز وجل حكما » . كتب بعد فجر يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

لما اطلع على ما تقدم صدقني العالم الأدي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : لقد اطلعت على حديث للمهاغمغندي ، فوجدت به ما يشبه أن يكون ذل هذا المقام ، فانه ذكر أمرين : حبا وخوفا ، ولينا وشدة ، وجعلهما محور كلامه ، أما للاحق هذه الصفات بالجنود . فقلت : حدثني بما قاله غاندي . فقال هالك ما جاء في جريدة الاهرام بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٩٣١ م وهذا نصه :

غاندي يصف رحلته

في المياه المصرية
المقاومة بلا عنف

قال للمهاغمغندي في مقالة نشرتها له جريدة الهند العتاة ما يأتي : « من محاسن الصدق أن الحديث بعد صلاة المساء دار على . ألكة « المقاومة من غير عنف » وأتيح لأصدقائي المصريين الذين ركبوا الباخرة من السويس فرصة سماع شيء عن هذا الموضوع ، ولأرى بأسا في إعادة بعض ما قلته بهذه المناسبة : أنا بأعمالا اليومية أقوم بعضنا بعضا من غير عنف ، وقد فعل ذلك بطل منا أو بغير علم ، وكل الجميعات الصالحة قائمة على قاعدة اجتذاب العنف ، وقد تبين لي أن اخياة مودة الوجدان على الرغم من انها عوطة بعوامل الهدم والهلاك ، وهذا دليل على وجود نموس أسمى من نموس العنف والتدمير ، ولا يمكن بلعية حسنة النظام أن تكون قريضة من الفهم إلا اذا كانت تحت ذلك الناموس ومن غيره لاقية للحياة ، فان كان هذا هو نموس الحياة كان سببا عيب أن يطبقه على حياتنا اليومية ، لحيثما تقع الاحتكاكات ، وحيثما نلتقي

بضم ، علينا أن نطلبه بالتي هي أحسن ، وبهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا اللاموس على حياتي ، ولست أعني أن جميع مشاكل قد حلت ، ولكنني وجدت أن ناموس المحبة قد أدى إلى تحقيق اتفاقية بطريقة لن تتاح بناموس الملمم والعداء . وقد قفنا في الهند بتطبيق هذا اللاموس حياتا في أعظم مجال مستطاع ، ولست أدعي أن روح اجتباب العنف قد دبت في قلوب ثمانية مليون نفس من سكان الهند ، ولكنني أدعي أنها تفلطت في النفوس أكثر من أية رسالة أودعوه وفي وقت وجيز لا يكاد يصدق ، ولم نتمكن كلنا نحن الجنود سواسية في اعتناق هذا المذهب ، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة ، ومع هذا أود منكم أن تبنوا هل لم تتقدم الهند تقمنا هييا ظاهرا تحت حياية « المقاومة من غير عنف » ونفوذها العظيم الشأن ؟

وقلت رداً على سؤال آخر : « إن الحصول على حالة عقلية لتتسكك بمنهج المقاومة من غير عنف يتطلب الشيء الكثير من العناء والتدريب ، ويجب أن يكون بمثابة نظم سير عليه في حياتنا اليومية وإن كنا لنجد من نفسنا رغبة فيه فنقصى حياة كحياة الجندي ، ولكنني أوافق على رأى القائلين : أنه إن لم يكن اعتناق هذا للمذهب من صميم القلب والعقيدة الثالثة كان أشبه بقتل خارجي يضر صاحبه وبالآخرين أيضا ، ولا يصل المرء إلى مرحلة الكمال في هذا المبدأ إلا متى خضع له جسما وعقلا ، وسار بموجبه قولاً وفعلًا ، ولكن المسألة هي دائماً مسألة كفاح عقلي عظيم ، ليس لأتني غير مطبوع على النفس ولكنني أبحج في كل مرة قريبا أن أمك قسى وأضبط عواطفى ، وبهما تكن النتيجة فاني أشعر على العوام بكفاح يتنازعى لاتباع مبدأ اجتباب العنف بمحض إرادتي وبلا إقطاع ، وهذا التخلل يزيد المرء قوة للعنف ، فالتقومة من غير عنف سلاح القوي ، أما الضعيف إذا لجأ إليها كانت فيه بمثابة رياء ، فتلوث والحبة على طرفي قبض فالحبة لاتبالي عند ما تعطى ، ولاندق فيما تأخذ بدلا من العطاء ، المحبة تكافح العالم كما تكافح نفسها وفي النهاية تمسك صاحبة السيادة على كل شعور ، وقد دلت الاختبار اليومي كما دلت المشتغلين معي أن كل مسألة يمكن أن تحل إذا اعترنا أن نجعل ناموس الحق واجتباب العنف هماني نظري وحياي حملة واحدة (كذا) أما إذا كان الجنس البشري يتبع ناموس المحبة من حيث يدري فليست أدري ، ولكن هذا لا يجب أن يشغل بالنا ، فهذا اللاموس يسرى كناموس الجاذبية ، سواء أقبلناه أم لم قبله ، ونمنا يستطيع للتبحر في العلوم أن يأتي بالجناب بتطبيق اللاموس الطيب من عتة وجوه ، كذلك الرجل الذي يطبق ناموس المحبة بدقه علمية يمكنه أن يأتي بهجاب أعظم ، لأن قوى المحبة واجتباب العنف هي أعجب كثيرا وأدهى من قوى الطبيعة كالكمبرياء مثلا ، فالرجل الذي اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو في مذهبي أعظم من أعظم العلماء . على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافي ليقضي للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها ، هذا على كل حال هو الهندسيان ، أو اللاموس الذي أحمل مدفوعا به ، ولكنني أصرح انني كلما توغل في تطبيق هذا اللاموس ازداد شعوري بمباهج الحياة ، ومباهج . شروع هذا الكون الأعظم ، وهو يسطي سلاسا وطمأنينة ويفسر لي خفيا الطبيعة بكيفية لا يسنى وصفها انتهى

فلما أتم حديثه . قلت له : أما الشدة واللين ، والحب والخوف ، فانها من جنود الله ، لأنها من الجنود العنوية وهي داخلة فيما تقدم . فقال : أنا إلى الآن لم أفهم ماضى قول غاندى :

(١) إن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من أنها محوطة بعوامل الحسم والهلاك ، مع يقول : إن

البحيرات يجب عليها أن تسمى لتليل هذه العاية ، فكيف يكرن هدم بجنود الالهلاك ، مع يكون

الحب سائدا ، فأين هذا الحب إذن في هذه الدنيا ؟

(٧) وكيف يقول ان أحب له السيرة في العالم مع ان العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ .

(٣) ثم كيف يقول : إن ناموس المحبة يعطيني سلاماً وطمأنينة ويضرنى خطايا الطبيعة ، فهاذا التفسير : والطبيعة كلها شرّ وبلاء . وأنا إذا سألتك عن هذا فما خرجت من منطوق الآية ، لأن الآية فيها أن لله جنود السموات والأرض ، ومن جنوده هذه الجنود للهلكة التي يقولها غاندي ، فأين الحب السائد إذن في الأرض ؟ ولأحب ولاسلام ولاأمان في الأرض .

قلت : قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح قطعة هاتية : وهي الحب والخوف ، وهذا يجب أن ينطق بها عالم بوذي لم يدرس الاسلام حقّ دراسته ، ورد في الآثار : « ثم العبد صوب ، ولوم يخف الله لم يحسه » أي أن صوباً رجل محب لله ، فهو عبده حبا له ، لا خوفاً منه ، والعبادة الصادرة عن محبة للمود هي الجديرة أن تسمى عبادة ، والمحبون أرقى من الخائفين ، قال تعالى : « يحبه ويحبونه » ، فالحب هو السعادة الحقيقية ، أما الخوف فأنما يجاء به لمن لا يفقهون الجلال في هذا الوجود ، فهم يخوفون من العقاب والألم إن لم يكن فيها حكمة عاشقون لصانع العالم ، مغمومون برقى عباده ، فأنها تكون آية للسقوط ، فالحب الذي يهرسه غاندي هو أصل من الأصول العالية في الاسلام . هذا ما أردت ذكره أولاً :

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فأقول : إن الإنسان ينظره إلى هذا العالم نظراً سطحياً يراه كله هدماً واهلاكاً وتبديداً وقتلاً وحرباً وخسفاً وزلزلة الخ . هذا بحسب ما يظهرون ، ولكن المفكرون هم الذين يفكرون الحب العلم ، ولن يقتنى لأمري أن يعرف الحب العلم إلا بدراسة الطبيعة دراسة تامة ، فهناك هناك يعرف أن هذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لا يحصرها الله ، وهي كلها في تغير مستمر وحركة متصلة ، تدور بجنود لا تراها كما تدور أجسامنا بأرواحنا ، فالاشتراك في أجسامنا وتبدل صفاتنا راقى لأرواحنا كما أن قلب عوامل العوالم كلها راقى لنفوس نديرها ، ونفس الاهلاك والتدمير مقبلة للتجديد ، وكل ذلك ارتقاء لنفوس المذنبات العاملات بالحب والشفق لا تخوف وحده ، وهذا العالم كله تتخلله جذبية من أقصاه إلى أقصاه ، فهي أشبه برسول المحبة ، أو عامل من عواملها

(٢) أما جواب السؤال الثاني ، وهو أن الحب له السيادة في العالم مع أن العالم كله تدمير فانه مترتب على جواب السؤال الأول وظاهر منه .

(٣) أما الجواب عن سؤالك الثالث ، وهو أن ناموس المحبة يعطيني سلاماً وطمأنينة ويضرنى خطايا الطبيعة ، فهل بعد ما بينته لك بيان ، أليس ما ذكرته من الاجال في الحب العلم ينطبق على جميع الطبيعة : شمس يتبعها سيارات تجري ورامها أقمار ، أليس ذلك كله محبة ؟ هل الأرض تجري حول الشمس إلا بما نسيه جاذبية ؟ أليست أشبه بأثر من آثار المحبة ، فالعوالم والكواكب متحدة مرتبطة ، وأثر حبّ بعد هذا ! فإذا اضمحلت نبات أروحيان فإن ذلك لمحبة أيضاً ، فإذا كان نبات يفع بورقه أو تجره الخ لم يحل إلى عناصره ويرجع إلى العمل العلم في الأرض فيكون خلقاً آخر ينتفع به الإنسان والحيوان ، فله لولا المحبة الدائمة السائدة في العالم لقي الحشم على حاله لم يحل فلم يكن خلقاً آخر فلا تكون الفائدة ، ففكر الإنسان والتجديد تكرار للناسخ ، والهدم والتخريب تابعان لحركة العائمة ، والحركة لا تكون إلا بالشوق ، والشوق مصاحبة للحب ، فالعالم كله في حركة ، والحركة لجاذبية ، والجاذبية محبة ، وبالحرركات تتجسد الفرات ، فالحب هو نظام العالم والحد لله رب العالمين . كتب ظهريوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

فقال صاحبي ، هذا حسن وواضح . وبقي عندى سؤال واحد ، يعواه إذا كانت المحبة من جنود الله التي في السموات والأرض وتخوف بعضها وهم . فنتفهم القلوب ، فقلوب العائمة للخوف ، والخاصة لمحبة . وهذان الجندان بهما انتظام العالم ، فهذا سر وافهما ، ولكني أريد أن أفهم موازنة للمهايم غاندي بين المحبة في النوع الإنساني وبين الجاذبية في السموات ، وأن الفرات المذابة أطاعت ربه ، وأن الإنسان

قد عصيه ، فكيف يكون هذا ؟ قلت : إن النوع الانساني مفلطور على صفات كثيرة ، ومنها صفة المحبة والفرام بالاجتماع ، والطبق العام غريزة كلنة فيه ، انك ترى القرة الواحدة التي لا تراها قد أجمع العلماء قاطبة على أنها مركبة من تقا كهر باقية بمد معلوم (نظم شرحه في سورة التور عند آية : الله نور السموات والأرض) سالها بدور حارل موجبها في الثانية الواحدة (٩) آلاف مليون مليون مرة ، ولاجرم أن سرعة الحركة واظلالها ، وعدم توقفها ، ودوام ذلك النظم أبدا وأمدا سرمدا ، وراه قوة مضوية عقلية أهملته هذه الصفات ودوامها ، فلنسم تلك القوة محبة ، لأن الحركات عند الحيوان جميعها لا تكون إلا لمحبة ، جري مضار الحيوان لأهمتها ، واسراع الأمهات بالصطف نحو أبنائها ، والبيري في القاولات البحث عن الغذاء ، والجري هربا من عدو مفاجئ ، كل ذلك حركات ناشتت عن :

(١) حب الصغار لأمهاتها .

(٢) أوجب الأمهات لمضارها .

(٣) أوجب الغذاء التي أوجب الجوع .

(٤) أوجب البقاء ، ودوام الحياة التي تفرض للفجأة بالملاك بسبب العدو للمفاجئ .

فإذا كانت الحركات التي نعرفها كلها صادرات لأجل محبة ، هكذا فلنفس الملائع على ما نعلم ولقسما حبا ، وهذا الحب يوجب ما يضارع حب صنف الانسان على الانسان بخلته ، فانك لن ترى شرقيا ولا غربيا على أي دين كان ، أو أمة ، أو لغة ، إلا وله شفقة ورحمة وصف على الأطفال الباكين ، أو الفقراء الناكين ، أو المساكين البائسين ، بل عطفه على الانسان مجاوزة إلى الحيوان ، فله عطف عليه عظيم .

الحركات المنتظمة في كهول القدرات المسرعة جريا ، والنبتات المتعدلات على قيام هيكل القدرة الواحدة اللواتي منها أنتجت هذه العوالم كلها فصار شمس وأرضين لا نعرف عددها كلها : قد أنتجت حيوانات لا حصر لها تعيش بالمحبة ، وحفظ القرية ، والألفة العمة ، فهذه الحركات المنتظمة في القرة رأينا من نتائجها الأولى حركات الكواكب والشموس المنتظمة انتظام حركات النرات ، ثم انتهى الأمر بعطف وغرام في الحيوان ، فإذا قول في الحركات الأولى إلا ان جمالها وظلها ، وأوارها للشرقات ، المكشوفات المضبوطات للتداخلات لم تنتج إلا من حب عظيم وراحم : أي ان هناك عقولا عظيمة تتدعجها وفرا لا حد له وعظما ، وهذه المحبات كانت نتائجها في آخر الأمر محبات عرفناها في الحيوان ، فهي كما تكون الشجرة من حبة فتنتج حبة أيضا ، أما هذا الانسان الذي هو أرق من الحيوان فله خلق من هذه المحبة أيضا ولكن اعترضتها هوائ ، وأصيبت بموانع ، وغشت عليها غواش ، فهو أرواح تعدد بلالين ، أرادت أن تتقاسم الأرزاق والنافع والأرض ، فضلت في العدل ، ووقفت في الحيرة ، فحدث التحسد والتباغض ، أصل العقول الانسانية انها مفلطرة على المحبة ، وهذا شائع ذائع ، يضره صطب الأم والأب على القرية ، وصطب كل انسان على كل طفل وكل ضيف ، ولكن العقبات الكثيرة غشت على تلك المحبة فسترتها وغطتها فكان التحسد والحقد ، وغلب الشر ونجم على العقول فنامت المحبة تتر بصر الفرس ، وبقي رانها وقش الانسان عليها واستخرجها من قلبه ظهرت فأثارت وجه الأرض ، كما ان العلماء في ألمانيا وغيرها يسبحون عن مكنون القرة وعجوه ما فيها من القوى المكنونة فيها حتى اذا ظهرت أرادت الناس في أعمالهم الدينية ، ولكن هذه القرة وقواها وإن كانت هي أصل خلقنا ليس استخراج ما فيها من القوى كافي لرقى الانسانية بل هذا رقى ماذي لاخير ، وبعد ظهور هذه القوى يبقى الانسان على ما هو عليه ، فهو طماع حסود حقود جهول طبل غي بضه لبعض عدو (وهذا قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظالما جهولا »

فالمعلوم كلها من القدرة إلى الأرض إلى الشمس تجري بنظام وحملها متن ، فهي لم تفسد الأمانة ولم تخن فيها ، فأما هذا الإنسان فله شأن الأمانة ولم يتم بحفظها لظلم وجهه ، انظر تفسير الآية في « سورة الأعراب » والمعنى الثاني للذكور هناك .

فأما كشف مافى النفوس الانسانية من المحبات فان هذا اذا انبث منها وخرجت كرة أخرى بعد غيوبها عنه تصبح الانسانية كلها أشبه بشمس واحدة ، وأخرة واحدة ، وكل نفس من النفوس الانسانية تكون أشبه بكوكب واحد من كواكب تلك القدرة السريعة في جريهه ، وهذا الاسراع في الجرى أنتج ذرة كاملة هكذا هذه النفوس الانسانية الأرضية متى أسرع في حركتها العقلية والعلمية إلى غرض واحد ، وهدف واحد ، ومقصد واحد ، وهي المصلحة العامة ، فانها لا جرم تأتى إذ ذلك بنتائجها الحقة ، ويكون عالم الانسان إذ ذاك عظيما ، وقوته لا تضارعها قوة ، وتكون نتائج هذه النفوس في انتظام حركاتها أبعد مدى ، وأرفع مقاماً ، وأكثر منافع من انتظام حركات كواكب القدرة الواحدة ، وقرى ما بين حركات كواكب وحركات أرواح ، لأن حركات الأرواح الانسانية المنتظمة التي تسرع إلى غرض واحد وهي الخير العام للانسانية ترجع إلى مقاصد الطل الأولى وهي عالم اللائكة « الدورات أمرا » لا إلى نتائجها للمادة البحتة . هذا هو السر في قول الملائكة : « إن الذى يكشف سرّ المحبة العامة أجدر بالجلال من كل مخترع ومبتدع » وذلك لأن كل اختراع وابتداع في عصرنا فهو راجع لنفس المادة والنفوس باقية على ما هي عليه ، عليها غواشى التحسد والطمع القى يضئ المحبة كما تضيئ غواشى المادة من صلابة وبرودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التي منها تركبت بحركات ورامها .

إن النفوس الانسانية يجب أن تكون كنفس واحدة ، وهذا هو تفسير مايقوله الملائكة ، وهذا القول نفسه تفسير قوله تعالى : « ما خلقتكم ولا يصنعكم إلا كنفس واحدة » . ألم تر أن عدد الانسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأوكيان والآخريين فانه كله بالنسبة للعالم من شمس ومجرات أقل من جزء لا يتجزأ ، فإذا جطناه كله أشبه بفترة واحدة مركبة من كواكب لم يك تشييبنا بعيدا ، وهو نفسه تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » لأن هذه فطرتهم وهي « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وإذا كان خلق الله لا يغير فاما يكون التغيير في الظواهر لحصل هناك التحسد والتخاصم كما حصل في الأرض بعد انفصال من الشمس اختلاف أجزائها سيولة وصلابة وأحوالا لاحتصر لها ، فاما اختصم الناس أرسل لهم علماء رأياء وحكاما يملوهم ، لأنهم لم يبقوا على فطرتهم ، فلما علموهم أخذ تابعو الأنبياء يختلفون ، فكل أتباع نبي مختلفون فيما بينهم ، وبين أتباع كل نبي والآخر اختلاف أشد وأوسع مدى ، وهذا قوله تعالى بعد ما اتفقتم « فبث الله بينهم مبشرين ومنذرين وأزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وقصارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف ولا خذف عارض على المحبة ، وعقلاء الأرض يدرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الانساني أن يرجع إلى فطرته ، وفطرته هي المحبة العامة ، وهذه هي الغاية من خلقنا في هذه الأرض ، فغاية هذه التزية الأرضية التي أرسل لها الأنبياء وخلق الحكماء أن يصل هذا الانسان إلى فطرته الأولى ، وكل محاولة حاولها أنبياءنا وحكامنا إنما كان القصد منها أن يصل إلى هذه الغاية ، وما فعلنا لم يصل إليها فمعن نعيش على هذه الأرض في غاية القلة في أمننا وفي دولنا سواء أ كنا أقوياء أم كنا ضعفاء .

فليجده المسلمون بعد في قراءة حبح العلوم ، وحوز جيع الصناعات ، وليشاركوا الأمم ، ثم ليتبرروهم

إلى السلام العام بقوتهم وعلمهم ، ولهذا التبع العلم أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلن تقبض مكة وقبض فارس والروم ، ولئن رجع المسلمون الآن يمتدون قواهم لازالة الخطر من أنفسهم فهذا مبدئى ولكن غايتها ما ذكرناه وهو الحب العلم .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الاسلام ، دخول أكثرا الأولون ذلك ففشلوا أخيرا ، لان النوع الانساني لم يكن يحتمل ذلك ، فلطم نحن الآن بما علينا ، ولنفكر في إسماعد الأم كلها ، ولكن لن يقضى لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل عالم الأم ونلهمهم هم أنفسهم ، وبعد ذلك قوم بدورنا ، ولكن هذا السور ليس معناه أننا نحارب الأم . كلا - بل نكون أقوياء تقدر على مدافعهم وتكون أقوى منهم ثم نطعم عليهم ونجعل الانسانية كلها أمة واحدة رجوعا إلى قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » .

فعلينا نحن المسلمين أن نكشف السر المحزون المقود في عقول الانسانية وهي المحبة العامة ، إن حالتنا الآن أشبه بحال النبي ﷺ وأصحابه وهم في مكة يقودون أنفسهم أولا ، وستأتي حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة وهي آية لارب فيها .

إذن ظهر الآن معنى كلام « الهاشمي » وتطابق عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السر ، فهو يقول : « إن كشف هذا السر أحسن من كل عتق » وإنما كان كشف هذا السر علينا لأننا أهل له ، أولا لأن نبينا ﷺ رجة للعالمين ، نيا لأننا وسط بين الشرق والغرب في ديارنا ، فنكشف أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أولينا ، ونكشف الشرق الأقصى أن يهجم علينا أولينا أوروبا . إذن علينا كشف سر المحبة لاهل غيرنا . إذن يجب على المسلمين أن يفتشوا من الآن لهذا الكشف ، فليجتهدوا في العلم كلها من الآن .

إن جنكيزخان منذ بضعة قرون هو والفرانجيين معه أرقاوا في بلادنا أولا وفي بلاد أوروبا ثانيا ، فهذا هجوم من الشرق على الغرب وماشيه أخيرا إلا للمصريين عند حلب ، وهامهم أولا رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأم المحمبية التي كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها وأتتحت أخيرا هؤلاء الأوروبيين الحاليين ، فمن اليوم نريد أن نكشف سر المحبة لنزيل هذه الهجمات عن الانسانية ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العلم ، نحن جنود الله ، بل أعظم جنوده في الأرض ، فلنتم للعمل كما قام أكثرا له ، ولنكن خير أمة أخرجت للناس ، فأمر المعروف ونهى عن المنكر ، وهذا هو المقصود من قراءة « سورة التفتح » وفهمها وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، وقد ألفت كتاب « أين الانسان » وستقرأ ملخصه قريبا في « سورة المعجرات » وفيه مبدئى الطرق التي بها انتظام الانسانية كلها ، وقد أحبه حكماء أوروبا ، وارتاحوا له ، وهنا من مبدئى اكتشف سر المحبة العامة في النوع الانساني ، فليقرأ المسلمون بعدنا ، وليتموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس ، وحتى نكون نحن الذين نكشف السر التي طلب الله تعالى كشفه .

والى هنا تم الكلام على الطبقة الثالثة في قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض » والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ م



اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » ليظهره على الدين كله ولو ذكره المشركون * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركبا سجدا ياتون فضلا من الله ورضوانا سياهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كورح أخرج شطاء فآزروه فاستغلظ قستوى على سوقه يحجب الزرع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما »

في هذه اللطيفة أربع جواهر

- الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله .
- الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم .
- الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركبا سجدا .
- الجوهرة الرابعة في قوله تعالى : كورح أخرج شطاء الخ .

الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة التي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال : لقد مضى أمثال هذا في سور كثيرة ، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحا وافيا . فقلت نعم ، ولكني الآن اطلعت على ما لم يكن ليسور بخدي . فما أجمل أن أذكره ليطلع عليه المسلمون بعدنا . فقال وما هو ؟ قلت لأفتم لك مقننة فأقول : إن العلم الجزئي ضار ولكن العلم الكلي هو النافع . فقال : أنا لأدري ماذا تريد ؟ فقلت : إذا رأينا علما نبغ في الفلك ، أوفى الهندسة ، أوفى جميع الرياضيات ، أوفى العلوم الطبيعية ، أوفى فرع منها كعلم الحيوان ، أوفى العلوم السانية ، أوفى فرع منها مثل علم البديع ، هل قبل شهادته في نظام هذه الدنيا وبهاياتها ؟ وقبل حكمه ، وفنائه حكما ؟ قال . كلا . قلت حسن فماقول أيها الخبيب في أمر أم الاسلام ؟ أقبل قول أي ؟ فقلت كان ؟ أم نبحت عمن يستد بقوله عمن أحاط بالأم الاسلامية علما من حيث أخبارها . فقال : أما أنا فلم أفهم ما تريدون ؟ فقلت : هاهوذا الاستاذ (عزروب استودلرد) العالم الأمريكي الذي لم يعتق دين الاسلام قد نشر كتابه « حاضر العالم الاسلامي » وقرأه أهل الغرب والشرق ، أفليس يكون هذا حجة إذا وصف الاسلام من حيث أن الرجل يحيط علما بمجالات المسائل ومناقشتها . فقال : أما هذا فكلما مقبول إذا كان على هذا الخط لأنه إذا صح هذا كان حائرا لشرطين : أحدهما انه عالم بالحوادث . الثاني انه غير منهم ، لأنه غير مسلم . فقلت حسن ، إذن أسمعك الآن قوله التي يفيد معنى هذه الآية . وهاهوذا قال في صفحة ١٣ وما يصحها في الجزء الأول من الكتاب المذكور مافيه :

« إن نشر الرسالة المحمدية لم يتم به رجال التبشير وحدهم ، ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السباح والتجار والحجاج ، كل اختلاف الأجناس . ولا يؤخذ من هذا انه لم يتم في المسلمين مبشرون ارتفعوا ككؤوس الحمام في سبيل الدعوة الاسلامية ، فهديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهرين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان ، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الجنس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يستون بالالوف للوثة ،

وما انصهروا يحاربون كل بلاد وثنية ، مبشرين بالوحداية ، داعين إلى الاسلام ، وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غرب افريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لهيبة من الجاهل الكبير وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر . فقد قال أحد الانجليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة : « إن الاسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزا عظيما ، حيث الوثنية تخفى من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » .

وقال مبشرون فرنسي : « ما برح الاسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يبق في سبيله إلا القليل ، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية ، مثلا أشق المصعب ، وجمعتا أشد المصعب ، غير واهن الزم ، فالاسلام حقا لا يهرب في سبيله شيئا ، وهو لا ينظر إلى النصرانية منازعته الشديدة نظرة المقت والازدراء ، فلها هو حقيق البطر والنصر ، إذ يينا كان النصراني يعلمون بفتح أفريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يفتتهم ، وأما السيل الذي يسير فيه الاسلام جنوبا في أفريقية فهو من الرائع الغرب ، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية على غير متوقع ، على أن المبشرين المسلمين عثرتهم « نياسلندة » دعاة إلى الرسالة المحمدية ، وبعد البحث والاستقصاء ، وإذ كاه العيون ، وجعلت تلك الحكومة أن المبشرين إنما هم من عرب زنجبار ، وقد بدأوا حملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ م وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، ومع أن هذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرين وسيطرتهم فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الأقطار الأخرى » .

ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر : « انه لا يمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز (زيمبابي) وانتشر في جنوب أفريقية انتشارا عظيما فيطبق القارة بأسرها ، وليس ظفر الاسلام في أفريقية مقصورا على الوثنية غيب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، إذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب أفريقية على يد المبشرين الترجمة يتناقصون عددا تناقصا فاحشا ، وذلك لازدياد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، إنما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعدما كانت فيها مضي سدا نيعيا في وجه الاسلام ، والغريب في هذا كل الغرابية أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاهل يد فتوح حوية ، بل فتوح سلمية دينية » .

وقال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية » . وربما كان ظفر الاسلام في أفريقية اليوم أعظم ظفر لاهل المبشرون المسلمون حديث ، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامي ، بل هناك غيره منه في سائر أنحاء العالم ، وقد بينا في فصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية في بلاد الشرق الروسية ، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية الهيبية التي رافقت تلك اللحظة الثورية ، كان الترماروسوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسي ، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتعصيرهم ، فأدركت في بعض المواضع بعض التعالج الذي لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اللحظة الاسلامية العاتية ، ووصل ما وصل منها إلى بلاد الشرق أوائل القرن التاسع عشر ، هب الترفالعمل يستردون إخوانهم للتصيرين إلى الاسلام . فلم يبق غير أن يسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فاتتحوا دين الرسالة ، على جميع ما بذله الكنيسة الأرثوذكسية من العناية « لأشقي » ولجأت إليه من

تختلف الدواعي والوسائل لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئا من الترحيم بالرغم مما اتفقدته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه ، على أن للبشرين للمسلمين التدرج بقصور أمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية القلتندية الأتمية المقيمة في الشمال من بلاد القتر ، غير مبايدين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لاقوا من وراء ذلك من المحول ما لاقوا ، انتهى فلما سمع ذلك صاحي . قال : حسن والله ، هذا معنى ظهوره دلي الدين كله ، وهذا أمر يجب كيف ينتشر الاسلام في تلك البلاد التي يحكمها الترجمة وهم أخوف الناس وأكثرهم عدواة للإسلام . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى في قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : أشداه على الكفار رحما بينهم

في هذه الجوهرة فصول

الفصل الأول في قوله تعالى : أشداه على الكفار

ويبان أن هذه الشدة أحسن بها أهل أوروبا في زماننا بعد الحرب الكبرى

فاظهر ما جاء في هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان ، إذ أبان أن الدول الأوروبية التي ترتد خوفا من البلشفيك ، خافت أن هي استعانت بالمسلمين عليهم أن يهلكوها مصداقا لهذه الآية ، وهذا نصه بالحرف الواحد :

« قد نشر العالم الاجنهي الكبير (غوزيلمو فريدر) مقالة في جريدة (الايلوستراسيون) هوانها « أوروبا وآسيا » بين فيها أن الحرب العالمية أحدثت ادلالات متناقضة ، فاعدت وقربت بين اقطاعاته ، وأنه من العادة اذا خرجت ساحة عظيمة ظافرة من حروب من الحروب ، ازدادت هيبتها وانبطت سلطانها عن ذي قبل ، والحال أنه بعد أن خرجت انكاثرا ظافرة من أبحر حروب في الدنيا ، ثلثت في وجهها أفغانستان والمندم مصر ، وبعد أن كانت تركيا اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فزعفت ورددت انكاثرا وحليفاتها على أعقابهن ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمردت أحشائها ، فطلب استدرااد البلاد التي احتلت منها وعدم مس شيء من استقلالها ، فأسيا تقوم على أوروبا على حين هي آخذة بمبادئ أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة لحرب ، بل مبادئ وأفكارا خاتلها بها . فل : وسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية فان أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متساكة بأرغم من جميع الماطرات والمناضات التي كانت بين أجزائها ، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطة الاسكاذبية متناطرتين في آسيا ، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شاذة إلى لأخرى ، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذي تقيه الروسية في قلب آسيا ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدءا خلاص آسيا ، وقد أنارت جريدة الطان بتاريخ (٨) حزيران سنة ١٩٢٣ إلى مقالة (غريديو) « هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدءا لمحور آسيا ، وهذا عين ماورد في مقالة (روجرلابرون) التي عرّبناها عن مجلة باريز ، وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين ، فخرّنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس وشرقيين وتلقين سياسة الروسية الماضية التي كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة السلطة العثمانية لثلاثة قرون ، فساكن جسد الحاسر بالمال ولرجال على اروسية ، وبمعظم القوائد لانكاثرا وفرنسا ، لأنه من الخلق لولا قتل جن لروسية على ظهر الغنائيين ، وكونهم أصحوا من عدواة الروس ، بحالة لا يملكون معها قضا ولا بسطا ، بل كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولاعلى

نوفس ، ولا إيطاليا دخول طرابلس ، ولا انكسار احتلال مصر والسودان ، بل كانت الثورة الثانية بأمنها ناحية الروسية تهدد على حياة هذه البلدان لاسيا في بداية الأمر ، فلروسيا هي التي كانت سبب سقوط الشرق بواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحول الحكومة القيصرية إلى البلشفية هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » فهذا المعنى كنت أوضحت قبل أن أبدأ الكتاب الأوروبيون يبهنون إليه .

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة (فريدو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينم الظرفه جميع الشرقيين ألا وهو قوله : « إن روسيا وانكسار مع تناظرهما وتناقصهما في الشرق كانت كل منهما شاذة إزاء الأخرى » ومعنى ذلك أن روسيا كانت تظم أغفار الأتراك والفرس والسفنيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقتدرون على إغاثة الهنود والأفغان والمصريين والعرب الذين منته يدها إليهم انكسار بالبطش والقتل ، وكذلك انكسار باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لا يقتدرون أن يؤدوا الثورة الثانية ولا الثورة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشي . فكانت كل من روسيا وانكسار قد شئت إحداهما إزاء الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفصل ، ومن الامور التي تؤدي بهذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصرية لحسب ، بل بين أوروبا والروسيا البلشفية نفسها مع شدة العداوة التي بين الفريقين ، فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الأدميرال كوتشمان والجنرال ديتكين والجنرال يودينش والجنرال فرانتزل ، والملكة البولونية ، وماولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البولشفية التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأوروبية ، وقد بذلت انكسار وفرنسا في تسليح هذه الأقوام وسوقهم على روسيا مئات الملايين ، ولا تزالان إلى هذه الساعة ترصدان القصر وترسان بالبولشفيك الموائر . لكن قد حدثت هاتان الدولتان كل الخطر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على روسيا من جهة القوقاز حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والترك ، ثم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلا ، ولا راق لهم أن تسليح الهجم ، ولا الأفغان ، ولا بخاري ولا خيوة ، ولا فرغانة ، ولا غيرها من تركستان ، ولاري البولشفيك بهذه القوت كلها ، وماذا كان إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفي المرحوم أنورباشا من البولشفيكين ، ورجع موسكو سنة ١٩٢١ إلى باطوم ، ومنها انسل إلى بخارى ، وأثارت ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكين فيأت جريدة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوروبا في إمداد أنور على البولشفيك ، بل عند سقوط أنور شهيدا في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تحض الجرائد لاسكيزية سرورها . وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوروبا بآراء الشرق . انتهى الكلام على الفصل الأول والجوهرة النائية فيه والحمد لله رب العالمين

شكيب أرسلان

الفصل الثاني في تحفز المسلمين لتلك الشدة

و ظهور المسلمين منهم لايقاد ناراها

ولأذكر مصالحها منهم على سبيل المثال زهو الاستاذ المرحوم جمال الدين الأحماني الذي نشر مبادئ الحرية وكان حرا على الملوك السبطين ، ولأجل الكلام فيه في مبحثين :
المبحث الأول في عدائه للسبطين

جاء في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم قنصل الأمير شكيب أرسلان ما نصه :
 في أحد الأيام قدم على جمال الدين الأعناني رجل من الهجم ، باني المذهب ، اسمه رضا آقا خان ،
 صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قروين عند ما اعتقله الشاه ، فخلعت بينهما محبة أكيدة ،
 ثم تظاهرا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي إلى بغداد ، ثم اتخذا سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغته محبة
 السيد إلى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيرا ، وكان دائما يجادته ، ويتكلمان على شقاء الأمة
 الإيرانية بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين . قتال رضا آقا خان يوما انه هو مستعد أن يضحي نفسه لتخليص
 أمته . فقتل له جمال الدين : ان كان كذلك فذهب وافضل ، فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهر بينا
 ناصر الدين شاه في جامع عبدالعظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقطعه غيلة وقال له : بدى ازجل الدين
 أي خلصنا من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار إلى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد
 جمال الدين مزيج سروره بهذا الخبر وشرح يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تحت وأنها أمة لم
 تقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويقتك بالظافي التي على رأسها ، لا
 تكون قد قضت جوائيم الحياة » .

وكلاما من هذا القبيل كان يردده ، ثم لما ورد عدد من مجلة « الايلاستراسيون » التصويرية الفرنسية
 وفيها صورة القاتل رضا آقا خان مسلوبا معلقا والناس ينظرون من حوله هتف : هتاف في الحياة وفي المات .
 وقال : انظروا كيف علوه عاليا عليهم حتى يكون ذلك رحما إلى أنهم كلهم كانوا من دوله ، وكان الجواسيس
 ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين
 وأنه مازال وراء الشاه حتى أزاله في قبره كما قال : ومن العريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ،
 وذهب هذا إلى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى في تدمير مكيدة مع بعض الإيرانيين لخلع الشاه وأوقته
 فندم جدا على إخطائه ، ويقال انه هو الذي بعث إلى السلطان عبد الحميد يرجونه استخدام جمال الدين إليه
 ووضعه تحت المراقبة أماتا من شرر خواتمه ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى ، ولما بلغ الاستانة
 أمر بالمباينة في برته وإكرامه ، ليأمنه عن عدوة شاه الهجم ، فكان من ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من
 قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا ، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع
 أي أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوسا ، وكانت الحكومة الإيرانية
 شرعت في تحقيق حادثة القتل ، فثبت لديها لإفراء جمال الدين رضا آقا خان بالاشتراك مع شخص فارسي
 آخر اسمه رضا آقا خان أيضا ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ إبراهيم ، فطلبت الحكومة الإيرانية من الباب العالي
 تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أتى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلقى أنه
 جرى تسليمهما ، وقتلا في إيران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة ، ثم ان الضيق بلغ حدته على المترجم حتى
 أرسل إلى « فيس موريس » مستشار سفارة النمسا ليتمس منه إيصاله إلى بلخه يخرج بها من الاستانة ،
 لحضر « فيس موريس » إليه وتعهده بما طلب ، وأذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل إليه أحد حجابيه
 يستعلم خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمن كرامة الخليفة إلى هذا الحد ، ولا يتمس بحياة دولة أجنبية ،
 فثارت في أفه حجة الاسلام ، وبعد أن كان زعم حقايقه للسفر . قال لفيس موريس : انه عدل عن السفر ،
 ومهما كان فليكن ، ولكن المراقبة كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلابد له من إذن خاص ،
 وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، وصدرت الإرادة السنية بإجراء
 عملية جراحية ، يتولاها قبور زاده اسكندر باشا ، كبير جراحي التصرا السلطاني ، وكان هذا مقربا جدا إلى
 الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياما قلائل حتى فاضت روحه ، رحمه الله

وعنى عنه . والى هنا تم الكلام على المبحث الأول من الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين .
 للمبحث الثاني من الفصل الثاني في صفاته وتعاليمه

وهاك ملجأ بقلم الأمير شكيب أرسلان في هلنس الكتاب المذكور أيضا وهذا نصه : —
 ولد السيد جمال الدين الأفغانى في مطلع القرن التاسع عشر فى « أسد أجد » بالقرب من همدان فى بلاد فارس ، وهو أفغانى الأرومة لا فارسى ، يتحد نسا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجرى فى عروقه الدم العربى البعث الكريم .

كان جمال الدين سيد النابضين الحكماء ، وأمير الخطباء الشفاء ، وداهية من أعظم الشعاة ، دافع الحق ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن فى ناسوته أسرار المنطبعة ، فلهذا كان المتهاج الذى نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المراتبة فى المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواء ، وكان سائحا جوتا ، طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى أوروبا بلدا بلدا ، فاكسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق . والتبحر الواسع ، فى سبر العالم والأمم ، علما راسخا ، واكتسب أسرارها خفية ، واستنبط غوامض كثيرة ، فأعاه ذلك هوا كبيرا على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها ، وكان جمال الدين بمعدل سجيته وطبعه وخلقه ، داهيا مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استقلاده ومواجهه إنما خلقه الله فى المسلمين لشر الدعوة لحسب ، فاقادت له نفوسهم ، وطلفت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه فمسا جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لانحسار نارها ، ولا يقبذ أولورها ، وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، لجمال انكسب على السياسة وشؤونها وذلك على علوم الدين وترقيتها ، فبرأى السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم يقن بخطور السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتغلل عواقبها فبا اذا طال عهدا ، وامتنعت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق وأدرك شؤم المستقبل ، وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النازبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ، فهب جمال يضفى بنفسه ، ويضفى حياته ، فى سبيل إيقاظ العالم الاسلامى واندازه بسوء العقبى ، وبدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصبح فيها التغير ، فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ، وحسبت له آف حساب ، ففتت بحجة أنه هائج للمسلمين ، ولم تحف دولة جالا وتضطهده مثل منافقته واضطهده الهولة البريطانية ، فسيجته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه ، فجاء إلى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد فى اثورة العراية التى أوقدت نارها فى وجه الفريقين ، فلما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ قفوا جالا لجمال ، فزابل مصر وأنشأ يسبح فى مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فلقاه عبد الحميد بطى الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامة ، وقر به منه ، ورفغ منزله ، فمخرج جمال السلطان الداهية بتوقد كاهه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رئاسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية ، ويطلب أن ماله السلطان عبد الحميد من التبحر فى سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية إنما كان على يد جمال الدين ، المتوقد الهمة ، المشتغل الزم ، والتحقى جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخنا وعاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من ألقاه ، وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم الاوربى على اختلاف أيمه دسعو به عرلا وجسسية ، هو عفو مقوم متاهض للشرق على الموم وللإسلام على الخصوص ، لجميع الملل النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح السليبية لم تجرح كائنه فى صدور المصارى ككون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس السلك من قسبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب

مستقرًا في عناصرها ، متغلغلا في أحيائها ، ومتشيا في كل عرق من عروقها ، وهي أبدا ناطرة إلى الاسلام نظرة العدا ، والخذ ، والتعصب الديني للمعقوت . وحقيقة هذا الأمر ، وتيجته واقتتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية ، تتمتع الدول النصرانية أهدارا لحاكي كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية وأذلها واكرامها بقولها : « إن الممالك الاسلامية هذه إنما هي من الاصطلاط والتدلي بحيث لا تستطيع أن تكون قواما على شؤون نفسها بنفسها » وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عنها لم تفنأ تعمل هذا من ناحية وتتلذع بألوف القرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار . للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع الشعوب النصرانية بحجة متنفذة على عداة الاسلام ، وروح هذا العداة متمثلة بمجهود جميع هذه الشعوب ، جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا ، تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم ، وآماله ، ورجياته ، التي تجول في صدره ، ثم تمثله بصور المهره والسخرية والبعث والازدراء ، فإن ما يدعوه الفرقة عندنا في الشرق نعتبا مذموما محرما ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة ، والقومية المقتسة ، والوطنية المحبودة ، وأن ما يدعونه عندهم في الغرب إمامة النفس ، والشتم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعتنونه في الشرق ظفورا مكروها ، وافرطا في حب الوطن ضارًا ، ومقتا ، وشناة للأجنبي القريب .

جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا علما ، متمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك التياد عن كيان ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل . وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى إنما يجب عليه اكتنائه أسباب تقوى القرب ، والوقوف على تقوى قدرته . انتهى الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

في شدة المسلمين على الكفار في زماننا هذا وبعض آثاره

في هذا الفصل مبحثان

المبحث الأول في بيان تأزر المسلمين فعلا

جاء في كتاب «حاضر العالم الاسلامي» المذكور مانته : « في سنة ١٩١١ أغارت إيطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية الناجية للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار ، وفي سنة ١٩١٢ م تألبت الدول البلقانية النصرانية ، وأوقلت نار الحرب على تركيا ، غسرت تركيا في هذه الحرب جميع أملاكها الأوروبية ، فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد ، وفي تلك الغضون اتفقت انكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة «أغادير» تحرق الأرم ، فضضت على مراكنش بالنواجد ، وأقنعت فيها الخائب ، وهكذا في خلال سنتين تواتت الحملات الأوروبية تترى على العالم الاسلامي ، حملات العدوان والاعتداء الخس ، فزقت ما كان باقيا منه حتى ذلك المهدد سلما شر مزق ، قزل ذلك على الأمم الاسلامية قطبة زول الصاعقة ، يسم الآذان دويها ، فأخذ العالم الاسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتغلا غضبا وحقا ، فعدت الجامعة الاسلامية إلى سابق حالها تجري مجرى سريها ، وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبغي به على انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة . الحرب الصليبية الجديدة هكذا الممالك الاسلامية ذكا ، وصديق جميع ما كان يذمه جمال الدين الأفطاني الحكيم العظيم ، وأخذت نتائج الجامعة الاسلامية بتندى ، في طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنبا إلى جنب بروح محبة تعنها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال

من الأزرار والتافر شديدة، فلي المعتدون الطليان أمامهم مقاومة مستبسلين، مل صدورهم ضرهم من التصب لا يطفأ، ضرهم يزيد العالم الاسلامي وقيدا مما جل ساسة الغرب على الجوع والارتباك شديدا، فأخذوا يتساقطون في الخطب الكبير، وفي التي عساه أن تنفجر انفجارا عاليا في مشرق العالم الاسلامي ومغربيه .

قتال غريبال هاتو، وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « باقة لماذا وجدت إيطاليا طرابلس غير المحصنة كوكز لزاير الساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامي أجمع ، فأيطاليا جنت على نفسها وعليها جناية لا يعلم غيرها عاقبتها ومتهادها » . ولم يكن خفي انكسار وروسيا لشورة إيران وحتى فرنسا لاستقلال مراكش بأقصر استنارة لإمام الاسلامي من حوب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتدما ، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفق انكسر وبلغت الروح الترقى ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو يرقون أبناء الحرب وقيسجتها ، وقولهم على آخر من جر الغضا ، فلما طير البرق نأ الكارثة التركية في البلقان أجعل العالم الاسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرناة عنان السماء ، فقتل أحد مسلمي الهند في نداء وجهه إلى بني قومه : « يوقه ملا - البوتان نار حوب صليبية جديدة ، ويستصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسيا في بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » قاويم هم بأنحرون وينشاورون في هذا الخطب ، وغدا يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب (المسجد الأقصى في بيت المقدس) . أيها المؤمنون الاقوة : اتحدوا وكونوا كالبيان المرصوص يندب بضه بضه ، فإن الواجب للقدس ليدعوك مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجهد في سبيل القود عن حياض الاسلام والمسلمين » وقال أحد زعماء المسلمين في الهد خطبا الدولة البريطانية : « اتنا ننادي الحكومة البريطانية بمل أقروا أن قطع عن سياستها العدائية تركيا ، إنعاض لانتجار يركن الملت من ملايين مسلمين ، انتفجار البحر البلاد خطبا » ، وأجيب مايدا أن أخذ المسلمون يوجهون لنساء قلو الداء لغبر المسلمين من شعوب آسيا ، يدعونها إلى التآزر والاتحاد لزاء الغرب المتعدى ، فكان هذا الأمر وإيم الحق غريبا في ناله لم يسبق له مثل منذ نشوء الاسلام ، فان محمدا وقد جاء تقرأ ممددة للتوراة والانجيل ، وقاليام خام الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود ، وصالحهم « أهل الكتاب » تميزا لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوما بمضيين النصارى بعضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكشوشيين آيين أهل الشرق الأقصى .

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحوّل منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية (الكافرة) على دولة غربية نصرانية ، ودقت ضمتها ددا ، فهب غلب المسلمين ينتهبون لاتعمار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر والشرق والجماعة الاسلامية ، ونقى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعائها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، وانتمت وسائل التقرب من اليابان ، ثم أشتت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لخسر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامي الكبير ، فأوفد السلطان قسلا إلى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامي بسبب ذلك يلجج بحديث إسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا العدد ، ويقابح فيه ، ويجهذه أشد التحيذ .

قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « إن بريطانيا العظمى وفي حكمها ستون مليونا من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كلن تدير بحرى السياسة الاسلامية العتقة تغيرا كليا » . وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « إذا شئت اليابان أن تترك منزل لم تترك دولتها فيها مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن القرات فلا يتم لها ذلك بنة إلا انتعاشها الاسلام دينا » .

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، وأحلته محل الرعاية والاحكام . بيد أنها لم تكشف عن رغبة في الحصول في دين الرسالة ، وكانت القبحه أن وضع أسس للعلاقات الودية الحية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسيا ، وبعزاد في ذلك القرب أن أخذت عرى الولاء تتوثق بسبب الحرب البلقانية ومايجلي فيها وما حولها من المظلم الاستعمارية المهالكة ، ويمكن الصلح بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت إليه من الاضطراب والاحتياج يومئذ بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندوسين (الهندوس) .

ومثال من ذلك نداه عظيم الخطر والشأن ، موسوم برسالة الشرق جاء فيه ما يأتي : « ياروح الشرق : آلامي من مرقدك ، وادفي عن الشرق هذا الطوفان الغربي ، طوفان عدوان القربجية وبغبيهم واعتدائهم ، يا أبناء هندستان : كونوا لنا هونا ونصرا بحمكتكم ، شقوا أزربا بعشارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصرا بقوةكم ، قوة الهندوسيين آلامكم وأجدادكم ، دعوا قوة الأرواح الكاشفة في قمم جبال هملالا تنبثق قدحان لها وسق من أوجدعها الانبثاق ، املاؤا الجؤ بصلواتكم إلى إله الحرب لينصرالحق على القوة الفاشحة ، ويزحق الباطل : إن الباطل كان زهوقا ، وارفموا أصوات دعواتكم ، وفي هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء العتدين » .

فن تدبر هذا المال الذي آلت إليه حالة المسلمين ، ولاسما قهرهم من الكفرة ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لاسعه إلا تكبير هذا الأمر وتظيمه ، والتجنب والاستغراب ! ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصورا على سلسلي الهند وحدهم ، بل شمل أيضا سلسلي الصين ، فقد آلت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة انحداد وطنيا منيعا للوقوف في وجه القرب المعتدي ما يأتي : « إن أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لاحد له ، فهي لاثمة كتنزعتنا على حريتنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبا ضربتنا الضربة القاضية اذا لم يستنصر بعضنا بعضا ، ونهب في يومك هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفي المورد الأول من أدوار الثورة الصينية ، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين بقائكون مهمهم مستقبلين في سبيل الوطن ، وقد أتى الدكتور (سن - بت - سن) الزعيم الجمهوري الكبير على سلسلي الصين بقوله : « إن الصينيين لن ينسوا أبدا نصراخواهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها » فلما نشبت الحرب الكونية العظمى كان العالم الاسلامي تجمع مضطربا اضطرابا عميقا ، وعتسما حقا على الغرب المعتدي ، وشاعرا بضرورة اتحاده اتحادا مكينا ، وساعيا جتد السعي لعقد التحالفات بينه وبين غيره من الدول الأسبوية لينسى له بذلك القيام بمهادته المتوى في سبيل التحرر من ربة العرب . انتهى الكلام على الأول ، ولجدة رب العالمين .

للمبحث الثاني في أن أوروبا قضتها بإغمارها صدور المسلمين جعت كلهم على الشدة عليهم جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي أيضا ما يأتي : « قام ساحة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الصوية المحفوفة الغمرا إنما هو إنشاء نظام عالمي حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة ، والقواعد الشريفة ، وكراية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمها ، وتقرير مسيرها ، وامتلاك مقدراتها فذاقت هذه التصريحات في الشرق إيما ذبوع ، واختزتها الأمم الشرقية ، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها ، وأخذت ترتلها ترتيلا ، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولاعلى مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المهادنات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرا

وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، أخذ يحتدم غضبا ، وكبير نوازل الجور والظلم ، ويستم سوم هذا الخلف والقتل ، فأخذت مراحل العداء تشتد غليانا في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهر الجوق ، وقصفت الرعود ، منذرة بأحوال الصواعق ، ولم يكن هذا الحادث للستورب إلا قد سبق للكثيرين الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علما بالأمور الشرقية ، فآذندوا البول النارية المرة تالوالمرة قبل انقراض « مؤتمر فرساي » بسوء التقى الواقعة في الشرق ، واقضجار عظيم لابتد منه . من هؤلاء المنذرين (ليون كايتي دوق سيمونيه) وهوقة من قتات الطالبان في شتون العالم الاسلامي ، فقد قال في سنة ١٩١٩ في مجلة حديث له ذكر في نتيجة الحرب العاتية في الشرق : « إن الحرب الكونية العظمى قد هزت شجرة الحضارة الشرقية ، فاهزئت اهتزازا بلغ أقصى الجنود في التربة ، وبشت فيها روميا هيبية ، إن الشرق أجمع من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميدانا عنيفا ، ففي كل رقعة وبلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة ، ففي مراكش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والطياع ، وفي مصر ، وبلاد العرب ، وليبيا ، وسائر الأقطار الاسلامية ، الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متناهية الصفة العاتية ، وموحدة الغاية ، يمسك العالم للشرق الاسلامي يمينه يمين ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا » انتهى الكلام على البحث الثاني من الفصل الثالث

الفصل الرابع

في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وهل الشدة المذكورة في الآية لاتزال محتملة في هذا الزمان بعد أن أذاع السلطان عبدالحميد الجهاد العام فلم يخلع وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس فداء السلطان المذكور شرعا في نظر المسلمين :

جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي ماضيه : « قد حاج ثبار الجامعة الاسلامية هياجا هائلا ، وثار ثورانا هيبيا في هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنما هو الارهاق الغربي ، للتوالي الشدة وإزالة منذ الزمن البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستمر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعده ، وأركانه الفاسدة ، وما دعى العالم الاسلامي بسببه من التوازل والفواجع ، ولا يميز من البلب أن الجامعة الاسلامية على غنفت حالاتها وتطوراتها يجب أن لاتعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمودة على الغرب ، وذا لاعتدائه ، ودقما لجوره لحسب ، بل ان منشأها الأصلي هو المشاعر الغسانية الوجدانية العميقة في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق هرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التي قلنا فيها قبل انما بين السلم والسلم لأقوى منها حقاً بين النصراني والنصراني ، فان هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها حقيقة المعنى والمراد لاجتماعية خلقية تهديدية ، وأن القوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الأسرة الاسلامية على مختلف العادات والأقاليم لاتتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الاسلامي . قال السيد موريسون : « إن الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ديني ، إنما هو نظام اجتماعي تام الجواز ، هو حضارة كلمة النسيج ، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الاسلام والنصرانية على تضال وزلازل . فما عرى ومن جانبنا من جوانب الاسلام فقط ، بل ما أفكك على الدولام يشتد يمينه مع بعض ، متباسكا متعاضدا ، حتى صار وحدة جامعة نامية نمو الجسم العضوي سائرا سيره بضع نظامة التقادى المستقر فيه » . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة ورباطا وثيقا لا انقسام له ، وباعتبار هذا المعنى فإن الجامعة الاسلامية إنما هي عامة قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي حتى ان المسلمين الأحرار على ما يحبون من الآراء الغربية التي يردون شرعها من حيث

لا يراخون إلى دعوة الجامعة الإسلامية السياسية لتقريبها على الطرق الرجوعية يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الإسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قل إمام سر من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغلثن مايقى : « إن هناك جامعة إسلامية حققة صريحة ، ينضم إلى لواثها الحر كل مسلم ، ومن غلص ، أثنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صلب الرسالة الإسلامية ، فهذه الوحدة الإسلامية الروحية الهندية ، يجب أن تتعهد قنموأبدا ، لأنها عند أتباع التي أس الحياة وجوهر النفس » . فلذا كان هذا شعور المسلمين الأحرار الوافدين حق الوقوف على حضارة الغرب وتقدمه ورفقه وحرانه ، والقاتلين يوجب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشد شعور سواد المسلمين وهم الجاهلون الرجعيون للتعبون ؟ صف إلى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشناعة لاستثناء الغرب وحضارته ، الشناعة التي ليس منشؤها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لجورد الأفراط والتلفؤ في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية في العالم الإسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الأفراط والغلو ، فالتعب التعصب اتها بالغا الحد ، رفصه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجمعه صفة واحدة متناهية متشككة في نفس كل مسلم ، فبات السلم المذمومة في العمور الإنسانية . مهتدة من ناحية العالم الإسلامي ، هذا هو الواقع الذي يجب علينا أن نعرف به ، وأن لا ننقع قوتونا فستعمر شأن هذه الحلة العصبية اليوم ، وما يستعمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في العقد القريب ، وعلى ذلك ليس من إصابة الحقيقة في شيء أن يقال إن تركيا قد سبق لها فهدت المسلمين واستعمرتهم إلى حوب عممة ، وحاولت جهدها اقتداس زهد الجهاد المقدس سنة ١٩١٤ نزولا على أمر ألمانيا ، فلم يكن هناك الأبراء أراد فذهب لاقتداس بطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقي في العالم الإسلامي بات ضريبا من الحبل ، إن من حله الوهم على هذا فهو على خطر شديد ، إذ أن الجهاد لم يكن أبدا كل الأماكن . قل ضابط ألماني ، كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العالمية قولا صريحا ، وهو : « إن الجهاد انتهى أهلته تركيا تدحبط حبوطا ، لأنه في الواقع لم يكن جهادا بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأينا كيف هب قادة المسلمين خارج تركيا ، فأخذوا يستمعون دخولها في الحرب ، وبسطنا مذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال ، فلسفة الاعتداءات الغريبة الأخذ بعضها رقاب بعض منذ التقدم حتى انتهاء الحرب العامة . وتقرر الصالح على الأسس والأركان التي ذكرها صفاتها الفاسدة ، تقريرا كان من شأنه أن بات العالم الإسلامي أجمع خاصا خضوع القتل والروع للسيطرة العربية ، سجع هذا أثر قلوب المسلمين . فمهبوا صوب العاصف ، تقطع كل شيء في سبيلها ، أضف إلى ما تقدم أن الأهلية المادية ما برحت تزداد وتسترفي . وقد سبق للسفشرق الكبير العلامة أرمينوس . بلاري المخير حق الخبرة بثقور العالم الإسلامي ، فأثرت الحرب انذارا . منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه : « إن السياسة الاستعمارية البهيم إنما هي السبب في نشوء مخاطر الخطي في الشرق » . واليك بعض ما جاء في مجلة التي نشره سنة ١٨٩٨ - : « إن الخطر المبعث على حوب كونية عامة يزداد في الشرق ازديادا عظيما على توالي الأيام ، ولا ينبغي عن البلاد أن يروح المساء والمقاومة قد انتهت ، والصندوق وغرت . والحفاظ اتقت ، أثنى بذلك أن الشعوب بالوحدة لامة والجامعة الرابطة قد صر شورا عاما مايا منتشرا في جميع الشعوب الإسلامية . وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة لنقل والتواصل ، فباتت الحلة اليوم غير ماضية منذ عشرين إلى عشرين سنة . وليس من المدهش أن تده على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر إلى لمرلة العناية التي أدركتها في حفاة الإسلاميه الدول من الخطورة والشأن ، وإلى عالم انتشارها في آسيا وأفريقيا ، وما لبعدها لزيادة . ولذا رتها وقطعات من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين ، فالصحة الوطنية الحارة والحرية في ترك و الهند ومرس وأواسط آسيا وجاوه ومصر والجزائر مفعول عظيم

إذ كل ما تشكرك فيه أوروبا ، وتقرره ، وتقوم على إقصائه على ما يناق المصلحة الإسلامية ، تنتشر أنباءه في جميع هذه الأقطار بسرعة البرق ، وتحمل التوائل هذه الأنباء إلى كل جهة شامعة ، وصوب سحيق في الزرع الإسلامية ، حتى إلى قلب الصين ونطا الاستواء ، حيث يجب المسلمون لتلقى مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين بالشرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أواد من أديفتنا ، أوولية من ولائتنا ، فما تزال في مستطارها ومسيحها في انفضاء حتى محبوب أفاضي العالم الإسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف ، وما تنشره صحيفة « رجبان » في القريم مثلاً ترددده صحيفة « اقدام » في القسطنطينية ويرد صدها عظميا في صحيفة « الحوادث الإسلامية » في كالكتاني الهند ، فالمصلحة الإسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير أن اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وصفه للتوالي يزداد اشتدادا على الملوم ، سيعدلان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتتأسك وترتبط قصبير الجامعة الإسلامية كالبنيان المرصوص منيح الأركان ، فيتوقع حيثئذ من وراء ذلك حرب عالية مشبوبة في أنحاء المعمور لاتنتى ولا تفر .

منذ نشره فمبارى انذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتقدم والنصرة الإسلامية تثور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضة القومية والحركات الوطنية الإسلامية التي كانت تكاد لا تعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب التبروع والنداءية ، ولنا مثل على هذا وهو صف المعركة للجامعة الإسلامية وهي التي أثار إليها فامبارى ، فقد قامت فاعظما غير مسبق النبل ، ففي سنة ١٩٠٠ م لم يكن في العالم الإسلامي أكثر من مئتي صحيفة دهبوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ حدة الخمسة مئة صحيفة ، وأربع سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرجون في بلادهم بأسباب التآل والتواصل مثل البرد والبرق والتطارات الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الأنباء ونقل الأخبار ، وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الإسلامية إما توا على يد الرسل والسعاة والمجبع والسياح والتجار والبر ، ولما على يد الصحف الإسلامية والكتب والنشرات والمجلات ، ففي القاهرة ترى صف بغداد وطهران وبشور ، وفي البصرة وبوساي ترى صف القسطنطينية ، وفي المعركة وكر بلاه وبورت سعيد ترى صف كالكتنا ، وأما الوسائل الكبرى للنداءية في سبيل الجامعة الإسلامية فهي الطرق النيفية التي سبق لها الكلام عليها ، وهي حقا كاسيل الطامى فانه ما أدركت أمة مسلمة إلا استوات على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الاتياد إلى فعالها ، وترى دعة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أحاليب عديدة غريبة ، فهم يجرون الأقطار بألوف الأزياء بالنسكرة تجارا ووعاظا ومرشدين وعلماء ، وطلبة وأطباء ، وعلمة ومفتولين ، رفقاء ومسكين ، حتى ومشعوذين ودجابين ، وحيثما صاوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على لرحب والسعة ، وأخوهم عن عيون رغباء الحكومات الاستعمارية .

زدهي جميع هذا أن ساد اليوم في العالم لازمي سيادة عامة الاهتد التي يؤيده الأحرار والعزة والمحافظة وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين لا يرم به دور الهسة ولا تتقل والتجند يتردون بمجدهم الإسلامي الفات ، ويعتيدون عزهم القديم . فاز السريودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الإسلامية قاية ، أرض غير متجددة مرقية ، إنما يعتقد أن دة عرتها تقرى قصيرة غاب ، فقصير المسلمون أحرمهم على التطوح في الأشدة بمجد الجدود ، وتقصروا في ذلك ، وغاوا شديدا ، ولكن أحرمهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحل التي كانت سابقة أوزيد في خلال القرون الوسطى . يوم كان ديجور الجبل مطبقا جميع البلاد المصرية ، يعتقد المسلم اليوم أن العاد الإسلامي سائر في طريق استئشاف الارتقاء يأخذ عن العرب ما يزيد في استعداده ، ويمت فيه عزما وأهلبا وفشلا ، وتطورت الحياة تطورا تسدت

دلائله في كل قطر اسلامي» (١).

فإذا كان دعاء الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ، ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العاتقة مصداقا لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتتت قوة وانفداعا ، أضف إلى هذا أن الغرب قد اقلب بعد الحرب العظمى ضيف المنة ، وامن القوة للماذبة وهنا حكيرا ، ثم جاء السلاح مبنيا على أركانه الباطلة ، وطلق لخطاف ينشب بين الفالين بعضهم مع بعض نشوبا قوض مكانهم قروضا وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في حيون الشرقيين ، وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في الشرق أن ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تماسكهم وتماسك بعضهم مع بعض . فاشتتت لجانهم بإدراك المبتقى ، ثم إن هذا التمادي الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطرابا سياسيا عظيما في الغرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف .

قال أحد كتاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذارا شديدا : « إن العالم الاسلامي بات لا يترف بمحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعامل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يجهين من ذلك أقل » هب ملحات الدعوة الكبرى التي نثرها ووقع عليها جبال الدين في المسلمين تسير سيرا دراك .

وأى شيء أدلة على هياج الاسلام ، وغليان مراحل حقه من ذلك التوران المائل الذي يقوم به السبعون مليون من المسلمين في الهند ، استعجابا على بحيرة المملكة الغنائية ؟ والأمر الأخطر أن هذا التوران الاسلامي ليس مقصورا على الهند خصب ، بل انه شمل المصور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يغال (السرنيود موريسون) بإنذاره :

« لقد حان وأيم الحق » للأمة البريطانية أن تعتبر وتسدير خطورة ما هو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي أصبح ليحج غضبا ، ويستخدم حقا ، من جواء بحيرة تركيا ، وما هذه الوماع الثرية التي تسدو في كابل والقاهرة إلا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق للزلا ، إلى قد أقت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمي البريطانية بشر عقي هذا التوران الاسلامي الناشئ من بحيرة تركيا التجزئة المتويدة ، فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركيا في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولامن أمة تقار عليها لها أسوأ هذا الخيال الباطل ، والوهم القاتل ! فمن شاء البرهان فلي نظر إلى هذه الوفود الاسلامية الصديدة الحافة بين ظهرائنا في لندن كأنها الله لا يسطى به ، فالسلفون قاطبة في الهند من بشوار حتى أركوت فأثمون قاعدون لما يروه قد حل بساحة تركيا والمسلمين ، حتى باتت النساء السلحات يمولن اموالا شديدا ، ويمكن حالة الاسلام بكاء الأمهات أخفاهن ، وتزى التجار وهم أهد طبقات الأمة عن مزاولة الشؤون السياسية يفترون من حوائثهم ومتاجروهم خفافا إلى حيث ينظمون وقائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم وتزى الطوائف العديدة من رجل الدين المتشغفين ، المتشددين ، للضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث في العالم يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا في اتيام بالظواهر والاحتجاجات ، وأغرب ما في الحلة أن الأسرار قد أخذوا ينظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ من الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، ونهابهم من هذا مخالفا لعادة الجامعة الاسلامية ، وأرياب الطرق الرجوعية ، وإحاطل كل

(١) ذكر لمؤلف في هذا الموضوع كلاما مقتبسا من كتاب « يقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة » مؤله يحيى صديقي ، أضربنا عن ترجمته .

شكيب أرسلان

الحامل لم على ذلك هو اشتداد الضغط والعنف الأوروبي ، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون في ردة
بموالات الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولوالى حين مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجلسنة
الإسلامية إذا أغارت حروبا عامة باسم الجهاد ، فن شأن هذه الحرب أن تنجح غورا بعيد المهوى بين الشرق
والغرب ، وتقتضى على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذلك وهي التي ترمى اليوم دابة في كل عروق
من عروق العالم الإسلامي ، باعثة فيه القوة والزم ، ومع علمهم أيضا أن حروبا كهذه تشعل نار التعصب
الرجوعية في العمور الإسلامي ، ذلك التعصب الذي إذا عاد فاقده أوهن حركة الإصلاح الحديث في الإسلام
لإيهاتها شديدا فأخرها مدة مديدة . ولعل الذي عرف حتى اليوم من ثوران للإسلام لا يعد أكثر من مقلنة
لما سيحدث في السنين المقبلة ، ولما دليل على هذا ظهور الصوريين العظيمين للإصلاح الديني في الإسلام
اصلاما ضاربا إلى التعصب ، أما الأولى فهي دعوة الإخوان التي نشأت منذ نحو عشرين في تجديد قلب
بلاد العرب وهي الوهاية حينها التي كانت نشأت منذ مئتي سنة خلت ، وهذه الوهاية الحديثة ما برحت تنتشر
انتشارا سريعا حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير ، أعني به ابن السعود ،
خليفة سعود الذي كان رأس الحركة الوهاية منذ مئة سنة ، وأما الإخوان الجدد فلي تعصب شديد منقطع
التظير ، وخطتهم هي حل الوهاية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الإسلامي ، ولما الأخرى فهي
الحركة السلفية التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة الإخوان في نجد ، غير أنها قد انتشرت في هذه السنين
الأخيرة انتشارا هم كل رقعة إسلامية ، وفرضها كفرض الوهاية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب
وغالب أنبأها من حلقات المرويش . هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل المبسطة
الذكر تنحصر هنا متغلا في سلم الشرق ، انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » والحمد لله
رب العالمين .

فرد على فرد

انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا

وذكر حدثين اثنين

من ذلك حادثة أمريكا أسلم ، وحادثة فرنسا عظم أسلم أيضا ، وهاتك قصتهما ، فأما الحادثة الأولى فهي
ما جاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » سنة ١٣٤٩ هجرية وهذا نصه :

كيف أسلم ؟

ترجمة المحاضرة القيمة التي ألقاها بالانكليزية الأستاذ محمد أمندى عز الدين لوما كس الأمريكي الذي
أسلم ، بدار جمعية الشبان المسلمين في ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هجرية — ترجمها عبد الجيد سامي يوي
بكلية الحقوق .

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر الإسلام

الإسلام في جوهره قوة وقطرة من الخالق ، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو
الموجود أولا ، والموجود لكل موجود : « لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي
يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات
والأرض ولا يشوده حفظهما وهو على العظيم » .

بين روح الاسلام والإله الواحد الأحد صلة وثيقة العرى لا انقطاع لها ، فهو الذي يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور حيث يجد في ضياء الاسلام أول قبس يشع نوره من احرار الكرم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ففي كلمة الرحمن يشعر المؤمن أن الله تعالى هو الإله الواحد الذي يسبح على عباده النعم في الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وأن المسلم اسلاماً راسخاً يصترف خلقه في صاوته الخس بالرضا والتعبد ، وأما كلمة الرحيم فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلائق ، سواء في ذلك المؤمن والكافر ، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يخلق الكافر أنه سيكفر ، وأنه لولا لفظ الرحيم لما سمح للكافر أن يكون حياً يرزق في الوجود الانساني ، فمن هنا نرى حقيقة لا يدانيها الشك أن هذا النور الأعظم وهو نور الإله إنما هو الشفقة والرحمة ، وإذا لمجد أن الله الرحيم لا يبيت عيسى ابن مريم من جوار خطايا هذا العالم الذي . إن روح الدين الاسلامي الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئاً عظيم النفع جليل القدر لأجل أن يرد إليه تارة أخرى ، وأن تحوّل إليه القاريين عن سبيل التضحية مقابل اقرار الانسان للشكرات والآلام ومثل هذا كما يأخذ الانسان من أحد جيوبه مبلغاً من المال ثم يضعه في أحد جيوبه الأخرى .

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهي : « الحمد لله رب العالمين » فتعلمنا أن الحمد في مجموعها وكليتها مرجعها إلى الله مالك الملك ، والمحيط علمه بكل شيء . وأما الآية الرابعة فتدلنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين ، لأنه هو المستقي من الحساب : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ روح الاسلام الذي جعله يحبر بالقول في تعاليم الشريعة السمعة للذين يقرءون ويكتبون من المسلمين ، ومن هنا نعلم أن من يوحى إليه الله تعاليم وأحكامه لا بد وأن يكون منزهاً ومفضلاً عن الناس كافة ، فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعليه بركات الإيمان واليقين .

ولقد نفلت روح الاسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والصلحين أمثال حمرون العاص ، وخالد ابن الوليد ، وأن هذه الروح اقوية الأثر هي التي حدث النبي ﷺ إلى الحجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجتهدون في البحث عنه ليذيقوه ريب اللذون ، ومن الغريب أن أعداء النبي صلى الله عليه وسلم لم يقموا أنفسهم بترك مكة ، بل تعقبوه في هجرته ، وهناك ضمروا على زله سياجاً من الحيلة لأجل القبض عليه ، ولكن روح الاسلام الدفينة في الأعماق ألهته بأن يتناول قبضة من تراب ويذفها عليهم ، فأخذتهم سنة من الوم تمكن النبي ﷺ من النجاة منهم في الصحراء حيث اختفى في غارهاك ، ولا تقل إن اختفائه في الغار يحول دونه هلاكه وحشته ، ولكن الاسلام ومافي تنبيه من روحانية وقوة جعل الحما يفيض على باب الغار ، ولما أدق أعداء النبي ﷺ من غشايتهم تتبعوا أثره إلى الغار مدهوشين وأخذتهم هواجس الظن لهم أن النبي ﷺ لا يمكن بأى حال أن يكون في الغار ! فمن يريد أن يؤمن بوحداية الله فليد أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة لكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة ، وبخاصة عندما أحيط حياة النبي ﷺ من يد العدولان برعاية الطير التي اندفع إلى حباة محمد ﷺ بيد الإله الخافية عن الأبصار .

متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهل في سواء السبيل ؟

ولدت مسيحياً ، وبسقطار رئيسي ثولايت المتحدة ، حيث لادين هناك خلاف للمسيحية ، وحيث لا يستر في تلك الجهة على أي نوع من أنواع الأدب التي تقدر إلى الدين الاسلامي القيم ، بل إلى هذا الضوء الازمع ، والضيء الساطع ، إلى القوة التي يرمز إليها روح الاسلام ، وهناك لا يزالون يعلون الناس أن المسلمين عبدة أوثان ، ولكن (بينة الله) في عام ١٩١٧ ميلادية اعترفت مشاعر نفسانية دخيلة ، حركت قلبي ، ودفعت

إرادتي إلى اجتياز خجاجة ميل ، لأفئات من فضلات مواعيد المسلمين ، ولأخذ من أدييات روح الدين الاسلامي بنصيب .

لقد كنت قبل الدخول في الاسلام والتشيع من هذا الدين : مدمنًا على تعاطي الخمر ، لاهيا بالألعاب الاجتماعية ، أما اليوم فتزكت هذه الأمور ظهرياً ، ولا علم لي بالمناقع التي حركني لتزكت هذه العفليات ، ولكنني أقول وأبزم القول بأني (أنا) وأنكم هنا بلغة الاسلام ان الروح الدينية الاسلامية هي التي أوحى إليّ بهذا الخير ، وقد شمرت في نفسي بأني على استعداد للخدمة في الكنيسة ، ولكنني إزاء ذلك وجدت أن ما استقرت في نفسي كان يتنافى مع أوضاع الدين المسيحي وتعاليمه ، فانتظرت خارج الكنيسة ولم أجد في سديتها ريشاً يثبتني دين أحسن من هذا الدين الذي كانت الكنائس في الولايات المتحدة سائرة على منواله ، سالكة سببه وخطاه .

عام ١٩٢٦ في مدينة شيكاغو اقتنع النشأ عن عيني عندما ما ابتدأت في مطالعات آداب الاسلام الحقة ، وأن جوهر هذا الدين حرك دكتوراً هندساً يدهي مليك بمدينة لاهور بمقابلة البنجاب بالمهند أن يكتب في مجاته قواعد دين الاسلامي المجلس التي تعتبر الأركان الأولية الأساسية الجوهرية للاسلام ، وهالك نصها : —

(أولاً) : كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(ثانياً) : الصلاة : على كل مسلم عربي في إيمانه أن يؤدي الصلوات الخمس يوماً بعد الطهارة والوضوء بلقاء النبي الطاهر كي تنقي أرواحنا ، وأجسامنا ، وقلوبنا قية طاهرة قبل الوقوف أمام الله

(ثالثاً) : الصوم : وهي فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة حتى تقف بأفئتنا على ألم الحرمان من الغذاء ، ونأخذنا قشعريرة الشفقة ، وحساسة الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل والفقراء ممن يتضورون جوعاً ، وبذلك نحكي من قوة الاسلام ونفوذها على الأرواح إيماناً ثابت الدعائم لا تهزها هزات الأباطيل .

(رابعاً) : الحج : وهو غرض على كل مسلم يحل القيلم بأداء مناسك الحج في مكة ، وحيث يستنشر المؤمن بالعظمة الربانية ، ويشاهد البيت ، ومقام ابراهيم ، وكل الأعمال الجليلة التي أودعها الله بحجة .

(خامساً) : الزكاة : وهي فريضة من اليسر يمكن ، فإذا كان المسلم مولعاً بقتناء المال وكثره ، أي أنه كان حائزاً للثروات الشريفة لذي فرضه الله على الناس ، ومع هذا لم يدفع حق الله المقروء عليه سنوياً فقد باء بخسران من الله سبحانه ، وحلت عليه العزلة من ربه .

هذه الأركان الخمسة التي اطبعت في شخصي الضعيف ، وانزجت بنفسي لارتياح قويا ما يبد له عدم من روح الاسلام جعلتني أدين بالعبودية لإله واحد لا شريك له ، كما يقول دعاء المسيح . انتهى

محمد عز الدين : الخادم بطبع للاسلام

المعرب : عبد الجيد سامي ييوي

هذه هي الحادثة الأولى ، وأما الحادثة الثانية فهي أيضاً مجاه في حجة جمعية شبان المسلمين ، تحت

العنوان الآتي في الصفحة التالية ونسه :



« لكم دينكم ولي دين »

من كتب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصر الدين دينه والحاج سليمان بن ابراهيم.

الحاج ناصر الدين دينه هو المستشرق الفرنسي المصوّر المشهور ، أول من قمنه لقراء العربية في مصر وعرف المسلمين الشرقيين به الاستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة « أشعة خاصة بنور الاسلام » التي وضعها ذلك الفرنسي المسلم الكبير . وفي سنة ١٣٤٧ هجرية وسنة ١٩٢٩ م لم يقعد به كبرسه عن تأدية فريضة الحج برقة صديقه الحاج سليمان بن ابراهيم الجزائري ، وبعد عودتهما وضعاً مذكراتهما التي دوناً فيها رحلتهم إلى الأقطار الجبلية المباركة ، وبعد وفاة ناصر الدين في ديسمبر سنة ١٩٢٩ م تولت مكتبة (هاشيت) الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات لجاءت كتاباً وافياً ، يشتمل على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذي فصلين ، تقع جميعاً في أكثر من مائتي صفحة ، وقد حلاها السيد ناصر الدين بجان صور من صنع يده ، مثل صورة الكعبة المكرمة ، والحرم الشريف ، ومنظر الحج برفقت ، وصلاة المغرب حول الكعبة ، وبجل النور الذي تلقى عنده الرسول الأمين الوصي عند زواله أول مرة ، وجعلها آية في فن التصوير . وقد رأيت أن أحرب لحضرات قراء مجلتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمور حيوية جدير بالمسلمين أن يقتنوها إليها لعل لهم فيها عظة وذكرى .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمور ثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهي :
« أولاً » قوة الحياة الكائنة في اللغة العربية **« وثانياً »** قوة العقيدة الاسلامية **« وثالثاً »** إصرار أوروبا في عداوتها للإسلام إصراراً ظاهراً أو مستتراً :

أولاً : قوة الحياة الكائنة في اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدناً لهم إظهار اللغة العربية النصحى بظرف لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب ، أما لغة الكلام فهي في نظر هؤلاء اللاتينيين عبارة عن طبعات عامية لا ارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل : ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى الشرق ، إلى مصر ، أو سوريا ، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التي وثقت قبل أن يحين أجلها هي على عكس ما يذهبون إليه لغة حية بكل ما في الحياة من قوة ، ودرجة أن جميع الأجانب المقيمين في هذه الأقطار لا يجدون مغزاً من تعلمها ، ولا حيل بينهم وبين القيام بتصرف أمورهم ، وفي مكة على وجه الخصوص يشاهد الانسان أكبر مظهر من مظاهر حياة اللغة العربية ، فإن لغة الكلام هناك تكاد تكون النصحى بيمينها ، ومن السهل أن يفهما جميع الناطقين بالصاد في جميع الأقطار . أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعددة فقديم الأهمية لأنه لا يحول دون تفاهم المرء كشيخين والسوريين والجنين وغيرهم فيما بينهم إذا جتمعهم الظروف في مكان واحد والعناء الوحيد الذي يلاقيه المتكلم ينحصر في اللهجة المصرية بسبب اختلاف النطق بحرفي الجيم والظاف ، وهناك الألوف من اللهجات الأصابع (غير العرب) الذين يقابلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه ، والكتيرون منهم يقدرون على التعبير بها من غير ماخطأ بألفهم من سقم نطقهم ، ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين ، والهنود ، والفارسيين ، والخراسانيين ، وأهالي البوسنة والأراك ، والابانيين ، وأهل القوقاز ، والسفغال ، والسودان ، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر .

أما العرب والبسرو من سكان الحجاز ونجد فقد تولتوا الدهشة من الشبه الكبير بينهم وبين بدرهماء

أفريقيا الشمالية في تعبيراتهم وفتناتهم وأفكارهم . واللغة العربية الفصحى تشابه في الواقع اللغة الفرنسية ، وهي مثلها لغة حية ، وتتفق وإياها في طرق التعبير والأدلاء ، أما اللغة العاتية فلا تفتقد لمحاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحي شمال فرنسا عن لغة فلاحي جنوبها ، ويجد الانسان في دراسة تلك اللغة الجنية ميزة خاصة بها ، فانها (من بين جميع اللغات القديمة) اللغة الوحيدة التي لا تزال حية الآن ، ولوعد اليوم أحد معاصري النبي ﷺ لما وجد أية صعوبة في التفاهم مع جميع الناطقين بالهند ، على حين أنه لو عاد أحد معاصري قيصر لما تأنى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة للمدرسين ، ومع ذلك فن للشكوك فيه أن يقضى له أن يفهمهم كل الفهم ، كما أن أحد معاصري (فرنسا الأولى) لو عاد لوجد صعوبة ثقفة في التخاطب مع فرنسي اليوم .

وأدب اللغة العربية (دون آداب اللغات الحية) أقلها انتشاراً ، لأنها أدق على الفهم ، ولأن الموجود منها بين أيدينا مترجماً إلى اللغات الأوروبية معظمه محشوب بالأخطاء وعلى جانب من السخافة للزورية ، وفي الواقع لأجل اللام بالآداب اللغة العربية وتفهيمها للغير يجب أن لا يكون المترجم لها عن درسوا اللغة العربية حقاً دراستها لحسب ، بل يجب أن يكون شاعراً ، وأن يسكنون من عاشوا بين ظهرائ العرب المسلمين وعاصروهم مدة طويلة ، فأمثال هؤلاء يجدون في آداب العربية كنوزاً مدخرة قل أن يوجد لها نظير في جاهلها ونوعها ، ولغة العربية ميزة أخرى ، وهي انها منتشرة في أقطار واسعة تمتد من شواطئ الاطلس إلى بلاد فارس وخليج البحر المتوسط إلى بلاد السودان ، وسكنها ما يقابل الانسان جماعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية في الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادئ ، وان في دراسة اللغة العربية فوائد لا تنكر لاسيا للفرنسيين ، بل هي أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية ، وتعدل دراسة اللغتين : الانكليزية والألمانية ، ويجب أن تدرس في جميع المدارس الثانوية في فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى .

ثانياً : قوة العقيدة الاسلامية

وقف القراء فيما أوردناه في هذا الكتاب على مقدار قوة العقيدة الاسلامية الهائلة ، ولتلك لاجابة بنا إلى تكرار ما رأيناه من المعجزات التي تجلت لنا من جراء فعل هذه العقيدة بالنفوس ولكن من باب التذليل على عظمت هذه القوة تقتطف فيما يلي بعض الفقرات الواردة في الكتاب الذي وضعه القس (زويمر) والذي أتى فيه على شرح انتشار الاسلام أيقظته الحقن التي زلت به منذ الحرب الكبرى . قال : « منذ سنة ١٩٠٥ عاد خمسون ألفاً من الروسيين الذين كانوا يتسمون بأسماء - بحية إلى حظيرة الاسلام (صفحة ٢١٠) وأن السودان الواسع الأرجاء يسكاه بنسطين ٥٠ مليوناً من النفوس ، وبقية هداوسا الكبيرة ، وبقايل بلاد النيجر ، والشاطئ النوبي ، أهم الكيرون منهم ، بل هم على وشك أن يصيروا جيده مسلمين ، ولا ريب أن الموج يرتفع قهراً دون أن يلقى مقاومة (صفحة ٢٣٥) وفي اسبغال (مقدمة من مقطعات الهند) أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس ، وكذلك في برمانيا (بجوار الهند) زاد عدد المسلمين بنسبة ثلث في عشرين سنة (١) وأخيراً ثبت هنا ما فات زويمر أن يذكره - وهو أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ، وذلك أن هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية بالنظر إلى عدد المعتنقين (وان كان عددهم لا بأس به) فانه ذو أهمية كبرى نظراً لمركز هؤلاء المعتنقين الذين يتسمون بالاعتناق الرافضة المتعلمة ، وتذكر منهم على سبيل المثال (الورد هيدل) الانكليزي ، وصديق الأسوف عليه مرحوم كريستيان شرفيس أحد تلاميذ

(١) انظر الكتاب « لاسم » تأليف س . و . زويمر

أوغست كومت ، وأديب من أدباء فرنسا المعادين ، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين .
 لو كان الاسلام الحقيقي معروفا في أوروبا لكان من المحتمل أن ينال (أكثر من أي دين آخر) من
 الطلق والتأييد من جراء روح الدين التي نجمت من الحرب الكبرى ، فانه والحق يقال بلام جيع ميول
 معتقيه على اختلاف مشاربهم فهو (يسلمته المتأخية كما يذهب إليه المعتزلة ، وبلشاهه على روح التصوف
 كما يذهب إليه أهل الصوفية) يهدي علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويعمدون فيه نهضة وسوى
 من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التفتة في آرائهم وأفكارهم ، كما أنه هدى ونهضة في لزواج السودان الذين
 يتزعمهم من أحضان أوهادهم الوثنية ، ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزي رجل العدل الذي يعتبر الوقت
 من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف للدين ، ويسمو بنفس الشرق المفكر ذى التأملات والخيال ، كما يسمو
 بنفس الغربي الشغوف بالحق والشعر ، بل هو يسحر لب الطيب المصري بما قوته من الضوء المتكسر
 كل يوم ، وبما في الصلاة من حركات منتظمة ، تقيد الجسم والروح معا ، وفي وسع حرة الفكر (وهو
 ليس ملحدًا هنا) أن يعتبر أن الوحي الاسلامي عمل من أعمال تلك القوة الخفية التي نسميها (الالهام)
 وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يهتوى على أسرار خفية لا يسفيها العقل .

ثالثًا : حدود أوروبا للاسلام

إن الكثرين من القراء يفترون على ملاحظتنا الخاصة بحدود أوروبا للاسلام ، فإن هذا الشعور
 السيء لا وجود له . الحقيقة عند علماء الآدوريين ، بل هناك لكثيرون من هؤلاء الذين وهماق السياحة
 يشعرون بسخط خالص على الاسلام وبالعجب كبير بذلك الدين الجذاب الذي أتى بالآيات الالهية .
 ولكن بما يؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحدد
 عنها لحد ، وكما سمت بفسادها قام في الحال أعداء الاسلام أمثال (فيلدستون) و (كرومر) و (بلفور)
 ومطران كنزبروري والمبشرين من جميع المذاهب في وجهها ، فستأ والعودة بها إلى تلك التقاليد العداوية
 (وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لا يحمله القراء وما يخرج بنا عن النخطة التي ارمسوها
 الوجهة لنفسه ، وقدك لم يرتد من غفلة ما ذكره في هذا الصدد) .

كرهية الاسلام تحت ستار العلم

جرت عادة عند ما يدرس أحد العلماء موضوعا من المواضيع أن يشفق به كل الشفق ، ويرى جميع
 الناحية بمحنة فيه ، وبما يزل عاقلًا بأذهات ما كان يديه أحد أساتذتنا من لجاسة والاعجاب بأشعار فرجيل
 التي كان يحتم علينا استقراءها . وكذا نجاسة التي كان يظنها أحد علماء التاريخ الطيبى عند ما يقف نظره
 على المبدن من موجودات في أحدها كب ميت .
 ولأولئك هذه الناحية . وفي سبيل واحد ، ودسلا هرفي هذه الثمرة أبيض عور هذا الاستثناء ، ففي
 الواقع توجد ليوم حادثة من مششرين لأغرضهم من دراسة الخفة العربية والبحث في الدين الاسلامي
 سوى نشورهم واهتم نبيد . انتهى مجده في مجلة جمعية انشيان لمسلمين . وبهذا تم الكلام على
 البويرة الأولى في موضوعنا : يظهره على ليدركه « ولله در رب العالمين .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم

مع قوله تعالى في سورة الحجرات الآية بعد هذه : إنما المؤمنون إخوة

وفيها فصلان : الفصل الأول

جاء في مقدمة كتاب « حاضر العالم الاسلامي » العالم الأمريكي (لوروب ستودارد) ملخص ما يوضح معنى : « رحماء بينهم » ومعنى : « إنما المؤمنون إخوة » وذلك بتدوين تاريخ الرسالة الحميدة ، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرقتهم ، والنصارى وخرافاتهم ، والقيصرة وظلمهم ، والأكلسة واستبدادهم ، وكيف جاء الاسلام فجعل هذه الأمم على الاخوة الاسلامية ، ثم أبان أيضا كيف أصاب هذه الاخوة ما شئت شملها ، وفترق جعها ، وذلك بحسب الاستبداد بالظلمة والرجوع إلى الصيغة الجاهلية في الأمم العربية ، فتبع ذلك أن استبدت الترك الجفافة الفلاة بالأم الاسلامية فتفرقت الجبلج ورجع الاسلام القهقري ، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الاسلامية ، ولما كثرت الظلم ، واشتد الحيف وزداد ، وبلغ السيل الزبي ، امتدت نيرانه إلى النصرانية ، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق ، في غدوها ورواسها للفتح ، فكانت الحروب الصليبية ، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب .

وقد أصيب الاسلام في الشرق بالفتور وعلى رأسهم جسيكنخان ، وأصيب في الغرب في بلاد الأندلس بتفرق كلمة العرب ، فزالت الدولتان الشرقية والغربية ، وهنالك ظهر الترك تغلبا يرون غلبوا أقطار الاسلام كلها بعد أن أقترت أعظم ديار الاسلام أيام المغول ، وخربت بغداد ، وبلاد العراق ، ثم إن أوروبا أخلت تسقيط إذ ذاك فجمعت على بلاد الاسلام واتقسمتها ، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق ، فاستيقظوا من سباتهم العميق ورجعوا الآن إلى آية : « رحماء بينهم » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » .

هذا ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » الأمريكي : كل ذلك قصته على صاحب العلامة الذي يجادني في هذا التفسير . قال : هذا كلام جيد في رجة الاخوة الاسلامية ، والله انه نور على نور ، وكيف لا يكون ذلك . الكتاب « أول » حديث العهد « ثانيا » ان كاتبه أمريكي نصراني « ثالثا » إن فيه ملخص تاريخ النبوّة وملك الاسلام « رابعا » ان الاخوة الاسلامية التي جاءت في هذه الآية ظهرت في أول تاريخ الاسلام ورجعت تظهر الآن ككرة أخرى لاسعاد هذه الأرض ، والله إن هذا التفسير لو لم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى ، بل لو لم يكن قلبي لغيري محجزة سوى هذه لكفت ، بل لو لم يكن للمسلمين الحاليين نبراس وسادة ومنعة وعزة سوى هذه الآراء لكفتهم في رقيهم ، فإذا أنت قلت نفس هذه المقالة لتسمعها الأم الاسلامية الثابتة في أقطار المسكونة . فذلك حق تلعب في قلوبهم نار الحساسة الأخوية والمحبة الاسلامية ، وتسرع في رقيهم بها ، ويعلمون ما لهم عليه من الثقة والقوة ، وتذهب تلك التوسوس والخوف والتشاؤم واليأس ، ويحل في القلوب نور التفاؤل والتقدم والسعادة واللاح . قلت : جاء في الكتاب المذكور في المجلد الأول تحت عنوان « تمهيد لمؤلف » ما منه :

إن العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، قد تنفخت فيه عوامل الانقلاب ، بعد متقلل ، وانبثقت في عروقها فواصل التبذل أوسع منبث ، حتى كمل اختاره ، وتم استعداده . مراح يجتاز هذا السور الخطير في التحول ، توارى القوى إلى ملاحته ، فلذا ماسرت بصرك نحو هذه الاسلامي رقة رقة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان إلى الكونغو . رأيت أن ٣٠٠٠٠٠٠٠ من المسلمين مدحارت نفوسهم مشتتة الحركة والافتعال ، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب كآراء ولاهكيل ، والمضج والآدل ، وأن مني هذا الانقلاب الشامل لعظمة جدا ، وستثوبت شعبي احيية ثم لأرض جمعا ، والله لأمر من قبل

ومن بعد .

على أن العامل الأكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العاتية ، ولكن منشأه رآه المستقصى أقدم عهداً وأبعد أصلاً ، إذ أن بذوره قد أقيت في حرب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو من زيادة الاستعداد والقوة الحيوية ، نموًا مستمرًا المنهج ، على الحركة في أول العهد ، ثم على التوالى صار أوضح سبيلاً وأوسع انتشاراً ، وبازال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العاتية التي قد تضعف منها الكيان ، فكانت عمل انتورة جأفة في المصير الاسلامي فطلق يشور ويحتاج منتقلاً من حال إلى حال ، مر به الجوق بقاء السحب ، لا يسمع فيه السماع إلا القوامف . وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما لهما من مختلف الأسباب والعلل والنتائج هو فرضنا الذي قد ابتدئناه من استخراج هذا الكتاب للناس ، وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كلماتنا ، فأتينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتهديبية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوّنها ، ونشوتها وزيقها ، وعمومها واقتارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعمل ، أضف إلى هذا أننا لم نغفل لإيضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث أننا قد بسطنا تلك المضلعة العامة والصفة الكلية ، بما هو مصاحب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ما هناك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الاسلامي .

إن موضوع الكتاب وإن كان عتصاً بالعالم الاسلامي في المقام الأول ، غير انه تناول الكلام على غير المسلمين كالعناصر الهندوسية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاء لفرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع ، فالكلام على كايا وايفا في شأن الشرقيين الأدنى والأوسط ، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشرنا إلى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامي في المماريات العنقة إشارةً ببنى للقارئ أن يقيم لها رزنا اه

ولنتبرع الآن في ذكر مقدمة الكتاب المذكور ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مائه : ٢

نشوء الاسلام وارتقاؤه ونخاطه

يقضى البراء ويأتي الوقت مختلفاً * ليخرج الدهر تاريخاً من الزم

كأن يكون نبأ نشوء الاسلام لنا الأجب الذي دون في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متنحضة الكيان ، وبلاد منسحطة الشأن ، فلم يمس على ظهوره عشرة عقود حتى انقشر في نصف الأرض ، حمزة عمالة عالية الثرى ، مترامية الأطراف ، وهادما أديانا قديمة كوت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرا ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانيا على حديثنا متراس الأركان ، هو عالم الاسلام . كما زادت استعداده بأحسين فسر تقدمه لاسلام وتعاليمه ، وإذا ذلك الجب العجيب بهرا ، فارتد عنه بأصرف سريرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئا ، ملاقة كل صعب ، حتى كان يُقضى الله لكل دين منها ما أراد له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ في تأييده وادب عنه ، حتى وسعت رُكائله ، ومنعت جوائبه ، بطل انتصاراته قسطنطين ، والبوذية اسوكا . ولوزدكية قيا كسر ، كل منهم جبراً يد دينه الذي انتحل به استطاع من القوة والأيد ، لعمد نيس لأمر كندك في لاسلام . الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب قيا فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رقيقة المشكاة والمترية في الترحيل ، مسرعان ماسرع يتدفق وينتشر رفته في جهات الأرض . مجتزا أفصح اضطرب وأصعب مقبت ، دون أن يكون له من الأم الأخرى عون يذكر ولا أزر

مشهود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصرا مينا هيبا ، إذ لم يكذب مضمي على ظهوره أكثر من قرنين حتى بات راية الاسلام خفاقة من « البيزنيس » حتى « حلايا » ومن محاري أواسط آسيا حتى محاري أواسط افريقيا .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه ، أكبرها أخلاق العرب ، وباهية هائلهم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العاتقة التي كان عليها للشرق المعاصر في ذلك العهد ، إن العرب وإن كان ملتهم ما برح منذ عهد متاويل في القمم حتى عصر الرسالة ماضيا غير مشرق بأمر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة هيبية ، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جلية إلى عالم الوجود ، فقد ظلت بلاد العرب أجيالا طويلا من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها زخار القوى الحيوية ، وجيشان الفولس الرومانية ، كيف لا وكان العرب قد قافوا آبائهم وأجدادهم إغلا في الشرك والوثنية ، واهضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقيل حتى استعالت عناصر أممهم من شدة ذلك كله ضاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم ، وتحسين شأنهم ، هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية حالة الاستعالة الكبرى والانتقال العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم ضمير الاسلام ، إن محمدا وهو عربي من العرب ، وروح قومه متجسدة ، وقسمهم متجسدة ، استطلع وهو يشر بالوحداية تبشيرا عاريا عن زخارف الطقوس والأبطال أن يستبخر حتى الاستنارة من قوس العرب القوية الدينية ، وهي القوية الكامنة متمكنة على النوام في كل شعب من الشعوب السامية ، وإذ هي العرب لنصرة دعوة ابن عبد الله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاذن الزمنة ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل للشعب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور الناس وهدي للعالمين ، أخلاوا يتدفقون تدفق السيل من محاريهم في شبه جزيرة ليفتحوا بلاد الآله الأحد القرد الصد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سيده جوار روحانيا خليا ، في ذلك العهد كانت ملكتي طرس ويزنطية يديتين لهمايان كأنهما المضاء الجف فارق عوده لا تخفى فيه ولا حياء ، وكان الدين في كل من هاتين الملكتين صاردين يزي عليه ويسخره ، أسد طرس فقد كان دين المزدكية القديم قد انحط انحطاطا كبيرا حتى أصبح مجوسية بطلة وصناعة خداعة بين أبدي الموايدة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قوة ، فكرو الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديدا ، ومقتوه مقتا صليا .

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية ، وهو ملكة يزنطية فقد أبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحال إلى الأبطال الشريكة ونشرت فيه الأهواء والخوصيات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذنوا العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فضدت النصرانية عبثا وسفوية ، وعلى الجلفة فقد كانت البيع والضلالت قد مزقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شر عزق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الممجية ، والعداوات الوحشية ، فتمت تلك لبثور نغوا هذا ، ولا يميز من لبث أنه كان على رأس كل من يزنطية وقرس سلطان مستبد دهر ، وملك عالم أوهق لرجية إرهابه لا قبيل لأمة بلعنا مله ، فانت كل عطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص بدولة . زد على جميع ذلك أن هاتين الملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بيد حوب طاحنة ، التفت نراها بينهما ، حربت كلاهما منها مفتونا في عهدهما ، منهوكة قواهما .

هكذا كانت حالة العالم في غشية طودن الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار من العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كاذب مما لا يد منه ولا متدح عنه ، وجيع مني لأمر أن كتب المملكة الرومانية اشرقية ومتفرعة

فارس ، كانت من قبل خزائن حرب فتاكه ، لم تقو لأن على مدح حجة الحاملين عليهما من أمة الصحراء
 المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاحياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم
 حياء أبطلا ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى التفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملاصقتها ، قبلت
 الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البع بتهالون فرحا وسرورا لتجارتهم من غير المضطهدين للمقوتين ،
 ولم يرض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي
 أفولجا ، إيثارا له بعبده ومنابسته على ذنوب الذين صاروا غلبة في الاضطهاد والتدنس ، وقد عرف
 العرب بديورهم كيف يستدق الحكم ويوقو السلطان حتى دانت لهم أمور تلك واستقرت نقطة دائرتها في
 أيديهم ، فألعب لهم أن يكونوا خطامة تحب إرافة الهمة ، ويوجب في الاستلاب والتعبد ، بل كانوا على الضد
 من ذلك ، أمة موهوبة جليل الأخلاق والسجيا ، توافقه إلى ارتشاف العلم ، محسنة في اعتبارهم التهذيب
 تلك الهم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، وإذ شاع بين المتألمين والمغلوبين التزاوج ووحدة
 العقيدة ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريرا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، الحضارة العربية
 وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ، ذلك الجماع الذي قنع فيه العرب روحا جديدة ،
 فنضروا رحر ، وألقوا بين عناصره ومولده بالعنصرية العربية والروح الاسلامية ، فانحد وتسلطت بعضه ببعض
 فاشرق وعلا علوا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ -
 ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر عمارات الدنيا حضارة ورقيا ، وفتحا وحرانا ، مرصعة الأطفال
 بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العاصرة ، ولما جسد الفضة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمه
 القدسية وعزمن علومهم ، يشان لشعاعها بأهرا ، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء
 على الغرب النصراني نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء ، وأجباله المظلمة ،
 لم يكده يستهل القرن العاشر حتى تبتت الظواهر الواضحة ندى على حنيونة العهد التي أخذت فيه الحضارة
 العربية في الاضطهاد ، وما كانت تلك الظواهر تكتب ما دلت عليه ، غير أن تلك الحضارة إنما كانت في
 أوائل عهد الاضطهاد تهب ذرعا ذرعا ، وعن هذه الحال المستمرة ، واقتضاء العصر العربي منذ القرن العاشر
 فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنزع حياتها من غلب انقضاء انزاعها ، وسابقة للغرب النصراني حتى حاول
 التاركة الكبرى التي حلت بسحقها في القرن الثالث عشر ، وكانت الأسباب في اضطهاد الحضارة الاسلامية جمة
 أشدها أن روح الشقاق القديمة الأص ، ترك الروح التي كانت على الدوام آفة سياسية تنخر في جسم الدولة
 عادت فنهوت إذ نشأ التنزع على أسرة المؤمنين . وهذا التنزع قد أفضى إلى قلق دعوية ، وهذه القلق
 وما فيها من حوادث ادهشيل وسلب الأرواح قد أفتت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ، فقام مقام
 الأنبياء الاول ، مثل أبي بكر وعمر ، حاملي نواه الاسلام الأولين ، أمراء دينيون ، اتخذوا الخلافة وسيلة
 لمجور وانظم ، والتباهى بجمع الدين وأعراضه ، وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت إلى دمشق
 في سورية ، ثم إلى بغداد في العراق . أما الحجاز فلم يكن البنى ولا الاستيلاء هناك مستطاعا ، لان حرب
 الصحراء الأشداء ، أهدأ الاستدلال والغرابة ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ، ولا الاقياد لأمر مرهق ،
 وقد أودعهم نبي بطرقة والشورى قد هم قولاً مينا : « إنما المؤمنون إخوة » . وقد كانت الخلافة
 في طغز سورية قائمة على فوجد اسلام ، لصحيحة وركله ، والأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت
 كلاهما عليهما خيفة ، وكلاهما كان يزعم رضى الأمة وحكمهما ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوصى
 أمته به إلى نبيه محمد . وهي عربك الكريم . وثماني في دمشق ، ولا سيما في بغداد ، فقد تحوالت الأحوال ،
 وتبتت لأموال ولا يجهن من ذلك . حرب نصره . لأفصح . الجبرى في عروقهم الهم العربي البحث ،

السم المتعثر إليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا قلة في أفواج الناس ، وطوائف الخلق الذين لا عداد لهم من أهل الشام وقرس وغيرهم من سائر المفلولين المتحليين الاسلام حديثا ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة ، ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد شئت القتل من ملوكها السابقين ، فصادت بسبب ذلك لاهوى على استحلال الارهاق والسبر على الهنة ، لخدلان مادات خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على الزوال يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالي جنسنا حراسة سياج الملك والقب من حياض البولة ، وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ماهرا من النواصب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم يقتل إلى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تقبل إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي ، ولما هزلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني لعباس (٧٥٠ م) ازدادت كامة القرس نفوذا ، وامتد شأنهم وسلطنتهم إلى كل زاوية من زوايا البولة ، وما الخليفة الأعظم هريز الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربي على شاكلة ملوك القرس مثل قيا كسرو وكسرى أنوشروان ، خلافا لكل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر ، وفي بغداد كافي غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضا لأركان الدولة أيما هوى ، ففسد خلفاء النبي وهم على هذه الحال طفاة موسوسين ، وألغيب بين أيدي الخطايا ، لا يستطيعون القيام بعد بسبب من أعباء السلطان ، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية .

ما افكت المملكة تهيطر تهتقر حتى تقطعت أوصالها ، وتفككت أجزاؤها ، وعلبت منها ، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطيع دوامه لا تقتل البولة إلى قواد محنكين ، ولغناء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع اسبابا عاب الصعراء الاول ، وقيل ظهور الاسلام كان أم كل مصر من الأمصار التي انقش فيها ظلم أكسرة العرس بقبصرة الزرد ، ينزعون مزنا قوميا ويحاربون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامي طاميا قاضيا على جميع هذه المنازع . أما الآن والمملكة الاسلامية محترقة في انزع فأن يستطيع المحي به مثل ما جبه به في صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الدين من الخلق على خلاف منصره وأمن جهتهم ومعتقداتهم يتبعون الرسالة المحمدية ديننا ، ولكنه لم يستطع أن يحين هذه الملايين إلى صورة إيجابية متناكسة البنيان ثابتة الصيغة ، فاعترض الازدياد شعبا ، وساء المضم فسادت فترجته ، دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقا ، لأنه إنما ألانهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالقبلة أحسن قبول . وبإدائهم مستغفرا لمرتهم وجنيتهم ، وهم اخوان نخوة سجيبة بخلة ، فاستجابوا نداءه طائعين ، فعاد دخلت شعوب عظيمة غير عربية في الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يغمر روحه غير زنة رسالة النبي على ما يلائم سنارته الشعبية ، وبعيدته التجديدية الخاصة . ووفق ربح التهديب الذي كان عليه ، نتج عن جميع ذلك أن الاسلام الحقيقي الذي شاهدته أمم من قبله من عوج وتوى ، وانما ليس ديني عني هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استعبدت أوجاد النبي إلى محمدي مذهب لشعبه . ثبتت في فارس الشيعة على ملات واحدة تستعد لا يظلم بهائم لامة الاسلام ، واستعبدت لوجهة فضاء عند إبراهيم سكان البلاد الغربية الافريقية وغيرهم إلى حال عبت معها الأول ، وحدث من هذا عند المسلمين في الهند ، على أن جميع ذلك لما شدد النبي في تحريره رابسي عنه نهبا قطعنا .

وما كفي ما حدث من الاختلافات السببية ، وما أصاب صورة الرسالة الانوية ، حتى عمت البؤى بأن منى الاسلام تجزئ الوحدة السياسية ، ولان شقاقت زمنية ، فأول ما حدث من هذا الجوع كان أن أول عهد البولة إذ فر أحد الضميرين بن بني أمية إلى الأندلس حيث نشأ في ترعة خلافة . سنة ثمان مئتين في بغداد ، فاعترف مسلمو الأندلس قطبة بهم خلافة حتى وروية شمال إفريقيا . ومن حين ذلك به شئت

خلافة أخرى في مصر هي الخلافة القاطمية وخلقها متحذرون على ما زعموا من قاطمة بنت الرسول ، أما الخلفاء العباسيون في بغداد فابرحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويقعدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيدا مطروحين أيدي الترك ، النصرانيون الداخل عليهم .

وقبل أن نشرع في بيان كيفية انتقال السلطة من أيدي العرب المجتهد ذوي البصيرة إلى أيدي الترك وخلافة ذلك عظمة في تاريخ الاسلام نؤثر أن نقول كلمة في أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذي رافقه تفرق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي .

كان للعرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، فيرة السجيا ، مقادير يركبون كل صب ، محروكهم روح الرسالة بغاية غايتها ، وتبعث فيهم عزما شديدا ، وضيرة متوقفة ، كانوا أشداه العصبية الدينية ، وهي العصبية المعروفة في كل جبل من الأجيال السلية ، وعلى شدة هذه العصبية فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبشرين يستنبطون بنور العقل وهدايته ، ومتمسكين تمسكا شديدا بمعتقدات دينهم وأركانهم وأصوله ، غير أن دينهم هذا إنما كان ديننا سهل الاكتساب والمأخذ وانما جليا ، كان جوهر تعاليم محمد الوحداية مع السنة المعلومة ، فالاعتقاد بكل الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وبأن محمدا رسوله من الله كما أنزل في القرآن ، والقيام بالقرائن السنوية المعينة ، كالصلاة والصوم والحج ، إنما هذا الحسب هو جلة الأركان التي تألف منها الاسلام التي كان عليه العرب يوم أمموا في الأرض فتحتون العالم الشرقي .

والاسلام وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوا فوق سجوف والعربي كان قد أدرك حالا ثار فيه جذه ، واشتعلت غيرته ، فبات نؤاذا إلى اقتباس العلم واجتاه ثمراتها والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف مع حديث مقتضياتها والخروج بها عما ألفه أزمانا في فيافي الصحراء وكتباتها ، لهذا لما نشر العرب فتوحهم ، ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالتم المادية واستئثار الترف ورياء العيش غصب ، بل عكفوا جاذبين على ترقية الفنون والعلم والآداب وآراء الحضارات القديمة ، فنشأ عن جميع هذا الجهد والתרقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام فأضاعت العقول واذهرت ازدهارا كان نغز الحضارة العربية ، وواسطة قلائدتها ، ودرية تاجها ، وكان روح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشموس ، يافعة الفلار ، وارقة الظلال ، فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضت القواعد والأصول واستنبطت الأحكام ، بيد أن هذا لم يكن من صنع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير من كانوا متخللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفارس الذين كانوا في عهد ملوكهم قسرا الفتح الاسلامي يسوقون الأمور ويسامون خسفا شديدا في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البرطية والمجوسية الفارسية . على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده ، ثم هرا شمس كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فما رحمت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى قلبت عليها ، ثم أنشأت تسود سيلا شديدة ممتدة ، واقتضت الأيام التي قمت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالهزلة مستمكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة إلى أن لعقل إنما هو مقيس كل شيء ، وقامت الآن الفرق الأخلاقية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل والسنة إنما هم مقيس كل شيء . - وأخذ من على هذا المنهج وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في الاسلام وكانت مرجعهم ما رحت مشربة روح دينهم لبزهي 'لقد هم يسرون القرآن الكريم ويؤكفون ثم يؤفون بين هذا وبينه واتأيد وين السنة التي همها "صحبة مع النبي" . وأوفوا في ذلك إيمالا ييسا فتج عن ذلك أن أصيب لاسد جسد . سميت به النصرانية في الأجيال الصلوة من تلييس الدين عقائد عبر عقائده ، وسنة ذكره صنية حقة إله وهو وراءه ، وهزرو ذ شدة انخرف وتسمت شقت وطال

عهد بين الذين اعتمدوا بالنسبة والنقل فقتلوا هليهما وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياسا لكل شيء ،
وإذ قد انتهى الحال بالاسلام إلى مثل هذا القاطبة الأخيرة إنما باتت متوقفة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل
على العقل ، وفي الواقع فإن تاريخ السنة والتقاليد في كل بلد من بلاد الشرق إنما هو تاريخ السيرة وأحوال
الاستبداد وعواقبه المشنومة ، كانت قد تبلت في سماء الشرق سحب سوداء قاتمة ، فلما أشرقت عليها شمس
الاسلام الأولى من الصحراء حبة من الزمن منحتها وبدنتها ، وكيف لا تضمحل تلك السحب وقد سادت
الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد اختفاء هذا النور دور النور والحرية ، عادت الظلمة والعقائد والأوهام
تلا فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه ، وبما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى
السياسية الصحيحة إلى الاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة وجاوز أقطابها بعيدا أخذت آثار ذلك تبرز جلية في موضع موضع والاستبداد
بطابعه هو عدو الحرية وقاتلها أينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل ، وكان
بعض الخلفاء من بني أمية في دمشق ، وقد استهوهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر يوسعون في حرية الفكر
ويرتاحون إليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجفأوا منها إنما أجفأوا وأضرموا لها
القتل عليها ، فالمعتزلة حاقم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية لحجب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع غيبتها
منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للإمارة انتخابا ولا يربها ورثة
وهو منقاد لرأي الأمة ، وتنازل على حكمها وشوراها ، وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد
العرب عصبية يؤيدون ترتهم من حرية الصحراء وينفدون عنه وينادون بتوسيع نطاقه غير معترفين
بسلطة الخليفة ، ولا مبايعين بهية أمير المؤمنين . وذاهبين في السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه ،
فنشأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستندون أتباع الفرق المحافظة ويقرنونهم ويقتضون بهم ويقصرون
عنه الفرق الحرة كالمعتزلة ويشدون عليها التكبر ويستعنيون بها شامخين لهم ، من العرب المهجاء ويشقون
بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصحراء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة في أسوة العباسية حكومة دينية
مستبدة فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها واضطهدت شعاب مذاهب المعتزلة وقتلتا قتيلا
وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ للمسيحي حتى أهدت كل معالم الحضارة العربية وقوضت
أركانها ، وبغض كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع ، وعاد لا يسمع
صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامي هجعه الطولية ، وبزأل مفرقة
فيها حتى استغنى اليوم استفاته الكبرى مذعورا .

في أوائل القرن الحادي عشر م تجسم انحطاط الحضارة العربية نجسها نجا ، وبعد أن اخفت ثروج
العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أضر العرب المهجاء يرون ملكهم أبسى يذهب
من أيديهم إلى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء ، ووارثون مدنية عربية هم ترك . والترك
هم الفرق الفري من الجبل الطوراني ، جبل القبائل الرحلة التي كانت منذ عهد لا يعرف قوتهم تجو - بغداد
أواسط آسيا وشرقها ، ولما كان العرب يفتخرون فارس نعت قوتهم وينودهم بترك اربعة ، وهؤلاء
عهدتد يروجون المغاوزه محاولين جواز حدود فارس لثالبية الشرقية ، غير أن العرب وهم في إيمان سلطانهم
يخشع غالب قطين الأرض قد كثر خلفهم ما كانوا ليرهبوا لترك ويسبوا لهم حساء ، من رؤا في ترك
فصا لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئا أكثر من ماعة ترهبه وقتار كاذبين ،
فلما ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر ، بل أخذوا يستأجرون منهم جندا من نظرو ز لأوب دحور
الجيش والقرد من ذمار لملوة ، ويستأجرون منهم بطالة يرس .

قلنا ان العرب ما كانوا يهربوا الترك في أول الأمر ، ولكن لما عظم اختلافه وذهبت ربحها تحولت الحال فالت غير مال ، إذ تمكن الترك للمستأجرون من الحلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ولاسيما في الجيش العربي ، فأنشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السيل تمهيدا لأبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدقون كللوج وعلى رؤوس طواقمهم قواد أمراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحرارا إلى شأوا ، ويقمون حيث طاب لهم المقام ، ويعبسون خلال الليل ، ويسلبون وينهبون ، ويفجسون ويغشون .

ولما شرع الترك بدخول في الدولة كانوا يقبلون سريما على دخول في الاسلام أيضا . بيد أن الاسلام لم يدمث من جنشهم ، ولم يقوم من أودهم كثيرا ، ومتى ما جشنا فغبر شأن هؤلاء الترك المغلاة يجب علينا أن نرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى ، فان الترك العثمانيين اليوم إنما يجري في عروقهم دم مزيج بينه أوروبى وبعضه الآخر اسيوى غربى ، وبخلاف مزاجهم هنصر غربى وهنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه يختلفون اختلافا كبيرا ، نهذبا وخلقاً ، عن آباءهم وأجدادهم الأولين وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين مارحت فيهم السيم الطورانية للنشئة التى يجيزها ترك ثقفاسيا المعروفين بالتركان ممن سواهم من الترك المقيمين في غربى آسية ، فأنف كلان التركى القديم بلباهه وسجايه ترى ؟ إنما كان في المقام الأول جنديا مجربا ، ومقاتلا بأسلا ، وهو لم ينن في ذلك العهد ذا فكر ثاقب ، وعقل مبتكر بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والذسة شفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء لم الطاعة العمياء وقتان الاستبسال الخصب ، مما ججع ما كان عليه التركى يوم قديم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى المنصوع لخواص الدول .

حقامادهى الاسلام وسائر العالم معا مثل هذه الباهية ، ومازنا بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقى مستطابا في ظل دولتها ، فبات ضربا من ضرور المستحيل . أجل : لا ينكر أن الاسلام قد اهتز بقوة حربية كبيرة جديدة ، ولكن قد سمى التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنبايات هائلة ، وجرحته جروحا كبيرة ، فبات زيفا يتقهقر سريما ، وأول عمل قام به الترك الإزاحفون هوا كنساحهم آسية الصغرى واستيلاؤهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشر م . غير أن جابا من آسية الصغرى أبرح حتى اليوم قسما من العالم النصرانى ، ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق في القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فبايزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك إذ استجمعت الأباطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربى عند حد عند تلك الجبال على عنه وتعب شديدين ، أما الآن فاجتاز الترك الحسود البيزنطية ودقوا آسية الصغرى تدويحا ، وأخذوا يهدون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للصراية ، وكان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرمى حومة الأماكن المقدسة النصرانية بأب الرماية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلاضيقوا على النصرانى ، ولانالوا بمساة طواقب الحجاج الوافدين كن عالم إلى بيت المقدس من كل فجج من أفاج العالم النصرانى . بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجرؤا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالتزك لما كانوا لا يرون منه في غير السلب وكرهه . فالحين أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ويجهنون حومة النصرانى ويهونون دون الحج نبات مستجيلا .

فأكنساح آسية الصغرى والاندبلاء على بيت المقدس معا إنما نلا نزول الساعة على النصرانية فقامت لهذا الحطبة رقعت ، وطوقت أوروبا تمد من قصاها إلى أقصاها مشتملة بغضا دينيا ومحتمة غضبا وحقا ،

وقام ألوف مؤلفة مثل يلمرس الناسك يلمهون الصدور لرا ديفية ومحضون على حاية بيت للقدس وقبر المسيح حتى جئ الغرب النصراني جنونه الكبير، والتبته الفيرة الدينية في كل جارة من جوارحه وعرق من هروقه، وغشى التصب على أبصاره، فهب يبعث البحوث الصليبية، واجملجل الجمرارة دراكا قتل الشرق الاسلامي في سبيل الصليب.

فداهية الترك ونارلة الحروب اللقمة الصليبية كاتنا شمر طعة طمن بها صدر العالم وسببا دائما في سوء العلاقات بين الشرق والغرب. ففي سنة ١٠٠٠ م كانت العلاقات النصرانية الاسلامية اعلنت تستقيم وتسير سيرا مبتا بالكف عن العداء ومبشرا بازدياد تحسن الحال وخير المصير، وكانت الأحقاد التي ثارت على أثر تدفق الاسلام على حال التلاشي والاضمحلال، وظهر عهدئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كلدت تستقر فليس أي الفريقين يضع يده في الخروج على الآخر، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطر وكبير غير الأندلس، حيث كان هناك مصطلم الاسلام والنصرانية المصطلم الآخر، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تصد حقا فاصلا بين العالمين، وعلى الجبهة فقد كانت علام ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة، وناحية منعى جيدا، فلو قدر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم إلى أخيه لكانت أنت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية، فالعالم الاسلامي كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقا لأوروبا العربية سببا بعيدا، وفاقا عليها علما وتهنيدا. بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكف يدوان عليها في الحين التي طفت فيه نفس الغرب النصراني نجيش ونهتت تشتت الافلات من ربي جهله، والخروج من ظلمة وبربريته، فأى خبر كان أعظم من ذلك الخبر الذي كان يربى من الوء الوليد الذي ظهر في القرن الحادى عشرم، بين الشرق والغرب فيما لويقضى له المؤامدا بعيدا، بن ترى أى وقع كان أجل من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء.

أجل: لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ولكانت الحضارة العربية الادبسية وفيها علوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتنا من صرقدنا قبل استيقاظها بعدد طويل، ولـ كانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة هبت فتناولت الشرق وتغلطت في أحشائه متغلظها في الغرب، فنجبت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتفرها في ذلك الحلق الماسح الذي طال عهده.

غير انه ما كان ذلك ليكون فقد اخنق العربي الدمع الخلق، اللين لمريكة، وجاء من بعده الترك المتعصب الخشن القاسى، فعاد الاسلام يشب ويبتاج، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأسس واهتياجه اليوم، أما بالأسس فقد كانت تحرك الغرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا، وأما اليوم فما بمرتك الترك إنما هو روح الطمع والفنك وحافر الاستيلاء والفسب، ومن ذلك الحين بدأ الله يك يشتد، ونازه تقد بين السولة التركية والحضارة الغربية التي كان نشوؤها مرجوا لها عهدئذ، ودام هذا العراك قروما، وما كانت الحروب الصليبية سوى رد العارة على الترك الذين أخفوا منذ ذلك العهد يراون غارتهم على النصرانية برهة ستائة سنة، حتى صلحوا الصلحة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٢٨٨ م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداء، واستحكمت الشناة، واستقر التصب بين الاسلام والنصرانية مما مابرحت جرائده حية، وسوموم غمره ثامية حتى الآن، وهذا النضال الذي تناو، نياده في صف الأخبار اليوم، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتله الوطنيين وبين اليونان في آسية الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية، حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانية مائة سنة، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأنبجدها.

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبعث في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية إعمال يجب حفظه في البال أن تلك الحروب ظلت إلى اليوم هداه مزمنا ، وطلة دائمة بين الشرق والغرب . أما الشرق الاسلامي فقد قتر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية وحنا عتقه للترك الثقيل أن يلاقى فوق ذلك أهوالا أشد وأفحش ، منهالة عليه كثيرها من الجبل الطوراني ، ففي أواخر القرن الثاني عشر هبت العروق الشرقية من الجبل الطوراني ، ملتفة ملتشة حول بعضها بعضا ، مكتوفة وحيدة دامت مدة ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو « جنكيزخان » . اتخذ هذا الطاغية (الطاغية التي لا يقبل) لقباً له وطلق بزحف ناهيا العالم نهباً ، فاكثسح في أول أمره الصين الشمالية وأزل بها هولا شديداً ، ثم اتجه غرباً زاحفاً مدمراً ، ونالها غرباً ، فرأى العالم من بلاءه مالم يرمته من عات قبله ، هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم لانا ماجرى على الألسنة وجفت له القلوب واقشعرت منه الأبدان ، زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لا تحصى ، مستمعاً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود في تخريب المدن والحصون ، فكان وفرسانه سيلاً جارفاً ، ونارا آكلةً ، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية ، لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى ولا الغنم ولا الاستلاب خصب ، بل هراقة السماء ، وتغذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة السمران ، فذبخوا الشعوب تذبيحاً ، ودكوا المدن دكا ، بحيث لم تتج بلاد حلّ فيها للمغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات « جنكيزخان » بعد بضع سنوات من زحفه هذا فقام خلفاؤه من بعده واتجهوا نهجه في الزحف وتعميم النازلة ، فالمغول حقا طعنوا الاسلام والنصرانية معا طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطار شرق أوروبا مثل ماحاق بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وذلك آثار الهول المغول في بروسيا ما برحت شاهدة على برورية المغول وهيجيتهم . غير أن الهول الذي زل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول يزحفهم على روسيا لم يحاولوا تخوم بولندا قط فنجت بذلك أوروبا الغربية ، لكن ما أريد لأوروبا الغربية من النجاة لم يرد منه لجانب من العالم الاسلامي ، إن العاصمة المغولية بهجوبها من الشمال الشرقي في آسيا استطاعت أن تطبق العالم طراً من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارقة كل شيء في سبيلها ، وقد كانت قرص وهي إذ ذاك ما برحت منه الكتائب التركية تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدعمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، قتلات قوّة فارس وتضضع كيانها أيما تضضع ، ثم قتم المغول نحو العراق ليصلوا بغداد مدينة الحضارة والتذبذب نصيبها من الهول ، وكانت بغداد مهدت قد ذهب الكثير الزاهر من جزّها ومجدها ، فنوت حضارتها من بعد هرون الرشيد ، وتسكر السمراتك المليون من السكان ، بيد أن بغداد على كل هذا كانت ما برحت مدينة عظيمة من أمتهات المدن الكبرى ، فيها كرسى الخلافة ، ومركز الحضارة العربية ، فاقض عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعمالها فيها أبدى التخريب والتدمير فذبخوا أهلها تذبيحاً وكادوا يحسونها محواً من على وجه الأرض ، على أن هذا لم يكن جيع البلاد ، كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت ما برحت في العراق سدود الرى الهجيبة من بحر التاريخ تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وفي البلاد من مهابة أعاصير الصحراء ، فكانت العراق على السواء وفيها هذه السدود الكبرى جنة الأرض دهرى العالم ، وقد تعاقب الفاتحون لكثرت في البلاد دوراً بعد دور ، وعصراً بعد عصر ، فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لابل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قمرتها وخبرها للبلاد ، فلما غشى المغول العراق سرعان ما قوتوا هذه السدود قوتاً من حيث لم ييقوا منها حجراً على آخر ، ففت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشري ، وهيت آلاماً أعمال جلت في سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة على الأقل ، غلب العراق خوارها عند المشهود حتى اليوم ، وباتت مرديّة حلة من الجفاف المحرق ومنشأ

لأوبئة الحى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراها الخفية أقول من الفلاحين ، ويجوب رحابها رحلة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضا كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب ، فالتلزلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولاسيما في الشرق ، وكانت هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المغول بضربة أخرى في الغرب وهي نازلة الأندلس العربية ، وموج ذلك أن الاسلام بعد انتشاره في جميع افرقية الشمالية جاز البحر وبقى اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، غقت فيها أهلامه ، وأشرقت شمسوه ، وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهارا كد لا يرى مثله في أي قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، وفيها كرس الخلافة الفرية ، فلبت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغا كبيرا ، حتى لمها كانت تفوق بغداد عنها رقا وحضارة ، وقد عاش ملك العرب في الأندلس قرونا عديدة ملكا زاهرا أننا والعرب حاصرون للتصاري في الكور الجبلية الشمالية من البلاد ، فلما بدأ سلطان العرب ينفذ ويهي وتقومتهم ثم أخذ التصاري يدفعون المسلمين جنوبا مستردين منهم البلاد كورة فكورة ، وكانت معركة (النافاذي طولوزة) سنة ١٢١٣ م غصنت فيها شوكة العرب ، وقت في عضدهم فتا كبيرا ، ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات التصاري على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانيا التصيين ، فبدر هؤلاء إلى استئصال شأقة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المغول هندك في الشرق ، فذهبت الأندلس من أيدي المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذي كان زاهرا سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة التي بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولبوس لماركة ، ثم بعيد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب .

وكان الشرق الاسلامي مازال يشقى وتتوالى عليه طائعات المغول وأهوالهم ، وأملنا الآن أن نراه من داهيم ، وهي زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر ، ففي هذا العهد كان المغول الاول التريون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم ، واقتنى تيمورلنك آثار جنتكيزخان في تذييع الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تقبض بشيء اغتباطها بمنظر الاهرام من جاجم البشر ، وأي هرم أكبر من ذلك القبي شيد تيمورلنك من سبعين ألف ججمة بعد تخريب مدينة أسبانيا في بلاد فارس وانهض عهد المغول الهائل في الشرق الاسلامي ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية المدينة التي جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية ، وغالب الفضل في تشييد المجد الذي شيده ، وعزهم الذي بنوه ، إنما هو عائذ إلى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طغت فتوحاتهم تحت شرقا وغربا ، وفي سنة ١٤٥٣ م ذلك الترك صرح الأباطورية البيزنطية دكا ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى مراكش ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها ، وتغلغلوا في أشحاء هنغاريا حتى بافوا أسوار (فيينا) واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناهم همهم المغول من قلبهم ، فبنوا ملكة منبجة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية ، وذلك إنما كان لبعدهم عن روح التهذيب والتشريف ، فاتهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدتها قوة وبأسا ومراسا ، ولما كانوا في إبان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجائهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدها العالم ، فأرهبوا بها أوروبا رهبا شديدا ، وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح وتفتش حضارة متدرجة مدارج الرقي والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يئن من الأهول المغولية والفتوح التركية كان الغرب

النصراني يشعل مصابيح النهضة ، ويمتد أسباب استكشاف المراكمة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ، وما يزيد خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولبوس وفاسكودي غاما يقومان بأسفارهما البحرية قيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة في تطلق ضيق لا يجوز دأثره القسم الغربي من أوروبا الوسطى وهي إذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلاها مع البربرية الطورانية ، كانت روسيا تجرّقها سنابل خيول التتر والمغول وكان الترك وهم غلمان بشوكتهم الحربية ، يفرون متصيرين من الجنوب الشرق ، مهددين قلب أوروبا شرّ تهديد ، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمال أفريقيا وشرق أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في المهد تستقبل حكم القضاء النازل إما لها وإما عليها ، وهي الجيلة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أمدّ منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم (سورالوقيانوس) فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الأوقيانوس ، وشرعوا يعنخرون صياحه في تلك الليلة الظلماء ، والفترة الصعبة من الأجيال الوسطى ، لاجرم ، كانت أوروبا في تلك الحقبة إنما تنود عن بقائها بمجيب ما كان فيها من قوّة وبأس ، وتردّ عنها غلثة البربرية الآسيوية ، وملهى لإليّة ونصاها فإذا لبيل الخطر الاسوي وقد انجلى ، وبالأوقيانوس بات طريقا آمنة ، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيده البحار ثم سيده العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبا مكن المحارصرت تستهزئ بمجاعة آسيا وهتاتها ، وكانت من قبل يردح ترى النصر عليهم أبعد مثالا من الجوزاء ثم خنّب . وارد أمدّة تفيض دلى أوروبا من وراء البحار ، فانتد نشاط القارة واشتعلت قوتها ، ولا يجهن من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن أكار بلدان ، فأخذت تستورد منها خبرات لنفادها ، حذاء طيبا لحياتها وصناعتها ، فبات والشرق شتى ماحما ، فأى موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المتهتم إزاء امركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحيلة ديبها المائل في الحضارة الغربية ، فانقضت وهبت من مرقدتها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجياورة ، محملة أغلال أجيالها الوسطى تحطيا ، وقابضة على طلائع العلوم ، جاذبة نحو المصور الحديثة .

وعلى كل هذا فقد ظلّ الشرق الاسلامي جامدا ساكنا ، ملتقا بمخلفات الحضارة العربية التي طال على خوائها الأمد ، ومتسكعا في ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جيع شقائه حتى تضعضعت قوّةه الحربية وبلغت حدّ التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد النشّة ، واستغرقوا في انحطاطهم فصاروا لا يستطيعون مجاعة أوروبا اختراعا وارتقاء ، ولا يحسن فن من فنون القتال ، وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضا قتالا عنيفا ، فلم يستطع الجيلة على الشرق ، فطعت منزلة اسم الغنائين حلوا كبيرا ، بيد أنه لما أغار الترك على أسولر فينا سنة ١٦٨٣ م فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك إنما كان منقلب قوّة المملكة العثمانية ، فأخذ جدّ الغنائين يعثر ونجمهم يأفل ، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرّ على المملكة العثمانية السّرة بعد الأخرى ، متناشئا منها ما استطاع ، ولولم تؤرّث نارالحسد بين بعض الدول الغربية بعضا فتقطع كن نولة فيما طعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول في اقتسام النتيجة لمزقت الأمبراطورية العثمانية شرّ عرق من عهد سيب .

ثم تولّت أيام على العالم الاسلامي وهو منبع لا يمتيقظ حتى كان القرن التاسع عشر ، فتدخل في مهبه مسنة لا وطأة ، لغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تعمل على جوانب العالم الاسلامي وتحفّض له الأقطار في شرق أوروبا وجزائر الهند ، وأما جنّ العالم الاسلامي ومعظمه من مراكيز حتى

أواسط آسيا فقد ترك وشأه ، فما كان ليتم قدر هذه الفترة الساعية ، بل ظلّ مستغرقا في هجسته مستهزئا بكفرة أوروبا ، وراضيا سلمنا أن شقائه إنعاهو بمشيئة من الله ، لا يقيم لرقى أوروبا وزنا ، ولا يحسب لمستبطلتها حسبا ، هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر ، فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وهجائب الاختراع ، وبين يديها التاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلا من قبل ، فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حالات أوروبا تقضى الشرق الاسلامي أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر في أيدي الخاملين عليه ، فلم يمس غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد انقسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وهبرت روسيا القوقاس وبعثت سلطانها على أواسط آسيا ، وفتحت فرنسا شالي أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية ضبر الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمية الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهدا على آخر دور من أدوار إذلال الشرق القرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات بيد أن وضعت الحرب العاتية أوزارها قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم يبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صيحيا ، قدّم اخضاع العالم الاسلامي ، ولكن على القوطاس !

أجل ، ثمّ ذلك على القوطاس لحسب ، والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة القرب على الشرق هذا المظهر القاهر لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة هيمية لم يسمع بمثلا من قبل ، كان الشرق الاسلامي طيلة هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنه القرب تتلور قواه الباطنية تطلورا عظيما وينضل بعضها بعضا انضالا كبيرا حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلا .

وهذا الله مد بهر المطامع الغربية الطامى قد غلّى في إيلام الشرق مفلاة شديدة ، فتحرك الشرق الجلمد الساكن أخيرا ، ودار الشرق الاسلامي حول نفسه ، فراقى قسلة حاله وماهو حاله بساحته ، فأخذت نفسه يحبش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتبث ، وقواه تتورثورثا هجا بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهبّ الله ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ من أتباع النبي محمد من سراكن حتى الصين . ومن تركستان حتى الكوفو ، هبوب العاصفة الزرع لا يعرف مستقرها قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ثم أخذ السر يطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي ، إذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر وهي دعوة الإصلاح الاسلامي ، ثم كان من أمرها أن ترقى واتسمت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالي بالجامعة الاسلامية ، ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات في العالم الاسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبئة عنه حسب ، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انضكت تدفق من القرب على الشرق ، وجهها يث في الشرق الاسلامي روح الاستيقاظ والثوران : من ذلك عقائد الحكومة النيابة والعصبة الجنسية ، والعالم العملية ، وحقوق العدل ، حتى وأكثر من ذلك حقوق المرأة ، والاشراكية والبلشفية .

ثوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضييق الأوروبي الضارب فيه ، من حوله على غبار اقطاع ولاحة يزيدان في هيجانه فيثعلان فيه روح الحركة والعمل ، إن الحرب الكونية العظمى قد أثت بهجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام عيّد ويضطرب ويتمخض تمخضا شديدا ، متقلبا من حال حاضر إلى آخر مقل ، ومجتازا دورا غايته لمجدد عالم اسلامي حديث ، وليان كيفية هذا الانتقال والتجدد الذين سترى شعارها في عالم اسلام للمستقبل قد وضعا هذا الكتاب . انتهى ما أردته من كتاب وحاضر

العالم الاسلامي ، وبهذا سمى الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في قوله تعالى : « رجاء بينهم » أيضا

اعلم أن الرحمة بين الأمم الاسلامية اليوم قد تجلت بأجلى مظهرها ، ولكنتا نحن في ديارنا لا نقدر أن ننفها ، ولكن القادر على وصفها رجل قد أعطى مقتبين : أولا التفرغ للاطلاع . ثانيا عدم التحيز ، وهاتان الصفتان قد ثبتتا في صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ولأجل ذلك من الجزء الثاني من كتابه فصولا :

الفصل الأول

في أن انكلترا وفرنسا كانتا جاهلتين حال تركيا والعالم الاسلامي إبّان الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة فتركتهما . وهذا نص ما جاء في الكتاب المذكور :

« جرت الامور في تركيا محاربا التي سبق لنيي رئيس الوزارة الإيطالية قنبا عنها ، فأكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مصافية ، فعمل السلطان ذلك ، فشجعت الوزارة حركة « مصطفى كمال » ووجهه العساء ، وأوفدت وفدا اختبر أعضاؤه اختيارا إلى مؤتمر « سان ريمو » في فرنسا حيث وقعوا بالرضا والتسليم المعاهدة التي أمتها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك « تأييد مرامهم » على قصاصات الورق لا غير ، وما كان ذلك الأمر الغريب ! لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها إنما هي ضرب من الخيل والجنون وأن كل فرد من أفراد الحكومة « المصافية » من السلطان حتى أحرر الكتبة ماهوا لا كمصطفى كمال بلثل غيرة ووطنية ، وأن العاصمة التركية الحقيقية إنما باتت أقره لا القسطنطينية ، وأن قوة الحلفاء لاستجاوز في الواقع غايه مرامي مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر (معاهدة صلح تلك) : « اني مستعد لقتال العالم بأسره مشرقا ومغربا ، فبانت الحلفاء في مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلة الحلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لا غير ، أما ايطاليا فلم تترك في إلقاء دلوها في الهلاء ، بل فعلت كما قال (نيق) : ولم ترسل جنديا واحدا ولم تدفع ليرة واحدة » لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجنود الكافية لسحق مصطفى كمال في الحين الذي تنسكبدها فيه ثقة ما تهي ألف جندي (٢٠٠.٠٠٠) لتسكين الحال في الأقطار العربية المهالجة وغيرها ، وما كان سحق القوة الكمالية بالأمر السهل ، إذ فتر أركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك (٣٠٠.٠٠٠) مقاتل تام الصلته ، على أنه قد بقي في أيدي الحلفاء سلاح آخر هو اليونان ، فتقدم فزيوليس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خند شوكة الترك ودق عتقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابله عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسيا الصغرى ، فقبل ذلك منه ، وبعد حين نزل جيش يوناني إلى برز أنزير عدده (١٠٠.٠٠٠) مقاتل ، غير أن هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل إذ أن المدة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالفتاء ، واجتنب مصطفى كمال الاشتباك في معارك فاصلة ولكنه ثابر على مضايقتهم ، وإيقاع الحيف بهم ، بالحرب غير النظامية كما كان شأنه مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان ، فتوغل اليونانيون في البلاد توغلا فاحشا ، وتوّرطوا تورطاً شديدا ، كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فزردادت القضية التركية إصعالا واشكالا ، وعلى ما ظهر أن فزيوليس ظلّ يبتني زوال الترك ولمضى معهم في الحرب ، وذلك بصفة كونه المنتدب الثاني من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليوناني أتى عليه ذلك لأن اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ بخوضون غمار الحرب من ميدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشدّ النكه ، فأروا للاستراحة ولوقيللا ، فلما كانت انتعاجات تشرين الثاني (نوفمبر) أسقطوا فزيوليس

بنحو ٩٩٠.٠٠٠ صوت إزاء ١٠٠.٠٠٠ صوت ، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذي كان الحلفاء قد سلموه منذ ثلاث سنوات ليعود فيثروا العرش ، فكانت النتيجة الصافية أن اليونان بانت كإيطاليا خروجة عن أرباب الصعقة ، أما الملك قسطنطين فقد استأفقت القتال مع الترك من لقاء قسه . فكان حمل اليونان هذا العمل مناقضا لتلك الموقف الذي وقفوه في عهد قزيليوس ، وعلى الجبهة فان الحلفاء بأموالهم بالبحر ، فزدهم في تحريمهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التي حسبوها من الهبات الهينات .

في ذلك الحين كان مصطنعي كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته في آسيا الصغرى قط ، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج ، ففي الحام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب الأمر الذي قد يبدو لأوّل وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوّان بعضهم لبعض يتقلب من العداوة للمرة إلى الصداقة الخالوة ، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب ألبتة ، لأن السياسة الفرنسية البريطانية هي التي قد خلقت هذه الأهمية ، وأنت بهذه الخلفية ، والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاهما لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » حقّ الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الحملة العسكرية في بيان نشره في الصحف البريطانية : « إن العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العاتية ، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فسادا شديدا ، بل أنهم اجتفوا نيل الحرية ، وراموا إحراك الاستقلال فلم يخوضوا المعركة لكي يستبدلوا سادة يسادة كأن يخوضوا بريطانيا أو فرنسا . كلا . بل لكي ينشروا لهم دولة عربية ، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب وهو قائد من قادة النهضة الوطنية للمستقلين بالقضية العربية في قالب آيين عن القصد ، وأفسح عن الغرض ، وذلك في مقال نشره في صحيفة فرنسية راديكالية جاء فيه ما يأتي .

« ينشئ فرنسا وبريطانيا أن تعلمنا علم اليقين أن العرب إنما هم للترك اخوان في الدين توحدوا وإياهم توحدوا سياسيا قرونا عديدة بحيث هم لا يرغبون ألبتة في الانشقاق عن إخوانهم المؤمنين ، وشركائهم المسلمين ، الذين هم وإياهم كانوا في الحروب الخالية يقاتلون العدو جنبا لجنب وصفا إلى صف انشقاق ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لبريدولة أوروبية مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تنقله هذه الدولة فلذلك أرى جديوى يأتى من القول الذي يحوله السيو ملبران : لم يهر في خلدنا قذ أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية ، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التوجيه وأخذته بمثل هذا الخلد على أن الهدنة وقعت على حسب الشروط وللبداى التي أعلنتها الرئيس ولسن ، ولكن لما قضت ألمانيا وتضع أحلافها معها ديت شروط الهدنة وعهودها كما ديت الأربع عشرة مادة بالأقدام ، على أن النكث الذي أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جزماً لازماً في منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكررة للوكة عشرات من المرات قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الإخاء بحيث لم تحض إلا أشهر معدودات حتى تمّ ذلك بين الأمتين ، قد تستطيع فرنسا بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ ألف جندي في سورية ، وتكبيها اتفاق البسلايين من الفرنسيين أن تخضع عرب سورية إلى ميقات ، بيد أن ذلك ليس جيع مالى الأمر ، ولا الضامن لسلامة العقبي ، لحدود سورية مترامية إلى ما يليها من البلاد التي قطنها عرب وكرد وترك ، وتمتد إلى الصحراء الكبيرة ، فإذا ما شرعت فرنسا في قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء غصب بل يقتل قتال عدوّ عدده أكثر من ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ مليون عرب متشردين في جميع الأنحاء الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة الشكيمة ، الطيبة القناعة ، هذا ما عدا الأمم الإسلامية الأخرى المجتمع معهم في الوحدة القناسة الإسلامية ، والحامل على جميع ذلك إنما هو لوراهق الحلفاء وتوالي ضرباتهم الساقطة على غير جرحه ، فان قال قائل : إن في هذا غلوا فاعليه إلا أن يواقع الحقائق موقعة وبراهن عن كتب مستقصيا ، ولكن

لعمري أرى نفع يربى من الدم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى السماء في الأفطار العربية أنهارا وغمرانا .
 وفي الواقع باتت الأدلة على الواقع التركي العربي مشهودة جلية في مواضع عديدة ، غير أن هذا الواقع
 اقتضى بمحاولة هؤلاء هؤلاء لم يعترف به علنا من جانب مصطفى كمال ولامن جانب الملك فيصل الذى أزل
 من عرشه ، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى إيطاليا حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا
 فقد اصطفت العرب مع الترك جنبا إلى جنب في كيليكية وقاناوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك
 والكرد مع العرب السوريين في إضاد العائن السورية التى ظلت تشب في موضع موضع ، وأما ما كان لمصطفى
 كمال من اليد في إشمال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهورا يفتى عن البيان . انتهى

الفصل الثالث فيما يقوله ساسة أوروبا وعلمائوها

من أن الاسلام دين الحرية ، وأن المسلمين أول الأمم في الحرية من أمة منصف كانوا
 قال الحجة الثقة أرمينوس لامبرى : « كان الاسلام وما برح الدين العائق سائر أديان العالم شورى
 وديموقراطية . الدين الذى هو على الهوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء ، فان كان العالم قد
 شهد حقا منذ أول عهد العمران البشرى إلى اليوم حكومة شورية دستورية فهى لعمري حكومة الخلفاء
 الراشدين » له

وقال عمق انكليزى كبير خبير في شؤون الشرق الأدنى : « إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو
 الرحل هي البلاد الغدة في العالم المشتتة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فلعب فيها أبدا سادة ، حريتهم
 يذودون عن سياجها بشفارسيوفهم ، ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هومنت الحرية ، فلاتعيش فيها نبتة
 الاستبداد » انتهى

وقال العلامة ليبار في شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على
 استعداد لتحمي الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة ، إنما ذلك وهم شديد ، فقد كان لتركيا مران سابق
 على الحياة الدستورية وكانت توافقة إلى إنشاء الحكومة النيابية ، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك .
 أجل م أجل ، إن النظم الشرعية والمدينة التى كانت عليها تركيا إنما هي أفضل أسس يئيد عليه الحكم
 النيابي ، كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يحصل الحكم شورى بينه وبين صحابه ، وقد جرى العلماء
 المسلمون وهم أقطاب الدين ، وادة التمرع الشريف على هذا النهج ، وما برحوا هكذا حتى اليوم يشاورون
 ويستترق بعضهم بعضا في شؤون مصالح المسلمين ، فالشرعية الاسلامية هي ديموقراطية وشورية بطاقتها
 وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد ، وباعتبارها شرعية أساسية ، فمن شأنها إذن أن تمكن الشعوب
 الاسلامية كافة حتى أبصها إغراقا في التمدن من إدراك معنى الشورى والمستور والنظام النيابي » .

ثم بين العلامة ليبار في موضع آخر أن السلاطين القدماء كل لم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان
 الدولة والوزراء وأصحاب السلطة العليا والمناصب الكبرى يجتمعون فيه على مقتضى نظام في موافقت ، محاولة
 لمناقشة السلطان في شؤون الدولة وامداده بالشورى الحكيم . وقد ظلت الحال هكذا أمدا طويلا حتى أنشئ
 في العهد الأخير مجلسان : الأول يعرف بمجلس الدولة ، والآخر بمجلس الوزراء ، زد على هذا فقد أنشئ
 مجلس نواب مرتين : الأولى في سنة ١٨٧٧ م والأخرى في ١٨٧٨ م ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا
 طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الجيدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المراتم القانوني والمراس الشرعي
 على نظام المستور والحكم النيابي .

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب أن لا يعتبر اعلان المستور الثاني سنة ١٩٠٨ م

أمرها مستعداً مما لم يسبق له مثيل في بلاد إسلامية ، بل يجب اعتباره من النظام الإسلامي للأكوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن إلى نطاق واسع وبحال أرحب » انتهى

الفصل الثالث

في أن أوروبا شورية في بلادها مستبقة في غير بلادها
وأهل الشرق والسلمون لابد فائزون

جاء في كتاب « حاضر العالم الإسلامي » ما يأتي : « وقد أجاد (ليونل كرتس) الكاتب الانكليزي النافع الصيت أيما إجابة في جلاء هذا القول وتصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهديب والفترات والتجربات التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية ، بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهديب يتقبلان خطراً كبيراً وبلية لإيماية مالم يقتربا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً ، إن الشعب مهما كان مهلباً راقياً لن يستطيع للران على فرق الحكومة الثانية إلا في حيز العبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لافي حيز النظر والتصور والخيال . قد يقول بعضهم إلى لجوج في طلي القى بينت فيه أنه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئاً فشيئاً قللاً محبباً لأشئ فيه من عائق الحكومة البريطانية إلى عائق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطلب منهم هذا بحق ، فم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية ، وأن يطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وقلة كبدتها ، لا عطف الغفلر للأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات ، وإذا ما أريد حقاً تعليم هذه الحكومة الجديدة فرق الحكم الذاتي ، وجب أن تكون حرة من كل جانب لامتلفة من ناحية ومصفدة بالأغلال من ناحية أخرى ، فإن لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشرحق الشعور بأنها مسؤولة لدى الشعب الذي هو من ورثها ، حتى ولا الشعب يستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن أنه هولمالك نفسه من ضرر وضع ، هذا ليجلبه وذلك ليدرا عنه ، نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذي يتقنى علم لإرداده حكماً ذاتياً لا يفتنى له الوصول إلى غرضه السامى وقابته الكبيرة إلا في الجهاد قائماً أبداً ، واجتياز طريق الصعاب التي تشق عندها الأنفس وتركب الأهوال ، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جيع هذا أن يدق طم الاستقلال الصحيح ، ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه من ازداوت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه . إلى لأغر غرا كبيراً بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام وتثنيته ، وحل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكاتها في عمران البلاد ، غير أنى على كل هذا لاعتقد أن النظام القديم أنشأناه ونشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد دون أن يتقلب إلى عجلة الضرر على أخلاق الشعب كما كان محلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع في تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند محلب البلاد من بعد ما حملناها على عواقتنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية شفوعة بالصدق والاخلاص . يجب أن يكترسواد الهنود في دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقرى سادهم ، وزيد حيلهم ، ونمل من منزلتهم ، وذلك لا يثم إلا اذا مكاهم من القرن على الواجبات التي تمنح إلى وظائفهم قللاً مزهدداً ، لأن صرمان انشعب على الحكومة الثانية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلم النظرية جالوساً على المقاعد . لاوصول إلى نهاية التي بينها حديثاً وزير الهند إذا ركوب الشقة ومعانة الصعب في سبيل وعرة ، الأمر الذي يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استلطنا

الوصول إلى هذا البحر الحلى من مهمتنا في الهند بعد العناية الكبير والانتباه إلى هذه الحال انتهاء ملتصا كل الالتئام مع ما هو معروف لنا من التقاليد ، وما بقي أملنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة تاريخنا ولو كان في ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا .

إن كلمات المستر كرس الأخيرة يقين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية ، أن الحرب العثة قد ألغت العصبة الجنسية الشرقية حتى تركتها لظي شديدا من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال ، ففدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال ، وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيرا أم شرا ، فقلص الظل أمر واقع لاسمذ له ولا منافع ، مما يدل على أنه لن يتبقى من اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يبدو غالب الدول الإسلامية في الشرقين : الأدنى والأوسط متمتا بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام لأعجب فيه ، أما التساؤل أنسى هذه الشعوب التي ستصبح حرة اغتنام الفرصة فتعود تحشر معار الاستبداد والقوضى ، أو تصيح حقا عالية الجبين في إنشاء الحكومات الدستورية المنظمة التابعة فتنبث هذه في طريق التقدم والارتقاء ، فذلك أمر سيكتشفه المستقبل ، وإذ قد بينا لقابة الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق تطور السياسة ، سألها وموجها ، ندع القضية مستقرة في مجراها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين قلبها للمستمر في هذا الدور دور التحول ، وننقل للكلام على العصبة الجنسية .

الفصل الرابع

في حياج العالم الاسلامي

قال المؤلف المذكور في صفحة ٨٩ وما بعدها ما نصه : « كان العالم الاسلامي (قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصراني الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر) حاجعا هجمته التي قد تقدم الكلام عليها بعيدا من التنبه القومي وثورة العصبة الجنسية ، وكان غالبه منقسبا إلى امارات متنافرة ، ولكنها قوية للرأس شديدة التمسكة ، وأن ما كان في قلوب قطينه وساكنيه من الماطفة الوطنية إنما كان متجها نحو السلاطات الحاكمة على نحو الحافة التي كان عليها سلاطين الترك العثمانيين ، غير أنه كانت مظاهر العزة القومية ومبادئ الشمم والإباء جلية في غالب العناصر كالأمة العربية (أمة الرسالة) إذ في العرب كانت أسباب العصبة الجنسية على بيان في الظهور وقوة في الانفعال والنفوذ ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيا كالأحزاب لالتفاف المزاج الذي تغشوه العصبة علملة فعالة ، أما الشعب الاسلامي العذ الذي كان حقا يمتشي في عروقه ما ينبغي لنا تسميته بروح العصبة الجنسية الصحيحة ، فهو الشعب الفارسي حبيب بلاده ، ووطنه موطنه القديم ، وأما سائر الشعوب الإسلامية فقد كانت على شيء من مبادئ الشعور الوطني واليقظة الجنسية والروح الزعامة إلى الوحدة والمتضامن ، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة . على أن في الأمر اعتبارا آخر ، أن الاسلام قد نهى في مواضع عديدة عن العصبة ، فلما انتهت الشعوب الإسلامية إلى هذا المصراع العصبة الجنسية ، بل القرض الذي يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لافرق بين عريهم وبين عجمهم ، وأهتت الغاية السياسية المقصودة في الاسلام من وحدته الأملة الكبرى ، أو الشورى الشرعية العامة أمرا مقابها بطبيعة الدور والزمن بسبب إنشاء القوميات المستقلة والصيحات المتأخرة في الملة الإسلامية كما كانت الحال في مبدأ عصر النهضة في أوروبا إذ كانت النهضة القومية في مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداما عنيفا بالعقائد الدينية النشاعة ، والآراء المأثرة حول وحدة البادية والمملكة الرومانية للفتنة » .

وقال أيضا في صفحة ١٣١ وما بعدها من الجزء الثاني مائه : « غدت الحياة السياسية في أفكار شمال أفريقيا المختلفة العناصر والاصول حياة اضطراب تتميزها الانشقاقات والانقسامات ، وكانت مرها كفى وما برحت أكثر الأقطار الافريقية الشمالية وحده والثاما ، وثباتا في مجموعها السيلسي ، مع أن حلقة السلطان النافذة حقّ النفاذ لم تمتد قط يوما إلى الجبال التي تطنها القبائل المختلفة ، وأما للمالك المعروفة بالمالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية تمتد على طول السواحل ، وأما البلاد الولاية فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام ، على هذه البلاد المتبلطة طفق الفتح الفرنسي يتدفق قديا غامرا الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم ، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سكونية ، وكتبها نظاما ونجما ماديا ، غير أن هذه المنافع والقوائد التي أتت بها السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الافريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعا حديثا من الوحدة والضمين والتخاضك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى مثال في الاجماع على شناعة الفاتح الأوروبي ، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون إليه وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بحول من السيادة الأجنبية بنة ، لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس الفتاة » وفيها الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتأديب للتشجيع كل التسع بمقائد الحكم الذاتي والحرية . أما المتجة ، التي تسببه هذه الأقولم في غرضها فهو بقاءه أميل إلى إنشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى مم إلى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا منه إلى إنشاء أمة تونسية أجزايرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية ، ولا يميزين عن الببال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنما هي على صلات شديدة وروابط متواقة توأما كبيرا مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية . »

مجزرة جديدة لم تعرف من قبل

مقالا بديها يظهر لنا بوضوح حديث : « انؤمن للؤمن كالبيان يشد بسنه بعضا »
ويضمنا حقا معنى : « رجاء بينهم » والحق يقال ان هذه مجزرة اسلامية ،
فلويل لأوروبا اذا جهلت هذا

قال أيضا في صفحة ١٥٠ وما بعدها مائه : « مما لا ريب فيه أن الحرب العاتية قد هاجت الجامعة العربية هياجا شديدا ، وبشت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مستقلة في الحجاز ، مدلية بحقوق طام في سوربة والارقي ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاضطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك . ولزرت طلب الاستقلال ، متطاعة نحو إسقاط السيادة الأجنبية وعوها عموما ، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والابطالية المنتشرة في مصر وسورية والعراق وطرابلس القرب وسائر الأقطار العربية ، وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعا استغراقا جعل تلك العاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وإن كانت لم تبرح عذلا شديدا غير ظاهرة كما كانت من قبل في صدر البرامج التي في أيدي رجال العرب القامخين بالثبوتات القومية الوضنية ، الفائدتين عن حرض العصبية الجنسية العربية . زد على ذلك أن الجامعة العربية مشنكة النسيج (كقفلنا قبالا) بمعدن عتين شاملين ، لا يجتزمان بنصرة أوجسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبية الجنسية الاسلامية ، ولعل هذا المبدأ الأخير يدلونا نحن اغريين موضوع التدقيق الغريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين ، إن الشرق وإن استمسك جهده بمبادئ وأفكارنا في الجنسية والوطنية ، واتصل ما اتصل من عقائدنا فنيها ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد ذاتتت إلى الشرق تشرتها العقول الشرقية الملائى به ف آخر

من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الإسلامية وتآخي جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف إلى حد غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التي نستعملها نحن مثل « الجندية » و « الجنس » ذهبوا في فهم معنيهما مذهبا مختلفا لمذهبا ، وقس على هذه الاختلافات والفرق التي يتنا وبين الشرقيين ما هو شائع في أقطاب جميع المبادئ والعقائد السياسية ، كذلك مثلا كلمة « الدولة » فإن الدولة الإسلامية التي يصح اتخاذها مثلا للقارة ليست كالقوة الغربية المشتل بمحديدها على وحدة معينة من الناس وأرض يسكنونها مقررة الحدود وسلطان عمارس نافذ تمام الغلظ في كل مكان داخل حدود الدولة ، بل إن الدولة في الشرق الإسلامي إما هي كتابة عن كنة قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشكل والانتصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبئة منها أفعالا مشتملا على معنى الاستقلال للبهم التعديد ، تعريه آفات الفوضى ويشوبه الاختلال ، ومن المعالم أن غالب الدول الإسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجدد في تنظيم حكوماتها ، وإصلاح شؤونها ، وسائر أحوالها ، ناسجة في ذلك على منوال الدول الغربية ، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشوذة المثال كقوى أفغانستان حيث إن القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهي قبائل أفغانية مملكة استقلال عمليا يصحها ، كانت تقوم من لقاء نفسها في المدة بعد الأخرى بشق غارات عنيفة على الانكيز ، غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يقنصل من تبعها تملا انقطع عنده دعاء الانكيز ، والأمر كذلك في الجندية عند المسلمين ليست الولادة في البلاد ، ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطا لمن يريد أن يكون فردا من أفراد الأمة الإسلامية في قطر من الأقطار متمتعا حق التمتع بحقوق الجندية الإسلامية ، فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقطاب إلى أقطاب ، تلك يستطيع الحابط أية بلاد إسلامية أن ينال للحال أي وقت شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمزلة بين ظرائق القوم ، فالصبرة : « مصر للصيرين » مثلا لا تعني ذلك المعنى بينه الذي تصوّره نحن في الجارى للعناد ، فإذا ما أقام مسلم جزائري أودمشي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تعصّفه وسلوكه واعتباره « مصريا وطنيا حرا » بصحيح المعنى والصبرة ، والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على السوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية ، لجميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الإسلام » (وضدها دار الحرب) وهي المواطن التي قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة القلب عن سياجها والنياد عن حياضها ، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرقا من العالم الإسلامي حاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقد على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك كأنما للعمور والإسلامي جسم واحد باعتلال عضومته وتأثر وتشتل سائر الأعضاء ، رانا بعد جميع ما حتم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين من المسلمين .

وقال في صفحة ١٥٤ وما بعدها مانسه : « ولعمالحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق وقد ارتوت نفوس شعوبه وأمه بضروب من المطلاع القوية والآمال الاستقلالية التي حاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فسيرتها نارا ذات لهب أن يتقلب بسبب خاتمة الحرب التي نزلت عليه ويلا عيما وبلاء شالا ، مرهلا شديد الفيلان فوارا ، وبركانا عاترا ، من المعالم الين أنه قد كان من المستطاع عقيد مصالحت سليمة من النقائص والشاين ، وذلك يلجى على السياسة الصحيحة الشريعة الفسيح ، السوية النهج ، لكن مؤثر فرسايل السلمي كان وبالأسف الشديد متجعّدا عن كل سياسة رشيدة ، ودسوية حكيمة ، وحصافة في الرأى ، ونظر بالعواقب ، فنعم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شر حبوط ، ليس في ضمان السلم لأوروبا بحسب بل كان من شأنه إلمطة التام ورفخ الحجاب عن موقف الغرب

الحقيقي إزاء الشرق ، ذلك الموقف الزائع الذي عاد فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت قبل الحرب ، روح التوسع الأمبراطوري والجنح الاستعماري ، روح استلاب الشعوب وإرهاقها ، واثباب ما بين أيديها وبأخفها واستنزاف دماؤها ، وشدة الأخنقة على محلول رقباتها ، زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفتت بشارهم نعمة أشد العمة ، غير معبرين شيئا من التطورات النسائية الحقة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب فلم يلجئوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستعجدة ، وإلى انتهاز نهج سياسي خير من ذلك الذي اتبعوه قبلا ، بل ظلوا على المضي في معاملة الشرق بالخنقة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب الطويلة التي آن من فلاح عبثها التقلان ، وولدت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيلرة الأرضية ما كانت سوى مسابجة ومناوشة ، وأن آسيا ما برحت ذلك الجبار المسترق في هيجته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها أسباع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى في تقرير المصير خلال المصمان الأكبر ، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض منهم في الحين الذي كانوا فيه يصترحون بالقياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الأمبراطورية العثمانية ، إشبعا لشهرهم الكلي ونهيمهم الوحشية ، متهنين شر امتنان إرادة أهالي البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة ، وكان مؤتمر فرساي كشافا عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التي أطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخفائية التي التزم جانبها المؤتمر في رفضه قبول وفد إيران الذي أوفده حكومته لبسط القضية الإيرانية (وإيران كانت ما برحت مستقلة استقلالاً اسمياً ظاهراً) فكان من الأمر أن حل المؤتمر الوفد على البقاء في باريس مدة جل يعله خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء يينا كانت الحكومة البريطانية تشد الخناق على عتق حكومة الشام في طهران إلى أن أكرهتها لإكراهها على إبرام اتفاق باتت إيران كاهها بمقتضاه بلادا محمية في كنف الأمبراطورية البريطانية ، وأما المصريون (الذين كان ذاهبهم ودينتهم على القوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التي أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها في مصر سنة ١٩١٤) فقد أوفدوا إلى باريس وفدا لبسط قضيتهم ، فرفض مؤتمر فرساي للاصاحة لأقوال الوفد ، بل أنهىهم رجاءه أن المؤتمر إنما يعتبر الحماية البريطانية في مصر أمرا قضى وحكما أبرم ، فنجم عن جميع ذلك ماعذ نتيجة من نتائج الحرب وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين : الأدنى والأوسط قد شدت أطناها ، وتوطدت عزمها ، واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

بيان أن فرنسا وإنجلترا يمتتا الحلية في تقويم العرب

فأحرق الأمتين نار تورثهم

وقال في صفحة ١٧٣ وما بعدها من الكتاب المذكور ما نصه : « من المعلوم أن هذه المنظمة الكبرى التي قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المسكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها ، ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم من حيث أن بريطانيا جهدت كبر الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لمناجاة الآمال الاستقلالية في صدور العرب وإثارة العصية والمطامح القومية في قلوبهم ، فكان ذلك خير وسيلة ، وأتبع ذريعة ، لاستئثار نخوتهم في الثورة فجعلوا يشارعون إلى محال الحرب ، ويفتشون إلى مقابلة الترك وخضد شوكتهم وأخذت الحكومة البريطانية إلى العرب عددا من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأميرالاي لورانس التي

التي الودعي النابه الشأن ، اتى ما أسرع مائل من قاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم بملاحته ولاخابة حتى دعى « روح الثورة العربية » لكن هؤلاء الضباط الأكفاء العارفون بشؤون العرب والمعروفون ببلهم إليهم وعظمتهم عليهم ، إنما قد اختبروا ليقوموا بما انتدبوا إليه من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولا اطعوا على المعاهدات السرية التي عقدت خفية من العرب ، وكان القصد من ذلك في الواقع أن لا يروموا هؤلاء المستعبرين فتور ولا انكسار ، ولا يلم وقاؤهم للعرب بينما هم يستبدونهم منهم ويستوفونهم نار القتال ، وكان القواد البريطانيون لا ينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة في التلشورات والتصريحات التي كانوا يذيعونها أخذوا بعضها برقاب بعض ، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فلمسوت الحكومتان البريطانية والفرنسية ، مشتركيتين معا ، فشنوا أذاعتاه في جميع الأقطار العربية جاء فيه ما يأتي : « إن الغاية التي من أجلها خاضت فرنسا وبريطانيا في معمعان الحرب في الشرق ، الحرب التي أفرتها على العالم للطمع الألمانية هي أن تضمننا لجميع الشعوب التي طال عليها عهد الجور من الترك تحريروهم من الاستعباد تحريرا تاما بليا ، وأن تنشأ حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطاتها من رغبات الشعب وإرادته المطلقة دون منازع » فلم يلبث أن برح الخفاء ، وانجلي للمستور ، وبان الصبح لدى عينين ، فتبثلت الحال غير الحال ، عند ما وضعت الحرب أوزارها ، ووجهت السيوف إلى أحمدادها ، ومزق العودش مزق واقتمت الرواية ، وأرخى الستار ، الساتر الذي تبثت حقائق نيات الخفاء ومقاصدهم منقوشة فيه قشما جليا ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ، ووقفوا على بواطن الأمور ، بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتل شاملي سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف خدموا وشتلوا ، وغشوا ، فذمروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجات الثورة في نفوسهم . ولولا أهل الحصانة والزوية من زعمائهم ، ولا سيا الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأبرار التي برهن حتى البرهان على فائق كفايته قيادة الرجال والقتال في الحروب ، والتي استطاع الآن أن يزل من بين قومه ، دولة لا ينازع فيها من الغداه وعضة السلطان لربما اغتصب مكان العرب وقاير من جمه ما ألهب البلاد جميعها ، لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو مركب خشن ، وغاية في الاستهداف والخطورة ولا سيما في آونة مثل تلك الآونة ، واذا أدرك حتى الإدراك قوة العرب المنوية والأدوية في ذلك الموقف الذي كانوا يهلب من أبناء قومه ، وبلاده أن يقوموا بسط القضية العربية والسفاح عنها لدى مؤتمر السلم الذي كان على وشك الانعقاد ، فقام بهذا الأمر راجيا تنحية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتباب ، والبرنحت الزماد ، والأمير فيصل بسط لدى مؤتمر السلم قضيت ببلافة معنى ووضيح متعلق بحفة بموقفه الوفار ، لكنه لقي خيبة في المسعى ، إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الرقي والعطف وذلك أن الأقوام المعلومة التي كانت من قبل في الحكم التركي ، وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطيع عنده الاعتراف بكيانها إنما مستقلة استقلال مطلقا عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الإدارية من دولة منتدبة حتى يأتي يوم فصيح فيه هذه الأقوام قادرة على السير بنفسها فيطلي حبلها إذ ذاك على غاربها . ثم قصه العرب معنى الالتئاب واكتتوا ماهيته وسرته ، وقد كان من شأن لو يد جورج أن يجدو ببعض العبارات المنمقة والجلل الرائقة مثل قوله : « إن العرب قد ونوا حقا بيهودهم ، وبروا برعودهم ، لبريطانيا العظمى ، فيجب علينا إذن أن نقابل الاحسان بمثله فنفي بيهودنا ونبر برعودنا لهم » غير أن العرب كانوا قد قرروا المعاهدات السرية واطلموا عليها فبان من البعث والأفن بعد محاولة امطيدهم بالأشراك والأحايل مرة أخرى ، إذ عاد لخلل من الترائع الباطلة ، وأسى الخداع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالي دلم العرب علما مكبنا أنه يجب عليهم الاعتداد على نفوسهم وقوة

سواعدهم ، وساعدهم ومجاهدينهم ، وذلك إما في مجال السياسة ، وإما في مجال الحرب . انتهى ما أوردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » والجدقة رب الطالين .

نظرة عامة في هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب التي حرره رجل عالم أمركي نظر نظرة عامة في الاسلام : « إن أكثر المسلمين يعيشون ويعتزون ولاهم يذكرون ، يعيش المسلم غالبا وهو مجهول تركيب أعضائه وجاها وظلام العالم المحيط به ويجعل تركيب جسم الأمة الاسلامية التي هو عضومنها وأن كاتب هذه السطور أحد المسلمين المساكين الذين يجهلون نظام أم الاسلام ، وما أقيح الجهل وما أنظفه ، أفليس من المؤلم أن يجهل ونحن في مصر (المشهوره بالعالم) بلاد الاسلام وماحصل فيها ؟ ثم يأتي رجل نصراني قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها ، ثم أخذ يدرس أم الاسلام ، وأنا الساعة أقل عنه ، فكيف نفهم معاش المسلمين قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، ما هو هذا الظهور ؟ وما معناه ؟ ثم نفهمه الآن بقول رجل بعيد عن الغرض لأنه ليس مسلما ، فإذا يقول ؟ يقول فما قمتناه :

(١) « إن أحد المبشرين الانجليز منذ (٢٠) سنة يقول : إن الدعوة النصرانية باتت خوافة من الخرافات .

(٢) ويقول : إن مبشرا بروستاقيا يقول : « إن الاسلام يسير في سبيله منذ بدايت إلى اليوم فلم يثر في سبيله إلا القليل ، وهو لا يمت المسيحية ، فذلك قار فوزا ميينا ، النصراني يحملون خنثج أفريقيا في القدم وفتحها للمسلمون في العلانية .

(٣) ويقول : « إن نيوزيلانده مبشروها من عرب ونجار ابتدعوا ذلك منذ (١٩٠٠ سنة) وبعد عشرين سنة أصبح في كل قرية مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، الانجليز همجروا عن مقاومتهم .

(٤) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعدم عتة قليلة : « من الآن يجتاز الاسلام زمبازي وينتشر في جنوب أفريقيا فيطبق القارة بأسرها » .

(٥) ويقول : « الاسلام يهجم على المسيحية كما هجم على الوثنية ، إذ أصبح الذين تنصروا في غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الاسلام ، بل الحديثة أيضا تسلم بعد أن كانت سدا منيعا »

(٦) « منذ خمسين سنة ما كنت ترى في الأجاش مسلما واحدا ، أما الآن فغالبيتهم مسلمون »

(٧) « غفر الاسلام اليوم في أفريقيا عظيم » .

(٨) « إن التار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين ونصروهم هبوا فأرجعوا اخوتهم جميعا للإسلام في القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون .

(٩) ومقال العالم (فريدو) ملخصه أن الحرب الباقية لم تصبح غفرا لأوروبا ، بل صارت غفرا للشرق وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر ، وأن انروسيا التي كانت سبب إذلال فرنسا وانكثرت للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته ، أقول : وملخص هذا كله قوله تعالى هنا : « ليظهره على الدين كله » ، فيينا الاسلام ينتشر في أفريقيا شرقا وغربا إذا آسيا يزول الكابوس الذي كنتم أنفاسها فانتش الاسلام .

(١٠) ويقول : « ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الاسلامية ، ومثله ما حصل في طرابلس من اجتاع الترك والعرب على مناول الطالين .

- (١١) ويقول : « الحرب البلقانية زادت تقارب المسلمين » .
 (١٢) « إن مصطنع كمال بعد أن عززت الدولة العثمانية غلب أوروبا كلها ، وقال لهم : أنا أحارب العالم كله فقلوا ، وهذا نصر للإسلام » .
 (١٣) واتفق العرب والترك سرا ، وحاربوا في كيليكية ، وإن كانوا لم يظهروا ذلك .
 (١٤) ويقول أرمينوس : « إن الدين الاسلامي هو الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية إلى آخره » . أليست هذه الجبهة من جهة تقع عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى : « يظهره على الدين كله » ، وهذا عجب يارباه ! أعيش في مصر بلادي ، وأجد كثيرا من الطبقة المتعلمة لا يصلحون الصلاة المفروضة احتقارا للدين بسبب انتشار البشريين بيننا ، ثم أسمع هذا العلامة في أوروبا يقول : « إن هذا الدين يفوق أديان العالم » أليس أمثال هذا القول وما تقدمه أكبر معجزة للقرآن في هذا الزمان .

- (١٥) ثم يقول أيضا : « إن جزيرة العرب حفظت الاسلام والحرية الخ » .
 (١٦) ملخص كلام المستر (كرنس) : « أن أوروبا لن تنق طويلا في الشرق ، ولا يعضى جبل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الاسلامية متمتعة بالحكم الذاتي » .

هذه زبدة مستخلصة من هذه المقالات عرضتها عليك حتى يحضرق عقلك أيها الذكر منظر العالم الاسلامي العجيب ويظهر لك أنك متعجب من هذه الأخبار ! وراها غريبة عليك كحالي حينما كنت أقرأها ، فغذاها جلية خالصة ، فأنت الآن تقرأها وأخوانك المسلمون في أقطار الأرض يقرءونها ، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذلك لأهم الاسلام ؟ كلا . ثم كلا . أنا أكتب هذا وقد ظهرت لي أمم الاسلام شرقا وغربا كأنهم في خيالي قدر بلتهم وراية الاخوية العامة كما قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولقد ظهرت الآن ظهورا واضحا .

خطاب المؤلف

أيها المسلمون : أتم سادة هذه الأرض ، أتم الظاهرون فيها . أيها المسلمون : أوروبا نحن علمناها وهاهي ذه تظهر علمها لنا غفوه . أيها المسلمون : أتم رجاء ، واعلموا أن الأمم ستبلغ رشدها ، فكونوا أتم القدوة ، وانثروا السلام ، وهل تفشرون السلام وأتم ضعفاء ؟ ستكونون أقوياء فها بكم الأمم تقوتكم ، ونجيبكم لرستكم . إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرعة الظالمة ، بل كونوا راحة للعالمين .

أيها المسلمون : « كنتم خيرا ما أخرجت للناس » هيي لأم الاسلام ، ولدين الاسلام ! هذا الدين الذي نزل من السماء نورا مشرقا ، وما كاد يصل إلى الأرض ويسير قليلا حتى امتزج بالظلام ، وأول هذا الظلام الاختلاف والشجار الذي وقع بين عظماء الأمة لأجل الخلافة ، فقتلوا الأمويون والعباسيون والعلميون أمدا طويلا . ثم ذهبت الدولة كأمس العابر ، وبقي العلم ولكن في الوقت الذي فيه كانت تختصر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع القهقري ، فأرنا الحكمة نامت نوما عميقا ، وفي بلاد الأندلس وشمال أفريقيا في ابن رشد ، وبات الذي يقرأ الحكمة منموما مدسورا ، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا وهاهوذا رجع إلينا ثانيا .

إن المسلمين اليوم أرق منهم في كل زمان بعد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لا يكونون أرق من السابقين في أئف السنة الماضية ، وهم اليوم يقابلون كل علم وكل حكمة ، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، أنت للنعم التفضل ، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير

يا الله : نراك جعلت الجوهر القرد علوما من القوى المدخرة التي لو أطلقت منه لغطت العالم كله ، نراك رجحت النحلة وأعطيتها أمينا تعدّ بللّات ، والنبابة أمينا تعدّ بالكوف ، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الانسان ونظمتها تنظيما بديعا تقيم بهنّ ، وسيأتي قريبا ما هو أجمل ، نهل بعد هذا وبعد ما جاءنا من الأخبار عن أم الاسلام يدخل في قلوبنا وهم أو شك أنك تركت هذه الأم ، فهل الذي يرى تلك الحشرة الحقيرة لا يرى هذه الأم الكبيرة ؟ إنك ترى للمسلمين ، إن وعدك حقّ ، وصدق ، هاهذا القرآن ظهرت مهبزاته ، هاهم أولاد المسلمون متحفزون ، أليس من أعجب العجب أن يختفي العلم بعد نفي ابن رشد بالأندلس فيظهر في الشرق وفي القرب رجال عظامه ، فيظهرون باسم الصوفية ويقتنون العلم المشهور ، ويسلمون الناس بقدر إمكانهم كعبي الدين بن عرف في رحمة الله وأمثاله ، ونرى قم ذلك العصر يظهر فيه السيد الرافعي الكبير ، والسيد عبد القادر الجيلاني ، والسيد أحمد البدوي رضي الله عنهم أجمعين الذي تحتفل الأمة المصرية بمواعده الآن (جاء في الثانية سنة ١٣٤٩ هـ) وهو من ذرية السيد محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ولد في فاس (سنة ٥٩٩ هـ) وتوفي بطنطا ببلادنا المصرية ، فالسيد أحمد البدوي قد اجتمع بالجيلاني والرافعي في بلاد العراق ، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيه ابن القارض ، والرافعي ، والفسوي ، والسيد أحمد البدوي ، وابن عربي ، فهذه ثمان قرون مضت ، وهؤلاء لم اقتبح للمل في الاسلام ، فإذا جرى إذن ؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ، فهؤلاء الصلحاء العظام أصبحوا بعد موتهم قلة الأمة ، لماذا ؟ لأن كراماتهم لا تظهر لها ، فبهم من يأتي بالأسرى ، ومنهم من يحيي الموتى وهكذا ، فتلقى العاقبة ذلك بالقول ، وسارت الأمة أجيالا وهي فرحة برها ، لأن جهالة وحكمة تظهر بخوارق العادات التي يظنون أنها أعظم مظهر للألوهية ، وعجبوا عن جهالة الحقيق ، وهي عجائب السموات والأرض ، ونظام هذا العالم .

إن كل نفس تتوفاة إلى الجبال ، والجبال التكويني إنما هي عجائب السموات والأرض بالعلوم ، فلما طمست البصائر ، وتامت الأمة ، حوت عقولها إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان .

فيهاجها رياه : دين يفيد نبذا ، ولا يعرف للناس إلا خرافات منسوبة إليه ، ثم يبيت إلى زماننا هذا ، ثم تراه ينتشر انتشارا مدحشا ، أليس هذا أيضا من العجب ؟ ثم ترى ما نكتبه الآن في التفسير مقبولا مع أنني لم آل جهدا في مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها ، هاتم أولاد أقبلتم على زمان العلم وهاؤم أقروا كتابيه ، أنا أحمد الله عز وجل إذ جعل هذا الكتاب فائحة خير لأمة الاسلام التي تسطت للعلم ، ولا يحصى لها منه ، بعد أن أحاطت بها أوروبا ، ورأت عترة عاتيا وعولمها ، فسلم بلا عمل لابقاه لأهله بعد زماننا ، والمسلمون في المستقبل حقا هم « خربة أخرجت للناس » .

لقد قرأت في الاحياء ما يفيد أن الامام الغزالي كان يخاطب أهل زمانه كما يخاطب نحن الآن الأطفال ، لا كما يخاطبنا أنا المسلمين الآن ، فانه لما أراد أن يفهم علماء زمانه أن الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأتي بمثال إلا بالوضوح والفصل ، لأنه رأى أن فقهاء زمانه كانوا لا يفرمون إلا بالغم . وقال هو أيضا : إن ترتيب أجزاء كتاب الاحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه ليكون ذلك أنسا لتفقه .

أما نحن الآن فأتينا نخاطب أمة استيقظت ، وعقولا ارتقت ، وغفوسا علت ، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعلمتهم ، خطابا صريحا ، وتنقل لهم عن الترجمة الحق فيقبلون ، ولقد قل الامام الغزالي رحمه الله تعالى : « إن المسلم الذي لا يقبل العلم إلا عن مسلم ، وفيه اذا كان عن غيره أشبه بمن قتم له الماء في عجم الحجام وهو مفسول نظيف فلم يقبله بحجة الله كان فيه دم ، فهكذا هؤلاء الأغبياء من المسلمين الذين

لا يقبلون الحقاني اذا وردت عن الكفار .

فأما نحن في زماننا فلسنا في حاجة إلى ضرب هذه الأمثال ، لأن أمتنا اليوم قد بلغت الحلال التي بها تستحق أن تتولى زمام العالم ، وهل بعد البيان بيان ! هاأنذا أعين حال المسلمين بما يرد من جيع الأقطار أنهم بكل علم مفرمون ، اللهم لك الحمد إذ خلقتنا في زمان النهضة ، وصرفت عنا سوء ، وعلتنا ، وأصمت علينا بالقبول ، أنت خير الناصرين ، أنت الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

فصل في ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أم الإسلام من رجال العصور المتأخرة لأنهم رجة للملئين

فلما سمع ذلك صديقي العالم الذي اعتاد عبادتي في هذا التفسير . قال : كل ما تقدمت حسن وجيل ، ولكني أريد الساعة أن تذكر لي خبرا عن عظيم من عظماء الإسلام كان نعمة على أمم غير المسلمين ، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبي بكر ، ومن معهما من الخلفاء الراشدين ، ولامن غيرهم من المشهورين في سائر الأقطار ، ليكون ذلك مثالا لرحمة المسلم لغير المسلم ، لأن ظاهر الآية : « رجاء بينهم » ربما يظن بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين . فقلت : إن المسلم رحيم بالمسلم وبالقدي ، وبكل معاهد ومؤمن ، فاقدي له مالنا ، وعليه ماعليتنا ، ونحن لا نصلح ، ولا نعدى إلا من حاربنا ، وهم الذين في دار الحرب ، أما المثال الذي تريد فهو ما جاء في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم الأمير شبيب أرسلان في الجزء الأول ، ولتختتم به الكلام في هذه الآية تحت عنوان « السيد الأجل » . فقد اطلعوا في بيان على تاريخ عمر في سنة ١٩٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيزخان إلى القرب جاء السيد الأجل عمر بألف فارس وقم له العطايا فأكرمه وجعله من بطائه (١٢٠٩ - ١٢٢٩) ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ - ١٢٤٢) ولده ثلاث ولايات وهي : (فونغ ، تسينغ ، يون ناي) ثم استدعاه إلى باكين ، وعهد إليه بمنصب عال ، ثم لما تولى السلطان ناغو (١٢٥١ - ١٢٥٩) عهد إليه بإدارة ست نظارات بالاشتراك مع (تاو هوان) ثم جعله مديرا عامًا لمقاطعة (بان كينغ) فأحسن الإدارة جدًا ، عهد إليه بنظارة الاستخبارات ثم لما زحف السلطان إلى بلاد (تسو تشوان) جعله ناظرًا للبرة العسكرية ، فقام بها أحسن قيام ، فلما تولى السلطان (هو ييلاي) أعطاه رتبة الوزارة ، وجعله عضوا في مجلس أمانة السر الأعلى ، وكان كلما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله ، وحاز رضا السلاطة . وسنة ١٣٧٤ تقدم إليه السلطان في أن يقبل ولاية ينان ، وكانت أحوالها مختلفة ، وكان أهل ينان شرقيدي الفجالة والجهل ، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة ، تخاف هذا منه وأراد أن يجاذبه الجبل ، إلا أن السيد الأجل بحكمته وحسن سياسته استماله إليه وصيره صديقا ، وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خرابا ، ففكر السيد الأجل العلم وبني المدارس واعتنى بتهديب الأخلاق ، وكذلك وجهه إلى عمارة الأرضين ، فهدى الطرق ، وبني المعابر والجسور والسدود لأجل المياه بما تلاقى به خطر القحط ، فكانت بعض الأنهار تفيض على الأراضي فتذهب بها زروع الفلاسين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان ، وكانت أراضي أخرى تعطن في الصيف من قلة المياه ، فبنى خزانات وحياضا احتياطا من حراء الدش ، وأزال المارم والمظالم ، وأبطل السخرة ، وشيد الملاجئ للأيتام والهزاة ، وخفف المكوس ، وأحدث نموذجيات زراعية يحتذى على مثالها ، وحفر الآبار ، وأقام الأسواق ، وأدخل في طاعة النبوة مالا يمتد ولا يمتد من الأقوام ، وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للإسلام ، ولكنته شيد أيضا هياكل لكونفوشيوس ولبودا ، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة ، فيبحثها من الشرق سونغ ، ومن الغرب ييرمانيه ، ومن الشمال التبت ، ومن الجنوب آنام ، وبحسن سياسة السيد الأجل خضع ملوك التونكين وأقام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر للسيد الأجل بالزحف إليه ، فلما سار بالجيش رآه الناس سرينا كشييا ، فسألوه عن سبب كآبته فلباب : لبست كشييا لكوني ذاهبا إلى الحرب ، بل لكوني أقصرت منكم كثيرا سيهلكون في هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقتلون ويهينون أنا ما كثيرين مواعدين لا ذنب لهم أيضا ، ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم ، فلبثوا ثلاثة أيام لا يجابون ، فهاج العسكر ، وطلب القواد الاذن بالمججم ، فلم يأذن لهم ، بل راجع رئيس الثوار في أمر التسليم ، فأظهر الطاعة ولكنه لم يسلم البلدة ، فوثب رؤساء الجند على البلدة ، فغضب السيد الأجل ، واستدعاهم وقال لهم : إن ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان ، وأحكم فيها بالعدل والأمان ، لا بالقتل والعدوان ، فلا أرضى أن تهاجروا البلد ، مادام الثاقبون وعدوا بالطاعة ، فإن أقيم إلا سفك السماء جزاؤكم القتل ، ثم أوثق الضباط الذين أرادوا المججم خلافا لأمره ، فلما سمع الثوار بما حصل جاموا وسدوا ، وسكنت البلاد ، وأطاعت من بكره أيها . وكان سائر الصالح يتقدمون بسيرة السيد الأجل ويقبلهمون بأعماله ، فأمنت السوايل ، واستباحات الرعية ، وساد العدل ، وقضت الخيرات ، وعمرت البلاد ، وصار يقاتل هنيئا ببلاد ينان ، أما آثاره في الزراعة فلا تزال بتأييدها إلى الآن ، وأن كثيرا مما بناه من الجسور لا يزال قائما إلى يومنا هذا . وكانت بلاد (تساوينا) تظني عليها الأنهر ، فتتحول إلى بحيرة ، فخر السيد الأجل منها حذر إليه تلك المياه كلها ، فصرفها عن الأراضي التي كان للماء يضرها من قبل ، وخررت بها كثيرة ، وغلجا لسقيا البقاع المحتاجة إلى الري ، وجعل يريدها مؤلفا من ٣٩٠ قرا وسواها بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتق في أحدها أسرعت للبرد بلشبل الحكومة ، لجنت الحكومة الأهالي ، ونهضوا لرقق الفتق .

ومات السيد الأجل رحمه الله سنة ١٧٧٩ فكان له ماتم حم الصين بأسرها ، وبكاه أهل ينان كما يبيكي الأولاد أباهم ، وعم الحداد البلاد المجلورة إلى بلاد (سونغ) و(تفت) وغسبها ، وذبحت القرابين في البلاط السلطاني ، وخلف خمسة أولاد ١٩ حفيدا ، فكان خلفه في الإمارة ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتداول أحفاده الإمارة ، وكانوا جميعا أعضاء للسلطنة .

وفي أيام دولة (مينغ) راجع السلطان (ناني تسوكا هوانغ تي) (١٣٩٨-١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة ، فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والترفق بالرعية ، ووفرة آثار العمران ، مثل السيد الأجل ، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه (ين تنه شو) وأن يدرس هذا الكتاب لطلبة وينشر في المكتبة ، وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الأجل ، وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل فيها القرابين من روحه ، سنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة السيد الأجل بقلم (تنشيج هو) . ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير (هيان يانغ) وهو لقب السيد الأجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الأجل إلى اليوم ، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠ انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وبهذا تم الكلام على قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » يظهره على الدين كله وكفى بإفقه شيئا * محمد رسول الله والذين معه أشداه على الكفار رحاه بينهم . كتب ظهر يوم الاثنين ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣١ م والحمد لله رب العالمين .



الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا

سياهم في وجوههم من أثر السجود

اعلم أيها القارئ أن هذا الانسان فوق الأرض الخلق من الطين في الأهم الأكثر ، هام على وجهه ، جاهل لا يرى لم خلق ؟

الله أكبر : إن الانسان يشبه ماشع وذاع في زمانا ، من أن الجواهر القردة والثرات البقية أصبحت الآن موضع حناية علماء الألمان خصوصا وعلماء العالم عموما ، إذ يقولون ان فيها قوى كائنة ، وتلك القوى القوية المضمونة يوزعها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها ، ذلك أن كل مادة فانها مكمونة من مواد كهربائية سالبة وموجبة وهي مكبوسة مكتنسة مضغوطة ، فأصغر المادة التي لا يرى إذا أزلنا ضغطه وخرجت للقوى الكائنة فيه غيبت لنا معالم الحياة ، لأنها قوى لاحد لها ، وقد تقدم هذا كثيرا .

أقول اذا كانت هذه حال الثرات التي لارها في الطين والتراب والماء . الله أكبر : فكيف تكون حال هذا الانسان إذن ؟ الانسان نهاية الابداع في أرضنا هذه ، فإذا كانت هذه حال الثرات التي منها تركب علنا ، فكيف يكون حال الانسان الذي هو نهاية الابداع ؟

الانسان يشبه هذه القردة ، فهو يهيم على وجهه ، ويعيش كالحيوان منبذ كالنردة . والجواهر القردة ولكن يستخرج قواه أناس منه مجبولون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعي وأيقظوه إلى استخراج ماكن فيه من القوى ، ولذلك تجد الرجل المهذب الرافق بوسى أو بتعليم يقدر أن يؤثر في نوع الانسان كله بآرائه وأفكاره ، ومن أوليات هذه الوجهة التي أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود فان هذا الانسان الذي يماشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض الحى » . وهذا هجب الجواهر القردة قواه ماذية باستخراجها برفضا ماذيا ، ولكن هذه النفس الانسانية باستخراج ما فيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله ، فنخاطبه قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ياهيأ ! هذا الانسان المركب من ذرات أرضية وما حولها يركع ويقول : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت الحى » ، ويقول : « سجد وجهي للذي خلقه وسوره وشق سمعه وبصره » .

هذا الانسان الصغير الجسم الضئيل يعيش كالحیوان ، يقف ويخاطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التي لم يعرف الناس لها حدا إلى الآن ، وفيها شمس يمدونها بالآلاف الملايين وبعضها كما في الجوزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة ، وضوء شمسنا بالنسبة لها أمر صغير . سبحانه الله : أهذا الانسان هو الذي يخاطب خالق هذه العوالم كلها ، ثم هو نفسه الذي يكر في الشرق والغرب ، وفي أعلى وفي أسفل ، في ثانية واحدة نعم الانسان هذا وصفه ، وهذه حاله ، أيقظه الأنبياء وهذبوه وروبه ، وغاية الأمر أن الهيات قدما كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم ، وكل دين أرقى عما قبله ، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والخرافات ، لأن الله يريد أعمارنا من السابعة موحدين صادقين ، وقد أمر جميع الأمم أن تتحد به ، وامن دين إلا وقد أمر متبعيه بالصلاة والتوجه لله ، ألم ترى غاندى المصلح الهندى الشهير ، فانظر كيف يصف الصلاة في دينه البوذى الذى نزل به بوذا قبل نزول المسيح عليه السلام ، وكيف يراه يرقن بالصلاة وقمعا ، أنا لا أقول أن هذا الدين لم يفسخ . كلا . هو مفسوخ يديننا وانما الذى يهمنى أن أقوله ان وجود الصلاة إلى الآن في دين البوذية ، وإعلان غاندى ، أن الصلاة نافعة معجزة لديننا وديننا ، لأن الله يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل الحى » ويقول : « ولقد وصينا

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » ، ويقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله » .
 فإذا أسعجتك ما قاله المهاتمغاندى فى الصلاة فاق أسعجتك مجزأة ، أسعجت شيئا لم تألفه ، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وإن كانت منسوخة بصلواتنا ، ولكنك فى الغالب لم تسمع إذا كنت بعيدا عن ديار الهند أن هناك صلوات وإن كانت منسوخة يتلوها قوم ويتقنعون بها ، لأن الله رب الناس ورب الحيوان ، أما كون الذين منسوخة فشيء آخر ، وإذا كان المهاتمغاندى يفتخ بالصلاة ، فكيف يكون المسلم إذن ؟ وهذا نص ما قاله بلخرف الواحد . جاء فى جريدة الاهولم يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣١ تحت العنوان التالى مانصه :

الصلاة فى نظر المهاتمغاندى

وقع نظرى على أحد أعداد جريدة « الهند الفتاة » الصادرة أخيرا وفيها فذلكت مختصرة عن رأى المهاتمغاندى فى الصلاة فرأيت ترجعها لكى أشرك اخواننا (النيبان بالانص) فى آراء ذلك الرجل العظيم خصوصا أن الكثير منهم ينظر الى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية ويشتبه فى فسادها بها نوعا من الجود قال المهاتمغان من ضمن أحاديثه على ظهر البانوة « راجونا » :

« وربما كانت مسرقة عندما أقوم لصلاة المساء فتوق ما أشعر به من التبعة وللغزل دائر يمدى .
 ويشترك معى فى صلاة المساء جيع أصدقائى من هندوس ومسلمين وبارسين وسيخ أمانى صلاة الصبح المبكرة فلا يشترك معى منهم الا القليل ، وقد سألتى صديق مسلم عن الصلاة وما أريد منى أن أعطيه وصفا نظريا ولكنه سألنى عما شعرت به نحوها من تجارب عملية ولقد رافقتى سؤاله هذا كثيرا وليس غريبا على أن أصرح على رموس الأشهاد بأنه لم يكن لى سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة كما أتى لأنكر الناس أتى لولم أكن أصلى لكنت قضى الآن إحدى دور المجاذيب . ولقد أتى على حين من الدهر كثر ما لقيته فيه من مرارة العيش ومن اليأس الوقتى الذى رماى فيه بعض الجاهل ولكن ما كان أسرع نهوضى من يأسى وقتونى بركة صلاتى وقتونى .

لم تكن الصلاة فيما مضى جزءا لازما من حياتى ولكنها أنت بنت الضرورة حينما وجدت أنى لن أكون سعيدا بدونها وكما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة . ولربما اكون قد بدأت حياة الاخلاص ولكن قد أتى على نور من الله حينما بدأت أشعر بان لزوم الصلاة للروح أكثر من لزوم الاكل للجسم : لان مرض الجسم يحتاج إلى الحمية لكى يصح ولكن كنا يصل أنه لا يوجد حمية من الصلاة لكى يصح الروح ، وفى حين أن التخممة ربما تأتى لنا من كثرة الأكل فالتخممة لا يوجد حمية من الصلاة لكى يصح الروح ، وقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأهضى بهم بوذا ، وعيسى ، ومحمد ، اعترافا بأنهم لم يروا سعادة الحياة الاعلى ضوء مصباح الصلاة كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الاتقياء لا يجدون لهم سلاوى إلا فى الصلاة وقد يعتصم البعض كذايين ، ولكنى كباث عن الحقيقة المجمة أحب أن أؤمن بهذا الكذب لأنى وجدت أن نتيجة تصديقى له كانت عماد نجاسى ، ومع أنى لا أستبشر خيرا من الجور السياسى ولا أرى فى أنفسه إلا بأسا فأتى دائما فى غاية الاطمئنان والأمان لدرجة أن الكثيرين صاروا يصدقونى على الحمتاننى هذا ، وما كل ذلك الا من الصلاة .

أتى لست رجل تعاليم راقية ولا فلسفة عميقة ولكنى بكل خضوع يمكننى أن أذمى بأنى رجل صلاة ولست مع كل هذا أعلن كبير أهمية على الطريقة التى بها تؤدى الصلاة فالنتيجة فى النهاية واحدة .

جيت مسألة صعبة ، وهي أن البعض لا يعتقدون بوجود إله لا يمكن أن أقول لهذا البعض إلا أن يرى تلك العلوم التي تربك عقله عرض الحائط ويسلم بأننا بنى البشر ما أوتينا من العلم الاقبلا فلندرس هذه المسألة بمقل طفل مضربوفى الحقيقة أننا أصغر حتى من القنرة لأن القنرة للتناهية فى الصغر قطع قوانين الطبيعة من شد وجلب وسقوط وإزقاع ، ولكننا بنى الإنسان فى كبرياء جهلنا وحقه آماتنا وعجرفة صلفنا تقب وجهها لوجه ضد هذه القوانين وتكرها . ومادمت قد سلمت بوجود إله وكنت به من المؤمنين فاقى لأأرى ما يمنعك لحظة واحدة من الصلاة ولا أقبل فلسفة من يدعى بأن مجرد حياتنا فى الدنيا هى نوع من العبادة ، وعلى ذلك لازوم للصلاة لأن الأنبياء أنفسهم وقد كانوا على اتصال دائم بالروح العلوى كانوا يقومون بالصلاة ويحسدون إيمانهم كل يوم ، فأولانا بنى البشر بأن فصل وتضرع إلى الله يوميا وتجسد إيماننا . إى أيها الاخوان ضامن لكم بعد ذلك خلا بالك من كل ما يمكن أن يجب له أقل تحلة أو أدنى شقاء . انتهى بتصرف .

١ . صلى مطر

(إستاذ علوم من جامعة مشتر)

فضل الله على الناس

إن الله ذو فضل على الناس ، الناس محبسون فى الأرض ، أنا لا أدري كيف كان هذا الإنسان قبل أن يزل إلى الأرض وإنما أنا أصف الإنسان الساعة بما وقر فى نفسى ، فأقول :

اقى الآن موقن إيقاننا بأن مانع هذا العالم لاحد رحته ، رحة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وإبداع فى الصنع ، لايسع من يقرأ هذا التفسير وما فيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويعتده ، وليست تحصل نفس بعد هذا أن يكون وجود الناس فى الأرض قصد التعذيب . كلا . فكل عذاب لم يرد به إلا السعادة ، هذا لا أشك فيه ، فهو شين (نعم هناك ماهو فوق علمى وطائى ، ولايسنى لى معرفته ، بل أسلم به ، وأومن به وهو عذاب الكفار الهائم ، فهذا آمننا به ، ولوأننا عرفنا سره لكننا من عالم أرقى من عالمنا ، فكفانا ما عرفنا الآن ، ونكمل أمر الباقى إلى الله ، حتى يطلعنا على السر بعد الموت ان استحقناه) .

فأذا كان هذا هوالبقين عندى ، فاقى أبى عليه ما يأتى . فأقول : لعل أرواح الناس كانت قبل نزولها إلى الأرض غيبة جاهلة بتفصيل العوالم ، وإن كانت تعرف الكليات فتعلمها محيط بالكليات وتجعل الجزئيات فبعت الله فيها غريزة حب للمادة وعشقها فاعصرت إليها وانغمست فيها وحبت . ومن يجب أن يكون هذا السجن الأرضى أشبه بستان جميل ، وهو أعظم سجن وأبدعه ، وهو يعطينا درسا بأنه يقول لنا : أنا سجنكم فى الأرض لأعلمكم ، أرسلت أنبياء وحكماء وعلماء ، وأزلت ماء ، وأمرتكم بالطهارة والصلاة لتكملوا ، ووضعت فيكم غرائز الطعام ، والشراب ، واللباس ، والحرب ، والعداوات ، ليكون ذلك كله مهمزا يدفعكم إلى العلم والعمل ، وهذا كله هو الرقى والسعادة ، وأوعزت إلى علماء أسباطه باليونان أن يبرهنوا الحيلان من الصغر على تحمل الضرب ، فيشبون على الشجاعة ، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا الشاب أمام القتيات ضربا موجعا قاسيا فلا يصرخ ، فيستحق أن يتزوج الفتاة لشجاعته وألمت بعض القبائل أن لا يتزوج الشاب فتاة فيها إلا اذا قتل سباعا ، أوغرا ، أوخود ذلك ، كل ذلك لاستخراج ما كمن فى قلوبكم من العجائب والقوى الكامنة ، فلا شجاعة إلا بالتحمل ، ولا أتورل للنفوس إلا بالصاوات والحكمة والعلم .

أتم يا أهل الأرض مسجونون ، ولكن الذى سجنكم حكيم ، ولم يرد من السجن ذلكم ، بل أراد استخراج كنوز قلوبكم وروقيها واسطعها .

وقد وضع لكم في الأرض أشجارا وأزهارا وأنهارا وحبالا وأودية وبحارا لتكون هذه مكملات لكم ، تارة بالنسب والنسب في استخراج ما بهن فيها ، وتارة بتطلى ما بهن من الأغذية والأودية والخرات ، وكل هذا تكميل لكم ، واستخراج لقواكم ، وخبر السجون ما جمع بين الحبس والعمل والطهارة ، انظر ما كتبناه في (سورة البقرة) عند قوله تعالى : « إن الله يحب المتزايين ويحب للمتطهرين » ، وكيف يقول (بتام الجبلبي) في كتابه « أصول القوانين » : « إن النظافة والاستمرار في العمل بقلان الجرائم ، والطهارة في الشريعة الاسلامية من محاسنها ، فلن ترى نقيضا علما إلا وهو بعيد عن الجرائم ، قليل الأوزار . »
 وأزن أيها الذكيين أدنى الحيوان ، وهي تلك الخلايا المنوية التي تعيش في الماء ، ولا تموت مطلقا إلا بعد أن يضاف إليها ، أو باقطاع غذائها ، وكيف تعيش دهورا ودهورا لولا الطوارئ ، كيف كانت حياتها ضئيلة من حيث الارتقاء ، وفيها طبعاً أرواح ضئيلة ، ثم انظر إلى الحيوانات التي هي أرقى منها وأرقى إلى أن تصل إلى الانسان فتجد علما وحكمة ورقيا وشجاعة وقربا إلى الله بالصلاة حتى يقول الله في المسلمين : « تراهم ركعوا سجداً ياتون فضلاً من الله ورضواناً » انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين
 كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الرابعة

في قوله تعالى : « مكرهم أخرج شطاء فآزروهم فاستطاعوا على سوقه يجب الذراع ليغيب بهم الكفار »

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأمر جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لك الحمد اللهم ولك النكر ، ما أعظم نعمك ، إن هذا الزمان هو الذي اشتد فيه ظهور المجزآت ، مجزآت النبوة المحمدية ، كيف لا ، ألم أذكر في السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين اقتضوا على بلاد سوريا ففتكوا بأهلها فتكافروا بها وقتلوا القوم قتلاً . ألم أقل في (سورة آل عمران) عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أتوا نسيا من الكتاب يمدحون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » . الآيت ، إن هذه الآيات إنما زلت لأجل رقيتنا نحن أبناء المسلمين عموماً ، والعرب خصوصاً ، وقلت إن (الم) في أول السورة تشير إلى هذه القصة للمبتدأة بهذه الحروف (الم) وأن اليهود لما أنكروا على شفاعته آباءهم ، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب ملكهم ، وبك المسلمين بلادهم ، وقلت إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الغارات والجهل في الدين ما أزال نخوتهم ، وفرق جهنم ، وأبنت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات ، وهو المحيط الاطلاطيقي ، وبلاد السودان إلى بلاد العراق والموصل وما بينهما متفرقون مع أن بلادهم متلاصقة وتفرقهم إنما جاء من الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المتطرفين والزعماء المغرورين السبائليين وما أكثروا في بلاد الاسلام ، هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار (الم) التي زلت لاحتفاظنا نحن الآن ، لأننا نحن الذين جئنا إلى الأرض ، ونحن في حاجة إلى الهداية ، فهنا يأتينا جاء بعضها عن طريق هذا الرمز العجيب ، كنت أقول هذا هناك وأنا واثق برقة هذه الأمة ، ولكن لم يكن ليخطر لي أن هذا الرق أصبح قلب قوسين . كلا . أما كنت واثقاً برقى المسلمين عموماً وأبناء العرب خصوصاً ولكن هل كان يدور بخلد أي أعيش حتى أقرأ ما ستسمعه أيها الذكي الآن ؟ بل هل كان يهيج في خاطري ، أو يحدثني نفسي بأن ما ستسمعه الآن يحصل ونفس هذا التفسير لا يزال يطبع . كلا . لم يكن ذلك بخلد ، ولكن زماناً هذا زمان انقلاب في كل شيء انقلاب في الشرق ، وانقلاب في الغرب حتى أقرأ اليوم في جريدة الاهرام أنه طبع هذه السورة يوم ٤ نوفمبر

سنة ١٩٣١ تحت عنوان «العراق وعصبة الأمم» وهذا نصه :
 « جنيف في ٢ نوفمبر (روتر) قال السرفرنسيس همفرز للندوب السامي البريطاني في العراق أمام لجنة الانتداب : « في أيديكم مفتاح الباب الذي لابد منه البلاد الفتية من المرور فيه إلى البلوغ التام والتحرير الكامل ، فأسألكم أن تفتحوا هذا الباب . وقال أيضا : ان العراق برهنت على أنها أهل للقبول في مجمع الأمم المتمثلة الراقية » . انتهى . وعلمت الجريدة على هذا التلغراف بمقال هذا نصه :

العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب ، ومستقبل الحلة في سورية

خطب السرفرنسيس همفرز للندوب السامي البريطاني في العراق أسس أمام لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف مؤيدا طلب انضمام العراق الى عصبة الأمم بعبارة مؤثرة .
 والذي عرفه أن مسألة انضمام العراق الى العصبة في السنة المقبلة قد بت نهائيا بين الدول وأنه لم يبق لتقريرها رسميا الا بعض معاملات شكلية لا تؤثر في الموضوع ، وانضمام العراق الى العصبة يعني إلغاء الانتداب الذي فرض عليها في مؤتمر سان ريمو فرضا . وقد رفضته منذ إعلانه ونكست بهذا الرفض الى النهاية . ولم تشأ انجلترا أن تنضيف الى مشاكلها الكثيرة في تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة اكراهها على الاعتراف رسميا بالانتداب ، بل جعلت علاقتها معها على أسس المعاهدات المعقودة في سنة ١٩٢١ ثم في سبتمبر ١٩٢٦ و ١٩٢٨ . وقد كفلت لنفسها في هذه المعاهدات الاشراف على المصالح للسولة عنها لدى عصبة الأمم بصفقتها دولة متدبة ، ومكنت العراق في الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم التقيد بنصوصه وأحكامه ، فكانت دولة متدبة على العراق في نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له في نظر حكومة بغداد . على أن الشعب العراقي الذي رفض الانتداب رسميا لم يسعه القبول به ضمنا تحت ستار المعاهدات ، فكان دائما يطالب بتعديل ما يراه ماسا باستقلاله ، من موادها وكانت معظم الوزارات التي توالى في دست الحكم تسطلم بالانجليز من جراء ذلك فتعوز ببعض الشيء أحيانا وتفشل أحيانا الى أن وقع الاصطدام الأخير مع وزارة للرحوم عبد المحسن السعدي ، وهو الاصطدام الذي أدى الى اتحاره بعد ما بددت الآمال التي عقدتها على حسن نيتهم وشر بقوة ضغط الشعب عليه وضايح مركزه لدى الوطنيين من أبنائه .
 ووقع اصطدام آخر آثاره المباشرة باشا وزير المالية في عهد وزارة ناهي باشا السويدي . وبلغت الأزمة حينئذ أقصى حد من التحدي حتى خيل الى الجمهور أن الملك سيجبر عن تأليف وزارة جديدة .
 ودارت مباحثات خطيرة في تلك الأثناء حلت جلالته على الاقتناع بأنه أصبح في الامكان الوصول الى اتفاق مع الانجليز ، فأقنع نوري باشا السعيد بذلك وعهد اليه في تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين للمطرفين ، وأسفرت المفاوضات التي قامت بها وزارة نوري باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء والاستقلال ، ولاتيني لانجلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات اثنان منها في العراق والثالث في جهات البصرة . ولم تقابل هذه المعاهدة على ما فيها من مزايا لا يستهان بها بارتياح للقامات الوطنية لطول مدتها من جهة ، ولأن العراقيين يريدون استقلالا خالصا من كل شائبة من جهة أخرى .
 وقد أثبتت انجلترا طلب العراق الانضمام الى عصبة الأمم ، وأعلنت أنه أصبح في حالة من الرقي لاعتناج معها الى إرشاد دولة متدبة . وسيدخل العراق العصبة في السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول المشتركة فيها ومن دون أقل قيد أو تحفظ يتعلق بالأقليات أو غيرها ، سوى القيود التي تنص عليها المعاهدات العامة ، كما صرح جلالته الملك فيصل للندوب الاكرام في أثناء مروره أخيرا بالاسكندرية .

ومنى دخلت العراق عصبة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة في طريق استيلائها . تمرد إبقاء البلاد المجاورة لها ، والتي هي أقرب الى الحضارة منها تحت الانتداب . وهذا ما أدركته فرنسا وصرح به مندوبها أخيرا في عصبة الأمم . فالطريق الذى سار عليه العراق سنسير عليه سوريا أيضا إذ لا يسهل أن يقبل السوريون - كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات - بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق ، مع كونهم لا يثقون من العراقيين علما وحضارة وخبرة في شؤون الحكم .

وخلاصة القول : أن دخول العراق عصبة الأمم سيكون فاتحة دور جديد في تاريخ الشرق الأدنى ومقدمة لانتخابات سياسية خطيرة قد تكون في مصلحته ومصلحة السلم . انتهى مجاهد في جريدة الاهرام

أقول : هل كان يخطر لي وأنا حتى أرزق ، وقصر هذا التفسير يطبع أن أسمع أن العراق وسوريا على أبواب الاستقلال . اللهم انك أنت الراسع المنفرد ، الحكيم العليم العدل ، أعدت إلى الشرق شرفه وكرامته وعزته بعد أن أدبته ورينه بالتوازل والخن ، إن كتب (بالتشديد) زماننا للمسلمين خصوصا والشرقيين عموما من أسعد الكتاب (بالتشديد) في الأرض ، لأنهم يرون ما يدعون اليه من الرق قريب النكاح ، سريع الحصول ، والله هو الولي الحيد . انتهى الكلام على المجودة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

الفتح الاسلامي في زماننا

وأكار النبوة المحمدية في نعمة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، وعلى الفتح المبين ، اللهم إنك أنت افتتاح العلم ، المحسن المهيمن ، الجليل الرحيم . ثالثة لم يكن ليخطر لي في الخيال ، ولا في الأمل ، ولا في الأحلام ، أن أقف في حياتي قبل أن أموت على ما سمعت به الآن عن بلاد الاسلام من الفتح الاسلامي المبين ، حقا إن هذا زمان الفتح المبين ، الذى يضاهي الفتح المبين أيام النبوة ، وأيام عصر الصحابة والتابعين ، نعم هو حق ، هو حق وصدق مبين ، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أعظم في نفسى أن هذا التفسير ربما تقرأه أم قروءة جديدة بعد موتى ، وتشوبه في وجه الجهالة العمياء ، فطمس معالمها ، وتزحق روحها ، وتحملها في خبر كان .

كنت أقول ذلك أشبه بالأمل والأحلام ، ومعلوم أن الأمل والأحلام تضليل ، ولكن ماذا حدث ؟ اليوم ، حدث ما لا عين رأت ولا قبلا ، ولا أذن سمعت إلا نعبرا ، ولا خطر على قلب كثير من المؤلفين ، حدث ما ذكره في تفسير البسملة في أول هذه السورة من حضور الشاب التركستاني الذى قص على أخبارا ونشرها في الجرائد فوق ما كتبت في أول السورة ، هذا الشاب اليوم أى في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م قد قبل في كلية الآداب في علم الفلسفة في الجامعة المصرية ، فماذا أقول ؟ يقول : لقد فتحت مدارس في بلادنا التركستان الصينية ، ودرست فيها العلوم الحديثة ، وأنا درست فيها ، وأن السبب في ذلك انتشار كتاب « نظام العالم والأمم » و « التاج المرمع » ، ومثل بلادنا بلاد الصين وسلموها نحو (٧٠) مليونا ، وبعض أهل اليابان أسلموا ، واتصافوا بأخواتهم في التركستان والصين ، وأسلم أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضر لهم « التاج المرمع » مترجما (انظر مقالة تحت عنوان « ملومات جديدة في المقطم يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ ») أكتب هذا الآن ذا كرا نعم الله عز وجل ، أكتبه وأنادعش أن بعض الكتب التى سبقت ونشرت قبله قد أدت الفرض المقصود الذى كنت أرجوه منه بعد مفارقتي هذه البلاد .

إن هذه الأخبار فيها معنى سامية ، وصرام شريفة ، وأسرارها ما يبعثها فتح سريع ، وخطوات واسعة ، اتصل المسلمون اتصالا لم يسهده ، وانتشر الاسلام انتشارا غريبا لم يفضده ، واتصل الافريقى بالاندونيسى ، والجاوى والسومطرى ، والصينى واليابانى ، والأفغانى والهندي والتركستاني ، والتتارى والقوقازى . اتصل

للسلمون ، اتصالا اتصالا لم يمهده .

هذا من آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » فرحم الله الشيخ السليح لأنه هو الذي قرأت عنه أن الفتح معناه الفتح العلي ، ذلك الفتح الذي نشر أليم النبوة في سائر الأقطار ، ثم أصبحت بقايا العلم الاسلامي أشبه ببقايا الماء الآسن في البركة والمستنقعات ، ثم كانت الحركة العلمية الحاضرة ، قابعة للسلمون ولفوضا غبار القتل ، وغلدوا الكسل ، وأخذوا يجتهدون مجدا مضى ، وعزا قضى ، وسعادة أدبرت وملكانذهب ، وأخذنا نسمع باقترابهم وتواصلهم ، فله الحد وله اللذة .

أكتب هذا وسبقوه شبان هم يعيشون الآن معنا في هذه الحيلة الدنيا وهم مفكرون ، وآخرون لا يزالون صبيانا ، وآخرون هم أجنة في بطون أمهاتهم ، وآخرون هم في ظهور أصلاب آبائهم . كل هؤلاء وهؤلاء سيقومون ما كتبناه الآن أو يسعون به فيبعث في قلوبهم من الحيلة العلمية الاسلامية ما أعلمه أنا أولا أكثر المسلمين الحاليين ، وسيحدث ذلك في قلوبهم شعورا قويا يحملهم على ركوب الطيارات التي أما الآن وأنا أكتب هذا في صباح يوم الأربعاء يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر ، كأي أراهم فوق طياراتهم راكبين من بلاد التركستان الصينية ، أو البلاد اليابانية ، أو البلاد الصينية ، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشية والجزائرية والتونسية وهم يحلقون فوق رموس إخوانهم المسلمين ، وقد قابلوهم بالتمقيق والفرح اللين ، هذا هو الذي أتخيله الآن ، كانه حقيقة أراها بيني ، وقد أطمعني ما تحقق من انتشار ما أكتبه وذيعه في بلاد الاسلام أن هذه الحقيقة قد قرب وجها ، وأطل زمامها ، وأقبل حينها : « وتطعن نأه بعد حين » وهكذا يقابل المصري والسوري والمراكشي والطرابلسي جبل شبان الشرق الأقصى بمئة ، فيركبون طياراتهم ، ويردّون إليهم الزيارة فسدن الأفغان والتركستان والصين واليابان والهند وإيران وبلاد الترك وغيرها من بلاد الاسلام . كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » .

ومالي أذهب بعيدا ، إن زماننا زمان انقلاب اسلامي هيب ! فيينا يحترق هذا الشاب التركستاني النافذة الذي يجيد أربع لغات ، وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت من الشرق الأقصى ، ونسمع أذني هذه الأخبار السارة الجيبة ، إذا بالجرائد والأخبار تأتي سراعا بأخبار مبهشة ، ذلك أن المسلمين اجتمعوا في مؤتمر اسلامي عام في القدس في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وتلفت رئاسة المؤتمر بركات التأييد من الملك علي بن الحسين والأمير عبد الله أمير شرق الأردن ، والامام يحيى عامل اليمن ، وخديوم مصر السابق ، وقد حضر المؤتمر مندوبو البوسنة والهرسك واليوغسلاف والصرب ، وكانوا يكرزون صراحا « الله أكبر ، الله أكبر » عند ذكر أسماهم والحضور نحو (٢٠) ألفا . ثم اشتغل المؤتمر بتأليف جلالة الفرعية ، فقرر أن يجري تأليف اللجان الآتية : -

- (١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدسة والبراق .
- (٢) لجنة الثقافة الاسلامية وجامعة المسجد الأقصى .
- (٣) لجنة سكة حديد الحجاز .
- (٤) لجنة الاقتراحات .
- (٥) لجنة العناية والنشر .
- (٦) لجنة الوعظ والارشاد .
- (٧) لجنة المالية والتنظيم .
- (٨) لجنة القانون الأساسي .

هذا ماجاء في الجرائد للصربية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أحكمت صنعك ، وأجبت نديرك ، وجعلت تفسير هذه السورة موافقا في زمان طبعه لحادثة حضور الشاب التركستاني إلى البلاد المصرية يحمل لنا نبأ بلاده ، ولحادثة المؤتمر التي هو الآن منعقد في فلسطين ، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الاسلام .

اللهم إن هذا هو النصر للمين ، وهو عينه الفتح الاسلامي . اللهم إن المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام النبوة قبيل الهجرة ، فتحتمهم الآن فتح على على سليمي ، وسيقبله قريبا الفتح السياسي العظيم ، وسيكون المسلمون سباح النظام العام ، وجماعة العدل والرجة لسائر الأمم والأجناس ، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » يحملون السلام العام لأهل الأرض ، لأن فتحهم فتح على ، والأمم الآن سيكون فتحها فتحا عليها ، لأن الناس اليوم يسمعون ويمشون ، ولكل هاتم الكلام على « سورة الفتح » والمجد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ م



تفسير سورة الحجرات

(هي مدنية)

آياتها ١٨ - نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْصُرُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ عِقَابِهِ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَمْضُونَ أَسْوَاتِهِمْ
عِنْدَ رَسُولٍ أَفَلَا أُوتِيتُكَ الَّذِينَ ءَمَنُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ
الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ
إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَفَلَا يَفْقَهُونَ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَقَبِّضُوا أَن تُعْبِئُوا قَوْمًا بِمَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ
اللَّهِ لَوْ يُعْلِمُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانِ وَزَيْنَةُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَكَرَهِتُمْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَّ مِنْ
اللَّهِ وَنِسْمَةً وَأَفَلَا يَفْقَهُونَ حَكِيمٌ * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ
بَشَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْشِي حَتَّى تَنَافِسَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَازَتْ فَأَصْلَحُوا
بَيْنَهُمَا بِالْمَكْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَسَلَكُمُ تُرْجُومٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَلَى
أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَلَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِغَضِ الْإِيمَانِ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَنْتَقِبْ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَبَاكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ كُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ
 ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ
 الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
 عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كَثَرَكُمْ حَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة .

﴿ القسم الثاني ﴾ في آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول السورة إلى قوله تعالى

« والله غفور رحيم » .

﴿ القسم الثالث ﴾ في آداب المؤمنين بعضهم مع بعض من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

جاءت عادة الشعراء أن يبدءوا قصائدهم بالترام ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل ما بعده ، يصف جمال
 المرأة ومحاسنها ، فيصفي السامعون للشاعر ، ثم ينتقل بهم إلى المديح ، فلا تستجدها ، فيخرج بالجوهر السنية ،
 والحببات الذهبية ، ولقد قلتم أن الخلفاء الراشدين منعوا ذلك ، أما القرآن فإن براعته استهله بالبسملة ،
 والبسملة تصف الله بالرحمة ، رحمة هي مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجبال والشجر والنبات
 وما جمال الفتيات الساسي إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية في
 الناس ، فليست في حاجة إلى ما يهيجها ، والأثم اليوم في حاجة إلى إثارة ما كن من صفات الكمال في الناس
 وفي آثار الرحمة من الجلال ملاحظه .

ولقد شرح الله الرحمة فجعل لها سورة بأكلها ، فقال : « الرحمن علم القرآن الخ » ، إذن سورة
 الرحمن الآية من مفصلات الرحمة في البسملة كما قلتمنا في غير هذا المكان ، فليست الرحمة هناك تفصيلا وانحاما ،
 وفي ﴿ سورة الفتح ﴾ قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح وهو انكشاف الحقائق التي ترتب
 عليه كل فتح في الاسلام ، فإذا قيل في ﴿ سورة الرحمن ﴾ : « الرحمن علم القرآن » ففي ﴿ سورة الفتح ﴾
 يقال : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وعلى هذا الفتح دانت أم وثم ، وفتحت بلاد وبلاد ، أما الرحمة
 في هذه السورة ، فأنما هي الرحمة للعملية ، أي رحمة المصائر والأخلاق :

- (١) أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعلم رفع الصوت عنده .
- (٢) وعدم الإغفاء إلى قول الكلام حتى يحق الحق ويطل الباطل .
- (٣) والصلح بين الطائفتين .
- (٤) واستقام الآخرة للاسلامية .
- (٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية ، وكل فعل يؤذى الاخوان .
- (٦) وترك الخمر .
- (٧) والتأبذ بالألقاب ، والسبب .
- (٨) واجتناب كثير من الظن .
- (٩) والتجسس .
- (١٠) وترك الغيبة ونحو ذلك .
- (١١) م التعارف .
- (١٢) والإيمان بالبرهان واليقين .

ولما أتممت هذا المقال ، جاء صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ، فقال : كأنك فهمت أن الرحمة هنا موجهة إلى ماني السورة وهي المطالب الثانية عشرة . قلت : إن الرحمة عامة ، وههنا جاءت هذه المطالب تذكراً بها ، وأمثلة لها ، وهذه من المطالب التي نقلت عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه إذ قال : « لو شئت لأوفرت سبعين ميراً في تفسير البسملة » أو ما معناه فهو من نحو هذا الباب دخوله ، ومن هذه الناحية وجهته ، وبها وصوله ، وإن كان له علم فوق ما عرفناه وحكمة فوق ما أفتناه ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . قلت : إنك قد جعلت أكثر السور على هذا النحو ، فأنك قد فسرت البسملة في أكثر السور بالمطالب التي فيها ، بل جعلت تلك المطالب مثلاً لرحمة كما هنا ، ولكن يخيل لي أن في هذه السورة طرائف مستحدثة ، وبدائع مستحسنة ، ولكن لأجد في لساني قدرة على التحرير والتصوير ، ولا في جنائي قوة على التقدير والتكبير . قلت نعم ههنا معان شريفة ، ودقائق منيفة ، ولطائف بدیعة ، وحوارف رفيعة ، وجواهر مكنونة ، وطرائف مصونة ، وطرائق مسنونة . انظر رعاك الله إلى هذه الآيات ، ففيها آداب الأمم ، وأحوال اجتماعها وتعارفها ، بحيث لا يكون هناك اختلاف ، ولا اضطراب ، ولا غيبة ، ولا نيمة ، ولا حرب ولا جدال .

وههنا يبدو للخواطر سؤال ، فيقال : إن الله هو الرحمن الرحيم ، ومن أجل الرحمت أن لا يجعل في النوع الإنساني هذه المثالب ، وأن يخلصهم من تلك الشوائب ، حتى لا يهزمهم النصائح القرآنية ، ولا الزواجر الاسلامية ، وهذا السؤال يصوره بحث هام ، ونقيب عن مصادر هذه العوالم ومواردها ، وأولها وآخرها ، حتى نفهم الرحمت ، ونعرف هاتيك الآيات اللينات .

اعلم أيها الحكمة ، وجنبك الزلل ، وأما عندك الفوائت ، وألبسك ثوب الوقار ، أن ما نراه من هذا الوجود الذي اختلط فيه الخبيث والطيب ، والحسن والقبيح ، إن هو إلا سوكتات في خيال هذه الأكوان وخطرات فيه كالأوهام .

لقد علمت أيها الأخ الفاضل مما مر بك في ﴿سورة النور﴾ أن الجواهر الفردة والقرينات التي وصل إليها التحليل ليست هي بمادة ، وما هذه المسألة بالمادة إلا نقط كهربائية يجري ساليها حول موجدتها ، أما نحو ستة آلاف ملايين الملايين ، وأما أقل ، وأما أكثر ، فإن كانت أقل ، فلتسكن الأنوار والأصوات ، وإن كانت أكثر فلتسكن الأجسام الصلبة ، والأجسام الثقيلة ، ولقد مر هذا غير مرة في هذا التفسير .

سبحانك اللهم وبمحمدك ، أنت القديس ، جيل جليل ، لا إله إلا أنت ، إن عاكك إلا حركات ، فما هذه الحركات ؟ هي حركات في أثير ، وما هو الأثير ؟ وما الحركة لها في ذلك الأثير ؟ إلى هنا وقفت عقول الأمم في زماننا ، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسم لكان أهمل من الحديد أضعااف مضاعفة ، انظر هذا المقام في آكل ﴿ سورة الصافات ﴾ ولكنه لا جسم له ، ولا يمس به ولا يرى ، ونحن نقول إذن هو كياننا .

لغة أسكبر : إن في خيانتنا لحركات ، وتلك الحركات لها وجود حقا ، ولكن حركات خيانتنا نتائجها معقولات لها نتائج في خارج أجسامنا وأعمالنا في رقى مدتنا ، ونظام أخلاقنا ، إذن هي موجودة وحركات العالم موجودة ، وجود مافي أذهانتنا ضعيف ، ووجود مافي الخارج قوى ، فالأول سريع الزوال ، والثاني زله آمادا طويلا ، ولكن الأصل هو الحركة على كل تقدير ، فلتعلم الأجبار والجبالي والنجوم ، وتض دهورا ودهورا ، ثم تضي ، ولكنها معدومة أوفى حكم المدربة ، فهذا الجيل الذي راء ، والطر الذي فيه ، والشمس والقمر ، والشجر والنباب ، كلهم حركات وأشواء مغايات ، ظهرت للعيون بهيئات عتقات ، ولكن العلم يقول : كلا . ثم كلا . أيها العيون ، أيها الأصابع ، لا وجود ، لا وجود ، كل هذا حركات ، والحركة لا تراه ، له وجود كامل ، وهو تام الرحمة ، ومن رحمة الله أراد أن يصوري هذه المجاهل أرواما ويلهمها علما ، ونحبه ويحبها ، فإذا يصنع ؟ صنع هذه الحركات ، فأبرز بها نور الكهر باه ، ففضطه ، فتراكم وازدحم وانحصر انحصارا شديدا في القدرات والجواهر القردة ، وبهذا التراكم أصبح مشاهدا محسوسا ، وما هو لنا إلا تنوع وتجديد ، واختلاف في الصور والأشكال ، وإذا كان أصل العالم سالب الكهر باه وموجبها ، فهكذا نشأت كلها على هذا القطر ، ساء وأرض ، وجهاد وحيوان ، أهلى وأسفل ، حى وبيت ، أسود وأبيض ، رفيع ووضيع ، كافر ومؤمن ، عالم وجاهل ، ملك وسوق ، ذكى وبليد . وهناك قاعل وقاعل ، فهذا للتفاعل به دعاء الوجود وترقى هذه الصور تبيض الأرواح الحيوانية ، وهي لاهية لها إلا بهذه الصور التي مبدؤها تلك الحركات ، وأقرب شيء إلينا ماسمى في ﴿ سورة الفتح ﴾ من أن في كل قطرة كسن اليرة لا تزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية جراه بها يحمر اللحم ، وهي عاملة لتسبة جاهدة ، وتسعة آلاف خلية يضاء هي المدافعة عن المملكة الجسمية ، لتحافظ عليها من القدرات الماخلات في الجسم لاهلا كه ، إذن أرواحنا لارتقاء لها إلفى جو مشيع بالعراك والخلاف ، والاشباك ، والاختلاط ، والاختلاج ، وكل أم يتبعها ولها ، فلذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب ، والأخير يشبه الأول فهكذا تكون هذه النفوس ، فيها تكون العداوات والشحناء ، والحسد والبغضاء ، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان .

هذه طبائع عولنا ما هي إلا حركات ، والحركات متضادات ، وبغير هذا لا وجود للمادة ، والمادة فيها تربي الأرواح ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أن وجود العالم وجود ناقص والإنسان تبع للناقص مستمد منه ناتج عنه ، والنتائج على مقتضى اللقنات ، ولقد قلنا أن الله رحيم ، ومن أجل رحمته أنه خلق خلقا من روحه هو وهي النفوس الانسانية ، وهذه النفوس أيضا ناقصة ، ولا كمال لها إلا بالتطور والشكل ، والتطور والشكل إنما يكونان في المادة ، والمادة ناقصة ، فلذا كان هذا طبع الوجود الناقص ، طبعه التناقض ، فلم يبق إلا مرتبة واحدة وهي تصفية هذه الأخلاط وإزالة هذه الناقص ، فذلك أنزل الأنبياء والحكمة في الأرض ، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودة والموعظة الحسنة ، ومنها هذه السورة ، قلله (وإن كان رجيا) لا يخلق المستحيل ، ومن للمستحيل أن تخلق أرواحنا كلمة ، كما كان من المستحيل أن يكون للمادة بوجود أولى ، فلذا كان أصل الوجود المذنى معدوما فالكمال معدوم من باب أولى ، فمن الرحمة انتباه خلقه لارتقاء الأفس في مدارج الكمال ، وهذا هو الذي جاء في ﴿ سورة الطهرات ﴾ .

إن ارتقاء النفوس البشرية لاسيلا إلى التدرج نحو الكمال ، فليكن الناس في أول حياتهم كالأسود شراسة وكالأفاعيل شرارة ، فليرفعهم العلم إلى درجات الثلاثة الكرام ، والوجود الكامل لغير صانع العالم مستحيل بقول القائل : لم خلق الله قفوسنا ناقصة ثم هو يكملها ، وخلقها كاملة من أول وهلة ؟ معناه لم يكن كل إنسان أصلا للوجود (وبعبارة أخرى) لم يكن كل إنسان إلها ، إذ لا كمال إلا له ، فإذا خلقنا نحن كاملين غنناة اتنا آلهة ، وهذه هي الحقيقة ، كل ما عدا ما نفع العالم أمه الصدم والوجود طارئ عليه وهو لا قبل من الوجود الطارئ إلا قليلا قليلا حتى يصل الكمال الذي يليق به (وبعبارة أخرى أيضا) يصل إلى مرتبة لا يتعداها ، وغيره يصل إلى أقل أو أكثر منه ، هذه هي الحقيقة ، وهذا هو جواب أصل السؤال

جمال في جمال

يخيل لي وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرات الوجود مشرقات ، وإنما فتحت أكلها ، وازدهرت فأشرقت الأنوار الخفية فيها التي يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للاقتناع بها في الأعمال ، وكأنها كلها الآن منبئة .

الله أكبر : ثم كلامه موسيقى ، ألم تر أن حركاتها منتظمة ، ألم تر أن حركاتها في النور تكون من أربعة ملايين مليون في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها ، أي من ابتداء لون الحرة إلى انتهاء لون البنفسجي . جيل والله هذه المناظر ، حركات تعد باللايين في الثانية في ذرات لا حصر لصددها ، قد حبت روي عنها ، روي التي تعبس في وسط هذه الأنوار وهذه الحركات ، روي المسكنة المحبوبة المنوعة من أن تسمع تلك الحركات وتتشاهد تلك الأنوار ، ثم يحبها الله ، يحبها من ذلك الجبال ومن تلك الأنوار رجة منه بروي ، لأنها تسمع تلك الموسيقى ، أوردت تلك الأنوار ، وشاهدت أساليبها في الحديد والنحاس والرصاص والماء والهواء والجبال ، وشاهدت أفانيتها المتخلفات ، وضروبها الصعيات ، وسمعت تلك الأغاني ، وأنواع الموسيقى ، وضروب اللحن الشجية لغابت من اللغة ، ولحلت من وفرة الجبال ، أنا الآن أعيش في جمال منظور ، وجمال مسموع ، ولكنني عنه محجوب ، رجة من الله في .

ومن رجة بالحيوان أيضا أنه غشى على عقله ، وعلى بصره ، وعلى سمعه ، وشغله بتحصيل قوته ، ومطلوذة عذوه ، ولولا ذلك لشاهد تلك الأنوار ، وقهل من جمال الأصوات في موسيقى النبرات . ألم تر أن الجبال تبهم عند سماعها للفناء ، وأن الحيتان في البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات ، إذن الجبال محبوبة عند كل حيوان كما هو محبوب عند الإنسان ، فكان استجابته عنه رجة به ، والا فلك الأولون والآخرون .

النبرات مركبات من جمال وباختلاف حركاتها وتنوع صورها كان هذا الوجود ، للماءو بالمتناقضات المؤلمات المؤذيات ، من الحر والبرد ، والخلو والمرت ، والحيث والطيب ، ولكن أصل الوجود غلب عليه وهو الجبال ، ألا ترى إلى الشجيرات الزهرات ، والشموس الطالعات ، ألم تر كيف ترى صباحا فطرات الندى على الورق وهي أشبه بقضع الملس الجليات ، ألم تر كيف يستبين لك منظر نسج الصنكوت ، وقد جلله الندى بهيئة خيمة من الجواهر البديعة والماس المشرق البيج ، غلب الجبال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بظهر القنوب الشمس ، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها ، وتظهر أصل جبالها ، فإذا غلب عنا تنوع حركات الكهرياء في النبرات من حيث جمال ألوان أضواؤها ، وبهجة موسيقاها ، فوالله لم يغب عن عيوننا مشاهدة باهر جبالها في قبيل انما عسس ، والصبح إذا تنفس ، فالجبال باقية وإن انحلت به المؤلمات والمزجيات ، والإنسان يشاهد ذلك ، والفتنة الإلهية تريد أن ترقبه ، فإذا تصنع ؟ خلقت فيه قوى متضادة ، وألجته

بالحسد والحقد والعداوات والحروب ، وقالت أيها المسلمون : حاربوا كل من يؤذيكم وأتم تشيرون دعوة الاسلام ، وإعلامه الألمان والرومان والروسيا وجميع أوروبا اخترعوا الهلكت ، وابشدوها ماتشون من المنذرات ، واشغلوا قوسكم بذلك حتى تقيب عقولكم عما أمامكم من الجبال التي يتم على أصل الجبال ، وهذه الشواغل تعيشون أمدا مقدرا ، ولأن الجبال غلب حقولكم مما تشاهدون ولم تنبه شوائب الحسد والطمع والمباراة والمنافسة لهلكتم ولصرتم في خبر كان .

وهذه الزهجات جعلت رياضة لكم ، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلا قليلا بقدر ما تسمح به قواكم فتستطيعونه استنباطا في أثناء مجادلاتكم . كما ان خبر الماء كل في حصة أبدانكم ما كان غير مرصوفا فتأخذ منه اغلايا حظا قليلا قليلا . فلما الأغذية المركزة فانها تطفى على الجسم شر طفيان ، فتكون فيه ثور وقروح وأمراض .

إن كل ما أخذ بلاتب ونصب ، فهو عند من ناله مرمى منبوذ ، لا يعبه قدسه التفتا ، ولا له عندها منزلة ، فكل مبذول مطروح ، وأحب شيء إلى الانسان مانع .

فلما سمع صاحي ذلك وهوشديد الاصغاء إلى . قال : إن هذا لون آخر من ألوان العلم ، وصورة عبية ، ونعمة ولعيم ، وحكمة من الله الحكيم العليم ، لم يرد على تعلمها درس فيها درسه ، ولم ير لها شيئا فيها قرأه . قلت : الحمد لله التي بنعتتم تتم الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسيرنا بسمة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

القسم الثاني من السورة

التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قبل البدء في تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : ﴿ سورة الفتح ﴾ قد ذكرت بعد القتال ، مناسبة أن الأولى كالقدمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهي أشبه بما يقب الفتح ، فإن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي ﷺ بينهم وقد استتب الأمر ، فحين يجب أن نضع القواعد التي تكون بين النبي ﷺ وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التي يكونون عليها ؟ فانهم اذا كانوا في الأمثال المضروبة في التوراة والانجيل قد تراخوا فيها بينهم وسجدوا وركعوا وجعلوا ، ثم نحا وعظموا ، وقوّوه ، وغاظوا الكفر ، فليكن البحث بعد ذلك في طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل . بعضه بعضا ؟ فهذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقها مع ما قبلها ، ولنتبرع في تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش لتقديمه ، ان حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجنتين المسمتين لبيته وشماله قريبا منه ، فسيت الجنتان يدين مجازا للجوار ، ومعنى لا تقدموا بين يديه ، لا تقبلوا أمرا من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستشارة التثيلية صور المعقول بصورة المحسوس ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لا تقبلوا أمرا دون أن يحكما به ، وفي ذكراته ، مع تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والقصود من هذا المعنى الاتياد لأوامره ونوايه فلا يجهلون بقول أو فعل قبل أن يقوله صلى الله عليه وسلم ، أو قبل أن يفعله . فلا يذبحون يوم عيد الأنهي قبل ذبحه ، فإن الذبح بعد الصلاة ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولا ترفع الأصوات شدة كاحمل من الشيخين ، إذ اختلغا في أمر

فترقت أصواتها بحضرته لما قدم وقد من بني تميم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سبب نزول الآية وهي طمة شامة لأخص ما ذكر (واتقوا الله) في التظيم وعقافة الحكم (إن الله سميع) لأفواكم ورفع أصواتكم عنده (عليهم) بما فعلوا ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس جهوى الموت ، وفي أذنه وقر ، كان يتأذى رسول الله ﷺ بصوته ، فزل فيه وفي أمته قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إذا كلمتموه ، فلذا تلقى ونطقتم بمليك أن لا تلبثوا بأصواتكم وراء الحد الذي يليه بصوه ، وإذا كلمتموه وهوصات قايكم أن تلبثوا به الجهر الباطن بينكم ، أو أن تقولوا يا محمد يا جدد ، بل خاطبوه بالنبوة مع السكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) في الأمرين للمقتدين خشية (أن تحبط أعمالكم وأتم لاتشعرون) ففي الرفع والجهر استخفاف قد يؤدي إلى الكفر المحبط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة ، ولما زلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أزلت هذه الآية ، وأتى رجل جهر الصوت ، فأخاف أن يكون على قد حبط فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، أنك تعيش بخير وتعت بخير ، وأنت في أهل الجنة . فقال : رضيت يشعري رسول الله ﷺ لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبدا . فأزل الله تعالى (إن الذين يفضنون أصواتهم عند رسول الله) مرادة للأدب (أو تلك الذين استمعوا الله قلوبهم لتتقوى) أي ضرب الله قلوبهم بأنواع الخوف والتكاليف الشاقة حتى ظهرت تلك القلوب وصفت بما كابنت من الصبر على المشاق ، وقال عمر رضي الله عنه : أذهب الشهوات عنها ، والامتحان اختبار بلغ (لم مغفرة) لقنوبهم (وأجر عظيم) لفضهم وسائر طاعتهم :

(١) ويروي أن رسول الله ﷺ أخبر ثابتاً بأنه سيقتل في سبيل الله ، فلما كان يوم الجمعة في حوب مسيلة قتل ، وكان عليه درع فرأه رجل من الصحابة بعد موته في المنام . فقال له : إن فلانا رجلا من المسلمين زرع درعي فذهب به وهو في ناحية من السكر عند فرس يسكن في طيله ، وقد وضع على درعي برمة فأث خالد بن الوليد ، فأخبره حتى يستد درعي ، وأت أبابكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقل له ان على ديني حتى يقتنيه هي ، وفلان من رفقي عتيق ، فأخبر الرجل خالدا ، فوجد الدرع والفرس على ما وصفه فاستد الدرع ، وأخبر خالد أبابكر بذلك للرواية ، فأجاز أبوبكر وصيته ، قال مالك بن أنس : لأعلم وصية أجيئت بعد موت صاحبها إلا هذه .

(٢) ولما زلت الآية الأولى كان أبوبكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كخبي السرار ، وما حدثت جهر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستنهمه بخفض صوته ، فذلك مدحهم الله بفض الصوت عند رسول الله ﷺ ثم إن العرب كانوا يعاملون النبي ﷺ على عادتهم فيما بينهم

(١) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بني النضير ، وجاءوا بعيالهم سبايا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن الفزاري ، جاء بعد ذلك رجالهم يفتنون القتراري ، قدموا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائل في أهله ، فجاءوا ينادون يا محمد أخرج إلينا ، حتى أيقظوه من نومه ، ونخرج إليهم ، وأعتق نصف القتراري ، وقبل فداء النصف الثاني .

(٢) وأيضا لما جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والزيبرقان بن بدر وافتد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة ، وهو راقد نادوه : وقالوا يا محمد أخرج إلينا ، وذلك لفائزته كما هو معلوم في فن الأدب والحديث ، فذلك ولأمثاله زل قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) من خار محاسنهم أو أكل من خلفها أم من قدامها ، والحجرة قطعة أرض محصورة بمحاط

وللمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم (أكثرهم لا يقبلون) لأن العقل يقتضى حسن الأدب ومراعاة الحشمة ، لاسيما لمن كان في منصب النبوة (ولأنهم صعدوا حتى يخرج إليهم لكان) الصبر (خيبر لهم) من الاستعجال لمناقبه من الأدب (وأنه غفور رحيم) لأنه اقتصر على النسخ والتفريع هؤلاء السبعين للأدب . وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

روى الله صلى الله عليه وسلم بث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بنى المصطلق ، وكانت بينه وبينهم احنة في الجاهلية ، فلما شرف ديارهم ركبوا مستبشرين إليه ، غلبهم مقاتله ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قدرتنا وعاينوا الزكاة ، فبث خالد بن الوليد فوجهم يقاتلون ، فسلموا إليه الصدقات ورجع قزلاً : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) أى بأى نبأ (فتبينوا) فتقننوا فيه ، وطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة ، ولا تقبلوا قول الفاسق ، قلن من لا يبالى بالسق لا يبالى بالكذب الذى هو نوع منه . والفاسق المخرج من النبوة ، يقال فسق الرطبة من قشرها ، وفى مقولها قست البيضة إذا حكسرتها وأخرجت ما فيها ، وأيضاً قست الشيء إذا أخرجته من يد مالكه مقتصلاً به ، ويستعمل فى الخروج من القصد بركوب الكبر ، وقوله «فتبينوا» فى قراءة أخرى «فتبينوا» ، والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان ، يقول فتبينوا كراهة (أن تصيبوا قوماً بجهالة) أى كراهة إصابكم قوماً جاهلين بحالهم (فتصبروا) فتصبروا (على ما ضلتم ناديين) متعين عما لازما ، متعين أنه لم يقع ، وقوله فاسق على هذا هو الوليد بن عقبة ، وأنت ترى أن الفاسق خروج عن الحق ، وهل كان الوليد كذلك ؟ إن الوليد أخطأ فى ظنه فليس فاسقاً ، فالأولى والأحق أن يراد الموم أى أى فاسق ، والتقييد بالفاسق يدل على قبول خبر الواحد العدل ، إذ لو توفقنا فى خبره لسقنا بينه وبين الفاسق ، ونحلا التخصيص من الفائدة (واعلموا) أن فيكم رسول الله لو يطعمكم فى كثير من الأمر لعمت) المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى انكم تريدون أن ينجح رأيكم فى الحوادث ، وبفضل ذلك نعمت ، أى لو قسمت فى العنت ، وهو الجهد والملاكة ، وكأن هذا يشير إلى الرواية السابقة على ما قيل ان بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الاعتقاد ببنى المصطلق وتصدق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصنون ، ويزعمون جتعم فى التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استأناهم بقوله (ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) لحبهم للإيمان إلى آخره حلهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد (أولئك هم الراشدون) أى أولئك المستنون هم الذين أمروا الطريق السوى ، وعن أبى نصره ، قال : قرأ أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه «واعلموا أن فيكم رسول الله» إلى قوله «حب إليكم الإيمان» قال هذا نبيكم يوصى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم فى كثير من الأمور لفتونا فكيف بكم اليوم ؟ أخرجه الترمذى وصححه ، وقوله (فضلا من الله ونعمة) أى حب إليكم الإيمان فضلاً عن مفعول لأجله (ولله علم) بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز (حكيم) يفضل وينم بالتوفيق على الافعال (وان طاعتان من المؤمنين اقتتلوا) قاتلوا (فأصلحوا بينهما) بالنصح والسلم إلى حكم الله (فان بقت إحداهما على الأخرى) نعمت عليها (فقاتلوا التى تبنى حتى تبنى إلى أمر الله) ترجع إلى حكمه ، أما أمر به (فان قاتل فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل ما بينهما على ما حكم الله (وأقسطوا) وأعدلوا فى كل الأمر (إن الله يحب المقسطين) يحمد فعلهم بحسن الجزاء ، نزلت فى قتال حدث بين الأوس والمخزوم فى عهد رسول الله ﷺ بالسف والمغال ، ولما نزلت قرأها صلى الله عليه وسلم ، فأصلحوا وكف بعضهم عن بعض ، وهذا دلالة أنه يجب معاونة من بهى عليه بهد

تقديم التصح والسعي في الصالحة ، وأيضا الباغي مؤمن وإذا قبض عن الحرب ترك ، لأنه فاء إلى أمر الله
 (أيها المؤمنون إخوانه) لأنهم متقربون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية (فأصلحوا بين
 أنفسكم) إذا اختلفا واختلفا ، ذلك أن الإيمان قد عقد الاخوة بين المؤمنين ، فهي كاخوة النسب أرواحاً
 وقد جرت العادة أنه إذا حصل مثل ذلك بين الآخرين في التسبب فانهم يجتنبون في رفعه بالصلح ، فالاخوة
 في الدين أحق بذلك ووضع الظاهر موضع الضمير في أخويكم مضافاً إلى المؤمنين بالباينة في التقرير والتخصيص
 (واقفوا الله) في مخالفة حكمه والاحمال فيه (عليكم ترجون) هل تتقواكم (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر
 قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) أي لا يسخر بعض
 المؤمنين والمؤمنات من بعض ، إذ قد يكون السخو منه خيراً عند الله من الساخر ، والقوم مختص بالرجال
 وهو جع قائم كزائر وزور ، ويقال أيما الله مصدر أنت به فتشاع في الجمع (ولا تلهووا أنفسكم) أي ولا يعب
 بفسادكم بعضاً ، فإن المؤمنين كنفس واحدة ، ويصح أن يقال ولا تلهووا ما تلهوون به ومن فعل ذلك فسكناً
 لمز نفسه ، والزهالطين باللسان (ولا تبارزوا بالألقاب) ولا يبع بعضكم بعضاً بلقب السوء ، فإن التبرع بلبق
 السوء عرفاً (بش الاسم النسوق بعد الإيمان) الاسم هنا الذكر من قولهم طاراسه في الناس بالكرم ،
 أو بالثوم ، أي بش التكرار للرفع للمؤمنين أن يذكروا بالنسوق بعد دخولهم الإيمان واشتبارهم به . يقال إن
 الآية نزلت في صفة بنت حبي رضي الله عنها أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يظنن لي
 « يهودية بنت يهوديين » . فقال لها : هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد (ومن لم يقب)
 عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) حيث وضعوا العصبان موضع الطاعة (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا
 كثيراً من الظن) كونوا منه على جانب ، فليتنازل المؤمن وليحتسب حتى يعلم أمن الأمور العملية ذلك الظن
 فيجب اتباعه ؟ أم من حسن الظن بالله فكذلك ؟ أم في الأليات والنبؤات حيث يخالفه الدليل القاطع ؟
 فيحرم اتباعه ، أم هو ظن سوء للمؤمنين فكذلك ؟ أم هو في الأمور المعاشية فيباح (إن بعض الظن إثم)
 أي ذنب كالثالث والرابع فيما تقدم (ولا تجسسوا) ولا تبحثوا عن عورات المسلمين من الجسس ، وفيه معنى الطلب
 كالتمسس ، وفي قراءة بلقاء من الجسس لفتى هو أثر الجسس ، كما يقال للحواشي الجواشي . وفي الحديث :
 « لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته » يروى
 أن سلمان الفارسي كان مع رجلين موسرين وهم مسافرون للجهاد ، فتألا له يوماً : انطلق فاطلب لنا طعاماً
 فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجد
 عنده طعاماً ، فأخبرهما ، ثم أرسلاه إلى طائفة من الصحابة فلم يجد ، فأخذوا يتجسسون هل عند أسامة
 ما أمر لهم رسول الله ﷺ فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ قال : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكم
 قالوا والله يا رسول الله ما تأكلنا يوماً لحمًا . فقال : ظلمنا فأكلنا لحم سلمان وأسامة فنزلت هذه الآية (ولا
 يقب بعضكم بعضاً) ولا بد من بعضكم بعضاً بالسوء في غيبة ، والنبية أن تذكر أذاك بما يكرهه ، فإن كان
 فيه فقد اغتبت ، وإن لم يكن فيه فقد بهت (أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميت) هذا تمثيل وتصوير
 لما يناله المختاب من عرض أخيه على الخشن وجهه ، والميلقة في الآية ظاهرة في الاستفهام التقريري واسناد
 الفعل إلى أحدكم ، وجعل المأكول له أنا وهذا الأخ ميت ، وعن قتادة : « كما تكره أن وجدت جيفة
 مملوءة أن تأكل منها كذلك فأكراه لحم أخيك وهو حي » (فكرهتموه) أي إن صح ذلك وعرض عليكم
 هذا فقد كرهتموه ، ولا يمكن إنكار كراهته (واقفوا الله) بترك ما أمرهم باجتنابه ، والندم على ما وجد منكم
 منه ، فإذا اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنتم عليكم شباب المؤمنين التاليين (إن الله قوابع رحيم * يا أيها
 الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) من آدم وحواء فكيف يفتاب بعضكم بعضاً ؟ وكيف يسخر بعضكم من

بعض وتتنازرون الخ (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشهاب المجمع العظيم المنسوب إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر ، فالبلون ، فالأنخذ ، فالقنائل . غزوة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة وقصى بلن ، وهاشم غنذ ، وعباس فصبلة (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر ولا للحرب والمز والنبز والسخرية ، وظن السوء بالأخ في الدين (إن أكرمكم عند الله أتقاهم) فبالتقوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تتفاضل النفوس لا بالأناصب ، فمن أراد الشرف فليطلبه منها . قال عليه الصلاة والسلام : « من سرته أن يكون أكرم الناس فليترك الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقى كرم على الله ، وفاجر شقى » . (إن الله عليم) كرم انقلاب وقهوها (خير) ببواطنكم * روى أن قرا من بني أسد قدموا للمدينة في سنة جدبة ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأقال والعيال ، ولم نملك كذا فملك بنو فلان ، يريدون الصدقة ويعنون ، قتل : (قلت الأعراب أننا قل لم تؤمنوا) إذ الإيمان تصديق مع همة وطمأنينة قلب ولم يحصل لكم والالما منكم على الرسول بالاسلام وترك العقائد (ولكن قولوا أسلمنا) كان الاسلام اقياد ودخول في السلم ، وأظهار الشهادتين ، وترك الحاربة يشعربه (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أي ولكن قولوا أسلمنا ، وإحلال الله لم توطئ قلوبكم ألتسكم بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لايتسكم من أعمالكم) لايتسكم من أجورها (شيئا) يقال لايتسك اذا قصص (إن الله غفور) لما فرط من الطغيين (رحيم) بالفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا ، يقال رابه قرتاب (وجاهدوا بأموالهم وأقسمهم في سبيل الله) في طاعته ، والجهادة بقسمها تصلح لعبادات المألية والبدنية (أو تلك هم الصادقون) الذين صدقوا في إيمانهم (قل أطيعون الله بدينكم) أي انصبروه بقولكم آمنا (والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه خافية (يعنون عليك أن أسلموا) أي يستون اسلامهم عليك منه وهي النعمة الثقية من اللز (قل لآمنوا على اسلامكم) أي بسلامكم منصوب على نزع الخافض (بل الله بمن عليكم أن هذا لكم للإيمان) على ما زعمتم مع أن الهداية لاستنزم الاحتذاء (إن كنتم ملذقين) في ادعاء الإيمان لله الله عليكم ، وهذه الجهة جواب ان (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) ماغاب فيهما (والله بصير بما تعملون) في سرهم وأصواتكم ، فكيف يخفى ما في ضمائرهم . انتهى التفسير اللفظي لقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

خاتمة في مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة فسان : قسم بين التهم والتهم والأمة ، وقسم يخص الأمة ، واثاني إما تخلية بترك الرذائل ، وإما تخلية بالقضائل ، واقسم الأول هو : —

- (١) لا يقدم المؤمنون على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .
- (٢) التيب والاحلال له .
- (٣) لا يتجاوز صوتهم صوته .
- (٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب وسرعة الأدب .
- (٥) لا يخطبون باسمه وكنيته كما يخطب بعضهم بعضا ، بل يخطبونه بالنبي والرسول .
- (٦) من خففوا أصواتهم عند رسول الله ، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضي الله عنهم ، امتنعن قلوبهم للتقوى وخلصت بالاختيار كما يتمن القلب بالتأخير لخرج خالصه .

- (٧) بنو الصبر الذين نادوه من وراء الجدران ، وهكذا عينة بن حسن ومن معه من وفد بني تميم إذ قالوا وقت الظهيرة وهو راقد : يا محمد اخرج إلينا أكرمهم لا يقتلون .
- (٨) الصبر خير لهم حتى تخرج وتمكلمهم .
- (٩) ذمّ للزّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان ، وأنّ للزّ إنما يكون لله إذ هداهم إلى الإيمان إن صحت لهم الهداية .
- وهذه المسائل التسع فتح باب لعامة ذوى العلم وخفض الصوت عندهم ، واحترامهم لشيوخ العلم والفضلاء في الإسلام .

القسم الثاني في التحلية بترك الرذائل

- (١) لانسجم كلام الفاسق بل تثبت تظهر الحقيقة وإلا وقعنا في فتنة جهلاء ، ونبدنا غما .
- (٢) قبل كلام العدل ، وهو يوجب الظن لا اليقين .
- (٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فامتصوا عن طاعة الامام العادل وتأويل محتمل ، ونسبوا لهم إماما ، فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الامام ويدعوهم إلى طاعته ، فإن أظهروا مظلة أزاهل عنهم ، وإن لم يذكروا مظلة وأصرّوا على البغي قاتلهم الامام حتى يفيثوا إلى طاعته ، ثم إن هؤلاء لا يقيم مدرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا ينفخ على جرحهم ، أى لا يجهز عليه . وأتى على عليه السلام يوم صفين بأسير ، فقال : « لا أقتك صبرا إني أخاف الله ربّ العالمين » ثم انه لاضهان في نفس أومال على إحدى الطائفتين ، فأما اذا كان البغاة فئة قليلة لاسنة لها ، وأولم يكن لهم تأويل ، أولم ينصبوا إماما ، فلا يترضى لهم اذالهم ينصبوا قتالا ولم يترضىوا للمسلمين ، فإن فعلوا ذلك فهم كقطاع الطريق في الحكم . هذا ملخص ما جاء عن الأئمة في قتال الباغين .
- أما الآية التي نحن بصددھا ، فالكلام عليها أهمّ ، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قلوا أو كثروا فإن بقت إحدى الطائفتين ، فلتقاتل الباقية ، ومتى قامت فليكن الصلح بالعدل .
- (٤) العدل في كل الامور .
- (٥) شوق الله للمسلمين وحضهم على المصلح بين اخوانهم ، وجب إليهم ذلك بذكر الاخوة وتكرارها .
- (٦) قوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرجمهم بتلك القوى .
- (٧) ترك السخرية ، فلا يسخر رجل برجل ، ولا امرأة بامرأة .
- (٨) ربما يكون المسخور منه خيرا من الساحر ، كما كان الانبياء يسخر منهم الجهال مم يلاعنهم كما حصل لنوح عليه السلام : « إن تسخروا منا فانا نسخركم كما تسخرون » .
- (٩) لا يمكن لزّ من المؤمن للمؤمن ، وهو الظمن والضرب باللسان ، واذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، واذا فعل الانسان ما يستحقّ به اللزّ بأن عرّض نفسه لذلك ، بسبب الوقوف مواقف التهم مثلا ، فكأنما لزّ نفسه وعابها ، وأيضا اذا عاب الانسان غيره كان ذلك حاملا لذلك على عيبه فكأنما عاب نفسه .
- (١٠) لا يمكن تناوب بالقلب ، فاذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها ، فان الله تنهى أن يعبر بما سلف من عمله ، وأيضا لا يقول المؤمن لأخيه : يا فلان ، يا كافر ، يا كافر ، ولا يجار ، ولا يخزير ، وهكذا كل ما يكرهه للنادى به ، أو يفيد ذمّا له ، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام : كالأحمش ، والأعرج ، فلا بأس بها .

(١١) الهى عن ظن السوء بالمسلم مع التكلم به كما قل سفیان وغيره لم يقيد بذلك ، ومن سوء الظن بالله .

(١٢) لا يبحث المسلم عن العيوب المستورة ، ولا يتبع عورات اناس ، حتى لا يظهر ماستره الله . يقال : « نظر ابن عمر يوما إلى الكعبة ، فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » .

(١٣) لا يذكر بعض المؤمنين بعضا بالسوء في غيبته ، روى أن عائشة ، قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صنعة كذا وكذا : أى قصبة . فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته ، أى خلطته بخلاطة يتغير بها طعمه وريحه ، لشدة قبحها وقبحها . وقال ميمون بن سيار : بينما أنا نائم إذا بحبيبة زنجى وقائل يقول : كل يا عبد الله . قلت : وما أكل ؟ قال : كل بما اغتبت مبدخلان . قلت : والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا . قال : ولكنك استمعت ورضيت فكان ميمون لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده .

(١٤) تقوى الله في أمر النبية ، وفي جميع المنيات . هذه هى التحلية من التقاليد المذكورة في هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : التحلية بالفضائل

(١) إن الناس مغلقون من ذكر وأشئ ، هم كانوا شعوبا وقبائل ليعترفوا ، فيكون الناس على هذا كأشجار الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فأنها كلها متصلة متعددة مجتمعة على أصل واحد ، وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة في الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لقوة على زهرة إلا بما فصلت به الزهرة وفصلت به القوة ، هكذا لا فضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأغنياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقل من ذلك ، يقال إن ثابت بن قيس لم يفسح له رجل في المجلس ، فقال فيه (ابن فلابنة) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من القماكر فلابنة ؟ قال ثابت : أنبل رسول الله . قال انظر في وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيت يائما ؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فنزلت في ثابت هذه الآية ، ونزل في النبي لم يفسح له : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس الخ »

(٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيس : الحمد لله الذي قبض أبى ولم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو : إن يكره الله شيئا غيره ، وقال أبو سفيان : لا أقول شيئا ، أخاف أن يغيره رب السماء . فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، وسألهم عما قالوا فأقرروا ، فأنزل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفخيز بالأنساب والتكافؤ بالأموال ، والازدراء بالقرناء ، لأنهم متساوون في النسب ، فلا تفاخر لبعض على بعض ، لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفي البخارى لما سئل : « أى الناس أكرم » ، قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدققون في السؤال حتى قل في العرب : فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا أى تعلموا » . وعن ابن عمر أن النبي ﷺ طوف يوم الفتح على راحته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخا ، فقل على أيدى الرجال ، ثم قام فخطبهم

الحمد لله وأثنى عليه ، وقال الحمد لله القى أذهب عنكم عية الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس :
 إن الناس رجلان : برّ قبيح كرم على الله ، وقابر شقي حين على الله ، م تلا : « يا أيها الناس
 إما خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » ، ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، . -
 قوله المحسن : عصا عنية الرأس كالسوطان ، وقوله عية الجاهلية أي كبرها وغرّها اه

تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل للذكورة مقم على التحلية بفنائل الائتلاف ، وإليك قلم في السورة على
 تعارف بني آدم ، فأولا تعظيم الرسول ، وقبول قوله ، ثم الآداب العمة بين الناس ، ثم يكون المحادهم بالتعارف
 وبلبحث والعلم ، وهذا هو المقصود الأعظم . ألا تعجب من هذا المقام ؟ ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر
 الكعبة وأبناء العرب وأقنون ؟ أنظر إلى هذا المجده رمزاً إلى اتحاد نوع الإنسان كله كانه يقول : ليس الاسلام
 كاليهودية ، إنّ اليهودية جعلت ديناً خاصاً ببعض واحد وهم بنو اسرائيل ، أما دين الاسلام فلا أيض ولا
 آخر ، ولا عربياً ولا هجياً ، بل الناس فيه سواء ، أنظر أيها السكّ للاثم الحاضرة ، أنظر إلى أمريكا التي ملحت
 آءادها لك سابقاً ، وذمت الأمم الاسلامية الحاضرة لجهلها وقاطعها ، أنظر أليس البيض هناك يحرقون أن
 يكونوا مع السود في مركبة واحدة في القطار ، ذلك لجرّد اللون ، أنظر كيف سبقونا في العلم والأخلاق ،
 ولكن لا تزال فيهم تلك التقيصة للزرية ، وهي اعتبار اللون طرفة ، أنظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة
 والعرب الذين هم أهلها وأقنون ، أنظر : ان ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذي سيجمع الأمم جميعاً حقيقياً
 لاجتماعها ، فليجد النوع الانساني ، فالأمم الاسلامية التي بعدنا ستفهم هذا ، وستقرأ كل العلوم والصناعات
 وتجد وتموز الحكمة ، وأذن يقدون أهل الأرض . أنظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم : « خيارهم في
 الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا » ولم يقيد التقيده بعلم خاص ، يريد إذا علموا كل ما يجب علمه في أحوال
 الدنيا والآخرة ، ولا جرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطرابلس وتونس والجزائر
 ومراكش وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعراق والموصل والسودان فهؤلاء خيارهم
 في الجاهلية خيارهم في الاسلام على شرط العلم الذي لم يقده إلا بعض الفقهاء بلا حق ، فهل نحن الآن خير
 الأمم ؟ أقول نعم على شريطة العلم القى يلزم للأمة في دينها ودنياها ، ولكنا الآن لسنا خيار الأمم ، لأننا
 جهلاء ، والمخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم بحث هذه الأمم المتجاورة على العلم كما شرحت في سورة
 ﴿ آل عمران ﴾ فيدرسون العلم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وأذن يتعارفون ، لأنهم تقاطعوا
 بالجهلة الكتماء فصاروا أمماً عياد متفرقة متناكسة ، فإذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التي درستها أوروبا
 واليابان وأمريكا وزادوا عليها ، ثم اتحدوا مع اخوانهم الترك والفرس والأفغان ، وسائر أمم الاسلام ، فاذن
 يكون خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، وهذا القى أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره
 وسيعرف أبناء العرب ذلك ، ويعملون به قريباً ، وسيكون قراء هذا التفسير قاعدي تلك الحركة من أمم
 الاسلام . انتهى صلب يوم الجمعة ٢٦ يونيه سنة ١٩٢٥ م



لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى

اعلم أيها القاري أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تدبر هذه السورة للطبع :

في هذا الشهر وهو شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ منذ أليم كنت سائرا إلى جهة النيل ليجرد الرخصة حيث النسيم عليل ، والجلو جميل ، والهدايا مشرقة ، والنيل جار ، والأشجار مزهورات ، والزرع نضرات ، إذا بأسرة مريضة ، تمشي وهي عرجاء صفراء ، قد ازداد ضعفها ، وتحمل جسمها ، فخر لي أن هذه لا تطلب لزواج ، ولا يرضها الأزواج ، وما كان أسرع الخطر إذ ذاك إلى ارتداء العنان ، والخوض في المصنع ، والعروج إلى طراف المعالي ، والوصول إلى درجات المعالي .

هناك هناك أخذ العقل يقول : الناس جميعا في الأرض يمتحنون ، لا يطلب الرجل امرأة لزواجها إلا بعد أن يأمن بجمالها ، ويرتاح لخلائها ، ويسرته مرآها ، ويروقه مبدؤها ومتنها ، نعم هذا نوع من الامتحان ، امتحان في الجمال ، امتحان في الأخلاق ، امتحان في القوة الجسمية والقوى العقلية ، فالمشاهدة الخلقة ، والقيصة الوجه ، والسيئة الخلق ، والغيبة العقل ، لا يرضها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك ، ولكن القصص فاش ، والطيور على أشكالها تقع ، والكمال درجات .

فياحبنا نظرة قاترة ، وخلسة مانيية ، أحضرت علما وسكامة ، وأقادت نورا وفهما . القبح ذكر بالجمال والمرض أذكرنا بالصحة والكمال .

خلال ثلاث يحد في طلبها الانسان : خلة الصحة في الجسم ، وخلة انتظام الخلق ، وخلة الكمال في تفكير العقل . هذه هي الخلال الثلاث التي قمتناها في (سورة الفتح) وكانت من آيات الله في زماننا ، إذ كانت هذه الثلاث هي كآفتنا الفتح العلمي : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، والأخلاق الجليسة » ويهديك صراطا مستقيما » وينصرك الله نصرا عزيزا » ومن مقدمات هذا قوة الأبدان ، وهذه الثلاثة هي مقاصد العلم في زماننا كما رجته لك من أقوال علماء زماننا .

ألا تذهب الآن ! نرى الله يقول لنا في هذه السورة : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ولا جرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملا وهو إحدى الدعائم الثلاث ، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل في حدها ، فانه امتحن قلوب طائفة زمن النبوة ، ولا جرم أن امتحان القلوب أخص من امتحان الأجسام . الحياة كلها امتحان ، امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالقوى ليعلمنا الامتحان في الأعمدة الثلاثة ، لأنه إذا امتحن فيها أخص ، فلامتحان فيها هو أسهل من باب أولى . وصرح بالامتحان في سورة أخرى سماها باسم « للمتعة » فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن الله أعلم بما يخفين فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفر لانهن حلن لهم ولا هم يحلون لهن » إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى ، وأمرنا يوما ما أن نمتحن النساء المهاجرات فالأهل يمتحن من هو دونه ، والرجل أعلم من المرأة ، فهو يمتحنها فيعلم إيمانها .

كل هذه الأوكيات الدينية فتتح لنا أبواب الامتحان ، فلنمتحن كل شيء في هذه الدنيا ، وإلا امتحنا عقل الانسان فامتحان جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير في هذا الوجود من باب أولى ، ومن ترك

الاختبار والامتحان ، وعاش علة على المجموع لم يفكر وهو محمول على تكبير غيره وامتحانه قائما هرطفل
يقيم يريه المحسنون .

يتمتع الطبيب للريض إما بحس نبضه بحاسة الجس ، ولما يسامع عدد الضربات ، وشئتها وضعها
بسمعه ، ولما يشاهده البول في القارورة بحاسة بصره ، ومشاهدة لسانه أنظيف أم عليه طبقة نفضيه ،
هكذا علينا أن نتمتع ما نبشعر من أحوالنا من جميع وجوهه ، ومن الطرق المختلفة : من انكسر على فريزته
فهو أشبه بالحیوان ، والفريزة يحزنها ظلم الامور ، ألم تر إلى الراش يرى النار فيشتبه إليها فيحترق ، وإلى
الناب يقع في العسل فيموت ، هكذا غرايزنا إذا وقعنا عندها أضلقت بنا في أخرج المواقف وأشد الأزمات ، فمن جهره
رائع الجبال واغتر به ، أودته جهالته ، وأحاطت به خطيئته ، وقامت بهجه قيلته ، فظواهر الجبال ، لا تفي
عن دقائق الأعمال ، وزخرف الظواهر وزينتها تفر الجاهلين ، وتتعد بالعاجزين ، وتودي بالفالخين ، وهالك
جوهره نفيسة ، وزهرة جيلة ، أختم بها هذا المثل ، وهي ما قرأته في كتاب « مسرات الحياة » للورد أفيري
المولود سنة (١٨٣١) المتوفى سنة (١٩١٣) تحت عنوان « الرجل الكامل » قال : « ما تلك الصفات التي تتوخاها
في الرجل الكامل في هذه الحياة ؟ وما هي المزايا حتى يتمتع بها العصامي العبقري ويمتاز عن سواه ؟ ثم أجاب
قائلا : هي أولا العقل الرزين للمصون ، ثانيا المواقف الشريفة كالرومة ، والاحسان ، والحب العام ، والكرم
ومكارم الأخلاق ، وثالثا صدق النظر في قضايا العقل والتثبت في أحكامه ، ورابعا قوة يدنية تصون هذه الخلال
وتحفظها من الزوال ، وتساعد على تنفيذها في المجتمع العام ، وإذا لم يكن العقل رزينا صائب الحكم أسرع
في حكمه ، فكان خطأ حليفه ، والألم نصيبه ، وتسد أحاطت به المصيبة ، وإذا لم تكن المواقف نبيلة ،
والأخلاق شريفة ، والفسح ضيقة ، فإن الانسان يكون عبدا لنفسه ، واقناعه حسه ، جاهلا بحسبه ،
بعيدا عن الأنس به . وإذا لم يكن الجسم حديديا والأعصاب قوية متينة ، فإن عمله يكون ضئيلا ، ونفعه
قليلا ، وحرمانه طويلا ، لا بد كي نأرا ، ولا يدفع عارا ، ولا ينفع جارا . وإذا كان القصد نبيلة ، والنية حسنة ،
ولكن قوة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق ، متمترة الأذيان ، غبية عمياء ، فإن ضررها يكون أكثر من
نفعها ، وخطؤها أكثر من الصواب .

قال تذكيري : « نحن نمنح الرجل فنقول هو عبقري ، هو كامل ، كيف يكون هذا الكمال ؟ أيكون
بالشرف ؟ أم يكون بالظرف والظن ؟ أم يكون بالشجاعة والاقدام ؟ أم يكون بالعقل ؟ أم يكون بالجناع
هذه الأوصاف كلها فيه ؟ وظهور أثرها على يديه ، بأسلوب تصعبه الرقة والظن والشفقة والظن والحنان ،
إن الرجل الكامل يجمع ذلك كله ويضوقه هو أندرين الكبريت الأحمر ، وأحر من ييض الانوق ، هو أبعد
عما نظن . إن المالك يقدرون أن يسطوا الناس ألقابا بالشرف وصفات الاعظام والكمال . ولكنهم لن يتسنى
لهم منح نفس الكمال ، فهم يمنعون الأقوال غيب ، وكل منا يتسنى له أن يكون كاملا نبيلة متى أردنا ، انتهت
ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب .

فلما سمع صاحي ذلك . قال : هذه القطعة الانجليزية تشبه نظيرتها في « سورة الفتح » وغاية الأمر
انها هناك مجمة وهنا أشبه بترجيع عليها ، ولكن خلطوني هنا سؤال وهو : اذا كان الامتحان مشروعا شرعه
الله وقد أمر المسلمين وقتا ما أن يمتحنوا المهاجرات في حال خاصة ، وهو نفسه امتحن قلوب رجال للتقوى
أفلا تذكر نحن في المسألة المشهورة الاجتماعية ، وهي ان الزوجين يمتحنان عند الزواج ، أما صهيحان أم
مريضان ؟ قلت : هذا حسن ولكنه بسورة الممتحنة أليق ، فانتظره هناك في تفسيرها إن شاء الله تعالى .
وهذا م الكلام على الطائفة الأولى في قوله تعالى : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » والحمد لله
رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

العليفة الثانية

في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « إن الله عليم خير » وفي هذه العليفة (أربع مقالات : المقالة الأولى) في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى قتلتا التي تبقى حتى تأتي إلى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »

بأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أي طائفتين من المسلمين اقتتلوا ، وليكن الصلح بالعدل ، فلا يتعصب لمن كان من غير أهله ، كما لا يجوز للإنسان أن يشهد لأبيه ، وأخيه ، أو لفرقه ، أو لقبيل الخ كما تقدم في (سورة النساء) .

فإذا بقت طائفة لم تقبل الصلح فليقاتلها المسلمون ، متى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل ، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين ، بل جعلهم إخوة ، هم أمر المسلمين بالتقوى ، وهذا يعقبه الرحمة العتمة ، والرحمة هنا في الأرض الأمن والسعادة ، والعز والسودد ، وعظمة الأم الإسلامية ، هذه يارب أوامرك ، ولقد علمنا علما يقينا أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريعة ، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله في أمر الخلافة وان كانوا في حكم الرعية غالبا عدلين . هوى المسلمون أسراة وتعصبوا لقبائلهم وأنساجهم . لم يرض عمر رضي الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبدالله بن عمر ، لماذا ؟ لأن الأمر شورى بين المسلمين ، أما إن يأتي خليفة فيقول : إن الخلافة لا ينبغي لهذا ليرثه ، بل هو حرام عليه ، لأن المسلمين ليسوا قطع غنم يورثون ، فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » وآية : « إنما للمؤمنون إخوة » ؟ ولقد جاء في كتاب « تاريخ الخلفاء الاسلامي » في صفحة ١٠٦ وما بعدها من الجزء الرابع ما يأتي :

« ظهر بنو أمية وسلموا واستبغوا ، وآل علي بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون في إدراكها ، وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هجرية ، فغضب أشياخ العالوين في الكوفة من تنازله وهاجوا ، وأمر الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الساهية الشهيرة ، فشدد في اتحاد الثورة ، وقتل جماعة من أشياخ علي ، فبهم حجر بن عدى وأصحابه ، فتريس العالوين ينتظرون موت معاوية لعل انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبيع معاوية لابنه ، فلما علموا ببيعة معاوية ، وزادهم قنعة ما علموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا النطق حتى نؤثرنا * دماء بني أمية ما رويها

لقد ضاعت رهيتكم وأنتم * قصيدون الأناجب غالياً (١)

وكان أوجه العالوين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هجرية وتولى ابنه يزيد أبي الحسين أن يبايعه ، على أن أكرم القتين بإيعوه من أهل التقوى عدوا بينهم خرقا لحمة الدين (٢) وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فرأى مكة وأكثر شيعته في الكوفة ، فكتبوا إليه وعرضوه على التقدم إليهم لينصروه ، فلما علمهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبث إليه أمير الكوفة يرمئ عبيد الله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتله المشهورة في

كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يطالبون بدمه ، وسماؤهم «التوأمين» وأمير الكوفة لايزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها ، ولولا عليهم رجالا منهم ، فقتل ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن أبي عبيد التقي ، وهو من جهة الذين طمعوا بالسيادة لا بجزال الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال ، وكان المختار على الهمة ، فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو إلى يمة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، فقبه على ذلك جماعة من الشيعة ساء لهم «شرقة الله» وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله ، وقتل أكرم قرة الحسين ، ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا بذلك المصوة ، فبعث إلى المختار يتبرأ منه ، فحول المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض هندنهوض الحسين ، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جهة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لأحد ، لأنه إنما كان يريد بها نفسه ، فلما علم ابن الزبير بفرضه بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول إن الحق بالخلافة لواله علي من فاطمة بنت النبي ، والأخرى تقول بتحويلها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهورا وتصديا الفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا للعروف بزين العابدين ، وتسلست الخلافة بعده في أعقابها حتى صار الأئمة ١٢ إماما وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، وعبد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من من الشيعة العلوية أيضا فرق أخرى بايعت غير واحد من أعقاب علي ، كان بداية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخرى لأجل ذكرها . وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله ، فقتلوا بعضهم وسماؤ البعض الآخر ، وصلبوا آخرين فأصبح دعاة الشيعة يفسرون خوف الفتك بهم ، فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا ، وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية للموتى سنة ١٢٦ هجرية ، فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا إلى طلب الخلافة (١) وخالف هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه من عمال بني أمية ، فقد كان ينصر العلويين ، ويستعمل أهل القلعة كما تقدم . انتهى ما أوردته من كتاب «تاريخ المعتن الاسلامي» والحمد لله رب العالمين .

هذه حال المسلمين بعد العصر الأول ، فأين الصلح ، وأين الحق ، وأين الشورى ؟ معاوية أمر الناس بالمباينة بالخلافة لابنه ، كيف هذا وأين الشورى ؟ تر بس العلويون موت معاوية ، ولهم الحق لأن الأمر شورى ، ولكنه أمر بمباينة يزيد ، إذن لا شورى ، إذن هو ملك عضوض ، إذن التران لم يعملوا به ، ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد قتل الحسين رضى الله عنه اختلفوا ، فالكيسانية ساقوها إلى محمد بن الحنفية ، وغيرهم جالوها في ولد الحسين رضى الله عنه حتى صارت الخلافة إلى محمد المهدي ابن حسن العسكري وهم ١٢ إماما ثم كانت فرقة الاسماعيلية وغيرهم ، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم ، وهذا ورب العرش هو الارتباك . هذه أمور لا توافق القرآن ، بل هي اعتقادات أضرت بالمسلمين .

أيها المسلمون : الشورى بينكم والصلح ، أيجوزي دينا أن نسع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرهما بجمود شبهة ١ «لما للؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم وأتقوا الله لعلكم ترحون» .

الشيعية العباسية والعلوية

لو كان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن ، وكفعل أصحاب النبي ﷺ وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، أي لو فصل المسلمون بدليين يقينيين ، وهما نص الكتاب ، ودليل الإجماع ، لم تكن هناك شيعية عباسية وعلوية يطالبان بالملك ، بل كان أولو الرأي مجتمعون وقررون الخلافة لمن حاز صفاتها ، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق ، فالتجأوا إلى العسبة وأبدوها بالسيف .

ظلم بنو أمية العباسيين والعلويين ، وقتلوا رطلهم ، فلذا جرى بعد ذلك ؟ الحمد القرطبي ، وديروا المكائد ، ثيل الخلافة سرا ، وهما معا من بني هاشم أهداء بني أمية من أيام جاهليتهم ، وباع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن لثني ابن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية لتقدمه عليهم في الفضل ، فالأمر إذن شورى بين الرهطين ، وهذا حسن جدا ، سارت دعوة العباسيين في بلاد القرس وغيرها وسكت العلويون لأن العباسيين يابسونهم ونهم السفاح والمنصور . وأمر إبراهيم الامام العباسي أبا مسلم الخراساني وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشك فيه ، وقتل مروان بن محمد إبراهيم الامام ، فانتقلت الامامة إلى أخوة الامام المقتول ، والعلويون وأنصارهم لا يعترضون ، لأن عدوهم لا يزال حيا ودولته قائمة ، ولما سقطت دولة الأمويين غدر المنصور بالعلويين ، وقتلهم قتيلا ، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله .

الهم ليس هؤلاء على سنن القرآن ، استبدت الأمويون بالخلافة ، وتركوا الشورى ، وحلجهم العباسيون ، والأمويون طاردونهم ، ففازوا ، فيكون النضر والقتل ، فأين الآية ، وأين الشورى ، وأين القرآن ؟ الهم إنك عظيم وهى ، أنت تعلم ضعف أهل هذه الأرض ، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى الكمال ، ولذلك حبستهم في هذه الأرض ، والمحبسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوما يظنونهم في السجون ، ولكن قلب عليهم طباعهم ، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم ، ورجعوا إلى الجاهلية في الخلافة ، أما في حفظ العقيدة فلا فلما سمع صاحب ذلك . قال : هذه أمور عظيمة لحقني بالتفصيل في هذا المقام ، فالاجال لا يفي عن التفصيل . قتلت بإصباح إن أردت إلا الاضاح ، فاسمع ما جاء في الجزء الرابع من كتاب « تاريخ القذنف الاسلامى » في صفحة ١٠٨ وما بعدها تحت عنوان « الشيعية العباسية » وهذا نصه :

« وكان في جملة المطالبين بالخلافة من أقرىاء النبي صلى الله عليه وسلم بنو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها ، والأمويون في إبان دولتهم ، وإنما كانوا يدعون إلى أنفسهم سرا ، وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون ، لأنهم من بني هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بني أمية من قبل الاسلام ، والمضطهدون يتقاربون في أى حال .

وظل العباسيون يسترون في دعوتهم وهم مقيمون في الحامية من أعمال البقاء بالشام حتى ضعف شان بني أمية ، فعموا بالهوى ، واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبي هاشم ، وكان أبوهامم هذا يقف على خلفاء بني أمية من المدينة إلى الشام فيمر في أثناء الطريق بالحامية ، ففى بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطبعه في الخلافة ، فخاف ، ففسى إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سمع في لبن ، فشرع أبوهامم بالسلم وهو في بعض الطريق ، فخرج إلى الحامية ، وصاحب الدعوة العباسية يوشع محمد بن علي بن عبد الله بن عباس قتل عنده ، ولما أحسن بدتو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده ، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم ، فلما مات أبوهامم تموتس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جيما ، فأخذ في بث الدعوة سرا ، ثم توفى وقد أوصى

بالخلافة بعده إلى ابنه إبراهيم وعرف بالامام ، فأخذ إبراهيم الامام في بث دعاته ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار ، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم في خراسان والعراق وقد نصروا العلويين سراراً ، فبث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أي أهل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يمين العلويين ولا العباسيين ، وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الأموية ، فهان عليهم أن يبايعوا آل محمد ، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين ، وتوفي إبراهيم الامام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد الجليل قائم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور .

بيعة النصور للعلوية ونكثه

وكان ذو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بني أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم ، وتداركوا في قرب انحلال دولة الأمويين ، وفي من يخلفهم من آل البيت ، وكان في جلة الحضور أبو العباس السفاح وأخوه جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أبو جعفر النصور وغيرها من آل العباس ، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن ابن علي الملقب بالنفس الزكية ، فبايعوه ثقتهم فيه ، ولما علموه أنه من الفضل عليهم ، وبايعه أبو جعفر النصور في جنتهم ^(١) ولعل هذه المبايعة هي التي أسكت العلويين عن طلب الخلافة في أثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كأنهم افترضوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت ، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام إبراهيم وغيره من بني العباس .

أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وقرس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخبرين ، وفي جملتهم أبو سلمة الخليل البكري الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حام أعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجهه في سبيل نشرها ، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس كظم وثر بصرى ما يقول الناس ، ثم علم أن إبراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان معه الوصية المشهورة « من اتهمته فقتله » ، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جملتهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شوري بين الشيعة ^(٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الامام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية ^(٣) ثم جاءه أخيه الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح وأخوته وسائر أهل بيته ، وتداركت البيعة إلى بني العباس لا كور ، فأرسلهم أبو سلمة عنده ، ورأى نفسه عاجزاً عن حمل البيعة ، فسكت ، فبقيت لآل العباس ، وكان أبو مسلم وسائر النقباء وتقواة بحار بون صاكر الأمويين في خراسان وقرس والعراق ، فمسا غلبوهم ولما كسوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفاً على أنفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شوري بين الزهطين ، وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين ، فشكوه إلى أبي مسلم سرّاً ، فندس إليه رجلاً قلته بالكوفة غيلة ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتلته ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في إخلاصهم حتى تم لأمرهم .

أما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحمد بن محمد بن عبد الله في المدينة ، وبايعهم سائر بني هاشم ، ومنهم أبو جعفر النصور ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاءوا إليه

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الأثير ٢٤٣ ج ٥ والنفري ١٤٧

(٢) المرجع بعد السنة ١٢٠ ج ٢ (٣) المهودي ١٥٠ ج ٢

في الكوفة يطالبونه ببيعهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال ، وقطع لهم القطن ، وكان في جهة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة ، فأكرم السفاح وقادته ، وعرض عليه ما يرضاه من المال ، وقال له : استكم علي ، فقال عبد الله بألف ألف درهم قال لم أرها قط ، ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ، فاسترضاه له من رجل يعرف اسمه ابن أبي مرقن ودفعه إليه ، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن يرضى الناس بجاءه بالجواهر التي كانت حياكي العباسيين قد اغتصبها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويكي ، فسأله عن السبب ، فقال : « هاهنا عندنا من مروان ، وما رأيت بنت عمك مثله قط » فخاف به ، ثم أمر الصري أن يتبعه منه ، فأتاه بجناحين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس بكرام عبد الله وأزاله على الحرب والسعة ، وهو يتوحيش بها في ضيقه ، فبث عليه الصيون ، فأنس عنده طمعا ، فزاده عطاه ، فعاد عبد الله إلى المدينة منتقلا بالأموال ، ففرقه في أهله ، وكانوا أهل فقه ، فلما رأوا تلك الأموال سرّوا .

وأما عبد الله فأنزل مضرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما نعت المبايع عليه ، والعباسيون يخافون ذلك ، والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالأموال كما رأيت ، فلما توفي السفاح سنة ١٣٦ هجرية خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديد البطش لا يبالى بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه ، فكان همه قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس أبي الحسن في المدينة ، لأن لهم في عقده بيعة ، فبث عليهم الصيون ، وأراد اختبارهم ، فبث بطله أهل المدينة على جاري الصلاة من قبل ، وكتب إلى عامله فيها : « أعط الناس في أيديهم ولا تبث إلى أحد بطله ، وتقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن الطاعة إلا محمد وإبراهيم المذكوران ، فكتب إليه بذلك ، فتحقق المنصور أنهما يتوابعان القيام عليه وقد سكنوا في أثناء خلافة أخيه ، لأنه كان يكرهما ، ويصدق الأموال عليهما ، والصور لا يرى ذلك ، فلما رأيا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا جماعة في خراسان وضربها يدعون شيعة إلى بيعتهم ، فلم أبو جعفر بذلك ، فبث من يقبض على كتبهم في الطريق واحتال في استطلاع أسرارهم ، وأراد استدعاء ابني عبد الله ، وكتب إليه يستقدمه بهما ، فأفكر عبد الله أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التفتلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جيسا ، ثم أمره أن يتقدمهم إلى العراق فقتلهم وهم مثليون بالقعود ، والاعتلال في أرجلهم وأعناقهم ، وقد حلهم على محال في بيروطة ، ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستترهما ، فجاءوا ببني الحسن وعقدتهم بضعة عشرة رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم مقتولا بضعة قليلة . أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، فلم يقع في الفخ ، فبث المنصور إلى عامله في المدينة يشتد في طلبه ، فلم يرجع بشان القيام ، فظفر بالهجرة ، وأمره أهل المدينة بعد أن استنقروا إمامهم مالك بن أنس ، فأفانهم بالخروج معه . فقالوا : « إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر » . فقال : انكم بايعتموه مكرهين ، وأن بيعة محمد بن عبد الله أصح منها . لأنها أصح . قبله (٢) . وبني أبو حسنة أيضا على هذا الرأي يقتل بفضل محمد ، وهذا ويحتج إلى حق ، فحفظ لهما المنصور هذا القول ، فتأذت لهما الحق بسبب ذلك ، فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هجرية أصبح من أكبر المشتهدين لما فُضرب مالك على القتياف في طلاق المكره وحبس أبي حنيفة على القضاء كما هو مشهور . وكان سكنت المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأخير عظيم في أذهن العلويين ، لأنها جادتهم بغتة ، وكانوا يظنون ذلك لا يدر من أهل البيت ، كما صدر من بني أمية فتحسروا على أبل من بني أمية ونحوا رجوعها .

ذكروا عن محمد بن عبد الله في أثناء قيامه على المنبر أنه سمع شاعرا يري بني أمية ، فبكي فقال له : أنت على بني أمية وأنت تريد بني العباس ما تريد . فقال له : أعلم لقد كنا قمنا على بني أمية ما قمنا لها بنو العباس إلا أقل خوفاً منهم ، وإن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم ، ولقد كان لقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر (١) .

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الأول أن يحاربوا بني أمية ويقتلوا على أنصارهم . والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما كانت في عصر الراشدين ، وكما أرادها بنو هاشم ، وأن العلويين إنما هجروا عن يثرب لاعتقادهم في دعوتهم على شرف نبيهم ، وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم يظلم إلا بالهراء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالعتك وشدة البطش ، فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين بمساعدة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لخدمته على العباسي كما تقدم ، ثم أخذت بعده إلى ابنه إبراهيم الأمام ، وتوفى هذا إلى أبي مسلم الخراساني ، ورأى فيه الشدة والبهاء فجعله قائدا على قباياه ودعائه ، وأوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« املك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي ، انظر إلى هذا الخبيث من الذين ، فليزعمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فليهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه ، وإن استعصمت أن لا تلحق بخراسان من يسلكهم بالريية فاضل ، وأما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقطعه » (٢) .

نفرج أبو مسلم من عند الأمام إبراهيم هذه الوصية ، وقد عمل بها ، وهول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه ، أو شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠٠ نفس قتلا صبرا (٣) بدون حوب في بضع سنين ، وفي جهنم جملة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار العلماء كآبي سلمة الخليل الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبي مسلم أمير آل محمد ، خلا استشار السفاح أبا مسلم بشأه ، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبو مسلم بقتله ، وقتلوه ، وقتلوا عماله على الأطراف ، وفصل نحو ذلك أيضا سليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله وكان شيخا جليلا يدخو وسعا في نصرة تلك الدعوة ، فبعد قتل آبي سلمة بلغ أبا مسلم عنه مثل ما بلغه عن آبي سلمة ، فأحضره إليه ، وقال له : « انحفظ قول الأمام لي من اتهمته فاقطعه ؟ » قال نعم ، قال : فإني قد اتهمتك ، فخاف سليمان ، وقال : أناشدك الله ، قال : لا تناشدني فأنت منطوق على غش الإمام ، وأمر بضرب عنقه (٤) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد ، قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالقتل ، ومنهم الكرماني وأولاده وكبار رجاله (٥) وغيرهم بشرك كثير حتى سُم الناس فعله وماوا سفك النساء ، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابله إلا أوصى وتكفن وتحنط ، وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس ، وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبنا آل محمد أن تسفك النساء وأن يمدن خير الحق » فقبه على رأيه أكثر من ٣٠٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم .

- | | | |
|------------------------|------------------------|------------------------|
| (١) الأغاني ١٠٦ ج ١٠ | (٢) ابن الأثير ١٦٥ ج ٣ | (٣) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٣ |
| (٤) ابن الأثير ٢٠٨ ج ٣ | (٥) ابن الأثير ١٨٣ ج ٣ | |

المنصور والدولة العباسية

فهذا وأمنائه مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدهم ولا على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت ولم يكتف ببيعة أبي العباس ، وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالأغراء أو التخويف على أسنة الشراء ، ويقال أنه هو الذي أوصى إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السطح ، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السطح قد آمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية ، فيقال إن سديفا دخل يوما على السطح وعنده سليمان بن هشام ، فأندس سديف قوله :

لا يهزئك ما يرى من رجال * إن تحت السطح داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السطح ، وأمر سليمان بقتل ، ودخل شاعر آخر ، فقال شعرا آخر ، وكان عند السطح نحو سبعين من رجال بني أمية ، فقتلهم ، وبسطوا السوط على جثثهم ، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) . وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السطح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية ، وشدة ثقته عليهم ، ولكن لاختلاف في أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٣ هجرية وهم أنثون كما قتل الأمراء المماليك بمصر في أوائل القرن الماضي . والغالب أن أبا مسلم أوصى إلى العباسيين بقتلهم لتلا يقفوا في سبيل دولتهم ، فأشار إلى سديف أن يحررهم على ذلك بشعره ، ولم يقل سديف ذلك حبا لبني العباس بل كرها لبني أمية ، وانتقاما لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية ، وهو يظن الخلافة شوري بين الشيعة ، فلما رأى المنصور استقلالها بها بعد ذلك تم على العباسيين ، وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ، ففعل (٢) .

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأقتهم من سائر البلاد ولم ينسج منهم إلا قليلون ، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففرّ إلى الغرب ، وأسس دولة بني أمية بالأندلس كما سيأتي ، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ، ومثل بجثثهم ، استغلاما فعلاه قبلا بالأمّة من آل علي ، وخصوصا زيد بن زريق العابد بن ، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، وهو لم يزل ، ففرضه ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (٣) .

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يتخوأ أبو مسلم وسعا في تخليص الدولة له من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفي جثثهم عبد الله بن علي المتقّم ذكره ، وقد طمع بالخلافة ، فخاربه بأمر المنصور ، وقلبه ، وقبض على مافي عسكره من الثنائم والأسلحة ، فأراد المنصور أن يوجهه همه إلى بني الحسن منافيه في الخلافة ، فاشتغل بخلقه بأبي مسلم ، وأصبح خائفانه على سلطانه بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والقدرة ، ولم يكن همه إلا قتله ليتعرّج العلويين ، فانهه بأنه ينوي إخراج آل العباس منهم ، «استحق» التل عملا بوصية الامام . وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك ، فلما مات السطح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخفى في حربه معه عبد الله بن علي ، ففرض عديبه أحدهما بالآخر ، فأبهما قتل صاحبه انفراد فيسهل على المنصور قتله ، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي احتال المنصور في استدعائه إليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكن له آماسا بالسلاح وراء الستار ، فأخذ سيفه منه وحاده ، وتدرّج

(١) الفهرست ١٣٤ والقصد الفريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) القصد الفريد ٣٢ ج ٣

(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

من العتاب إلى التوبيخ حتى إذا أُرُفَت الساعة صفى المنصور، فخرج الكاسيون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٣٧ هجرية، وأمر به قفوه بالباط، ثم دعا بعض رجال خاصته، وشاورهم في قتله، ولم يقل لهم أنه قتله، فقال له أحدهم: «إن كنت قد أخذت من رأسه شعرة فقلته ثم اقلته» فأشار المنصور إلى البساط فلما رأى أباه مسلماً فيه وتحقق موته قال: «عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك» (١)

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يدور من رجاله الخراسانية لعله أنه ارتكب بقتله خطراً عظيماً لما حتم أن يثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يتكفون به لولم يدافع عنه، معن بن زائدة. فقتل الراوندية جميعاً ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل صين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة: ثم همد إلى تخليص الخلافة من آل علي فخر بن محمد بن عبد الله وقتله. ثم رأى من آل العباس من ينزعه عليها، منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه، ولكنه لم يتمكن من قتله فأحتال للمنصور في استئذانه بأمان يمشي إليه مع ولديه فجاءه خبسه عنده. ثم علم سرّاً أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج من طاعته، وكان والياً على الكوفة. فتجامل وبث إليه، وقد دبر أمراً كتمه عن رجال بطاقته: فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من مكان في حضرته من الخاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه. وقال: «يا ابن العم إلى مملكك على أمر لأجد خيرك من أهل ولاأرى سواك مساعداً لي على حل قتله فهل أنت في موضع غنى بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكك» فقال له عيسى: «أنا عبد أمير المؤمنين ونسبي طوع أمره ونهيه» فقال المنصور: «إن جمى وجمك عبد الله قد فسدت بطاقته واعتمد على ما يهينه يبيع دمه، وفي قتله صلاح ما لكنا نؤذيك واقتله سرا» فأطلقه عيسى فسلم إليه عمه فضى به إلى الكوفة. وأضر المنصور أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه إلى أمهم إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الأذنين معا. أما عيسى فكانه شك في نية المنصور، والناس يومئذ يهيم بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الامام: فانتشار بعض ذوى مشورته خفوه من عقوبة ذلك خبس عمه ولم يقتله. ولما طلبه المنصور منه دفعه إليه حياً فقتله في بيت جعل أساسه على الملح (٢).

وأما ما أناء المنصور من الهداء والفتك في تأسيس دولته كثيرة. وكان يبطي الأمان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل ابن هيرة عامل بني أمية على واسط لما بويع السفاح، وأرسل أناء المنصور لخاربه: فجزت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هيرة في أمان بني العباس: فكتبه المنصور أماا ظل ابن هيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق بحمته ورضى به فبعثه إلى أبي جعفر فأفذه أبو جعفر إلى أبي العباس فأمره بالعضاء. وكان رأى أبي جعفر في بادئ الأمر أن يني بما أعطاه، ولكن أباه مسلماً (وكان لإزالة حيا) أشار على السفاح أن يقتله قال: «إن الطريق السهل إذا أقيمت فيه الحجارة فسد». ولأولاه لا يصلح طريق فيه ابن هيرة» فبعد أن جاء ابن هيرة إلى أبي جعفر مستأثماً فخر به وقتله (٣) لأنه اتهمه من أنهم أباسلم وقتله بعد أن أنه كما رأيت، وشاع نكث الأمان والقدر عن المنصور وتحتت به الناس: فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث إليه يرض عليه الأمان ويهدد خبراً فأجابته محمد: «أى أمان تعطيني أملت ابن هيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم» (٤)

وظل المنصور وأبو مسلم قنطرة لمن جاء بعدهما بالهداء والفتك. على أنهم لم يكونوا يبطون أو يقتلون

(١) المسعودي ١٦٧ ج ٢ (٢) استطرف ٦٣ ج ١. وابن الأثير ٢٥٧ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ (٤) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٢

الافى من تازدهم على الخلافة فهنا يقتلونه على الشك . أما أسكنهم فيها خلا ذلك فى نهاية العدل والرفق كما سياتى . أما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين : فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته فى خطر فإذا دعى للثول بين يدى الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت .

وكان المتصور أيضا قنوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس وقد فر من العراق فالتجأ الى المغرب خوفا من القتل فنصره رجاله ، وخصوصا مولى له اسمه بدرسى فى تأييد سلطانه مثل سى أبى مسلم فى الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجته : ثم أقامه حتى مات وفعل نحوه ذلك فى رؤساء الأحزاب الذين نصره ، وسياتى الكلام على ذلك .

واشتهر فتنك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم حتى صار الخلافة أغصهم يشعرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتغنى فى نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الحراسانيين وغاب على جند الأميين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما ظم لنا منذ قد قام بحما وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك أو دمع (١) » وفى الواقع ان المأمون لما استتب له الأمر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بهجة مثل هجة المصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان ربه وأمره أن يسمه ففعل (٢) . اهـ ما روثه من كتاب التاريخ الحسن الاسلامى والحمد لله رب العالمين .

فانظر عزيزك الله أيها الذكى فى هذه الأم الإسلامية ، وكيف :

- (١) يأمر هشام بن عبد الملك سرا بقتل (أبى هاشم) ابن محمد بن الحنفية الذى تدعوه الفرقة السكينة
- (٢) ثم إن أبى هاشم لما أحس بالوت أوصى بالخلافة لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس .
- (٣) ولما تولى ابنه إبراهيم الامام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل ، وكيف يأمر أبى مسلم بقتل كل من يرتد فيه ، وكيف يقتل ٦٠.٠٠٠ غدر فى منازلهم وفى طرقهم ، وأتته حرم القتل ! فهل يباح القتل لأجل الملك ؟ فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طافقتان لىح » .
- (٤) وكيف يأمر العباسيون باسم آل محمد ، ثم استقبلوا بالملك وقتلوا العلويين ، بأبى كتاب ؟ أم بأية سنة ؟ وبأبى عقل ؟

(٥) وكيف يقتل أبوسله الخلال المرقى الشهير غفرا ولما التمسك بالعلويين ؟ .

- (٦) وههنا أمر عظيم حل بالأمية ، هذا عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء الى السفح الذى اغتصب الملك من ابيه فأكرمه وعرض عليه نسل فأعطاه ألف درهم ، وفى نفس الوقت حضرت جواهر نهماء عسكر العباسيين من مروان بن محمد ، فلما رأها عبد الله أخذ ينظر إليها ويكي إلى آخر ما تنتم من أنه بكي لأن هذا كان حشد بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط ، وأعطاه تلك الجواهر . هذه الحكاية وحدها ان محت تدل على تقبر الأخلاق فى بعض آل البيت ، ذلك لأن عصر النبوة كان عصر زهد ! فهاهنا البكاء ، وبهذا التعجب ؟ إن أخلاق الأمة إذ ذاك تقبرت ، لأن الأمة أصبحت أخلاق النبوة ، وأنس الناس بالترف والعجم ، وبيت النبوة الذى هو التوراة المشرق فى ادمته أيضا أضلعت ببعض حجراته الظلمة ، البى ﷺ وأبو بكر وهلى وغيرهم يحرقون المدل ، وفطمة رضى الله عنها تطعن على الرضى ، ثم أنا نسمع أن عبد الله يبكي

للبجواهر ويخرج بالمال ، ذلك تغير عظيم في أخلاق الأمة حتى سرى إلى بعض رجال بيت النبوة ، تغيرت أخلاق الأمة ، فبعد أن كان الخليفة حارسا لمال الأمة كحرم رضى الله عنه أصبح مترقا منكما كالعباسيين والأمويين ، واشترأت لهذا أعناق العلويين . هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت عفيفة عن مال الأمة أصبحت شرهة على مالها ، وطلبت ثمنك ، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له ، وما أصبح هذا الجبل بأمة الاسلام !

(٧) ثم كيف ترى أبا جعفر المنصور يبعث في طلب بني الحسن الذين كانوا نصراده بالأمس ، وكيف يقتلهم جميعا بعد أن أحضرهم مشغلين بالقيود والأغلال ؟ وكيف يضرب مالكا على فتواه في طلاق المكره ؟ وكيف حبس أبا حنيفة ؟ ذلك لأنهما أفتيا بأنبيعة محمد بن عبد الله صحيحة ولا يبيعه المنصور ، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعا له بالأمس من آل بيت النبوة ؟ .

(٨) اللهم انك أنت المهيمن العليم الحكيم ، أمر إبراهيم الامام بإذلال العرب على يد أبي مسلم الخراساني قتل منهم مئات الألوف في منازلهم ، غرمة الله الملك إذ قتله الأمويون ، تولى أخوه السفاح بعده فلم ينشق على بني أمية لما تم له النصر ، وأهلك القوم ، فلم يدم له الملك ، ومات ولا ذكر لعقبه . فتولى أبو جعفر المنصور ، فأوقع بالطائفتين العلويين من ناحية وأقاربه العباسيين من جهة أخرى ، وقتل أبا مسلم . كل ذلك مخالف للقرآن والعقل ، وتولى الخلافة ذرية من فلم تطل المدة حتى رأينا ما يأتى :

(٩) وأصاب الثاني الفرس ، لأن أمه فارسية ، وكان في خراسان بين أخواله وشيخته قصره الخراسانيون كما نصروا أجداده ، إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة ، ولهذا حقروا العرب بعد أن كان بنو أمية رافعي شأنهم ، وههنا زاد امتحان العرب ، فالفولة عربية ظاهرا فارسية حقيقة ، فلما مات المأمون سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم ، وأمه تركية من بلاد (السند) في تركستان ، فشب عجا لا تراك ، وصار لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلا أئمة الأميين ، وهي أول مظاهر جرائمهم على الخلفاء ، ولم يكن له قعة بجند العرب ، لأن العباسيين أذلّوهم فضعفوا واستكانوا ، ومن المدهش أن أئمة المأمون أوصاه بمحاربة العرب ، ولذلك منعوا من أعمال الدولة ، وآخر عربي تولى عملا غنيمة بن إسحق الضبي سنة ٢٣٨ هجرية ، ولقد أراد المعتصم كازهد في رجال العرب أن يزهد في بلادهم ، فبنى سامرا بالقرب من بغداد ، وأقام فيها جنده ، وأنشأ فيها لعبة ، وجعل حولها طوافا ، والتخلدني وعرفت ، غر بذلك أمراء كانوا معه لم يطلبوا الحج خشية أن يارقوه ، فصار بذلك لفظ عربي مرادفا لأحق الأوصاف عندهم . ومن قولهم : « العرب بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » . وقولهم : « لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي يتصره الله به » . وأصبح الأمراء ولوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والهيل وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم ، وهذا سرّ انك تسمع ابن طولون والاختيد والماليك البرية والبحرية كانوا يحكمون مصر ، وتلك هي السنة التي سنها العباسيون من التجاهلهم إلى غير العرب وانحيازهم إليهم ، ناهيك ما فعله المنصور ، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلائس الفارسية الطويلة ، فذهب بميسدان من داخلها بدل العمام ، أو يمشوا فوقها بعمامة صغيرة ، وأن يلقوا السيوف في أوساطهم ، وأن يكون اللباس الاسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان اللباس شعار الأمويين ، فلا بد للدخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السوداء » قطي سائر البسهم ، والبسهم المنصور دراريح

كتب على ظهورها : « فيسكتيكم الله وهو السميع العليم » وبث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمرؤا رجالهم بمثل ذلك .

نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام

نحن الآن أيها القارئ لم نكتب هذا حبا في التلويح ، إن التاريخ لا معنى له إلا الاعتبار والله كرى والناسي والله يقول : « أولم يجدوا الذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » تلك القرى قصص عليك من أنبيائها ، الآيات .

الله أكبر : نحن الآن في تفسير آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما » الآيات التي تأمر بالصلح أولا والاخاء ثانيا ، ولكنا لما قرأنا تلويح أسلافنا ، أقيناهم بعد العصر الأول هجروا الشورى بنتا ، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ملطفة بالاسلام . فلما فعلوا ذلك أخذوا يتخذون غير العرب لاذلال العرب .

الله أكبر : إن الفتن بالفرس ، أذل العباسيون العرب ، لماذا ؟ لأجل الخلافة ، ولم ذلك ؟ لأن الخلافة تعطيم الحرية في الأموال والنفوس ، ولكنها لو كانت تلك الخلافة صالحة بحيث لا يتصرف الخليفة في مال ولا في حال إلا بالشورى ، لم يتناحروا ولم يقتلوا عاهلها ولم يبك عبد الله من ذرية الحسن رضى الله عنه ألم السفاح لأجل الجواهر والمال ، ليس العباسيون ملابس الفرس ، هجروا العرب بأسر المنتصم بالأيا أخذوا من الصلابة فإذا جرى ؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت إمرة الفرس تارة والترك أخرى ، فقتلوا من الملوك العباسيين ٣٨ من ٥٩ خليفة ، وبعضهم سماوا عبيده ، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد (اقرأ هذا القام موصفا في سورة الأحقاف) عند آية « أنهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » فهناك ترى كيف قتل باقر الترك المتوكل وهو في حال سكر ، وكيف قتل غيره وغيره .

لئن بنوا العباس استأنوا غير العرب لاذلال العرب ، فصاروا هم أول من أذلهم الفرس والترك . كل ذلك تركه الشورى ، ولتسيان القرآن ، واتباع العصبية الجاهلية ، بتعصب العباسيون ؟ لمن يتعصبون ؟ لأجل المال لا غير والسلطان ، فتكون النتيجة الويل على القرية . إن ماضيه العباسيون مع العرب بقي أوه إلى الآن ، ألم تركيز حدثنا التاريخ بالممالك البرية والبحرية وبالأمة الثانية التي أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب ، ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالبا عصبيتهم فناموا ولم يظهر فيهم نافعون يذكرونهم مجدهم مثل من ظهوروا اليوم فناموا نوما عميقا . إن ماضيه العباسيون سرى في بعض أسراء الأندلس ، فانهم كانوا يستعينون بجيرانهم من الفرنجة على اهلاك المسلمين . وانظر إلى قصة براق في (سورة الأحقاف) أيضا في الآية المذكورة . وكيف كان يقابل بابا رومه ودوق فينيزيا وبرونات أوروبا . وكيف جاء بوعد من البابا أمير أشيلية (جندل بن حود) انه هو الذي يكون أميرا على بلاد الأندلس على شرط أن يغير على قرطبة لينخضد شوكة المسلمين ، فضل هذه الوصية ، وأغار على قرطبة ، فكان الفرنجة في نفس الوقت مغيرين على أشيلية ، وفرضوا السكر والمرأة بخصرة أيها وزوجها ، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض ، ومثلهم وأكثر منهم لأجل المحافظة على الدين ، كل ذلك وجندل بن حود مغرور بوعد البابا وبرونات أوروبا ودوق فينيزيا ، وقد خاب ظنه ، فانهم قتله في قرطبة خذرا بعد أن ساعدتهم في إذلال المسلمين ، أما عسكره فانهم رجعوا فوجدوا أشيلية مدينتهم قاعا مفضفا ، وقابلهم عسكر الفرنجة بالقتل والاهلاك ، فطلبوا الأمان .

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك في (سورة الأحقاف) عند آية : « أنهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا » إلى آخره .

الله أكبر: إذن أم الاسلام بعد ازمان النبوة قد خالفوا كتاب الله تعالى ومنه نبيه واجماع الأمة .
الله أكبر: إذن بعض ما نحن فيه الآن نتائج ما كان من آياتنا . اللهم إني أجدك جدا كثيرا على نعمة
العلم ، وعلى أن وقتي للعلم بما حصل لأمتنا حتى يكون ذلك نبأ لمن بعدنا ، فنكون أرقى حالا مما نحن
عليه الآن .

الهم اننا نحن الآن مغرورون في بحر من الجهالة ورثناها عن بعض أسلافنا الفارسين . هاهم أولاء
بعض شيوخ الطرق في زماننا ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، يحملون لأرباب ، ويتخذون النقباء ،
ويطوفون بالبلاد ، لماذا هذا ؟ هم لا يعلمون سر ذلك ، ولكن سره أظهره التاريخ
كلن المباسيون والمولويون يفعلون ذلك لما قامت الخلافة ، وكان أبو مسلم الخراساني تحت امرته نقيب بني العباس
وهذه العهود والمليدين والتلاميذ استرجعوا الخلافة ، وقتكوا بمن هم أحق منهم وهم المولويون ،
ذهبت السولة العربية ، ولكننا لازال نرى النقباء والتلاميذ في جميع بلاد الاسلام ، وهؤلاء وإن كانوا يريدون
التقوى والصلاح كان أمرهم فيها مضى راجعا لطلب الخلافة كما ترى في دولة الفاطميين بمصر ، وحسن بن
الصباح يبلاد القرس في قلعة اللوت . هذه فكرة عامة ، وصورة مصغرة ترىنا حاطم لننظر في مستقبل بلاد
الاسلام .

اعتراض على المؤلف

فلما اطلع صديقي العلامة على هذا ، ودرس حقه دراسته . قال : ما أجل هذا البيان ، اننا كثيرا ماقرأنا
التاريخ ، ودرسنا القرآن وتفسيره ، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آباءنا السابقين ، فأما أجداننا
على نعمة العلم وانتظام التاريخ مع آي القرآن . ولكن هنا تبتى لي سؤال ؟ وهوانك بهذا البيان قد كسرت
قلوبنا بحبيسة ، ونفوسنا بريئة ، فانه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضالما ، إذن تاريخنا أسود وآبوا
ظلمون جهلاء ، إن هذا القول يقبض القلب وينكس الرأس ، ثم انك قلت عن الترجمة الذين لا يرجي منهم
موادة للمسلمين مدح هؤلاء الملوك فكيف نجتمع بين القم والملاح ، وهل العقول تقبل الضدين ؟ يسبحان الله :
إذن جميع المدح إنما هو لظاهر من المادحين ، لأن ماقرأناه الآن في هذا المقام ظاهر من التاريخ فهو لاشك فيه إذن
المدح هو المشكوك فيه . فقلته : أيها الصديق ان المدح والقبح كلاما حقا . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت :
قد قدمت في هذا التفسير في (سورة سباء) وغيرها أن الأمة أشبه بطفل ، وكل قرن في حياتها يعتبر سنة واحدة
في حياته ، إذن الأمة اليوم كراهق في السنة الرابعة عشر ، ولكنها اليوم أدرت البلوغ قبل ١٥ سنة كما
يدرك الشاب بالاحتلام قبل السن ، والتجليل على ذلك انها اليوم تقبل العلم والحكمة للمنشورة بعد أن كانت
لاقبلها ، ولا تعرف لها وزنا ولا طعما .

إن الطفل في أول أيامه يصيبه التعب والجبهة ، لاسبيا اذا كان يقيا ، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء
الراشدين بعد النبي ﷺ أخذ المسلمون يتخططون في دبحور الظلام ، ونسيت الأمة الشورى ، لأن الشورى
إنما تكون بين البالغين ، فأصبحت الأمة كرهط طرحت بصالحة تلققها الأمور فالباسيون فالأمرام الخارجون
عليهم وأمرام الأندلس ، ثم دالت السولة ، ولكن بقيت الذكوى والذكوى تنفع المؤمنين .

ان ما اتفق لأبائنا هو الأسس التي بنى عليه نظام مدينتنا ، وكيف تتجه للشورى ونحرص عليها ، ونسطنى
الأمرام ورؤساء الجمهوريات إلا اذا رأينا غير الصبر في آياتنا الأولين ، والذي منعنا أن نسير على الطريق المستقيم
إنما هو الجهل بالتاريخ وبفطنته وآلامه وبالشرع نفسه ، أما الآن قد صغرنا الحقائق ، وأن آباءنا كانوا في زمان لم
ينضج فيه العقل الاسلامي في أمر الخلافة والحكومات فشدوا كل مشرد ، وباعوا وأصبحو أذكري لنا كرين

هذه ذكرى لنا ، ولقد عرفنا اليوم ، للعرفه أساس العمل ، فهنا سائق للحكومة المنظمة ولقائد ، أما السائق فهي الآلام التي حلت بآبائنا الأولين ، وأما القائد فهو ما نراه من الحكومات المنظمة في بلاد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرها ، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربي عليه الصلاة والسلام ، هذا ما كان من أمر الحكومات العالم .

النظم العلم في الاسلام

فأما فباعداد ذلك من النظم العلم فكانت دولهم أعدل دول الأرض ، وقد بقي ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع ، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها ، وظهور في تلك للمالك العلماء والحكماء والشعراء والمهندسون ، وجميع من يحتاج إليهم العمران ، بل هم قدوة أوروبا وحاموا لواء العلم في العالين .

هذه الشريعة والمذاهب والقرآن باقية محفوظة ، ههنا القرآن والشريعة باقية لم تمسهما يد الخلدان فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التي بناها لتكون مطلق الحجج ببغداد ، ولا المصمم لما جعل في سامرا مناسك الحج ولا غيرها ، فهذه مناسك الحج والقرآن باقية ، وهل مزقت تلك الفرق المتشاكسة وهي اثنتان وسبعون فرقة دين الاسلام ؟ كلا ، بل مزقت وحفظ الاسلام .

أشرق دين الاسلام في العرب واخترق الأفطار ، وانتقلت رئاسته من العرب إلى القروس إلى الترك إلى أمراء في سائر الأفطار ، هذه سنة الله في خلقه ، تنقل الشمس في أرجائها والقمر في منازلها ، والمادة في صور الجاد والحيوان ، إن للمادة خلق الله والدين لله وهو القائل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فهذا هو العدل وحسن النظم .

إن المسلمين في المستقبل غير المسلمين للماضين ، فهؤلاء يعلم لهم الدين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ وسيكون الأمراء والملوك والخلفاء أملاءم الاسلامية ، لاذلة لا يفتخرون للمسلمين ، وسيكون أمرهم شورى بينهم . المسلمون السابقون كانوا خير أمة أخرجت للناس في زمانهم ، ذلك أن دولهم كانت خيرا من دولتي القروس والروم ، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظم في ممالك أوروبا ، فنحن الآن لا نكون خيرا من دولتي القروس إذا اعتدلتنا في الخلافة والامارة ، وكان أمراءنا أشبه قوم بأبي بكر وعمر وعثمان والنبي صلى الله عليه وسلم . هذا من حيث النظم العلم في المملكة ، فأما الأفراد فتنهم يطمعون ما تقوله في هذا التفسير ، ويمسكون به عن اعتقاد وإخلاص وصديقين ، وذلك ما قرره مئات اللوات من أن القيام بأي عمل من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض الكفايات ، فهو من جهة عمل نافع للأمة ومن جهة أخرى سعادة للبر في الآخرة بل يقول إمام الحرمين وغيره إن ذلك أفضل من فرض العين لأن القيام بهذا العمل دفع الحرج عن بقية أمة الاسلام . وأما هذا اعتقادها وبقيتها لاجرم تكون خيرا من دولتي القروس ، فإذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجهاد والمال مثلا فهنا أمة الاسلام يعملون الأعمال العامة تقربا لله تعالى ، فيكونون أرقى من جميع الأمم . هذه هي أمة الاسلام في مستقبل الزمان . انتهى



ولا الجوهر المكنون ، في النظام العام تسمى وتصبح وهي خالصة ، وتصبح ديارها فيها بعد خلوية على عروشها ، وبرها معطلة وقصرها غير مشيد . إن القاصرين على ظواهر التشريع مثلهم كمثل « شجرة خيشة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » ، والذين أدركوا سر النظام مثلهم كمثل « شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » ، فالأولى كشجرة الخنظل ، والثانية كشجرة النخيل . إذا قرر هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ما السر ؟ ما هذا الخلاف ؟ والفرق والاحتلال بعد العصر الأول ، وكيف ينزل دين من السماء عظيم ، يزلزل الأرض زلزالا شديدا ، ثم يرفع الإنسانية أجيالا ، ثم يخفي وراء الحجاب ، وتلبس الأرض رداء الحداد عليه ، وتلبس الإنسانية ثوبا قشيبا من مدينة حديثة ، وحاملوها الذين تأمنون هائمون . فاما أدلة أن نخرج لنا هذا المقام لنتحد التشريع مع التسكين ، وتلتئم الحقائق مع الظواهر ، والعائد مع القروع ، وهنا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين ؟ .

فلما أمم ذلك ، قلت له : قد أجبت في صوغ عبارات السؤال واصطفيتها بصفاء نفس وبجودة قريحة ، حتى تحلج بصفاء حية للقارئين . فاعلم أيديكم الله بالنعم ، وأهلككم الحكمة ، وأبارك بصرتك بالعلم ، أن آية (ق) التي ذكرتها : « أفلم ينظروا إلى السماء الخ » فيها الجواب عما قول . فقال : وكيف كان ذلك ؟ قلت : إن فيها ذكر النبات ، والنبات أنواع مختلفات ، ولكم من نبات قد خفيت منافعها عن البصائر ثم ظهرت بقاءة إلى الوجود كما حصل في زماننا هذا ، فإن امرأة أفرنجية في مصر نشرت (قبل أواسط سنة ١٩٣٩ القريحية أي قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الموضوع) في الجرائد المصرية أنها جربت الرحلة المسماة « البقلة الحقاء » وهي كثيرة في بلادنا المصرية تقول انها جربتها إذ شربت ماءها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر وكان السكر ٦٠ في المائة ، فأخذ يقل حتى شفيت تماما . وما كادت تظن هذا في الجرائد حتى صنعت آلات لصنع الرحلة ، ويبتع للناس ، وأخذ المرضى يضلون ذلك رجاء الشفاء .

هذا هو الثاني ثم في أيام كتابة هذا الموضوع في بلادنا المصرية ، وانما شربت هذا المثل المفيد في علم السحرة بتجربة امرأة أرادت الخير للناس إلا لأجله نظير ما في القرآن من العلوم ، فحين نزل من السماء بقول الله ، ونظام الزرع بفعل الله ، فإذا رأينا نعلمه القدي صنعته يسديه تخفي أسرارها على نوع الانسان . ينظر الأشجار والزرع ولا يفتح منها إلا قليلا ، ويسم الزهر في وجوه الناظرين وهو يقول : انظروا إلى جمالي ولكن ما أوتيتم من علمي إلا قليلا ، فهكذا يسمع الناس الكلام للموسى به ، وينتهجون بيلافته ، ان كانوا من الأمم العربية ، أو باحترامه وقد يدس ان كانوا من غير الأمم العربية ، ثم يسمعون خطاب موسى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويسمعون أيضا : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » فنوع الانسان على الأرض ليس مقياسا لنظام الطبيعة المنظورة ، ولا لنظام الكتب السماوية المسبوبة ، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم في قول بليغ ، ولا نظام زهر بديع ، بل الحاكم العقل الانساني ، والعقل الانساني مغموس في حياء الطين ، فهو يعطى من العلم بقدر كما اتفق له . الراء الافرنجية في « البقلة الحقاء » وكما يلقى من السكر لأناس يعيشون في زماننا وبعدة لإدراك بعض أسرار الآيات القرآنية كلفاتيج الآتي ذكرها في سورة (ق) كما قمتناه .

فلما سمع صاحب ذلك . قال : أنا أغرضك التناء ، فأنت أثبتت على تنميق السؤال وإيضاحه ، وأما كذلك بدوري أتي تناء مستطابا على الاجابة ، ولكنها ليست بكافية ، وانما علمتنا مسألة طيبة جاءت للتظهير والتشبيه ، ولكن اللهم أن نذكر سر اختلاف الأمم الاسلامية التي سبقتنا وقد أوضعتها ، ماسر هذا الاختلاف وهذا المجد لطويل ؟ وما حكمته التكوينية ؟ ولم أستد من هذا الجواب إلا أن بعض أولى الأتباع يلقى إليهم فهم أمور في الاسلام كما ألقى إلى هذه المرأة في الطلب .

وملخصه أن أهم الإسلام للتأخرة غشى على عقول كثيرين أكابرها فغلب عنهم كثير من الحقائق ، وبمضها أخذ يظهر الآن ، أى أن السر كل السر إنما هو الاستعداد ، فالاستعداد إذا وقف عند حد محدود بما أحيط به من غواشى الظلم داخلًا وخارجًا يقب من انهم ، إذن الدين فيه السر للصون ، والجوهر المكنون ، والصراف المستقيم ، ولكن العقول لم تهتد إليه ، وسنهدى الآن وتنظم دول الإسلام . هـ هذا شرح ما أجلت ، فاذن سر النظام هنا أن الفضائل (وإن كانت موجودة فعلا) لا تملأ إلا لئلا يستعظم ، فهذا الجواب مع تفاسيه مجمل لا يثنى القليل . قلت : حياك الله ويالك ، فإن آيت يسلح إلا الافصاح ، فهذا إذا أتى عليك التفصيل بعد الاجال .

لهم منك الحول ، ومنك القوة ، امل ايها الأخ الوافي بالحكمة ، اقترح بها ، للمستعد لهما ، أن الناس إذا لم يفهموا المحسوسات لا يدركون المعقولات ، ومن يهوعن فهم مآدركته الأصارفوهن ادراك ماوراءها أجهز ، ومن كثرت مدركاته البصري فوكل محسوس وعقلها بربوة كثرت ماوراءها من علومه الحسكية . فلا شرح الآن لك ايها القارى خمسة أنواع من العلوم :

- (١) نظام النبات .
- (٢) نظام الفلسفة العام .
- (٣) نظام الحكومات كحكومة مصر اليوم .
- (٤) نظام البيانات العام .
- (٥) النظام المجمل للذاهب الاسلامية .

وكل ماسأفصله في هذا المقام فهمته بما فتح بفتح : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأبنا فيها من كل زوج بيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

فهذا الذى ذكرته الآن هو نفس هذه التبصرة وهو الذى ، فانا إذا فكرنا فى أمر النبات وجدناه يحل هذه المنا كل كلها . والنبات منظور ، وهذا المنظور يحل لنا منا كل المسموع والمعقول . فقال : إن ما تذكره الآن أشبه بالأنفاز ، والتعريف يجب أن يسكون أوضح من التعريف ، فإن الابتنا هنا ؟ قلت : خلق الانسان من جمل . هنا خمسة فصول :

الفصل الأول فى النبات

إن فى النبات فاكهة وحبا وخضرا للانسان ، وفيه حشائش وتين للحيوان ، وفيه أغذية لأدنى الحشرات ولكل حيوان ، وكل فى الأرض من فضلات نباتية وحيوانية صفة قدرة يعيش عليها أدنى الحيوان من خلق وجود ونحوها من المخلوقات ، إذن النبات ينفذ أشرف حيوان يكاد يلتحق باللائحة الأعلى وهو الانسان وأخس حيوان يكاد يلتحق بالطين اللزب وهو الورد ، وبينهما درجات لا يكاد يحصرها المد ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فلا الورد يبنى فوق ما عليه ، ولا الانسان ينزل عما أمده به ، فهذه الحيوانات انقسمت النبات وأكثته ، وكل يسعى لطلب رزقه فيها استعداد له وله خلق ، وهو معرض عما وراء ذلك ، وهو بذلك فرح سعيد ولم يجد من هذه الأنواع من الحيوان أحدا يلقى نظرة علة على جميع النبات إلا بعض خواص الانسان .

الفصل الثانى فى نظام الفلسفة العام

قلنا فى الفصل السابق ان الورد قد يعيش فى فضلات النبات والانسان يأكل منه ، وأنهما هما وما

بينهما من أنواع الحيوان مقتنيات أنواع النبات ، وقلنا ان هذا الانسان وحده هو الذى فكر ففلسفت في النظام العام لهذا النبات . إن المفكرين في النبات أيضا ، أى المذكور في حيز (الم) في (سورة ق) (وهي الحروف التي هي مفتاح من مفاتيح العلوم الآتي لإضمارها هناك) يكونون فرقا شتى ، ففهم من يبحث في خشب لصناعة ، ومنهم من يبحث في شجره وزيتة للأكل ، أوجب للتجارة ، أو منافع القلب ، إلى غير ذلك من مباحث لا يستطيع حصرها إلا في مجلدات ، وإذا رفعتا طرفنا إلى ما فوق ذلك وجدنا هذا النبات إن هو إلا نوع واحد من أنواع الوجود ، ولكل نوع علماء اخصوا به كما رأيت لكل طائفة من النبات حيوانات خاصة تتعامله وقتضئ به ، تقوم للنظر في عموم النبات من حيث تكوينه ونسبته إلى الحيوان ، وقوم يدرسون نفس علم الحيوان ونسبته إلى النبات ، وآخرون يدرسون علم المعادن ، وآخرون يدرسون الطبائع العامة للعوالم كالصالحين والفساد والكهرباء والحلوة والصوت ، وهذه طبائع عامة لا يختص بقسم من أقسام الطبيعة ، وهذا كله في العالم الأرضي ، وهناك طوائف يرتفع بعضها إلى العوالم ويكونون فرقا شتى ، وأعلامهم من ينظرون نظرا كليا في تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذنان والحشرات والسمم ويحصرون العوالم حصرا عاما . وآخرون فوق ذلك يمحسون العالم العلوي والسفلي بعد أن يكونوا قد أحكموا العلوم الرياضية بقدر طاقهم ويكسرون في النظام العام . هذه نظرات أكابر الفلاسفة في الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجوفية في العوالم السابوية والأرضية كنسبة نوع الانسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التي قاسمت الأغذية في المخلوقات النباتية ، فكما كان السوء مشاركا للانسان والحشرات وغيرها في اقسام الأغذية النباتية ، واختص الانسان بالبحث العلم في النبات ، هكذا المفكرون في الأمم اقتصموا النظر في العوالم العلوية والسفلية ، واختص أكابر الحكماء بالنظر العلم في العوالم كلها ، واتقوا منها على جهة اليقين والمسرعات والبهجة إلى صانع العالم ، وتعلقوا بالصانع ونسوا الصنعة وراهم ، وقرعوا : « وأن إلى ربك المنتهى » .

إذا فهمت هذا أيها الصديق ففس عليه نظام الحكومات ، وأضرب لها مثلا نظام حكومتنا المصرية ، لأنه أقرب إلينا في التمثيل ، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقننة لما يريد أيها الأخ المذكي من إدراك السر في التناقض والاختلال والاختلاف الواقعات في القرون الاسلامية الخالية حتى تلتم العقائد والنظام العام مع التشرع الظاهري كما طلبت أيها الأخ السليم ، فهذا تفصيل الكلام ط :

الفصل الثالث : نظام حكومتنا المصرية

إن حكومتنا المصرية تراها مكونة من :

(١) قرية لها عمدة ومشايخ وخبراء .

(٢) مركز مكون من قرى .

(٣) مديرية مكونة من مراكز .

(٤) فوزارة الداخلية المكونة من مديريات .

(٥) فالوزارة العامة المكونة من وزارات ، وهذه الوزارة فيها وزارات مثل الداخلية والخارجية والحفانية

والأنفال والزراعة والديانة ، وفيها مصالح كثيرة . كل هذه تتبع للوزارة العامة ، وكل جماعة في

وزارة مكيون على علمهم . لا يعرفون إلا قليلا عن عمل غيرهم في الوزارات والمصالح الأخرى كما

لا يعرف حيوان البر من حيوان البحر إلا قليلا ، وكما لا يعرف عالم الحيوان الأرضي عن عالم

الكواكب إلا قليلا .

(٦) وفوق هذه الوزارة القوة العليا التي تولى تلك الوزارات التي تستند إلى رجال دار النيابة الذين تصطفهم الأمة لقيام بتسييرها .

فأنت ترى أيها الذكي أن كل طاقة تقوم بعملها وتعرض لمساواة ، وإذا خالفت ذلك اختل النظام كما تنقسم أنواع الحيوان من أقلها وهو البهائم مثلا إلى أعلاها وهو الإنسان أصناف النبات ، ولكن فريقي واحد يكون نظره عاما في الأمتة كلها وهو القوة التي تنظر في شؤون الوزارات كلها ولا تهتم بمجزئيات الأعمال بل أجمالها عامة ، وليس لها أن تنزل عن الكليات كما يختص نوع الإنسان دون سائر الحيوان بالنظر العلم في النبات المشترك بينه وبين الحيوان ، وكما يختص الحكميم العظيم في نوع الإنسان بالنظر العام في الوجود وإن شاركه غيره في النظر في الجزئيات العلمية ، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم للتعوض فهذا مثال له بجل ، وهذا توضيح وشرح لما بعده وهو نظام الديانات العام في الأرض .

الفصل الرابع في نظم الديانات العام في الأرض

اعلم أن في الأرض من أنواع الديانات باختلاف العقول والأفهام اختلافا كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان في التقنية والارتفاع ، فكما رأينا من بقايا النبات المتحجرة المتبوء في الأرض والبرك والمستنقعات ما يتعاطاه البهائم وأخص أنواع الحشرات والعلق ، ورأينا من ماعوا كاهن وحجبت نوع الإنسان الذي يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة الكرام ، هكذا ترى من الديانات ما تنزل إلى دركات الانحطاط لغباء معتقيه وانهم في نوع الإنسان أشبه بالبهائم من نوع الحيوان ، فأعوزهم ذلك إلى دين يواتهم ويستجابه ، ويكون ذلك الدين على قدرهم لا يتجاوز ما قبله فوسم ، وتعالى به أفقهم ، وهم به فرحون .

ومثال ذلك ما ستره في (سورة البقرة) في الجزء الأخير من القرآن ، إذ ترى هناك في حديث رئيس البعثة الأزهرية الصينية أن عدد الديانات في تلك البلاد نحو دينا ، وعدد السكان (٤٠٠) مليون إنسان ومن الديانات عبادة الجبال والنور والنار والنباتات المختلفة ، وكذلك ترى في تفسير نص تلك السورة أن في الجنة من يسدون الأشجار ويقسونها ، وبعضهم يقدس الطبيعة ويعبدونها ، وترى الذين يسدون الأشجار يقومون حولها في كل عام ، ويقومون بواجبهم الديني ، وكيف ذلك أن يشعروا بجدوها بالسمن ويقفون حولها وهم يرقصون ، ويفنون مختلف الأغاني ، ويقصد أهالي قبيلة (لادرون) بعض الجهات التي تكثر فيها الأشجار ، ويتناولون حولها بعض المشروبات ، كالخمر والبيرة وشراب الصل وغيرها .

هذا قل من كل من ديانات هذا الإنسان . ما هذه الديانات المختلفة في عالم الإنسان إلا نماذج مطابقة لمتنوع العقول والعواطف والأميال على التحولات التي تختلف في أغذية الحيوان في النبات من دود يتعاطى القاذورات ، ومنه حشرات كذلك ، إلى أنظم تأكل الأب ، إلى الإنسان يتعاطى القاذورة والحب ، وما مثل دين الإسلام إلا كمثل النوع الإنساني فيما مثلنا ، إذ نظر نظرة علمية في جميع النبات فبعث وفكر فيهم إلا كمثل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة علمية في أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وجدوا فيها ، فأنشأوا كليا من الجزئيات وكلا من الأجزاء ، ونظروا نظرة علمية وتوجهوا به إلى صانع العالم ، وأخذوا يشقون الأمم إلى الوحدة العامة ، والنظم العام ، وإلى صانع ذلك النظام ، وهذا هو مقصود دين الإسلام ، فهو لا يهضم المتنوع في مصنوع من المصنوعات وإن كان في كل مصنوع سر من أسرار الربوبية ، ولكن دين الإسلام يقول : « فأينا تولوا ثم وجه الله » ، فهذا دين عام يعوزه مفكرون يقومون به من نوع الإنسان ، تكون نسبتهم إلى هذا النوع الإنساني كغلبة الإنسان إلى الحيوان من حيث النظر في أمر النبات من حيث عمومها لامن حيث أقسام أصناف الحيوان لأصنافه المختلفة متذبذبة ومتمازجا ، بل يكون نظره عاما لمنظمة السموم ، وإذا ظهر هذا السر المكنون في هذه النصول الأربعة قد وصلنا إلى المقصود من هذا القال وهو :

الفصل الخامس في النظام المجلد للمذاهب الاسلامية

لاجرم أنك أيها الذكي - بأدنى الغافة لما مضى تعرف سر المذاهب الاسلامية التي بدرستها فصل إلى مقصودنا من هذا المقال ، فما هذه المذاهب الاسلامية ؟ هي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ومذاهب الشيعة المختلفة ، والزيدية ، والاباضية ، و فرق مختلفات متفرقات ، وكل امرئ اتبع مذهبا من هذه المذاهب أكب على عمله ، غلما فيه ، واتقابه متقربا إلى الله ، فأما بصله على الوجه الذي أراده الله له ، فترى الشافعي مكبا على قراءة الكتب المقررة مثلا في جامع الأزهر ، كبن قاسم ، وكتاب الخطيب الشربيني على متن أبي شجاع ، والتحرير ، والمنهج ، وأمثاله ، وقس على ذلك بقية المذاهب ، وكل هذه مستخرجات من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وتراهم يستدلون بالأحاديث المتوعدة والأدلة المختلفة ، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وإن خالفوا أقوال غيرهم في الفروع التي لا ضرر فيها على الأصول ، وبدوام ذلك أجيالا وقرونا أصبح كل مذهب كأنه عقيدة راسخة ، وإن كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد ، احترام المذاهب الأخرى كإبراهيم من كابر ، لاجرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين الكلي ، فبينما ترى الشافعي والحنبلي والزيدى والامامى ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها ، ونواقض الوضوء ، وأركان الحج ، والبيع الصحيح والفساد والطلاق والرجعة ، والعتاوى والينبات ، والشركة والاجارة ونحوها .

تراهم لا يفسكرون ، ولئن فسكروا ، بل لن يخطر بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الاسلامي القوي جاء لاهل الانسانية كلها من شر الملوك الظالمين ، والمسلطين القاهرين ، ذلك أن كل فريق من هؤلاء المتطعين المخلصين لا يعدو أن يكون مثله كمثل عمدة قرية من قرى مصر ، أو شيخ من مشايخها ، أو مأمور من مأموري المراكز المصرية ، أو مدير من المديرين ، أو وزير من الوزراء ، ولاجرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته في الحكومة المصرية ، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا في مراكز خاصة فليهم أن يقوموا بها حق القيام ، وليس من حتمهم عادة أن ينظروا نظرة عامة في الأحوال العامة للأمم الاسلامية فيكونوا في أم الاسلام أشبه بالقوة المدبرة في الحكومة المصرية التي تولى الوزراء ، وتعطى كل ذى حق حقه ، وتنظر نظرة عامة في المسائل المصرية ، أو يكونوا أشبه بالانسان في مثل النبات ، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات ، أو كمثل دين الاسلام إذ جاء نظرة عامة في جميع الكائنات ، هكذا كانت ولا تزال أحوال أم الاسلام إلى وقتنا هذا ، ولا عيب على الناس في ذلك ، فلا يؤم على حنفي ولا شافعي ولا زيدى ولا مالكي في هذا التصور ، لأنه قصور موروث من أيام أن اضطربت الأمة اضطرابا شديدا ، وزلزلت زلازلا ، وقل المسلمون : ما لهذه الأمة ما لها ، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها ، وأقيمت ما مات من عوائد العصبية والنسب وأرجاع الخلافة للأناصب وحدها ، وأخذ الأموى يناوى العباسي ، والعباسي يناوى العلوي ، وينأوى جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفارس وكرد ومثليين .

وكل يذهب وصلا إلى * ولئن لا تفر لهم بهذا كما

أنزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : « وإن طفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بقت إحداهما على الأخرى قتالوا التي تبنى للحج » . وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذه المزية هي التي قامت بها النبوة خير قيام ، فما كاد عصر النبوة وأيام الصحابة بعدها تمر حتى عصفت عاصفة الأنساب ، ورويت لها الأحاديث ، وقامت الضبعة ، وهجبا ! ليست الخلافة للمال ، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كإبي بكر وعمر وعلى رضي الله عنهم ، فهو ليس خليفة ، لأن هذا ليس على طريقة ديننا ،

شرب الخلفاء الخمر ، لبسوا الحرير ، كنزوا المال ، هل هذه خلافة ؟ صدق رسول الله ، فهو ملك عضوض لاجب اذا رأينا أيا حنيقة يضرب ، ومالكا يهان ويؤذى ، واستمر اذلال العلماء في أعمار خلت ، ولم يكذ أحد يرفع بصره إلى النظر في الأمر العام الذى أعد له هذا التفسير حتى يزعج في السجن ويؤذى ويهان ودامت الأمة على ذلك أجيالا وأجيالا ، وأرباب للذهاب في أعمالهم دائبون عظمون إذ لا خلاص لهم ولا منفذ إلى المستوى الأهل الذى فيه ينظرون نظرة علة في دين الاسلام ، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم بما لا يهوى أنفسهم استكبروا فخرقا كذبوا وفرقا بقلون ، ومنهم من كان يكتب ما شرعناه الآن تحت ستار التصوف ، وآونة تحت ستار الله كاترى منه شذرات في كتب الفقه في المذاهب الاسلامية المختلفة لأمر الاسلام ، ذلك هو الحاصل في أمر الاسلام إلى هذا اليوم .

نظرات حكماء الاسلام الذين أعدتهم الله للمسلمين بعد ظهور هذا التفسير

إن هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أحياء يدرسون ، ومنهم من هم في بطون الأمهات ، أوفى ظهور الآباء ، هؤلاء سيكونون مستبشرين بالتوراة الإلهي ، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ، وهؤلاء تشرق قوسهم بالأشوار الإلهية ، لأن هذه الجباب ملومة نورا إلهيا ، وبالبحث فيها يزدادون قوى وعلمًا وحكمة ، وتشرق عقولهم ، هؤلاء بمد تلك الدراسة ينظرون في دين الاسلام فيقولون : ماهذه المذاهب إلا أشوار جزئية لمن سلكى ، وهذا الدين السكلى يحوزه حكماء يفكرون فيه فيكونون للذهاب المختلطات أشبه بالإنسان المختص بالنظر العام في النبات مع مشاركته للحيوان في التغذية بالنباتات ، وكالقوة الحكومية المستمدة من ثواب الأمة ومجلس الشيوخ ، والأعيان التي تخصص لكل وزير عمل ، وكل الحكيم الذى ينظر للعلم كلها نظرة علة ، وقد شارك علماء الحيوان والنبات والفلك الخ وارتقى عليهم ، وكدين الاسلام الذى جاء ومصدده علم لا يتقيد بشجر ولا بحجر ولا بكنيسة : « فأينما تولوا فثم وجه الله » . فهذه الطاقة هي التي تجعل لأمر الاسلام وحدة علة للعالم كله ، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين : « أيها المسلمون : إن الخلافة والرياسة ليست لئال ، إن هذا خطأ عس وجعل فاضح ، ليس هذا ديننا : قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . وإذا كان الطعام رغبة لمسلمين يحتاج إلى اخلاص بلا جزاء ولا شكور كما نرى نور الشمس يسيل إلى أهل الأرض ، هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين ، فإن كان غير ذلك فهو كاذب ، الخليفة ليس هو ذلك المترف المنعم . كلا . فما أن يكون كافي بكر وعمر وعلى وعثمان ، وأما لا ، نحن لا نطلب خليفة محجبا ولا منعما ، إن هذه جهالة أعظم الجبهالات هنالك تهت كل ما بناه الآباء من الخلاف والشجار الذى شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه ، فلم يجبا أجر فيها اختلقوا فيه ، لأنهم كانوا فيه غلطين ، وكل منهم كان يعتقد أن الحق في جانبه ، ولا يكلف الله قسا إلا رسعها ، ذلك هو تحقيق الحق ، وهذا هو الجواب عما سألتني عنه أيها الصديق ، فهذه الأم الاسلامية لما كانت في مبدأ أمرها لم تلق صبرا على الأخلاق الشريفة النبوية والعصرية والبكرية والمالية والعثمانية ، فربحت القهقري درجة فخرية ، فلما علمت منهم ذلك ، وأهم لا يحصون الامانة كما أدت إليهم ، ولا يتورعون عن ذلك سلطة على العرب الفرس قد خالوا بينهم والترك وغيرهم ، وقال : أيها الأم : إن العرب قد أخالوا بشروط النبوة فدخلوا معهم وفرقوا جدهم ، لأنهم لم يمحوا الخلافة بالشورى ، بل جعلوا لصبية ، فإذا كان الأمر كذلك فاني أذنت للأمر أن يزاحمهم « جزاء وفاقا » ، فدخل الفرس فزاحمهم ، ودخل الترك كذلك ، ثم استبدوا بهم ، ذلك هو العدل الإلهي ، وهانحن أولاد الآن وأنا أكتب هذا وأؤمن بالنسب العربى الصميم ، أقول هذا هو التاريخ الاسلامي مجلا ، وهذا كان شأننا ، وهؤلاء الحكماء الآتون بعدنا سيصلحون

ما أقصده الزمان ، وأتى به الحدتان ، وسيقولون للأئم الإسلامية كفى كفى :

ملفحي قات والمؤمل غيب * وإك الساعة التي أنت فيها

فقال صديقي بعد ذلك : هذا حسن وكيف بقي هذا إلى هذا الزمان ، وهذه نيف ١٣٠ قرنا ، وهي زمان طويل ، فلماذا تأخر هذا الإصلاح إلى هذا الزمان ؟ قلت : أيها العزيز : اعلم أن هذا العالم فيه أمران اثنان أحدهما يعمل في ثانيهما ، فاعمل هو العقل العام المسلط على ثانيهما وهي المادة التي ماضي إلا حركات في خيال الكون للمسي بالآثير ، واعماسينه خيالا لأنه يشبه خيالنا نحن ، ثانياً يخص فيه بقوة عاقلة منظمة والحركات في الأثير للنبث في هذا القضاء الذي عبرنا عنه بلخيال هي هذه المادة ، فلهذا مجموع حركات منظمات يتصرف فيها عقل ، وأظهر هذه المادة الشمس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات ، تشرق الشمس على الآفاق فيكون نبات ، وهذا النبات يأخذ في النمو أمدا على مقدار ما حده له ، وبعد نسبة وتعبه تظهر فيه أزهار جيلة تحكي أنوار المشرقات وتسمد منها الضوء ، بل تتجه للشمس عند طلوعها وعند مغيبها اتجاهاتها ، هكذا تلك الدول الملكية المدبرة لحوالنا الأرضية مربى عقولا جزئية في أرضنا كالعقول الإسلامية ، ولكن زهر تلك العقول لا يأتي إلا في حينه ، ولن يتصلى طوره ، تقديم وتأخيرا ، فإذا رأينا أننا الإسلامية اليوم قد بزغ فيها فجر الإصلاح ، وأخذت أزهر العقول الإسلامية في نباتها قضى للأمة فهذا هو التاموس العام ، فلا زهر لشجر إلا بعد حين يناسبه ، وهذا المين لم يحض له إلا ١٣ يوما من أيام أمة الصفري وهي القرون بعد أن استعنت الأمة لظهور مصلحين هم أزهرها كما لم يزهروا النبات إلا بعد استكمال قواه في أمدته العام .

هذا جواب ما سألتني عنه أيها الأخ في أمر أم الإسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم ، والفتنة للمستحكمة ، ثم البقطة الحديثة ، ثم الإصلاح الذي بزغ جره ، وما حكمته الله في ذلك ؟ وما شأن النظام ؟ . فقال : لم أكن والله لأتوقع هذا الكشف والايضاح ، ولم يكن ليخطر لي أن أنال هذا الفتح المين ، ولكن مانوع التعاليم التي تخص بها طائفة المصلحين في أم الإسلام ؟ قلت :

بهجة وجمال في ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الإسلام في مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديقي أن هذه الطاقة في أم الإسلام مثلها كمثل من ذكرناهم في الأمتة السابقة ، بل كل ما سأفوله الآن يستنتج مما قرره لك الآن ، فهم كالمؤلف الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم ، وكالحكام الكبار بالنسبة لطلاب العلوم الجزئية ، وكالأنبياء بالنسبة للجهدين كأبي حنيفة والشافعي ، ومجتهدى الشيعة وهكذا ، وكالانسان بالنسبة للحيوان في مثال الاغذية النباتية والنظرة العامة فيها ، فهو لا علومهم تكون موجهة للسلبيات كما ترى في القرآن : إن القرآن والنبوتات موجهان للأمور العامة ، ولأن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة ، بل هذا الاختصاص لطوائف يخلقون تابعين للنبوة ، ولقد جاء في كتاب « الاتقان » في علوم القرآن « في الجزء الثاني في صفحة ١٧٦ وما بعدها - نفسه - » قال ابن تيمية في كتاب ألفه في هذا النوع : يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، وقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد دل أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم سموا كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ القرعة وآل عمران جئت في أعيننا (رواه أحمد في مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ القرعة ثمان سنين (أخرجه

في الموطأ) وذلك أن الله قال : « كتب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن »
وتدبر الكلام يدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضا فالملحة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في قرن من العلم كالمطالعة والحساب
ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم وديانهم ؟ ولهذا
كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة
فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض
ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والاختلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغلب ما يسمع عنهم من الاختلاف يرجع
إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد ، وذلك متفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير
عبارة صاحبه تقل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم الصراط للمستقيم بعض
بالقرآن أي اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالتولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل
منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لنظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة
والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء
كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها . الثاني : أن يذكر كل منهم من
الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبية المستمع على النوع ، لأعلى سبيل الحد المطابق للحدود في
عمومه وخصوصه ، مثاله ما نقل في قوله تعالى : « ثم أورتنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية ، فهاهم أن الظالم
لنفسه يتناول المضيق للواجبات ، والمنتك للحرمان . وللتقصيد يتناول فاعل الواجبات ، وتترك الحرمان ،
والسابق يستل فيه من سبق فتقرب بالحنان مع الواجبات ، فالتقصيدون أصحاب العين والسابقون السابقون
أولئك المقربون ، ثم ان كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول اقبال : السابق الذي يصل
في أول الوقت ، وللتقصيد الذي يصل في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفر ، أو يقول :
السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، وللتقصيد الذي يؤدي الزكاة المقرضة قط ، والظالم مانع الزكاة ، انتهى
ما أردته من كتاب « الاثنان » في علوم القرآن » والحمد لله رب العالمين .

وقد أطال في ذلك صاحب الاثنان ، ونحن نكتفي بهذه الشفرة استدلالا على ما أردناه وهو أن هذه
الطائفة تزلها عاتمة موجهة لاسعاد المجموع بما هو علم ، فأما القروع فلها شأن آخر ، إذن سلف الأمة الذين
شادوا مجدها لم يكن نظرم محصورا في الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الاسلامية في العصر المتأخرة ،
فانهم أفرغوا جهدهم في استقصاء القروع ، ونسى أكثرهم النظام العام الذي كان يشه النبي صلى الله عليه
وسلم لأصحابه في تعليمهم ، أفليس هذا من العجب ! أوليس من العجب الهجاب أنهم كانوا إذا فعلوا من
النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يفعلوا ما فيها من العلم والعمل كما قدّمنا هنا قريبا ،
ويقولون : « تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ، وقد كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وانظركيف يقول
أنس : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا » ، وكيف يقيم ابن عمر على حفظ البقرة
ثمان سنين ، وكيف يقول صاحب كتاب الاثنان : « إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف
بكتاب الله تعالى ؟ » .

عجب وأتعب عجب يلرب ! إذن ما جاء في هذا التفسير موافق ومناسب لما كان عليه الصدر الأول ، إذن
هذه سنة اسلامية جيلة ، فاحد الله على العلم والحكمة ، إذن التمسكة العامة بحب العلم ، وحب الله ، وحب
الأمة ، تتأج هذا القرآن ، وهو المقاصد العامة التي يشه هؤلاء المصلحون الآن في أم الاسلام .

آراء (جون راسكن)

المولود سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أقلا نحب أيها الذكي من علماء أوروبا : أولئك الذين شربوا من مناهل علوم أبتنا كيف يقولون ، هذا ، راسكن يقول في قطعة تحت عنوان (التعليم الحقيقي)
 « ان التعليم سواء أ كان لأدنى الطبقات أو لأعلاها لأعبء فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مفريا للتعليم على الأكباب على العلم ، وأن يعرف كيف يدير حركة أعماله ويتقنها الخ » اه .
 وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان « تعليم الأطفال »
 « ان مقاصد التعليم الهامة تنحصر في توجيه مرة للتعليم الى الأكباب على القراءة والفهم » ثم قال :
 « كما أننا لاتعاطي جيع مايعوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح ، هكذا لانعمل أذهاننا مشاق لتحصيل جميع العلوم في صباح الحياة وأول العمر : بل المبركة زمان مهيئ لتحصيل العلم ، ومن ذا الذي يستد الطالب لذلك ، ويحدث في قلبه غراما وعشقا لتحصيل أمد الحياة الا الاساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ » .
 فهذان الرأيان يحمان على أن الغرام بالتحصيل ، والتولوع بالعلوم هو الذي يبعث في الأم رجالا يكونون مصايح يمشيئونها ، وقناديل يضيئون سبلها ، وكواكب في دجئات الظلمات ، وحناصير دهر البحار ير ، مع معرفة ما يصلون ، وإدراك كنه مايزولون .

ضرب مثل لحكاه الأمم الاسلامية في المستقبل يمسوب النحل

- (١) قال فاضرب لي مثل هؤلاء المصلحين في أم الاسلام بعدنا الذين يصلحون مآلهم يد الأيام وحوادث الدهر ، يصلحون أم الاسلام كيف يصلحون بين طائفتين من المؤمنين اتفقتا ؟ وكيف يقومون بالعمل بآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » يصرفونهم عما وقع فيه أبائهم من الشجار على الخلافة والامارة ، وان ذلك إنما جعله الله تجربة يحترس من مثلها الابناء فلا تكون للممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالاتحاد والاجتماع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل ، وان كلن لآباء في ذلك تأويل ، وهم جميعا ناجون ، الفطن منهم في اجتهاده ، ومن هو على صراط مستقيم .
- (٢) ثم معاملة هؤلاء المصلحين : قلت . إنما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكام أم الاسلام كتلك الخشوم : قلت ؟ وما الخشوم : قلت . يمسوب للنحل وهي الملكة التي تقود الآلاف المؤلفة من النحل في الخلية ، فقل : وما المماثلة بين المنبته والمنشبه به : قلت لذلك اطلمت في خلايا النحل على تلك الاشكال المسدسة المنتظمة للثلاث المجتمعة معا . قال نعم اطلمت ، قلت وهناك ترى من تلك الاشكال المصنوعة من الشمع مائل عسلا ، ومنها مايجل منزلا ليض النحل يرى فيصير ذكورا للنحل أو يصير نحلا عاملة (انظر هذا المقام في سورة النحل ، والاشكال هناك مرسومة موضحة) وهناك أيضا ترى منزل أخرى ممتازة يضاهي وهي قليلة بالنسبة لغيرها ، فهذه البيوت ترى فيها تلك الملكات أو العاصيب أو الخشوم ، فترى للملكة تأمر أن تعطي النرية العاملة والذكور بصل معتاد : أما العاصيب والخشوم فترى هل من أنقى وأجل وأسمى : قد استغفاه النحل من مواد خاصة حتى يخرج العاصيب أو الملكات ذوات أجساد أقوى وغرائز أسمى فتدبر

اخلية كلها وتكون حفاظا ونورا للجميع هذا في المثل به : أما الذي ضربنا له هذا المثل ، وهم المصلحون في أم الاسلام المستقبلة فأنهم طائفة نسيهم في القلة الى أم الاسلام كغسبة اليحاسب الى الآلاف للوفقة في الخلية الواحدة ، وهذه اليحاسب عند بلوغهم سنا معلومة يتقاتلون ومن غلب فهو القائم بنظام هذه الدولة التحلية الصغيرة ، وهذه الطائفة الاسلامية التي ضربنا لها هذا المثل يقرمون من العلوم أجلاها ويضربون في كل علم بسهم ، وتكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما اغتنت الممالك التحلية بأنواع مايجاء التحل من رحيق الزهر الجليل ، وهذا التشبيه حق ، فان العلوم زهرات هذه الدنيا وغراتها ، والرحيق المختوم المخبوء في تلك الزهرات هو محاسن نظام هذه الدنيا الجليل ، وحب صانع العالم ، وحب الامم الانسانية ، وارتقاء النفس عن السفاسف وشوق النفوس ، وعشقها للانسانية ، ورحيقها وسعادتها ، فهذا هو الرحيق المختوم المخبوء في زهرات هذه الدنيا ، وزهرات هذه الدنيا : هي العلوم والعرف .

فما مثل العلماء المتدربين في الامم الذين أقرموا بعلوم الفئات كعلوم اللغة العربية الاثني عشر ، وعلوم اللغات الأخرى ، أو بعلوم خاصة من رياضية أو طبيعية أو فروعها أو صناعة من الصناعات المتفرعة عليها أو بعلوم القانون في أي أمة من الامم أو بعلوم غواهر دين من الديانات . أقول مائلا هؤلاء الاكمل التحل العامة في خلايا التحل الاثني تتلو عند رؤيتها « وما لنا الاله مقام «علوم» . فكل منها عمل خاص ، وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعا عادلا ، والمللصة رابط الجميع ، فهؤلاء التحلات كلهن أقسمن أعمال المملكة ، وغذاؤهن وحق أجنة ليس من الصل المصني : فهذا الغذاء غير المصني في الصغر مناسب لأعمالها عند ادراكها : فاعمل فرحى والغذاء غير مصني : أما اليصوب فغذاؤها مصني ، وعملها عام للجميع .

فإذا رأينا علماء الاله أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات ، فان هؤلاء كالحل اقامات بأعمالهن في الخلية ، وإذا رأينا المبردين بالحكمة المشفقين لعلم الذين يلون بجميع أطراف هذه العلوم ويختصون هم بلتلى الأعلى قلنا هؤلاء هم حكام هذه الأمة للقائمون بتسييرها بعدنا ، الجئون في اصلاحها : هذا جواب سؤالك الأول .

أما علامتهم فاقول : ان لهم « علامتين : العلامة الأولى » تؤخذ من الجواب الأول ، فهم المفرن بمجمال هذه الدنيا من العلويات والسفليات ، الماسقون لكل علم ولكل فرع ، المسكون على صنوة العلوم المحبون لصانع العالم ولعباده والواحدون بأمر الاسلام أن ترقى .

« العلامة الثانية » أن الناس يصفون اليهم ، ويميلون اليهم كلامهم ، ويستمعون لهم ، وتقبل القلوب عليهم ، ويعمل القلاء بأقوالهم وآرائهم بشوق وتوق : فهاتان هما الصلتان . فقال : حسن ولكن أي الكتب يقرؤها الانسان حتى ينال هذه الدرجة الرفيعة ؟ فقلت : السموات والأرضون والبحار والأنهار والسحب والجبال ، هذه هي الكتب التي يقرءونها ، وكتاب الله العامل على ذلك . فقال : هذا أجل ان هذه المذكورات مبذولة بناس جيما ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فقلت : فان أردت بأصح إلا التخصيص فاني أقول : إن هذا التفسير وما يجاء به من الكتب العامة لمؤلفي الاسلام في زماننا وفيما قبله منارح تبت فيها وزهر عقول وعقول ، والاستعداد هو الذي به يمتاز الجيد من الرديء ، والحيث من الطيب ، والسابق والمتصدد . والاول والآخ ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » فانا رأيت أئمة الصديق أمثال خلفه الراشدين ومداد حكمهم وبارك كمنهم وماؤنهم ذكاء وقفة ، حتى قال بعض حكماء أوروبا في عصرنا « قنا عنهم ذلك في هذا التفسير : أهم كانوا اذكي من قياصرة الروم وأكاسرة

الفرس في زمانهم ، فاذلك الامن التام التي كانوا يتلقونها من النبوة عند تلاوة الآيات القرآنية كما حتم وأهم كانوا لا يحفظون شيئا حتى يفهموا حقائقه ، وما هي هذه الحقائق ؟ هي التي ظهر لنا تشبها في أعمالهم فترام يحولون أهمهم والأمر الخاضعة لم يسلطهم ورحمتهم ، لأنهم فهموا معنى آية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصاروا لهم رحمة للعالمين ، لا للمسلمين وحدهم ، فتمّ عدلهم وفهموا أن القنائم لم تكن لأجل شهواتهم بل كانت لاصلاح المجموع : فذلك نبؤا التتم ظهريا ورضوا بالتبليغ الذي لم ينخل وتركوا عرض الحيلة الدنيا وهكذا ، وهذا نموذج لصفوة العالم التي يستفيد بها المسلمون بعدنا الذين يكون مثلهم في أمم الاسلام كمثل الانسان في نوع الحيوان أو كمثل دين الاسلام بالنسبة لسائر الديانات يعلو عليهم . فهوؤلاء المصلحون بعدنا تكون وجهتهم المصلحة العامة بقيادة مجموع الأمة يحترمونها للمذهب كلها ويحبون الصالح كلها ويكونون للمسلمين أباة ، فاذا رأوا الشافية والخفية والمالكية والحنبلية والشيعة والزيدية والاباضية وأمثالهم مكيين على فروع زاولوها ، وأحدث تلقفوها وطاشوا على ذلك وماتوا فليقروهم وليغرمولهم بجمال العوالم ، وحب المجموع الاسلامي ، وحب الله عز وجل ، وتوجيه هم المسلمين الى المثل الأعلى .

ذلك أيها الأخ جواب مأسألتى عنه . قال : بقي لمسؤال واحد ، وأناك شاك . قلت : وأنا إن شاء الله مجيب . قلت : من أين أنت لك هذه الاجابات مع أنك قبل أن أتني السؤال عليك لم يكن لك به علم . قلت : ان الاجابات أحسن بها في قلبي وقت السؤال فيشرح صدرى للإجابة فأجيب . قلت : وهل كل ما يشرح صدرك له يكون علما . قلت : ذلك له ميزان . قلت : وما هو ذلك الميزان . قلت : الميزان هو الدين أولا ، والعقل ثانيا ، والنظر لحاجة الأم الاسلامية ثالثا ، فان وافقها فهو حق ، وان خالف الدين أو العقل أولم يكن له دخل فيما يحتاج اليه المسلمون لم يكن خير جواب فلا أجيب به . قلت : لقد أملت عليك بالاستسنة ، ولقد أهدت خيرا فائدة ، فأنا أجد الله على هذه التتم . قلت : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . انتهى ظهر يوم الثلاثاء ١٠ يناير سنة ١٩٣٣ م النصف الثاني من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية .

فرد على نور

في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة

عنها ، وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة الى الآن .

حضر صاحب العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير في اليوم التالي لكتابة هذا المقال : وقال .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله انكرام . أما بعد : فاني اليوم أريد منك أن تبين لي أمرين ، قد أشكلا علىّ فيما تقدم : أما أولهما فأنك ذكرت في الأمر السادس عند تدليقك على أعمال الدولة العباسية أن عبدا لله بن الحسن والله صاحب البيعة جاء الى السفاح الذي اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ ، وأن ذلك بدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوة قد تغيرت في القرن الثاني بعد القرن الأول ، وأن القرف صار مرغوبا فيه بعد أن كان مبتعدا عنه ، فأرجو أن تذكر لي شذرة من أخلاق رجال العصر الأول ليكون تذكرا وتبصرة . قلت : أذكر أن القرفة (كما ذكرته في بعض هذا التفسير) لما قال له رسم القائد الفارسي في أثناء واقعة القانسية « انكم تموتون فيما تطلبون » فقال القرفة « يدخل من قتل منا لجة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقي منا

على من بقي منكم » وكقول عبادة بن الصامت للقوقس صاحب مصر . لما خوّفه بجيوش الروم وأنه لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حسن بابل : فقال عبادة .

« ياخذوا لاتقرن قسك ولا أصحابك . أما ماخوفنا به من جمع الروم وحسدكم وكفرتهم ، وأنا لاخوفى عليهم ، فلعمري ما هذا الذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرننا عما نحن فيه . وإن كان ماقلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشدّ حرصنا عليهم . لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه ان قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شئ أقرّ لاعمينا ولا أحب لنا من ذلك ، وأنا منكم حيثئذ لعل لإحدى الحسينين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفروا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفروا بنا ، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا . وإن الله عز وجل قال لئن لم أتخذ للناس كتابا لما لا يردده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله ولا لله . وليس لأحد منا همّ فيها خلفه ، وقد استودع كل مناربه أهله وولده . وأما نحننا أماننا . وأما قولاك : أننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة : ولو كانت الدنيا كلها لما أردنا منها لأقنسنا أكثر مما نحن عليه » اهـ

فلما سمع صاحبى ذلك قال كفى فى الأمر الأول . نحن الآن فى تفسير آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين فى العصور الأولى ماثل أمامنا ، فأرىك أنت فى الخلافة ؟ قلت : رأى ذكرته فى بعض أجزاء هذا التفسير . فقال أريد أن تصرح به هنا لأن هذا مقامه قلت قد كتبت فى جملة « المعرفة » فى شهر يناير سنة ١٩٣٣ فقال أرجو اثباته هنا مأخوذا من لغوى ما هنا ، قلت قد جاء فيها تحت العنوان الآتى ما يأتى ، وهذا نصه :

آراء خطيرة فى الخلافة الاسلامية

مبحث الخلافة الاسلامية مبحث مهم من المباحث العلمية الاسلامية ، وكل علم لا يعرف الناس أدوار تاريخه يكونون فى دراستهم له ، وأحكامهم فيه أشبه شئ بمن يبنى بيته على شفا جوف هار ، ومن يستحسن ذا روم وينفخ فى غير ضرر .

إن الخلافة الاسلامية فى الأدهر الغابرة لعبت دورا عظيما مهما ، وشغلت أم الاسلام قاطبة ، وتفرقوا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ما عودهم الآباء . وينشأ ناشئ القتيان منا * على ما كان عودهم أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل ينسى لطف تربي على مذهب خاص فى أمر الخلافة أن يفسر فى القرآن وفى الاجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لطريقته لا يعتمداها ، جامدا عليها لا يتخطاها . إن أكثر نوع الانسان فى الأرض مقلدون ، جدت القرائح وتعارضت الطنون ، ووقفت الحركة العلمية الإصلاحية فى جميع الشؤون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصاب الصاعقة ، وأحلت بنا الأمم « وهم من ككل حذب يفسلون » أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا إليها المسلمون أقل عليكم بآ الخلافة ، وأبد رأيا بجلا يقبل التفصيل والتحويل .

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأى فيه إلا بالبحث فى أحوال الخلفاء السابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملا بقره تعالى : « فاعتبروا بأولى الأبصار » وقوله تعالى « أفلم يجد الذين يرون لارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى موجهة للمصلحة العامة بأخلاص ، تصبح خدمة عامة لا يتصلح في أمرها عزازان ، ولا يرثها الأبناء عن الآباء ، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سوء تتقاذفها في أيدي الجهال وتأتي أن ينالها الأبطال . توفي رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فمصر فثمان فعلى رضي الله عنهم . درسنا بحل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أباً بكر وصى بها لابنه ، واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم أر أحداً منهم استنكر من الأموال وأتبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة في الإسلام . إن أمر الخلافة شورى بين المسلمين « وشاورهم في الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

مضى عصر الراشدين ، وتولاهم الأمويون وأولهم معاوية فاستبقوا بالأمر فتأولهم بنو هاشم فتك بهم الأمويون فتكاً ذريعاً ، ثم اشتد العباسيون والعلويون في مقاومة الأمويين ، وساعدتهم شيعة الفارسيون وبطلهم أبو مسلم الخراساني ، وأكثروا من موضوعات الاحديث ، وما كذا الأمر يتم للعباسيين حتى قبلوا ظهر الجبل للعلويين وقتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، وقتل المنصور محمد بن عبد الله ، وهو الخليفة الحقيقي صاحب البيعة الصحيحة .

هناك أصبح الخليفة العباسي بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمن وأبناء عمه العباسيين بالشمال بل كثيراً ما كانوا يقتلون شيعةهم غدراً كأي مسلم الخراساني وجعفر البرمكي وغيرها كثير . وقد قتلى العباسيون في إذلال العرب كما قتلى بنو أمية في إعلاء شأنهم على غيرهم ، ومات له إبراهيم الامام لاني مسلم « من ترددت في أمره فاقته » وحرقه على قتل العرب فقتل منهم ٩٠٠ ألف رجل غدراً وهم آمنون . مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون ولم الأول عريية ، وأم الثاني فارسية فنصر الفرس ابن أختهم وشردوا العرب كل مشرد وأذلهم ومنهم المعتصم للعطاء . ولما كانت أم المعتصم تركية من بلاد المسند أصبح مغماً بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هناك أصبحت الخلافة في العباسيين اسماً بلا معنى ، وتنازع القواد من غير العرب الرئاسة وصار الخلفاء آلات صناد في أيديهم فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ وسلموا أمين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدي التتار ، وكل ما حصل للعباسيين ثم نظره في الأندلس ، وقد كانوا يسقيثون بحيراتهم من الأسباب على انخوامهم ، فهلك القرقيان ، فرما كانوا يقتلون المستجير بهم غدراً كما حصل لجندل بن حود أمير أشبيلية إذ وعدته البابا ودوق فيزييا وبعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كما إذا ساءهم في فتح قرطبة فبر بوعده لم يقتلوه غدراً وخربوا أشبيلية .

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وسابغها من الامارات في الإسلام . وكان ذلك كله عقاباً على ترك الشورى المنصوص عليها في القرآن . والتي أراه :

(١) ولا — أنه يجب على كل أمة « عريية أو غير عريية » أن تعمم التعليم للذكور والإناث بقدر الامكان .
(ثانياً) — يجتمع أمراء الاسلام المقوضون من أهمهم في أمر الخلافة ، ليقضوا أميراً منهم لها ، على شريطة ألا يرمي أمراً الا بمشورتهم : من صلح أو حارب أو غيرهما كما كان فعل الخلفاء .
(ثالثاً) — أن يكون الانتخاب لسنتين معدودة أولدة الحياة ، فإذا اقتضت المدة في الأول أومات في الثاني فليقتضوا سواء بالشورى ، فإذا أعيد انتخابه في الحلة الأولى قل ذلك .

(رابعاً) — يجب أن يرعى في الخليفة أسراراً مهمان وهما (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الاسراء (٢) أن يكون أهله علكته أعلم من سائر الأسرار ، ولا يكون للنسب فضل إلا في الترتيب إذا تعارض أميران واستوفيا ماذكرهما . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة في العلم والجسم » .

(خامساً) - كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لاحقة في تولي أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأي من فوقه ، وهذا شأن المسلمين .

(سادساً) - لذا فظهر الاجتماع في هذا الزمان وتضاعف أوقاف تراق كلغة ، فليترى من المسلمون الوقت المناسب . فأما الخلافة الضعيفة التي يتولاها من لا يحوز هذه الثقة ، فما هي إلا شبكة صائدين ، وحيطة محتالين ، فهل المسلمون عتار يتناولوا الابناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالأولى لخلفائهم معطقين ولم مشيرين وعلى أممهم شاهدين ولا عوجاجهم مقومين .

هذه المآراء في شأن الخلافة وقرى كل ذي علم . هذا هو ما كتبت في مجلة المعرفة ، والحمد لله رب العالمين . طما سمع صاحب هذه المقالة قال : حسن هذا الرأي ، وقد ذكرت فيه : أن الدولة العباسية اضمحلت وضعت واستبد بها عمالها ، فهل من سبيل لمعرفة التفرع التي تفرعت لها تلك الدولة أيام ضعفها ؟ قلت نعم جاء في الجزء الأول من تاريخ القند الاسلامي ما يأتي :

وجعلت سلطة الخلفاء تنقل حتى وسعها السواديين القرات ودجلة . ولم يكده يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراعي بالله في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات	حكامها
البصرة	في يد ابن رائق
خوزستان	» البريدي
فارس	» عماد الدين بن بويه
كرمان	» أبي علي محمد بن الياس
الري وأصفهان والجبل	» ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضرب وبيت	» جني حيدان
مصر والشام	» الاخشيد
خراسان وملوراء الهير	» السلمانية
طبرستان وجرجان	» النديم
البحرين والجمجمة	» القرامطة

استبداد الجند والطعم

ومما زاد الامر استفحالاً أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلقين الايدي في قصور الخلفاء يستبدون في أعمالها ويسمون الخلفاء صنف الامانة وأنواع العذاب . كما فصل جند الفارسية والأتراك في المعز سنة ٢٥٥ هـ لما خلوه لأنه قصر في سلطانهم . فانهم ادخلوا حجرته وجروه بربله الى باب الحجره وضربوه بالسياط وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس . فكان يرضخ رجلاً ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقي بعضهم يلطمه ، وهو يتيق بيده وأدخاله حجره وأحضره ابن أبي الشوارب القاضي وجاعة فاشهدوهم على خلعهم ثم سلوه الدمن يعذبه ومنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم ادخلوه سرداباً وجصوه عليه قلت (١) . ومع كل ما خلق الخلفاء من اللذات والضعف لم يخطر للفارس ولا للأتراك ولا لغربهم من غير عرب قرش أن يزعوا الخلافة من أحاق بني العباس . فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مغارة الصين فالتصوها وقتلوا خليفتها

سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقي من أهله الى مصر ولنجأوا الى سلاطينها للمالك فانزلهم على الرحب والسعة الى ان فتح السلطان سليم الثاني مصر سنة ٩٢٣ هـ فاخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعا نبيما وخمين خيلة منهم ٣٧ في العراق ، وتولم السطاح وآخوهم المستعصم والباقر في مصر .
فلما سمع صاحب ذلك قال ما أحسن التفصيل بعد الاجال ، ولوأنا وقتنا على مجل السؤل الاسلامية من أول عصر السؤل الى الآن : لكان ذلك أشد جالا وكالا . فقلت هاك جدولاً بيان ذلك وهذا نفسه .

جدول السؤل الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى الآن

اسم السؤل	كرسى ملكها	عندما وكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هـ
الخلفاء الراشدون	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
السؤل الاموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الاموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
المجوبية	مالقة	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة	٠٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشيلية	٠٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
المجوبية	قرطبة	٠٣	٤٢٢	٤٦١
ذوالونية	طليطلة	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
العباسية	بلنسية	٠٧	٤١٢	٤٧٨
التوجيبية	سرقوسة	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ماوك دانية	دانية	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغالبة	تونس وغيرها	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	»	٠٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حجاج	جزائر العرب	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمال افريقيا	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنو حفس	تونس	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنو زيان	جزائر القرب	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بوسرين	مراكش	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرفاء	»	٢٨	٩٥١	لا تزال
الطولونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الاشنبية	المسائط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاها هـ
الفاطمية	أقبروان والقاهرة بمصر	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الابوية (٥)	القلعة (مصر)	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	» »	٢٧	٦٤٨	٧٩٢
» الشراكسة	» »	٢٣	٧٨٤	٩٢٢
العائلة الحمدوية	» »	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيدية	زيد (البحرين)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
اليعفرية	صنعا الخ	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاشية	زيد	٠٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعا	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	» »	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهديّة	زيد	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عبدن	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	البحرين	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	» »	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأمة الرسية	صعدة	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعا	صنعا	٠٠	١٠٠٠	لا تزال
الجدانية	الوصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
للمرداسية	حلب	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	للموصل وغيرها	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المرزبانية	الحلة	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
الدالية	كرستان (قارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	أذربيجان	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيدية)	طبرستان	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	قارس (قارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وقارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانت ايلك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزليزية	جوجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنوية	كرستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنوبويه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧

(١) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين التبريز وجاه ص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم الدولة	كرسي ملكها	د ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها هجرية
السككومية	کردستان	٠٢	٣٩٨	٤٤٣
السلجقة وفروعهم	جنوبي آسيا	٥١	٤٢٩	٧٠٠
الهاشمية	سواس وغيرها	١٢	٤٩٠	٥٦٠
الابابكة البويهيون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
» الزنجيون	سوريا و بين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
» البكتجينيون	اربلان وغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارمنية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
اتابكة اذربيجان	اذريجان	٠٥	٥٣١	٦٢٢
السلجقية	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
الهاشمية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣ (١)
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لأزرا
خانات المغول	زقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشار النخعية	قاراختاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
» القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
» چاغتاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلديرون	العراق وغيرها	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفرون	فارس و كردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السرمداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرينيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
القرقيزليون	اذريجان وغيرها	٠٥	٦٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	»	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات الجيم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال (٢)
التيموريون	تركستان والخر	١١	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	»	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المجيريون	»	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	»	٣٥	١٠٢١	١٢٨٩
» خوقند	»	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانجون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزنوريون	افغانستان و بنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	» و هندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هجرية
سلاطين دهل	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
« جانيور الشرقيون	»	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
« مالوا	»	٠٧	٨٠٤	٩٣٧
« بكرات	»	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خاندش	خاندش (الهند)	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهمنية	»	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات السليوية	»	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
« الظلمية	»	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
« بريد	»	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
« العادلية	»	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
« القطبية	»	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطور المغول	هندستان	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان	١٥	١١٦٠	لا تزال (١)

ومخلاصة ذلك ان البعول الاسلامية التي ظهرت من اول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس فيهم لطفاء والسلاطين والملوك والامراء والانا بكة والاشيخية والخديريون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والترك والشراكسة والاكراذ والهنود والسترو والمغول والافغان وغيرهم . ومن عوامهم للمدينة والكوفة والشلم وبغداد ومصر والقبروان وقرطبة والاسنانه وصنماء وعمان ودهلي وغيرها . انتهى ما أردته من كتاب تاريخ الفتن الاسلامي والحمد لله رب العالمين

بهجة المجال في تاريخ الأمم الإسلامية

في جواب اعتراض على المؤلف في هذا المقام

حضرة صديقي العالم الذي اعتاد مسامحتي في هذا التفسير . فقال : يحيل لي أن هذا المقام قد خرج من دائرة التفسير خوفاً يؤدي إلى أن يحسب الانسان نفسه في تباه المعارف ومفاوز العلوم ، أو كأنه غريب في وسط هذا المعان العلمي ، فأين آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبى حتى تقي » إلى أمر الله . من هذه البعول المتشاكسة ، والأحوال المتناقضة التي لا حد لها ولا نهاية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنت بما صنعت هنا خرجت عن دائرة التفسيرين جميعاً فاهم قليلاً ما يطرئون إلى مثل هذه الشاكل والنشاجات والحوادث علما منهم بأن كلام الله لم ينزل لمثل هذه الامور ، هو نور ، والنور غير الظلمات .

فقلت : حياك الله أيها الأخ ، أنا أهل انك تعبر بهذا عن آراء كثير من اخواني المسلمين شرقاً وغرباً ، وهذا القول آثار في نفسي آثاراً جلية صالحة :

وسرك وجددي بعد ما كان نائماً * برأد الضحى مشغوفة بالترجم

فلوقبل مبكها بكيت صباية * بسعدى شفيت النفس قبل التندم

(١) سقطت وآمرها أمال الله خان

ولكن بكت ليلى فهبج لي البكا * بكاءا قلقت الفضل للتقدم
أذكرني بقول ابن الفارض :

أجد الملاحة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليكني القوم
إن ملامتك أيها الصديق إغراء :

دع عنك لومي فإن اليوم اغراء * ودلوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأضغان ساحتها * إن مسها ضجر مسته سرءاء

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أخذت في القول بدل الإجابة ، وذكرت انحر المنومة طبا وشرعا . قلت :
« ذلك الأمثال فضر بها للناس فلهم يتذكرون » ، هاجت بلايل شوق للبلح الجلية ، والآيات البديعة ،
في هذا الوجود وحكمته ، والعلم وروحه .
أيها الأخ الفاضل : سأحدثك الساعه مجيبا عن اعتراضك بما يتلج صدرك ويشرحه ، ويصلح بالك ،
فأجعله في ثمانية فصول :

- (١) في النظر في عالم الحيوان .
- (٢) وفي بروز الانسانية من وسط معامع الميجهاء النائرة في الشهوات البهيمة ، والسطوة السجبة ،
وتسلطها على القوتين ، والاعتدال فيهما .
- (٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان (كوثيشيوس) الفيلسوف الصيني في القرون الأولى
(٤) ثم قفاه (سقراط) في جمهوريته واتمى نحو آخر في سياسة الأمم ، وهما في النتيجة متماثلان
متقاربان ، وإن لم يعرف أحدهما أخاه ، لتباعد السيار ، واقطاع الأخبار .
- (٥) ثم تطبيق عالم تلك الأمم البائدة على الأمم الاسلامية في القرون الأولى ، وكيف تطوّروا في
سياستهم على مقتضى ماذكره (سقراط) فكان أولاهم على المنهج الأمم ، ونزل الأبناء من سنان
الآباء دركة فدركة إلى أن انحطوا إلى أسفل سافلين في سياساتهم .
- (٦) ثم تبين أن ذلك لم يخلق الله سدى ، بل جعله بساتر ونورا لنحن المسلمين في هذا العصر الذي
جاء كالفصل بين أمدنين متناقضين : أمد مضى بمجاده وتجاربه التي جعلت سلام يصعد عليها
الجبل الآتي والجبل القبل إلى قمة السعادة والهناء .
- (٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحواشيهم لم تظهر آثارها أكمل إلا في زماننا هذا ، لأن الله يريد أن
تكون في سعادة وحبور .
- (٨) ثم تبين نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان في هذا الزمان .

الفصل الأول : نظرتي في عالم الحيوان

اللهم ان نورك مشرق علينا ، في كل حين شمس تشرق ، وقر يضيء ، وكواكب تزين ، ومجرات
كشبات الشمس ، وسلم بيئات الأمكنة ، طويلات الأزمنة ، من حيث وصول أنوارها إلينا .
رباه : جل صنعك ، بهوت حكمتك . رباه : خلقتنا في وسط هذا النور والجمال ، وجعلت فينا قوى
نحسنا على أعمالنا نحن ، فإذا وجدنا ؟ وجدناك ياربنا بهتت في الحيوان نشالنا قوى ثابتة فيه سمينها
« القوى الشهوية » ، تلك القوى حركته لطلب القوت ، وطلب النسل ، وطلب في هناء وحبور ، رأيناك
منحه غرائز ، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد ، وحفظ النوع ، وحفظ السعادة الزوجية ، في مقابلة أحوالنا

المزلية ، وحفظ الجماعات في مقابلة أحوالنا السياسية .

هذه يارى حال الحيوان الذى يحيط بنا ، أنت القام بشفاه ، فالنور الذى يحيط بنا من كل جانب وتراه عيوننا قد أصحى الحيوان في داخله قوى تفسد له طرق الحياة ، مشابهت من حيث حقائقها له مشابهة تما . إن الحيوان بنوره الداخلى للموازي لنور الكواكب الخارجى من حيث الهداية قد كشف أسرار السعادة الشخصية المزلية والسياسية ، ولكننا من جهة أخرى وجدنا أموراً هيبية ، وجدنا قوى القنصبى كواسر الحيوان أقرته أن يسطو على أمثال الفزلان والأرانب من آكلات الحشائش . تسطو الكواسر من الطير على بفتحها ، والسباع والفور والوحوش على ذوات الفلقس والحافر وغيرها ، مجزرة هائلة ، وميدان واسع للقتل والفتك والنهش ، بينما نرى كل نوع من حشرات ، أو طير ، أو زواحف ، أو كواسر ، مسوقاً بغيرته للتعاطف والتواء والتراحم ، بالعواطف تعارضت واتجهت إلى اتجاه الإهلاك والتدمير والقتل والحفر والعداوة والعدوان ، ملحمة مجزرة مهلكة ، جنازات تبعها جناز ، ونهايا وراءها نهايا ، في وسط هذه المعامع والمجازر برز خلق جديد .

الفصل الثانى في ظهور الانسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الانسان ، وما هو ؟ هو حيوان اجتمعت فيه القوة القنصبية مع القوة الشهوية ، فهو سبيع وغزال ونمر وأرنب وطاووس ، هو جماع كل حيوان ، فظهر التشاوب في أخلاقه ، وانحلاط في أهله ، كما كان بين الأسد والثاة والفقر والغزال ، ولكننا رأينا له حالا ثالثة سبينها «علاء» عقلت القوة الأسدية أن تطلق ، والقوة الشهوية أن تتجحد عن الصراط السوى ، وهناك كان الظن أن يكون هذا الانسان معتدلاً ، ولكن * ما كل ما يجنى المرء يدركه * فالتنا رأينا المجازر والمذابح والغارات التى تشنها الأسود على الفزلان ، قتل مثلها وأشد منها الأمم القوية مع الضعيفة ، ومن المتجمل أن الكواسر من الطير ، والقوائمك من السباع لها العنرفى الفتك بالآكلات الحشائش ، فأما الانسان فانه حيوان زاد في شره . عن كل حيوان ، فهو يفر على غيره لئلا كل من قبه وعرق جبينه ، ليكون النعم له والفقرم على غيره بلاعة إلا طفياؤه . ولا سبب إلا جهله وخطئه للمين .

هذه صفات أكثر نوع الانسان ، ولقد ارتقت عن هؤلاء طائفة منهم فقالوا : قف أيها الانسان قف ، أين عقلك ؟ إنك لقوى ميين ، نحن نزلنا عن الحيوان شرقاً ، ونزلنا دركات في طرق العناية ، ألسنا أشرف منه قدراً ، ألسنا أرفع منه مرتبة ؟ أفلانكون نحن برة أقياء ، فعلياً أن نحصل المجموع مساعداً للمجموع فلننقم بالقسط ، ولنترك لكل امرئ ما كسب ، بل لنزهد نحن فيها في أبهى غيرنا ، ولنكن أباء رجاء للناس ، هذه مذبذبنا لاغير ، لقد علمنا بما جربنا أن الله سريع الحساب ، وبهذا نزل الكتاب ، ألم نروا أيها الناس أن الانسان إذا أكل فوق طاقته ، قاله يتحمل تبعه جهله ، ويسلى السواء المرء الكربة ، فيكون النعم بالفقر ، أليست البطنة تذهب البطنة ، بل ألم يظهر في علم الطب حديثاً أن كل ما كول قد طبخناه قص من مادة الحياة فيه مقدار عظيم ، وما لا يطبخ يسلى قوة الحياة لنا كلمة ، إذن أيها الناس نحن غافلون ، اتباع اللذات والشهوات له ردة فعل ، فالفه سريع الحساب لنا في نفس الحياة فضلاً عما بعدها ، وأيضا إذا نوطنا في اللذات وجدنا قروا انضخت ، وكل جيل يكون أضخم بمقله ، والعاقبة عجزية موقفة في الدمار والهلاك فهذه الطائفة من نوع الانسان قالت . كلا . فلتكن حكومات ، وليكن نظام ، فانظر :

الفصل الثالث فيما نقل عن كوثشفيوس الفيلسوف الصبني العظيم

بقلم الكاتب الأمريكي (ول. دورانت) مؤلف قصة « الفلسفة وعصور الفلسفة » وقد ذكر أسماء ١٢ عظيما اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل :

- (١) إن القوم للمصري عر عليه قد ألف سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد وهذا من عجائب العلم .
- (٢) ومثل بوذا للتوفى سنة ٥٤٢ ق. م .
- (٣) ومثل كوثشفيوس للتوفى سنة ٣٧٨ ق. م .
- (٤) ومثل سقراط للتوفى سنة ٣٩٩ ق. م .
- (٥) ومثل قيصر للتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد .
- (٦) ومثل المسيح .
- (٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للتوفى سنة ٦٣٢ ب. م .
- (٨) ومثل روبريكن للتوفى سنة ١٢٩٤ ب. م . الذي يدعون انه أول من استعمل البارود (١)
- (٩) ومثل غوتنبرج للتوفى سنة ١٤٥٤ ب. م. مخترع الطبعة .
- (١٠) ومثل كولبوس كاشف أمريكا سنة ٤٩٢ ب. م .
- (١١) ومثل (جيمزوط) مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م .
- (١٢) الثورة الفرنسية .

هذه هي الحوادث التي اختارها ذلك الكاتب الأمريكي التي يمتدح بحسب نظره هو أنها أعظم ما أثر في العالم الانساني ، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كوثشفيوس الفيلسوف الصبني الذي عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة ، فهل لك أن أحدثك عن أولهما ، ثم أحدثك عن ثانيهما ؟ أحدثك عن أولهما في هذا الفصل ؟ لماذا ، أحدثك عنه ، لأنه شرح المسألة التي أنا الساعية بطريق حلها ، مسألة نظام هذه الدنيا ، هذه الدنيا الجلية في نظر الفيلسوف ، للربكة الموحشة في نظر الجاهلين .

الله أكبر : أنت كبير ، أنت عظيم ، هجينا يارب لهذا الإبداع ! هجينا يارب لإبداعك ! تعاليت وارتفعت عنا ، وأرسلتنا إلى الأرض ، وقلت لنا أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فحيثوا فيها ، وسترون موتا وحياة ، وعزا وذلا ، وقاهرا ومقهورا ، وغالبا ومغالوبا ، وحيوانات ذرية تطوع على الانسان ، وعلى الأسد ، والأسد يسطو على الانسان ، وانسانا يحارب انسانا بالسيف والنار والحديد والبارود والغارات الساتة ، فتذهلون من هذا المنظر ، وتقولون موت وحياة ، وفرق ووصال ، ماهذا ماهذا ؟ ولكني اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم ، يعيشون فيكم وأرواحهم في الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسادهم ، وكأنهم في عزلة عن المادة ، أشهدتهم سني ، وأفهمتهم حكمتي ، وأن ما يباهدون به إنما هو لظاهر التي تشبه مظاهر السبنا (دار الصور المتحركة) يراها المتفرجون صور اتبعها صور والنفس باقية خادمة لن نموت ، وما هذه الصور إلا أحوال مختلفات عارضات على النفس التي لا خلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادة إلا بما يعتريها من نفس وسعد وموت وحياة ، فالأهل والأحباب على حريضهم وميتهم يكون ، والتي والحكيم والفيلسوف يضحكون سرورا لما تجرى به المقادير عليهم وعلى غيرهم ، لأنهم للناس آباء ، والناس كلهم أبناءهم ، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على مجل سره للصون للمكتون ، فعرفوا أنه رحيم وماعه إلا لتخليص النفوس من الجهالة ورقها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم ، فتشاهد الجلال والجلال ، فهذه الطائفة (١) وهذا خطأ لأنه اختراع إسلامي .

منهم كنوشيوس وهو حكيم كبير . قال الكاتب الأمريكي في ذلك مذكورا في « مجلة المتحفظ » في شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م :

« ولابد لنا من رمز يشل الصين ، الصين العظيمة التي يدعوها أبناءها « كل ماتحت الشمس » . والصين القديمة التي مازالت تدون تاريخ ملوكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن ، والتي لأغتم هذه القصة لأعرض على نظرائي فكرة من كتابات كنوشيوس ، فانها تحتوي على حكمة خالصة من الشواهد وهي من كتاب « المعرفة العظيمة » . قال : - « إن الأقدمين الأجناد كانوا اذا أرادوا أن يرفعوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون أحوالهم ، وقبل أن ينظموا أحوالهم ينظموا أحوالهم ، كانوا ينظمون أحوال أسرهم ، وقبل أن ينظموا أحوال أسرهم كانوا ينظمون أخلاقهم ، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم ، وقبل أن ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون أن يكونوا صادقين وعظماء في تفكيرهم ، منزهين في أغراضهم ، وقبل أن يكونوا صادقين وعظماء ومنزهين ، كانوا يوسعون معارفهم ، وتوسيع المعرفة كان يحى عن طريق البحث والملاحظة ، شاهدوا الأشياء والأفعال فاكتملت معارفهم ، ولما اكتملت معارفهم خلصت أفكارهم وتفرغت أغراضهم فتهدت أخلاقهم فتفتت نفوسهم فانتظمت أسرهم ، ولما انتظمت أسرهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها تفرح في السعادة والوقام » .

« ولما كنا مرادين في الفكر ، ورفض أن نرى الأشياء على حقيقتها (كالمخترعة مثلا والزواج والاستعمار ونظام الطبقات في أوروبا وأمريكا) ، فنحن لسنا عظماء في تفكيرنا ، ولما كنا غير عظماء في تفكيرنا قلنا علينا أن نبلغ بنفسنا مراتب الكمال ، وأن نظم حياتنا ، ولما كنا لانستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرا ، وإننا فعلنا في حالة اضطراب وفوضى » .

هذا هو الدرس البسيط الذي يقيه علينا كنوشيوس ، أي أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كنوشيوس عن ظهر قلب ، فقد وجدت كل سطر من سطوره يصل إلى صميم الحقيقة ، وفي الوقت نفسه يمكن تطبيقه ، وإذا أدخل إلى نفس أقول : لو أن بعض هذه الحكم طبع في نفس من عشرين سنة لكانت فزت باتساق النفس ، والكرامة الروحية ، والفهم الهادئ ، والخلق اللين ، والأدب الخالص ، وهي الصفات التي يتصف بها الصينيون المتقنون الذين عرفهم ، أنا لا أعرف رجلا طبع أمة بطابعه كما طبع كنوشيوس أمة للصين ، فلتنخذ تاريخ وفاته رمزا وحافزا ، إن هذا الرمز ينطوي على القصائد الغنائية البديعة التي نظمها شعراء دولة « تانغ » الصينية ، وصور المشاهد الطبيعية المقسمة بسمة التصوف والشوق ، والآية الصينية الكاملة شكلا وزخفا ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها ، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة فلنخص في اسم كنوشيوس . وبهنا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع : في آراء سقراط في جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكي أن كنوشيوس في الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف واتساع المعارف باه على البحث والملاحظة ، وبالبحث والملاحظة مكنت المعارف غلظت الأفكار ، وهذبت الأغراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسرة فلهول .

يسبحان الله : إذن أم الاسلام لارتى لها إلا بحرفة المشاهدات واستقامتها بحثا وتقيا ، فيعرفون إذن علوم الكائنات حولهم ، ويطلعونها ، ويدرسون آثار الأمم البائدة التي ورثوا هم أرضهم وديارهم ، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتعاشوه ، إذن لندرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى ،

وندرس تواريج أسلافنا من العباسيين والأمويين والصعابة والتابعين ، ثم نرى الحسن فضله ، والقيس فنحنه ، لا أتناقش بسطوة الملوك وجبروتهم ، ومنعهم الشراء أموال الأمة جزاء ، ولتنبذ كل ما كان فيه استبداد كبيرات الخلافة الإسلامية بالباطية القسرية ، وتوارث المسلمين بها كما توارث النعاج والغراف ، كل ذلك لن يكون إلا بالفراسة ، وهذا الاجال الذي قاله فيلسوف الصين فضله سقراط للمعاصره ، فقد جاء في الجمهورية في الكتاب الرابع حكاية عن (ادمنس) الذي تمثل في الموضوع وسأله قائلا : وبماذا تدفع عن نفسك يسقراط (يريد بذلك أن سقراط حرم على رجال الدولة القاطنين بالحكم أن يجتمعوا بالأموال ، بل يجب أن يكونوا زهادا على الهيئة التي رأيناها في أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم ، وأن لهم هم سعادة روحية ، وتبتلا ، وصلة بهم ، تجعلهم أسعدا لك سرّة من المتفرجين البائسين الجاهلين) إذا احتج أحد عليك بأنك لم تبلغ برجال هذه الطبقة «الحكام» أوج السعادة ؟ مع أن اللوم عليهم في عدم سعادتهم لأن الدولة دولتهم عند التحقيق ، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضى ويشيدون الأبنية الفخمة ، ويفرشونها فرشاً يتفق مع نظامها ، ويذبحون الذبائح ، ويولون للأطباء ، ويملكون الفضة والذهب ، وكل ما هو ضروري لاسعاد الناس ، وقد يقال انهم كمشار للمستعبدين ليس لهم في المدينة إلا الخفارة .

(سقراط) نعم ، بل يظهر انهم يقتصرون على القوة ، ولا يأخذون معه مالا كالأخرين ، فلا يمكنهم السفر على نفقتهم إذا أرادوه ، ولا تقديم الهدايا لخطاياهم ، وانفاق الأموال على الرغائب الأخرى ، كما يفعل المسروبون سعداء ، وأمثال ذلك من الأمور مما طويت عنه كشمعنا .

(ادمنس) فأضيف ذلك إلى شكواي .

(سقراط) أفستأني أيّ دفاع أقدم ؟

(ادمنس) نعم .

(سقراط) أأنت أنتا إذا استأفنا السير في الجهة نفسها أدركنا المصاعب المطالب ، مع انه لا يستغرب كون هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى في هذه الأحوال ، على اننا لم تؤسس الدولة لتجريد أسعد قسم من أهلها ، بل لاسعاد الجميع معا على قبح الامكان ، وفرضنا في انشاء الدولة اكتشاف العدالة ، كما اننا في دولة أخرى ساء نظامها نكتشف النقص ، وبعد اكتشاف هذى ونكفينا البتة في المسألة التي أماننا ، فنحن جاذبون في الوقت الحاضر في انشاء دولة سعيدة ، لاقى أن نخمس أفرادا منها بالسعادة ، بل أن نسعد جميع أفرادها على السواء ، ثم ننظر في دولة هي تقيض هذه أحوالا ، فلنموتنا شخصاً بشراً فانقذنا منتقدا بأننا لم نزين أجل أقسام الصورة بأجسى الألوان ، لأن العيون وهي أجل أعضاء الجسم لم تلون بالأرجواني بل بالأسود فيجب أن تفكر في أنه دفاع كاف قولنا له : «أيها الناقد مهلا ، لا تتوقع منا أن نلون العيون باللون الجليل بحيث لا يتق عيوننا ، وهكذا يقال في بقية أعضاء الجسم ، ولكن انظر اننا جعلنا الجسم كله جيلا بتلون كل عضو فيه باللون الملائم ، جريا على الطريقة نفسها في مثلنا الحالي نوجب علينا أن نسف صنف السعادة على الحكام فيصرون غير ماهم اه

وجاء في الكتاب السادس من الجمهورية في صفحة ١٥٥ : «ان هؤلاء الحكام فضلا عن زهدهم في المال ، وأهم آباء الدولة ، يجب أن يدرسوا كل علم ليملاوا إلى معرفة الله عز وجل الذي عبر عنه هو بالخبر ، وهذه الدراسة مفصلة في هذا التفسير مجتهد في الجمهورية ، وإنما طلب ذلك لأن تلك الدراسة توجب حب صانع العالم ، ومتى كان هذا الحب تحت السعادة وصار هؤلاء الحكام خلفاء له في إدارة أرضه : «باداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق» ولا تنفع الهوى الخ» .

وقسم في الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام : (أرستقراطية ، وديموقراطية ، وأوليغارشية ، وديموقراطية ، واستبدادية) فالأرستقراطية حكومة الفلاسفة ، وهي الحكومة العادلة المشروعة شرعا وسياسيا فيما تنظم ، ثم يظهر بعد ذلك الخلف على غير طريقة السلف ، فيظهر خلف الفلاسفة غير مرادين الحكماء ، فيصبح الأمر بيد القواد ، ويقعون بالسهولة بدل الفلاسفة ، وهي التيموقراطية ، ثم يظهر بعد ذلك الطمع في المال ، وتذهب الحساسة من الجنود ، ويصبح للمال هو المقصود بعد أن كانت الحكمة في الأرستقراطية ، والحساسة في التيموقراطية ، فلما إذن يكون هو المقصود في الأوليغارشية ، فلذا أصبح هذا مقصودا كابر الأمة فهم إذن مجرمون ، لأنهم يضمنون الشهوة الساقطة ، شهوة البطن والفرج ، وإذن يصبح المال في يد الحكماء ، فيقوم الشعب ويحاسبهم حسابا صريحا ، وتزعج الأمة إلى الثورة ، فتكون الحكومة بالانتخاب ، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهي الديمقراطية وتكون الحكومة الاستبدادية إذا لم يمكن ضبط الأفراد .

هذه هي الحكومات وأنواعها ، ومن رأى سقراط أن أهلاها أولا ، وآخرها أقلها شأنا . والديموقراطية وهي الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات ودونية ، ولكن في زماننا قيمتها عظيمة ، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لئلا يفتن عليها ما تريد من الكلام في الفصل الخامس .

الفصل الخامس في تطبيق علوم تلك الأمم على أمننا الإسلامية في القرون الأولى

فلما رأينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يئذل قصارى جهده في التبري من مال المسلمين ويكتفي بأقل القوت ، ورأينا أبا بكر قبله والنبي صلى الله عليه وسلم وعليهما رضي الله عنهما ، فإنا نقول هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط ، وإذا رأينا أن العصر الأول لما ذهب دولته ، ورأينا الأمويين والعباسيين في القرن الثاني يقاتل بعضهم بعضا وإن كانوا مجتهدين والمجتهد له أجر ، ورأينا أمثال عبد الله من ذرية الحسن وقد حضر عند السفاح ، ورأى للمال الخبث من بني أمية ، وهو جواهر وحلى للنساء ، وهو يطلبه من السفاح لأن ابنه كان هو صاحب البيعة فلما لانشك أن هذا الجيل أقل من الجيل في القرن الأول ، لأن بعض آل البيت أحبوا المال وقد كان على رضي الله عنه وعمر يتركان منه ويهربان ، وهذا يأخذ ألف ألف درهم ، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت ، وقد كانت تنفر منه وتحقره فاطمة رضي الله عنها ، فالسفاح في المثال المتقدم للشروح أتقا قبل هذا المقام في الطبقة الثانية وهي التيموقراطية فهو إلى الحساسة أقرب ، وعبد الله من ذرية الحسن أشبه بالطبقة الثالثة وهي الأوليغارشية ، وهي التي مقصد أربابها المال فهو إذن في رتبة شهوية كما كانت التي قبلها حاسية (وبعبارة أخرى) إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب ، وأمثال السفاح إلى الحساسة أبعد ، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب ، وهي التي يعقبا الاضطراب .

هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا ، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعا على نسق واحد ، وهو هذه الطبقة . طبقة المال والشهوة البهيمية ، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحساسة ، فأصحاب الحساسة أخذوا أصحاب الشهوة : أي الطبقة الثانية أدت الطبقة الثالثة . اللهم إني أنت الحمود على نعمة العلم ، بحمدك أنك عرفتنا لماذا اتبعت من المسلمين بعد العصر الأول وسلطت بعضهم على بعض ، وألبستهم شيئا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، لأنهم لم يكونوا في النزوة العليا من مقاصد الملك ، وهو العدل والصدق والاخلاص ، وإعطاه كل ذي حق حقه ، أي انهم لم يكونوا خلفاءك

أنت على عبادك في الأرض ، وبعضهم أخذ إلى الأرض واتبع هواه في الليل إلى عصيته ، وأبناء يثته ، وتفضيلهم على سواهم ، وأنت ما أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم إلا للعدل العام ، وهجر العصبية الجاهلية ، لذلك عاقبتهم بالتحاذل ، وجعلت الملك في أيدي غيرهم ، وجعلتهم خاضعة أعناقهم لقوادهم من الترك وغيرهم .

ههنا ظهرت الحكمة في تسليط بني هاشم بعضهم على بعض ، قال العباسي يقتل العلوي ، والعلوي يطلب بالملك ، والله يقول . كلا . لا ملك لأنكم تريدون عليا أدنى وهذا الدين زلزالهاو على ، فكونوا متعادين لأسلط بعضهم على بعض ، وذلك جزاء الذين لا يعدلون .

خطاب من المؤلف الى السفاح العباسي وعبد الله الحسني

« أيها السيدان العظيمان : أزلتما دولة الأمويين ، وأخذتما جواهرهم وقودهم ، لمن هذه النقود ، ولمن هذه الجواهر ؟ أهى لكما أم للأمة ؟ ستقولان ان لنا في بيت المال كذا وكذا ، ونحتاجان بفروع علم الفقه ، والفقهاء مختلفون ، وعمرضى الله عنه يرى غير رأيكما ، لنسح فروع الفقه جانبا ، نحن نريد تربية الأمة ، إن الأمة لا ترى بهذه الطريقة ، لا ترى الأم بأن تجعل طائفة منها تخصص بالمال ، وتجعل غيرها مسخرة لها ، فهذا مثال العين وصفيها بالصبح الارجواني الذي ذكره سقراط ضربه مثلا لطبقتكم الشريعة يرى علم الحكمة المدون قبل النبوة أن طبقة الحكام أولى بأن تزد وترضى كما ترضى العين بصفيها البسيط وتباعد عن أن تزين كما تزين العرائس ، وأن تكون مترفة ، إن المترف قليل ، وكثرة المترفين تسقط الأمم ، الوقوف عند فروع الفقه والجدل فيها لإضاعة جمال الاسلام . يقول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أليس هذا هودين الاسلام ؟ أليق بنا أن نجعل جسم أمتنا أعضاء مصابة بالشلل ، لنسح انفسلفه والحكمة العقلية جانبا ، ونزجر الى النبوة ، ماذا رأينا فيها ؟ رأينا إعراسا تاما عن مال الأمة من نبيينا ﷺ وظلاله فإذا جرى بعد هؤلاء ؟ رأينا كما أيها السيدان تهديان مال بني أمية : فانت يا سفاح تواسى به عبد الله الحسني لذلك اغتصبت الخلافة من ابنه وهو يتشوق لآل ويفرح ، وأتما معا نيتنا ان المال مال الأمة ان لم يكن يعلم الفقه ، فليكن يعلم الاخلاق ، وعلم القرآن ، وعلم النبوة ، وسيرة الصحابة ، أين رأى الامه في هذا المال ، نحن أيها السيدان نحفظ حشكا وشرفكما ونمد كما مجتهدين ، والمجتهد غفلة ومصيبا مرحوم ولكن الاجتهاد شيء وتربية الامه شيء آخر ، هاهذا كوتغوشيس الفيلسوف السبئي يجعل قنطرة الضمير وتهذيب النفس ، ونظام الأسرات ، ونظام للمالك : كل ذلك موقوف على البحث في المحسوسات وفهمها ودرسها ، وهماي ذه النبوة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها في الخلفاء الأربعة : نسح أصحاب رضى الله عنهم يقولون : « من حفظ البقرة وآل عمران جد في أعيننا » وهذا هج ، ونسمعهم يقولون : (ما كنا نحفظ آي القرآن حتى تفهمها) وهذا قدم قريبا : هذه البقرة ، وهذه آل عمران ، ونحن الآن نحفظهما ونحفظ القرآن كله ، ونحفظ علوما وعلوما ، ولكن أين مالوكنا وحكمتنا وقضائنا الذين أشبهوا أبا بكر وعمر وأمثالهما ، أخبراني أيها الشريخان العظيمان ، وقولاني بضع في خاطري ان النبوة كانت تلقى عليهم تعاليم تبشهم على النظر في ملكوت السموات والأرض ، حتى ترسخ محبة الله ومحبة الخير للناس في قلوبهم أولا ، وتعاليم أخرى تجعلهم يفسرون في الأم والبول والأخلاق والأحوال ؟ والافلما ذا نسح كما تقدم أن بعضهم يحفظ السورة في سنين معدودة ، وما هذا البلاء إلا بتفهم المعاني التي ذكرها أنهم يتعلمونها من نبيينا صلى الله عليه وسلم .

خطاب المؤلف للمسلمين

أيها المسلمون : نحن اليوم نسلم تسلياً قاطعاً أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم مجهولة عندنا ، وقررتُ وشهدتُ كما جاء في الأحاديث السابقة للمقولة من **(الاعتان)** للسيوطي أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوة كانت متبوعة بمجان نجهلها نحن الآن ، بدليل أننا لم نجد رجلاً يضارعون الخلفاء الراشدين في تعميم العدل في الأمم ، قررتُ بهذا وفترتُ به ، وقررتُ بأن التعاليم التي فهمها الصحابة وأكثروا لم يعرفها أكثر الناس بعد ذلك وضربوا عنها الذكر صفحاً . نعم : الشريعة كلها بلغت هذا لاشك فيه إنما الأمور التي وقررت في الصدور ، وهي التي تهذب الأخلاق وتحفظ الدول ، وتحفظ المال للأمة جعلت نسبياً منسياً غالباً . أقول : فلعل ما أظننا به في هذا التفسير يحوم حول بعض تلك المعاني الشريفة : ففيه بهجة الجبال السباوي والأرضي ، وفيه نظام الدول والممالك ، وكيف يكون زوال الملك عما لا يشهده على المال : فلعل هذا الكتاب يكون فاتحاً باباً يلج به المسلمون بعدنا ويدخلون منه الحقائق الخلقية والنظم الدولية ، فلا عجب في ذلك فقد رأينا النيل يجري من خط الاستواء وبين منبعه ومصبه في البحر الأبيض المتوسط ما يربو على ألفي ميل ، ولم تظهر ثمراته إلا بالقرب من مصبه في بلادنا المصرية : أماني السودان مشرقه قليلة ، فلعل دين الاسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد الصور الأولى وزمانه الحديث اليوم ، والله هو الولي الجيد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

التفصيل السادس ، في أن الله عز وجل هو الذي أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والعلم والدين لا يظهر فؤادهما التامة إلا بعد التجارب الكثيرة ، وهاتين أولاه رأينا نتجارب الآباء سنأخذ اليوم حذرنا عما وقعوا فيه ، ونؤسس الممالك على الثورى ، ولا نكون مغرمين بالمال كاطبقة الشهوة ، ولا بالظمة كاطبقة الجسدية بل نكون مغرمين بالعدل ، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين ، وماعدنا ذلك فنحن ندعه : وهاتين أولاه عرفنا حقيقة التاريخ ، والله بالمرصاد لمن غفل في السياسة ، كما إنه بالمرصاد لمن غفل في تقدير الطعام والشراب فالقصر والمهالي فيما مخدول مقهور مهان ذليل ، فمن أكثر من الطعام أورثه الأسقام ، وشرب النواء الكريه الزهكدا من طفي في الملك منع ليدب النوم ، وأصبح محسورا مقهورا .

خطاب الله للأفراد والأمم

إن ما راه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الاسراف في المأكل والنسرب ، ومن حيث الجهل باللهبة المأمة في الأم ينهمنا فهما عليا ، كأن الله عز وجل يخاطب الأفراد قاطا : أيها الناس . هاأنذا أنزلتكم في الأرض ، وأعطيتكم الحب والغناكة والخضر ، ويؤاتكم في الأرض منازل وقصورا لأنظرا تكفرون بجهل نفسي ووضعا ، غير مرضعها ، أم تشكرون بالنظام العام ؟ وقد أعددت لكم العدة ، وأتت العدل بينكم ، وأنا سارع الحساب في الدنيا قبل الآخرة ، فمن أكل فوق طاقتة ، وأنبع شهوته ، فاني أعددت له أمراضا عظمتا تذله ثم تقتله ، وإذا أراد البره منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المأفية لمراجعه لسلوة ، وأعطيتهم الأسلحة والشارط ، وقلت لهم : أيها الأطباء من استغلت من هؤلاء الجاهلين بنظامي وهو مريض فجزءه كؤوس الأدمية يشربها صبرا وعقما ، ومزقوا جلده بأسلحتكم المصدة لذلك ، وأدخلوا تحت جلده مرة تحتقوته بها ، زياذة في تصديه ، ونكالا به ، لأنه جهل نعمتي ، وهذه الأدوية

للزفة ما هي إلا أنواع من السموم التي تحتل أجسامهم تحملها ، وتقدر على أن تمسوها وتمش بها ، فن عاش من هؤلاء عاش عيلا سعيًا ، ومن كثرت أدويته أوردته موارد الحكمة ، ومجّلت به إلى عالم الأرواح يعرف مستقره ودرجته في عالم الأموات .

هذا خطاب الله الذي يخيل لنا أنه يخاطبهم به في كل زمان ومكان ، وكأنه عز وجل يخاطب الأمم قائلا : « أيها الأمم : ها أناذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوان حولكم ، وكثير منهم لهما ملك منظمات ، ومجبة ومساعدة تامة كأهل والنحل ، أما أتم فإن أي أمة جهلت المحبة العامة وقاطعت ، وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدو كما حصل في أم العرب وأم الإسلام للتأخرين ، فوعزني وجلالي لأسلمن عليهم من هم أكثر منهم التثام ، وأوصلهم رحما ، وأقر بهم محبة ، وأحسن منهم نظما في مدنيهم وإن كان دينهم أقل من دينهم ، وشرفهم أدنى ، ولكن للوذة العامة نفعية ، هؤلاء أسلمهم على هؤلاء المتقاطعين يسومونهم سوء العذاب ، ويقتلونهم فتكا ذريعا ، ويضربونهم قاطعا بلوشايت والنسكيات ، ويصبرون لهم أشبه بالعلم والعبد حتى يستيقظوا من نومهم .

فالأمة العظيمة التي استحكمت نظمها وإن كان كثير من رجالها فسقين أسلمهم على الأمم المتقاطعة وإن كان أكثر رجالها صالحين ، لأنني أريد للوذة العامة ، وللمحبة للثمة ، التي تشمل الأمة كلها نظاما واقعا ، فأى أمة قصرت في ذلك فإن من هي أحكم منها نظاما تسطو عليها ، وتهتك سترها ، وتذلها ، وتقترب عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها ، فتقتنف عليها النار من البحر ، ومن السفن البحرية ، ذلك جزاء الجاهلين .

هذا ما خطرت اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ ميلادية — ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهر والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع : في بيان أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات في الجهاد اختص بالحم الطيور ، وبالغمام الوحوش ، وأخذ الخيالة ما عليه من سلاح وكراع ، وهذا هو المسمى (السلب) كسب كما يقول عنتره شعرا :

لي النفوس وللطيور المحوم وللشوحش الغمام وللخيالة السلب

وإذا دفن في جده ، فلهود والحشرات تراث له وعظمه ، ولورثته ماله وعقله ، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره ، لم يخلق الله خلقا عبثا ، فلذا مات أبونا الأول ، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم ، وهي العبرة في التاريخ : لأن الود استوفى حظه ، والورثة تالوا حراهم ، فلنستوف نحن ميراثنا الآن ، ولنقل أن الأمة رضى الله عنهم كآفي حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط ، وملاوك مقتضيين ، فأهان المنصور الأول والثاني ، وأما الثالث فقد امتحن وأهين في مسألة خلق القرآن ، إذن فلا سبيل إلى إطاعتهم في أمر نظم الدولة الا بقدر : لما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الملوك والممالك .

(١) مثل أن يستنجوا من آية « ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من يد موسى الخ » إن المدارق للملك على قوة جسمه وهله : وأما مسألة عرق الآباء فليست بقياس ذلك ، وهامهم أولاد بنو إسرائيل يقولون : أي يكون للملك علينا ونحن أحق بالملك منه لانا من بيوت ، ولنسنا أرفع من بيت طالوت ونسبه ، وأيضا ليس عنده سعة من المال والمدار في الملك على المال والنسب ، أي أنهم يريدون الطبقة الثالثة ، وهي التي تملك بسبب سلطان القوة الشهوية ، وهي (الأوليخرية) أي المالية فيصبح المدارق في الملك على المال : قتال الله لهم . كلا . أيها الناس : للدار على العلم

بدل المال ، واستعداد المراء من حيث ذاته هو الأصله : فهذا رجوع الى أعلى طبقة ، وهو طبقة الأ كابر والحكام بقدر الامكان : فهذه الآية تهلم الركن تركيز في استيلاء العباسيين والأمويين ويرجعون الى الشورى .

(٧) وهل يستطيع أصحاب الشافى ومالك وابن حنبل وأبى حنيفة أن يرضوا أصواتهم أمام مالوك هذه البرول : فيقولون أيها الملوكة : أما سمعتم قول الله « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم في الأمر » وقوله من قصة بلقيس : « قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد » الخ وقوله في قصة فرعون اذ يشاور الملأ في أمر موسى « إذ قال لملأ حوله فإذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه » الخ : يا أيها علمكستان شرفيتان يذكرهما القرآن ، ملكة تقول « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وملك عات « يقول لملأ حوله فإذا تأمرون » القرآن صريح في الشورى ، لملك يورث ، ولأمال يؤخذ بالأمر لزأب الأمة أى أهل الحل والعقد : فهذا كله ترك منذ العصور الاولى لأن الحكومات مستبددة وكل من رفع رأسه قتل أو أدهين ، ودرج الخلف على ماسنه السلف ، ورضى الناس بملوك وعاسوا في ظلامهم وهم كلهمون أو غافلون :

أ كتب هذا الليلة : ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ أ كته وأنا مقبل على زمان سعادة وهناء لأمة الاسلام بعدنا ، وسيكون هذا من مقومات النهضة ، وبناء الحكومات على أساس وطيء ، فلا المال ولا النسب ، ولكن الكفاءة والعلم وضبط الملك ، فها نحن أولاء جئنا في زمان لاسرح فيه على الكنايين فظننا في مجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج ، وهى واجبة علينا فأما من قبلنا فقد كانوا في زمان لا يستطيعون فيه أن يرضوا أصواتهم حتى يرفع السيف على أضافهم ، وأنا لست أقول لهم لم يدوتوا ذلك هم دوتوه ، ولكنهم لم يظفروا فيه كما أطالوا في البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها ، والعلية هى الخوف مع ان هذه المسألة حفاظ لما عداها : لانه لاصلاة ولاسرح ولاغيرها والناس غير آمنين في منازلهم ، والأمن يكون أكمل إذ أسند الأمر إلى أهل .

الفصل الثامن . في تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس في زماننا وبعده

إن الله عز وجل سبأل كل ذى علم عن علمه ، وانه سيسألنى عن تقصيرى في النشر بعد انهم : يقول الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثق الذين أوتوا الكتاب لئن يننه الناس ولا تكتبونه الخ » ويقول « وإذ الذين يكتنون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إذا الذين تابوا وأصلحو وبينوا لأولئك آتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

وسيسمع هذا أقوام بعدنا فبرين أن أهم ما في القرآن ترك ، فلم يستسخ منه الناس علوما فيوجبوا قرائتها « مثان ذلك » شارح الآثار كالمز الآت ويرين ، والبلين ، وقضاء المصريين ، والفرس ، وما أشبه ذلك ، تلك الأمم الخالية التى عثر الناس عليها في الخفائر والمقابر ، وعلى اذلواح والطروس ، والورق ، ورق الفزال ، وابردى ، أليست هذه هى التى يقول انه فيها كما قدمنه سارا « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وان كان مكروهم لتزول منه الجبال « فلا تحسبن أن الله عطف وعنه رسه الخ » أليست ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبددين في الامم الاسلامية الذين ذكرناهم ، وكيف كانوا يكررون ويحتالون في

حيازة ملكهم ، واتقنن يجب علينا أن ندرس ذلك ، ومن المدهش أن علماء الاسلام أجلوا ذلك ،
بغفلوا تلك العلوم من فروض التكليات ، ولكن المسلمون تركوا ذلك كله جهالة كما أوضحناه .

إن هذا القائل يطول اذا استدردنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم : كل ذلك ذكر لنظام
العدل والمالكة ، وأنا أجعلك يالته إذ وقت لوضع نبدى هذا المقام تدل على البقية وعلى من يأتون بعدنا ،
أن يدرسوا الفلسفة ، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن ويرفوا الأمم : إن هذا الزمان مبدأ لأمر
أسعد حالا وأرقى شأنًا ، وإنا لله أنعم الله بهذا التفسير « قلته خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أى نصف الليل ٤ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ - ٢ يناير سنة ١٩٣٣

نظرتى فى عوالم العقول وعوالم الحقول . والمزارع . والشمرك

والتسليم لله لشأبه ما كتبتة فى هذا المقام

رباه : أمرت نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله ، وأمرتنا بذلك التسليم فى آية : « فان حاجوك
قل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » الآية .

وأمرت المسلم أن يقول فى آكل كل صلاة : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا »
رباه : هاتين أولاد وجهنا وجوهنا لك ، وسلمنا أمورنا إليك ، ورجعنا إلى كتابك ، وانتظرنا الفتح منك .
رباه : هاتين أولاد تولد أرواحنا إلى هذه الأجسام فى أرضك ، ونظرت فى أحوال الأمم التى نعيش معها ،
والأمم الخالية فأفئنا هجبا ألفتيناك فقلت فى عقولنا ما فعلت فى حقوقك وحقوقنا :

(١) ذلك أنك أزلت المطر مدرارا فى خط الاستواء أكثر أيام السنة ، ولم يعوز المحلوات الحية هناك
حوت للأرض ، ولا رى للشجر ، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة ، والمحلوات
الحية قريبة العين بتلك الغرات اللاتى تؤتى أكلاها كل حين باذن ربه .

(٢) هم رأينا أنما أخرى فى مناطق أخرى يعوزها حوت الأرض لاستخراج نباتها ، وقد كفه المطر السقى
(٣) وأم أخرى كأمنا المصرية يعوزها أمراء : حوت لأرضها لتقليب الطين فيها ، واستخراج الحاء
من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع ونجر . هكذا رأينا المواهب العقلية والحكمية :

(١) فهاتين أولاد نرى أنبياء ظهرت الحكمة فى قلوبهم فبنوها للأمر ، وهؤلاء الأنبياء لا يعوزهم
معلمون أرضيون ، وليسوا فى حاجة إلى دراسة النظريات الفلكية .

(٢) وبرى حكاى فى الأرض يعوزهم بحث وتنقيب فى مقابلة القسم الثانى فيما تقدم .

(٣) وبرى علماء يعوزهم أمراء : تدرب عقولهم بالبحث ، واستخراج العلم من مخزون علوم
الانبياء والحكماء .

هذه أقسام المواهب العلمية للمقابلة لمناات المزارع والمحقول والاشجار الارضية : إذن نحن اليوم من
الفرقى الثالث ، فعلى أن نجد لاستخراج ما كمن فى عقولنا من المواهب فى مقابلة حوت الأرض لاستخراج
الزراع منها ، وأن نقرأ ما نثبت من منبع النبوة من العلم ، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لتلا تلك الأمة كما
تتلك أمنا المصرية جوعا اذا تركت حوت أرضها ، ولا ندع علوم آبائنا الأولين ولا حكماء الأمم ولا علم الرسالة
الحمدية ، لتلا تلك أمنا الاسلامية كأن تلك الامة المصرية اذا تركت ماء النيل جانبا وأخذت ترطب المطر ،
ولاد طر غزير فى بلادها : ربه هذه طريقتنا فى حياتنا الدنيا ، نكتب هذا ، وسيكتب نظيره من بعدنا ،
ونسلم أمورنا إليك ، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا ، بل هى منك وهى هبة لعبادك

فكل من كانت فيه أى حكمة من أم الاسلام في زماننا أو بعده : قاله مأمور أن يسلم أمره لله ، وأن يسقى في نهرها في أمته ، وأن يعلم أنه لا فضل له في معرفتها ولا في نشرها : كما لا فضل لأشجار خط الاستواء في غلرة نحرانها ولا لحقول الزراع المصريين في تذبذب عبادك بحبورها ، فأنت الزارع في الحقلين ، وأنت للمؤمنين على الأم منها : فيها أنا إذا أمّرت أسرى إليك ، وأقول أسلمت وجهي لله إتباعا لأتباعك ، لأسيا خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأوقن أن ما كتبته مالمو الاخيش من فضل رجلك ، وما عقولنا ولا أبحاثنا إلا كالنمل في يد كاتبه يصرفه كيف يشاء ، أنت منزل الماء من السماء وبحي الأرض بعد موتها ، وأنت منزل الوحي ومصرف العقول ، وهاديها إلى ما تشاء من طرق الهداية . بها تحيي أمما وأممنا ، ولعل هذه الطرائق الحديثة في أمنا الاسلامية ، ترجع بالناس الى العصور الأولى النبوية ، عصور التسليم لك والالتقاد لأمرك والسير على نصوص كتابك ، والاحتفاء بأثورك ، وقيام أم ودول ، تصكون أقرب الى عصر النبوة في حجبك وفي الاشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل ، (وبعبارة أخرى) يكون المسلمون في مستقبل الزمان رجة لعبادك لأنك رب الملين اه .

إشراق شمس الاسلام بعد إظلام ليله

قد أبتا في تفسير هذه الآية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى قتلتا التي تبقى حتى تبقى إلى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب للمتقنين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واقضوا الله لعلكم ترجون » اختلاف الأم الاسلامية في القرون المتأخرة ، وأفضنا فيه لفظة كافية وافية ، ومن عادة الله عز وجل أن يجعل بعد الصريسة ، وبعد الضيق سعة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

اللهم إنا نحمدك جدا يوفى نصك ، ويكافئ مزيدك ، وله قد قلنا ما كنا نتناه في أم الاسلام ، وله لقد أنقذ ما كنت أتوق إليه وأنا حق ، نعم قلت ذلك ، فياسبحان الله : هل كان يدور بخلدني أن أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود ، فند أيلم اختفا على جبل بينهما ، فوكل الأول الحكم للثاني ، لحكم الثاني للأول ، وفي هذا اليوم جاء في جرائدنا المصرية أى يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتي مانسه :

الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

« تم الاتفاق بين العاهلين العربيين ، وذلك على عدة قط ، النقط الأولى ان الأربعة الخالف التي كانت تابعة للسيد علي بن محمد الادريسي ، والذين انقضوا عليه بعد وفاة والده السيد محمد الادريسي ، والذين أخذوا منه المدافع التي كانت معه من مترايلوز والجيشانة ، وقد ظلوا حاكبين قنوسهم مدة من الزمن ، غير أنه حصلت القوضى بينهم ، واختل الأمان والاطمئنان ، ثم أصبحت من غير راج ، فما كان من كبارها إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الامام يحيى ، وذهبوا إلى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى (ساقين) وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدم لتسليم أمورها ، ويجرى ضبطها ، قبل استفعال القوضى بها ، وألزموه الجهة ، فطلب منهم تسليم المدافع والجيشانة للوجود معهم ، وتسليم الرهائن بحسب العادة المتبعة هناك ، فأجيب طلبه ، فأرسل الجيوش للتوكية واحتلت الجهة تملما من غير أى مقاومة ، ولما بلغ الأمر إلى ابن السعود من عامله بصييا أرسل من طريق جيزان تلغرافا لعامل الامام عبيدى ، وهو القاضي عبد الله العرشي

الذي منه رفعه إلى جلاله الامام يحيى ، فخصت المحاربات بين المسلمين ، ثم اقترعا إرسال مندوبين من الطرفين كان على رأس مندوبي اليمن حاكم ميدى القاضي العرشى ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راجع ، وشيخ بلاد مجور ، وشيخ بني جماعة ، واجتمع الوفدان عدة مرات ، ثم قرّر القرار على أن البلاد التي احتلها جيش الامام تقيم إليه ، ويتوقف مؤقتا عن التقدم الى جبهة صيدا وبابلها ، ثم ان وفد ابن السعود طلب أن تعين الحدود ما بين حيدرآباد اليمن ، فرفض الامام يحيى ذلك ، بحجة أن حيدرآباد اليمن ، وقد أبرجى الصلح مؤقتا بهذا وبناء على ذلك تم الاتفاق ، وأضفى الفريقان للمعاهدة . اهـ

أفليس من العجب أن يسكنون هذان الأبرار ابني تليكم الأم التي لم تعرف إلا المشاجرة والتناذب في القرون المتأخرة ، وقد رجعا لعصر النبوة كرامة واحدة اتباعا لأية الصلح بين الطائفتين . هذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون في البرق ، فهل كان يدور بخلدى أثناء طبع ﴿سورة سبأ﴾ التي كل طبعها في شهر شوال سنة ١٣٤٨ هجرية أي منذ أقل من سنتين (وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ) أن ما كتبت لبلاد اليمن ، بل ما توقعته يتم قبل مضي سنتين اثنتين . أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التي توقعها في هذا التفسير ، حقا حق ان الله أذن برقى أم الاسلام .

كم ذكرت في هذا التفسير أن هذا زمان برقى أم الاسلام . كم ذكرت هذه الجملة ، ثم كررتها ، ولادليل عندي إلا دافع نفسي ، وهذا الصالح كان كافيا لما أكتبه ، وليس هذا الصالح برهانا عقليا ، إذ البراهين العقلية غير الأمور الوجدانية القاصرة على صاحبها ، ولكم ضل قوم بوجدانهم فكثيرا ما يضلّ الوجدان ، ولكن في هذا المقام صدق الوجدان ، وتم ما كنت أتوقفه لهذه الأمة أويجل ، حتى أصبح ذلك عندي يقينا صدقته الحوادث .

فانظركيف كتبت في تفسير ﴿سورة سبأ﴾ للذكورة التي كنت فسرتها تفسيراً أولياً بدون اطلاع على ما كتبه المسلمون والأوروبيون من الآثار في أرباب اليمن ، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت في أثناءها على تاريخ تلك البلاد ، وسبب اضمحلالها ، وأن القوم أهلوا أعمال زراعتهم ، وصيانة سدودهم ، فانهار السد ، ففترقوا شذروا ، فكان الاستنتاج الاجال الأولي هو عين التفصيل التحقيقي بعد ذلك ، وفي هذا التفصيل ظهر الكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ ، وخريطة «مدينة مأرب» بعد خرابها ، وخريطة «سد العرم» ، وذكر العلماء الذين قبلوا عن تلك الآثار ، وما لقوا من القلة والمهانة ، وهم من أم مختلفة وكيف نشروا صور تلك الآثار في أنحاء أوروبا ، والمسلمون لجهلهم بعلومهم وبلادهم ، وعلوم الأمم حولهم ، ولغائهم غامدون ناهمون جاهلون كأنهم لا يعلمون ، أو كأنهم غير موجودين في هذا الكوكب الذي تعيش عليه ، وخشيت لقتال هناك بناء وجهته لأمة الاسلام ، وقلت : إله يا أمة الاسلام ، أهلكذا يكون المسلمون ؟ إلى أن قلت : يُجيب في دين المروءة والشرف أن يكون الجاهلون يصرون أرض الله أكثر من المسلمين ! إلى أن قلت : لا لا إن أمة الاسلام ستأخذ دورها عن قريب . أمة الاسلام الناجمة قد انقضت دورها ، وستأتي أمة الاسلام التي تحفظ نعمة الله الخ إلى أن قلت : لم ذكرت سبأ ؟ ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لما الآن ، ذكرت لمن يتعلمون ، دفن الله لجال والعل في منحور ولألواح ودلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن الخ .

هذا قل من كل مما كتبت في ﴿سورة سبأ﴾ . أفليس من العجب العجيب أن نرى في صحيفة الجهاد في نفس التاريخ المتعم تحت عنوان «أخبار اليمن» ماضه :

«تقدمت الحيلوش الترككية شرقاً وحملت وادى سبأ ومأرب والبيص والسودا والحرا وبني نوف والعواقي ويبجان والمصمين وصراد والجوبة ، والجميع يسلمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير

أى مقاومة ، وفى أثناء هذه اللذة يجرى التنقيب فى مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانين عن ملوك جبر وكنوزهم المدفونة تحت الجبال ، وقد اهتمت الحكومة اليمنية إلى استخراج مدفن بجبة مأرب ، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة ، وأيضاً وجدت مدفناً آخر بجبة بلد تسمى « النخلة الجراء » وهى تابعة لبلاد الحذاء ، وتبعد عن صنعاء ٣٠ كيلومتراً ، والمشرى على إخراج ما بها من الكنوز سيف الاسلام محمد بن أمير المؤمنين ، وأيضاً وجدت كنز بجبة بلدة تسمى « غهان » وقد وجد بها تمثال ملك من ملوك جبر ، وعدة تماثيل : منها ماهو على صور الخيل ، ومنها ماهو على صور أخرى ، وأما للملكة قرينة الملك فهم يتقربون عنها فى بلد تسمى « سيان » وهى تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترات ، والتنقيب يجرى باهتمام عظيم . انتهى ماجاء فى البريدة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

كل هذا لما كتبت وسمعه صديق العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير سرّاً بأسرور ، وقال : هذا هو النصر والفتح للدين . عالم أولاد القوامون على أمر العين قد نشطوا لاستخراج كنوزها ، ولكن خير لهم أن يعلموا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالا كما فعلت اليابان ، وهامهم أولاد أسراء الاسلام غيروا طريقة آباءهم فى القرون المتأخرة التى كانت كلها حننا وبلاد فالجدة رب العالمين .

قلت : إن أم الاسلام اليوم تخطو خطوات واسعة نحو الجيد ، وأما أقول : سقشد الانسانية مشهدا اسلاميا لا يشبهه إلا عصر النبوة ، ويتشعشع الرقى الاسلامى انتشارا لم يعهده له نظير ، وهذا ابتداء دوره فى أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لاحد لكاملها ، ولا انتهى لسعادتها .

فقال صديقي : إن الأمر فوق ذلك ، إن أساع المعارف أخذ يمتد بين أم الاسلام جميعها ، فليس قاصراً على أمة العرب ، بل المنهض أن الأمم التى ليست بهيرية أغنت رتقى طفرة ، لاي الآثار وحدها ، ولا فى الصلح بين الطوائف ، بل فى سائر الشؤون الحيوية ، وهل أتاك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معلومات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نمه :

معلومات جديدة

عن بلاد التركستان الصينية (كشفر)

لصف ساعة مع السيد منصورخان

كثيراً ما كنت أحضّر إلى مصر حين المرض الرؤوم إلى عظيمها ، وكما زمت حقائى بقصد السفر فعاكسنى الظروف وتعدنى الحوادث ، وما فتحت عيني من نوم إلا وأرى صورة الأهرام الشريف ماثلة أمامى ، لا تكاد تفرقنى حتى أراد الله ، وكنت من جهة للدعوى إلى المؤتمر الاسلامى العلم ، لم أربدا من زيارة مصر التى باتت منى قاب قوسين أو أدنى ، وبين عشية وضحاها كنت فى مصر أسيرى شوارعها جيئة وذهاباً ، وفى ذات يوم ضمتى مجلس مع شاب يدعى « السيد منصورامين خان » من بلاد تركستان الصينية (كشفر) وهو فى العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجابا من الانكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق النحيا ، مثلى الجسم ، لا يتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصح ، حتى أنك اذا مزجت كلامك بكلمة عامية يطلب منك تفسيرها ، وإنك تقرأ فى جبينه عنوان الشرف والبادئ السامية عند ما يعبك بصرك عليه ، فطلبت منه أن يتعنى بمعلومات عن تلك البلاد البالية ، ففضل علينا بالحديث الآتى :

(س) — ما السبب الذى جعلك على مفارقة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

(ج) — كنت تلميذاً فى المدرسة الثانوية فى (كشفر) والعلوم العصرية قليلة فى بلادنا جداً بالرغم

من رقى العلوم الاسلامية والآداب العربية والفارسية ، فغنى صور قديمة كانت بلادى واخراتى المسلمون غرقى في لجة الجهالة ، بحيث لا يمكن تفصيل أحوالهم الاجتماعية في هذه المدة القصيرة ، فهنا إذا أردت الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبى (وهم سلو تركستان الصينية) بالعلوم المصرية ، تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معطوذة من أسباب الزلزلة والخلد في البلاد بل الكفر ، وأن كل من يعلم علما عصرىا يسته قوى مارقا من الدين ، إلى أن يزغ في آفاق عالم الاسلام شمس أسوقت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى جمال الحقيقة ، وأزيل الظلمة عن عيون شباب بلادى جميعا في بضع سنين ، الأمر الذى هجرت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التى كانت تصدر آنا قانا لفلسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى مزقت تلك الحجب وأسقتها إلا مؤلفات فيلسوف الاسلام الأوسع فضيلة الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا في مدة وجيزة ، وأبدع قرنا جديدا في الحياة الاجتماعية الاسلامية ، ووفق بين القرآن والعلوم المصرية ، مما لا يدع مجالاً للشك والريب في أن تلك العلوم هى نفس الدين ، وأخص بالذكر من المؤلفات «التاج للموع» الذى أهده ليكاو اليابان «نظام العلم والألم» و«تفسير الجواهر» وكتاب «القرآن والعلوم المصرية» . ومن الحب أنى في أى بلاد مررت بها في سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفى يده أثر من آثاره القيمة يريد أن يتقف به ، أو يتقف به غيره ، والحق يقال أن آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر في عقلية الشعوب فأثيرا يشبه تأثير المصلح فى الدين المسيحى «لوتر» . ولما كنت في بلادى كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكرا لاسه ، وتقديرا لأعماله ، إن تلك الآثار القيمة أثرت في عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا يتهمون في يدها آسيا الوسطى حيارى لاسرشد لهم ولادليل ، في عزلة عن الأم المتمدنة ، فلما رأوها أقبلوا عليها ، وحل في قلوبهم شوق إلى العلوم المصرية ، فسحوا إلى منابها في جامعاتها في الممالك المتمدنة الأوروبية والاسلامية ، وأن هذه الكتب الطنطاوية هى التى بحثنا في أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأم عما حرم منه جيع أجدادنا وآباءنا ، وأنا واحد من أول وفد نظم من البلاد ، وعددا ثلاثون شابا ، وقام بمدنا وفدا آخر ، وكل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف ، فهنا إذا غلبرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم المصرية ، وللاشتاف من مناهل حياضها .

(س) ذكرتم أن في بلادكم مسلمين ، فكم عددهم ومن يكهم ؟

(ج) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية ، أما المسلمون في بلاد الصين فهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويتأدون العادات والتقاليد الصينية ، ويدينون بالديانة الاسلامية للمحمدية ، وأن الذى يحكمهم هى الحكومة الصينية الامبراطورية .

(س) هل تضييق الحكومة عليكم في دينكم ؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية ؟

(ج) نحن أحرار بكل معنى الكلمة .

(س) هل زرتم غير مصر وتركيا ؟

(ج) الأفغان وإيران في طريقى إلى تركيا .

(س) هل مكثتم طويلا في بلاد الأفغان .

(ج) جئت في الأفغان ستة أشهر ، وأن رفقى أمين أفسدى الكاشغرى دخل في إحدى المدارس الألفية مجامعا تحت حاية أمان الله حال تلك الساق . لما ذهبت إلى وزارة المعارف الأصفانية أشرفى معاون الوزير أنه في صدد ترجمة كتاب «نظام العلم والألم» لاسلططاوى جوهرى إلى لغة الفارسية لسان الأفغان

(س) قلم ان كتاب (التاج المرمع) لهذا الفيلسوف أهداه صاحبه لأمبرطور اليابان ، فهل هذا الكتاب أرق في تلك البلاد اليابانية ؟

(ج) إن التاج المرمع لما وصل إلى اليابان أكتب المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ريع قرن بأرشاد المشهور عبد الرشيد ابراهيم السليح ، وآلآن في اليابان على ما سمعت من بعض الثقات أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني ، فصار هذا الأمر النفيس (دولة) أى تتداوله الأيدي ، وأثر في زيادة محبتهم لدينهم ، وآلآن ينتشر الدين الاسلامي بتأثير ترجمة هذا الأمر انتشارا واسع النطاق . انتهى ملجاء في الجريدة المذكورة
محمد سعيد درويش من سوريا الباب : نزيل مصر

فلما سمعت ذلك وكتبته . قلت : صلق الله وعده ، ونصر عبده ، وأمر جنده ، هذا من فضل ربي ليأوني أشكر أم أكفر ومن شكر قائما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ، وقرأت : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ م .

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقى إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تضى حتى تقتل إحداهما فان قامت فأصلحوا بينهما بالسبل وأمسكوا إن الله يحب المتقطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلهووا أنفسكم ولا تباذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يقب فأولئك هم الظالمون » يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »

إن ما تضمنته هذه الآيات فيه « مقلتان : المقام الأول » في غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء والجز والتناذب بالألقاب والنيبة وما أشبهها « المقام الثاني » في غوائل الأعمال القلبية ، وقد أشبهها بالهي عن كثير من الفطن ، وقرب منه التجسس ، فهنا أمران خطيران : هما اللسان والجنان . قال زهير بن أبي سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم واللحم

إن القلب هو العالم النورى الجليل العالى الشرف ، الذى يجمع صور الصالحين والدينوى والأخوى ، واللسان ينوب عنه في أداء ما كمن فيه من المعاني والعلوم والمعارف ، وكل خير وشر ، إذن أمرهما عظيم ، ولا جرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكلية والجامعات ، كل ذلك لتكميل العقل وتربيته . وقد كانت غاية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضا ، ألا ترى أن العلوم السانية كلها في الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان ، وفي لغتنا العربية ١٢ علما : كالحق والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والنحو والانشاء والتأريج والاملاء والشعر والحطابة ، كل هذه وما شبهها إنما جعلت لترقية اللسان ، كما ان العقل يرقى العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التى تسبح في نظام العالم العلم ، وفي علم النفس وفي علوم الأخلاق والسياسة والرواح والملائكة ، إذن العقل واللسان أمرهما عظيم ، لذلك كان لزاما

على في هذه المقالة أن أبين لك أيها القارئ عجائب العلم والحكمة ، وهذه الثروة العلمية التي ورثناها عن آباءنا الأكرمين ، وكيف دفنت هذه الثروة في ثنابا الكتب مئات السنين ؟ وكيف نبقت الأمم الأوروبية في هذه الثروة الآن ولكن جميع غير الميعة الإسلامية والنتيجة واحدة .

أما أرى الآن أنك قد تهيأت نفسك أيها القارئ للتيان ، وشاقها مأساؤه في هذا المقام ، وأنى سأعجل لك ذلك الآن فأقول :

يسبحان الله . اللهم إنك أنت العلم ، أنت الهدى ، أنت الحكيم ، أنت معلم الطيور في أوكارها ، والوحوش في أوجارها ، والحشرات في أكناتها ، والقرات المكروية في أطوارها ومستقرها ومستودعها ، وكل من هذه له طريقة تناسب ، وحال تلائم ، فهكذا نوع الانسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع ، اتنازى أن الكلام في تهذيب اللسان يتخذ طرقا متباينة ، وأحوالا شتى ، ورى ديننا الاسلامي فيه من كنوز العلوم في هذا المقام وغيره ما به ينتفع الصادقون المتفلسون ، فهاهوذا الامام الغزالي قد ذكر في الجزء الثالث من الاحياء آفة اللسان فجعلها عشرين ستورها قريبا ، وأبان مضارها ، والاحتراش منها ، وعلل هذه جملة المباحث النفسية في انكسار تبحث في غوائل اللسان كما بحث صلواؤا ، ولصكن بطريق أخرى ، فانظر ماذا جرى ؟ جعلوا العقل أشبه بطارية الكهربية ، واللسان أشبه بحارس تلك الكهربية ، فلما حافظ عليها اللسان ولم يعثرها وسكت . فان تلك الكهربية تكون حونا لصاحبها في جنب القلوب وأقبال الناس على الانسان وسهولة المعاملة وجمع مصالح الحياة ، إن هذه الطريقة نافعة لمن يريد المعالجة ، وطريقة صلواتنا نافعة لمن يريد الآخرة ، والطريقتان تسعيان لغرض واحد ، وهذا أمر عجيب ! إن أسلافنا ظهر منهم المتعلمين والحكام والعظماء وأرباب الحيا يدعون أن يحوزهم ما ذكره الأوروبيون ، فهم علماء بما وصى به الله ونبيه والعلماء فانتفعوا ، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لا يهتمون إلا بالنتائج القريبة اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية في زماننا من أكبر المعجزات وأعظم الفوائد في ديننا الاسلامي ، فلأذكر لك أولا مأسطرها من أقوال علماء جمعية المباحث النفسية ، ثم أتبع بما قاله الامام الغزالي في الاحياء ، وهذا في حفظ اللسان وهو المقام الأول ، ثم أختم بما ذكرته في كتابي في علم الاخلاق المسمى « جوهر التقوى » في الذنوب القلبية كالخسد والمقصد بعد ذكر الذنوب السانية ، وهو المقام الثاني من المقالة الثانية وهناك ما قالته :

جمعية المباحث النفسية

المنطابسية الشخصية

الفصل الأول : معرفة القوة

إن كل منافيه بطارية كهربية ، يؤثر ويتأثر ، فالحب من الناس لتيلزتك وأنت لاتعلم ، وكذلك الغرور ، فالرؤ يؤثر ويتأثر طوعا وكرها .

وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العقلية تعمل بغير العقل فليفسها مضطابسية وإن كانت هي غيرها ، وقد تعمل أعمال الكهربية ، ولتقصدان تعرف كيف تحكمها كما سكتنا الكهربية وإن لم تعرف حقيقتها كما جهلت الحياة .

التصل الثاني

من هو الرجل الصلبيسي ؟ الرجل كالرأة في المنطابسية

(١) تزلج لعائشه .

(٢) رزين لا يتأثر بسرعة .

(٣) الاحساس بقوة خفية فيه (لا في حديثه ولا حركته ولا سكنه ولا معامته) بل هي جزء منه .

(٤) يستولى على جزء من كهر بآتيك فتذهب إليه .

(٥) ينظر نظرات رجة بين عينيك في أول الألف بدون أن تشعر بأشئ مما معك مع اللفظ عند أول كلامه معك .

(٦) يضيء إلى حديثك دائماً .

(٧) لا تحب أمله صفة ، ولا يتلف على مطالبه ، بل هو واثق بها ، لأنه متد لا تركانه على المعرفة ، وأنه ينال مقصوده .

(٨) لا يمدح نفسه أبداً .

(٩) يزداد القوي قوة في مضاطبة ، والضعيف يزداد ضعفاً ، هذه قاعدة .

(١٠) لا يفرح بظهور العلم ، بل حديث عادي .

(١١) لا يظهر الرغبة في الحديث ، وأنت تحب به لاعتقاده أنه قادر على الاخبار بالمعاني وهو لا يريد وتظن أنه لا يعتمد ذلك ، ويظهر لك كأنه فوق للمدح والاطراء .

(١٢) إذا ترقى في هذه الصفة لا يسر بالكثرة في أصحابه كالأول لأنه أرق من ذلك .

(١٣) يترقى دائماً .

(١٤) مميزات المضاطبة الشخصية : السطوة ، والتأثير ، والقوة ، والجاه ، والقبول عند الناس ، وهي نتائج منطقية للصفات السابقة ، ويجب المحبة لجذب القوة والأفراد .

(١٥) يمزج عليك مفارقتك ، تتعلق به تعلق الغفل بآفته .

(١٦) يسلب عليك ، وهو يحفظ علمه ، ولو شاء لأسمعك فتعذه وهو ساكت مع أخذ عليك .

الرجل غير المضاطبي

(١) يخيفك ونكره مصاحبة .

(٢) يزدك حياءً واحساناً .

(٣) يكثر المجلس .

(٤) يشكو القدر ، والأصحاب ، والجزء ، وكل شيء .

(٥) متغير المبدأ ، سريع التقليل فيه ، وفي الحديث قيل عليك ، ولا يفتح بشيء ، عابس الوجه ، غائب ، لا يحب إلا الاطراء الكاذب ، فتخلص منه بالاطراء الكاذب .

(٦) تفرح عند خروجه من عندك ، ولا مضاطبة عنده ، هي سائلة ، قد أخذ منك شيئاً وهو بعض المضاطبة .

(٧) سببه أنه لا يعتمد على نفسه ، لا يستقل ، والرجل المضاطبي لا يشكو ، ولا يسي ، هو قوة تخضع له الظروف ، ويؤثر في البيئة التي حوله .

(٨) مسرف في أحواله .

(٩) منهزم سرماً .

(١٠) النتيجة أنه لا يلاق إلا الناس تبعاً لقوانين الطبيعة الصادقة .

القاعدة النهمية

- (١) لا تشك في خلقك أنك .
- (٢) ولا تمس وراء اكتساب اللبس ، ولا الشقة من الناس .
- (٣) وفي كل رغبة قوة مغناطيسية يجب حفظها لارتفاع .

الفصل الثالث : طبيعة التيارات المغناطيسية

- (١) كل رغبة لأي مطلب هي تيار عقلي على رطل قوة مغناطيسية ، يؤثر الرجل للمغناطيس على أخواه ، ويعمل في هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر .
- (٢) استخراج القوة من الرغبة ، هذه الرغبات إذا صمناها وحفظناها كانت قوة حفظناها لأنفسنا وإن جرينا وراءها ولنا مبتغاها فقدناها ، فلتحرص عليها ، لأننا أوحج إليها فنحنزنها .
- (٣) فالأناية والفسر الكاذب ، وقلة الصبر ، توجب أصلا تصرف بها عنا تلك القوة .
- (٤) لاندع جمالا لتيار الرغبة أن يفلت من يديك ، ولا تحقق تلك الرغبة لتكون لك قوة تنضم إلى أعوانها فتكون قوى الجذب لغيرك ، فإذا رغبت أن تدمش أخوانك بأخبارهم ، ورأت فيك مطمعا لتلك فاستك وهذه قوة حفظها ، فان حققت ذلك أضفت مغناطيسيتك .
- (٥) الكتان : إذا رأيت أن تخبر أحد أصدقائك بخبر ولو كان لاقية له فاستمه ، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية ، وهذه أشبه بالحلم في البرج ، يجلب إليه أخواه ، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة ، وهذه تحملك أجل خدمة .
- (٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوة هو الجود والوقوف . كلا . بل كلما زادت حفظا زادت قوة كاتهر كلما علا سده زاد ضغط الماء عليه فيسهل الارتفاع بها أكثر .
- (٧) إن قوة الرغبة موجودة ، ألم تر أنك قد تحملك الرغبة على المشي وركوب العرب لاخبار صديقك فإذا حفظت هذه القوة حفظت لك كل قواك التي كانت تستصرفها .
- (٨) نحن لا يؤثر فينا غرابية الذكاء ، وإنما يؤثر فينا نفس الذكاء ، فقابل الخبر المرقص بكونك كأنك فوق ذلك ، لا أنك لا تميل لسماحه . كلا . وكأن نفسك عميقة ، وهما بنا بما يعمد من الأذكياء أقل من إهمالنا بأنهم أعمق منا ، اجعل معارفك وأخوانك في ظلام دامن من جهة أفكارك ، ومنى فلت ذلك فجاء أجب بك أصحابك حالا .
- (٩) الكتان جعل الأتباع يظنون في التسعين قوة فوق طاقهم ، ولولا الكتان ما جهلت الحقائق والجمل بها أدبرت الأتباع إعظاما لتبوعهم ، فعضماء الرجال سادوا بالكتان .
- (١٠) عن انصف بهذه الصفة تشارلس استيوارت الزعيم الأيرلندي وهو فوق نابليون ، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم ، وكان استوارت يارتل قليل الكلام جدا ، ولا خشنة في صوته ، ولا يتكلم إلا باللازم ، وكان هادئا في حديثه .
- (١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المتلفة ، ومعنى هذا الصمت أن أخبارك تحفظها في نفسك وتتعود التكبر فيها فتكون قوة حق ، أما إذا تكلمت وصرت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك ، فإذا لم تعلمهم على سررت كنت ذا جاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد .

(١٢) لا تخبر اخوانك انك قرأت للمغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك ، بل اكنم هذا تكون قوة عظيمة ، أما اذا علموا كانت أعمالك ضائعة ، واجتنب الاطراء ، فالتقى يطرى أعماله يزيد عليه الساكت الحافظ لرغبائه ، فالتقى هم المادحون له .

الفصل الرابع

انظر في حياتك الماضية تجد أنك أنت ٩٩ من المائتين الناس يتهنون القمص لاخبار اخوانهم بما فعلوا تظهر ذبايحهم ، هذه فطرة حب الاطراء والمدح ، وهي تيار من تيارات المغناطيسية الانسانية العقلية في المدح يتسرب من النفس كما تنضج الكهرباء في الجوز بدون حمل اذا لم تحفظ ، إن هذه الفريضة فينا متى تحركت وشأننا أضفت قروانا وأخلت منا منافع لانهاية لها ، وهي تضاد للمنافع الواجبة لنا فلنحفظها ، فلنحذر هذا ولتجنبه أن تكون متنبها ، فلا تحقق رغبة الاطراء ولوفى أبسط الأشياء ، فاحفظها تسكب غيرها بلا قلب ، فسوف تشهد النتيجة محسوسة ، في زمن قصير ترى (أمرين : الأول) أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيرا محسوسا في نفسك ، وفي حياتك اليومية ، يزيد احترامك لنفسك وثقتك بها ، وتعالو هيتك ووقارك ، وتحسن بالقوة الحقيقية تسرى في هروكك ، بعد التغلب على كل تيار تشعربه (الثاني) انك ترى اخوانك قد تقربوا نحوك تقربا كليا ، يزادون رغبة للبحث عنك ، والمحادثة والبقاء معك ، يمكنك الزيادة في كل وقت اذا اتبعت ما يأتي : « لا تحقق رغبتهم في معرفة شؤونك ، واترك أصحابك حيارى من جهتك ، وإياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمدا » انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : كيف يمكن استعمال القوى المضادة لفاذنتك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أو سالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التعادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسي القطب السالب ، الا ترى إلى الكبريت يضرب بالفضائل عرض الحائط ، ويضع نفسه ، ويخالف ضميره ، تلك قوة قاهرة بالهشة ، فلا تستفيد منها كما يستفيد للصارع الياباني من خصمه ، وتسلون وبالا عليه .

معرفة القوة القابلة للاستعمال

١- علمت القوة المغناطيسية الكائنة في التكتّم ، وبذ الأنانية بالنكلم والفقر ، كل دافع للرذيلة نعمة متسكرة فليقابلها اليبب بصدر رجب على أى شكل كانت ، فزيد القوة المغناطيسية ، فيضيق جاذبية على جاذبية عنده ، فان اتبع هواه رجع كالعادة وتضعف البطارية العقلية . إن العازل الواقي لك من ضياع المغناطيسية هو العلم الذى تروؤه في مثل هذا .

تمرين هام لامتصاص الطاقة

اذا عرض لك خاطر مزيج مما كان يؤثريك سابقا ، فافرح فانك أرقى ، ، وفكر في أنك ستملكه وتقتضيه به ، ففي أثناء التفكير :

(١) خذ نفسك ببطء مقدار ٨ ثوان وكرّر العبارة الآتية : « أسأسى حالا بارادنى لامتلاك القوة السكية لهذه الرغبة » .

(٢) بعد ذلك احفظ الهواء في رتيك ٨ ثوان ، وكرّر الجملة الآتية في أثناء ذلك : « أسأسى الآن في

امتصاص هذه القوة التي تمتص من الآن ملكاى .
 (٣) أخرج الهول من رقبتك بطه نحو ٨ ثوان ورددة الجلة الآتية في نفسك أثناء ذلك : « أما الآن
 في هدوء تام ، ويعنى به أن أسكم القوة المتناظية التي أوزعتها ، ويمكنك أن تكرر هذا
 التمرين عدة مرات إذا أردت .
 هأنذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء ، وذلك ليس لحفظ القوة فقط ، بل العلماء
 يستمدون أن هناك صلة بين الرئين ، وبين طبيعة الشعور البشرية .

يتخاب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يقصد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه ، وانك تسلبه
 قوته ، وتستعملها لأغراضك ، في خطوة واحدة صرت أرق من الهوى النفسى ، وأهل من العواطف ،
 والماس يسعون لهذا طول حياتهم ، وقيل منهم الواصل . مثل الرغبة والعواطف ككل قبله فيها قبلها المحترق
 الذى ينتهى بفرقتها ، فان تركها الرجل الجاهل ففرقت وقتله ، أو شوهت جسمه ، وإن رفع القتل عنها
 (ولا أنالك إلا فاعلا ذلك) صارت ملكا حلالا تنتفع بها في حياتك متى شئت ، فالإنسان تحت العواطف
 هالك ، والمالك لها سعيد . انتهى الفصل الخامس .

الفصل السادس: الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل : هذه الفصول الخمسة لم يجرى فيها أمور عالية هي معقدة سر ؟ فنقول : عليك باتباع هذه
 التعاليم ، والنتيجة أشبه بنبذة الزرع ، والقوانين هنا كالشمس ، الزرع لا يورق ولا يزهر ولا يثمر إلا في زمان
 ملائم ، هكذا هنا فليست النتائج بفت يوم أو بعض يوم .

بعض النتائج في الحال تشاهد

الطالب الجديد يشاهد في ٤ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج ، وفي الحال يشعر باحترام نفسه ،
 والثقة بها ، وكلما زدت كسبا للنفس زدت قوة في أعصابك وعقلك تزيد في أبحاثك وقتك بمنابستك
 الشخصية ، وهي ليست أنانية ، بل هي طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظم قوتك وتأثيرك ، وهي لا تدهو
 للباهة ، ولا الفاخرة أبدا ، ولينقاد كل طالب نفسه بصراحة في كل لحظة ، فلا يقع فيها يقع فيه الناس من
 الخطأ ، فلا تظن أن قوتك الجاذبية من أمانة الأصحاب وذوقهم السقيم ، فأنطأ منك أنت لأنك قدست الجاذبية .

ضرب مثل

إن زيدا الذى كنت تحب إيمانه بك وهو صديقك قد أقبل ، وقد كنت تستجلب مودته وهو لا يثد
 بمشاورتك ، ولا تدره مصيبتك ، سبب ذلك أنك كنت البطارية المرسله وهو البطارية الفاتية ، فكنت فأقدا
 شرارك الكهربية ، فأضعت قوتك وراء الفخر واللباهة طوعا أو كرها ، وهو حزنك واحترامك بلاعب ،
 يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدمة تدل على أنه سحب منك ولم تسحب منه .

ما يجب عليك ؟

أسكت الآن قليلا ، اترك صاحبك ثلاثة أيام أو أربعة ، هـ سرّك شيء تخبر به أصحابك كعادتك ؟ احفظه
 اترك العادة القديمة ، تعال على تلك لرغبة ، رغبة الاخبار والمباهة ، هذا التلب سهل في الآتون ، صعب

بعد ذلك ، لتسكن العادة منك ، ولكنك أنت فوق كل صعب ، لأنك قوى العزيمة ، ولست عن قف أملة العقبان ، ولقد كانت تهرب منك تلك القوة ، وأسفاه : طمعت رغابتك للمادية والمنوية لا تفر منك ، وليس هذا نكران الذات إنما هو القانون العلمي الذى يحكم التيارات ، فإذا عملت بهذه القوانين وطبقها بذكائك أمكنك أن تحفظ قوتك ، وتقدم رغباتك ، وقوة ذلك تصير ملكا لك . انتهى الفصل السادس :

الفصل السابع

لك قول قبضت على قوى المادية والمنوية بيد من حديد ، وجعلتها فى بطارىء العقلية ، فما النتيجة ؟ (الجواب) : القوة التى ملكتها وحفظتها سوف تجذب إليها ما يضاف لها من مغناطيسية الآخرين كالكمهراء الموجبة تجذب السالبة بدون عمل منك ولا فكر . وجهك يتغير ، وأخلاقك تتغير ، وأعمالك وأنت لا تشعر ، والذى كنت تطلبه فلا تصل إليه بجرى إليك عتارا بلاسى منك ، يأتى إليك اضطرابا بالقانون والجلب العالم (والمصيبة) أن لا تنزع إذا لم يأت لك نفس ما طلبته بعينه الذى كنت تسعى إليه ، أنه سوف يأتى لك يوما من الأيام .

التنير الطبيعي للمشاهد

من ابتدأت فى العمل والقرين والتقوية بهذه القوانين :

- (١) فاجسم يتغير .
- (٢) العين أكثر لهما .
- (٣) البشرة تزيد بياضا .
- (٤) القامة أكثر اعتدالا .
- (٥) يترك الخوف ، والقلق ، والحزن ، والقتل ، والسامة ، والتأخر .
- (٦) يكون هادئا ساكنا .
- (٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذى تلعب به الطبيعة البشرية ، أصبح قوة لا يستهان بها فى الوجود ، تتميز الدنيا فى حينه ، تلبس حلة جديدة ، تنبئ أسكراه من جهها ، ويستمر فى فهم قوته المنوية ، فيزيد إيمانا وعقيدة وطمأنينة ، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة ، والعلم قوة ليس بعدها قوة .

يجب الانتباه لأبسط الأشياء ، فإذا ترك فرصة واحدة أضاعت كثيرا من قوته ، هناك ظاهرة طبيعية ، لا يستد بها مغار العقول ، وتكون سببا من أسباب اليأس ، وداع من دواعى الحمية ، إذا سرت فى هذه الأعمال اتقادت لك السعادة ، وأصبح ما كان صبا عليك فى غاية السهولة ، ولكن ربما تقف عند مائلته فاعلم أن القوة لا تمناهى ، فطلب الأعلى ولا تحف عند ما وصلت إليه ، فليس للسعادة نهاية ، ولا للقوة غاية .

الفصل الثامن : اقتراحات نافعة فى الامور العملية

قد عرفت هذه القوانين ، وفهمت كيف تحفظ كهر باتيتك ، وتريد أن تستعمل هذه الموجبة فى أمر ، كأن تتوجه إلى رجل عظيم قاسى القلب ، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لأمليك ، فهذه القوانين تساعدك :

- (١) تظهر أمامه بظهورك الأدبى الحقيقى مع التوديع وعدم الاهتمام ، شاعرا أنك ماهر أن تكون أرق

من ذلك والطف في حضرتك ، ولكك لا تريد ذلك . ويتبدى الحادة وأنت مقترقونك المحفوظة في بطارتك حتى قدرها . تكلم بهدوء وطمأنينة . لا يظهر على وجهك علامة التلهف والاشفاق . لا يظهر للكل عليك ، ولا اليأس على وجهك ، اجعل السرور يلاوأسار برطقتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح ، وكل حركاتك دالة على مسابق ، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عينيه في أعلى الألف ولتعتقد انها موضع ضعف الرجل ، هؤلاء المشغنون ضعاف ، فستنظر عيناه بينا وشمالا ، ولا تنظر لها بين برائة بل بهدوء وطمأنينة فتبصم عيناه منك بقلق زائد ، اجتهد في أن ينظر إليك وأنت تسكلم ، وإذا ابتداء في الكلام فارفع عنه نظرك وانظر الى أى نقطة أخرى من جسمه ، اصغ إليه باحترام ، فإذا ابتدأت الكلام انظر إلى نقطة غير وضوح بحيث لا يتنبه ، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك ، وبعد ذلك لا يسألك أبدا وسوف يعرف أنك أثرت فيه

كيف نحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟

تدرب على الخطابة في الأماكن الخالية ، أوفى حيزك التي لا يجلس معك فيها أحد ، وخذ النفس بطفك وأخرج به بطف هكذا . دقائق ، والادخال والاضراج بالتدريج ، وبعد ذلك قف على قدميك ذاهبا جاتيا ملقيا كلمات ذات رنان في أى موضوع على شخص ، أو أشخاص ، أو صورتك في المرآة ، وقبص بصوت جهورى ، مشبرا بأصبعك ، مفكرا في كل جملة قبل النطق بها ، كامل الثقة ، وإثباته ثامة بالقول ، حاصرا فيه فكرك ، وتخرج الألفاظ كدقات الأجواس من أحشاك صدرك ، والكلام في أى خاطر يطرأ عليك ، ولو كانت الكلمات غريبة ، أو الألفاظ غير معقولة ، وتؤثر على السامع الخيال وكان الحادثة حقيقة .

التأثير « قسطن : الأول » زيادة الثقة بالنفس وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعر بها في حينها : متى شعرت بحل واحتمت إلى زيادة ثقتك بنفسك فاقض في هذا القرن نصف ساعة تمر الهيب الهيب . واتسم الثاني تأثير العقيدة ، فإذا كان الحديث في قضية معارفة استفاد من هذه القوة الهيبه فائدة ، وحصل على ما يريد على حسب ما طلب في حديثه ، وكان تلك الأشياء ملك له فلا تلبث حتى تأتي له ، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة في أوروبا اليوم . وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثانية والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أشرت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية ذكرتها لأريك أن القوم في أوروبا أخذوا يحتالون على حفظ اللسان بمثل ذلك وإن كنت أعارض في بعض ما جاء فيه ، وأنت ترى أنها التفت أن هذه الجمعية احتالت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها . وهذه النتائج الدنيوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقا بما أقصه عليك من نأ الأخبار والآثار التي ذكرها الامام القرألى في الاحياء . وسترى هجا من توافق النتائج في الحاليين وكيف كان هذه اثرية المحروية جدا ناضحة . وظهر عند غيرنا ما واقعها في تنقيحها . فانظر ماسنذكره فيما يلى وهو :

القسم الثاني من المقام الأول في المقالة الثانية

نذكر هنا ما جاء في الجزء الثالث من كتب الاحياء في صفحة ١٠٠ وما بعدها وهذا نصه :
« ونحن بتوفيق الله وحسن تديره نقصّل بمجموع آيات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة بمحدودها وأسبابها وضوابطها ، ونعرف طرق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار في دعها ، فنذكر أولا فصل الصمت وورده بذكر آفة الكلام فيما لا يعنى ، ثم آفة فصل الكلام ، ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة

المراء والجلال ، ثم آفة الخسومة ، ثم آفة التهم في الكلام بالتشقق ، وتكف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه ، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاهين المتعصبين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن وإلحاح أوجاد أولادهم ، ثم آفة الفناء والشعر . وقد ذكرنا في كتاب السباع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نعيد ، ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة افشاء السر ، ثم آفة الوعد والكذب ثم آفة الكذب في القول واليمين ، ثم بيان التعارض في الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة لئيمة ، ثم آفة ذي الساتين الذي يتردد بين المتعاضدين ، فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة اللبس ، ثم آفة العجلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بلفظه وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام من صفات الله عز وجل ، ومن كلامه ومن الحروف أي قديمة أو محدثة ؟ وهي آخر الآفات ، وما يتعلق بذلك ، وجعلتها عشرون آفة ، ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه :

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

أعلم أن خطر اللسان عظيم ، ولأجابه من خطره إلا بالصمت ، فذلك مدح الشرع للصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم (١) « من صمت نجى » وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « الصمت حكم وقيل فاعله » أي حكمته وحزمه (٣) وروى عن عبيد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت لرسول الله : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل أنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتني ؟ فأومأ بيده إلى لسانه (٤) وقال عقبه بن عامر قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك (٥) وقال سهل ابن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ : « من يتكلم لي بما بين خفيه ورجليه أتكفل له بالجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « من وفى شراً قبقه وذبحه وقلقه فقد وفى الشر كله » اتقوا هوالبلن ، والتذبذب الفرج ، والتلق اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولعلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج (٧) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان القم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالقم آفات اللسان لأنه محله . ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ، فقد

(١) حديث : من صمت نجى (ت) من حديث عبيد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد .

(٢) حديث : الصمت حكمة وقيل فاعله : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت ، قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال يرواه كذلك هو وابن حبان في كتاب « روضة العقلاء » بسند صحيح إلى أنس .

(٣) حديث سفيان الثوري : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث (ت) وصححه (ون ٥) وهو عند (م) حون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان .

(٤) حديث عقبه بن عامر : قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك الحديث (ت) وقال حسن

(٥) حديث سهل بن سعد : من يتكلم لي بما بين خفيه ورجليه أتكفل له بالجنة . رواه خ

(٦) حديث : من وفى شراً قبقه وذبحه وقلقه الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة .

(٧) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث (ت) وصححه (٥) من حديث أبي هريرة

قال (١) معاذ بن جبل : قلت يا رسول الله : أنقضت قولي ؟ قال : نكثت أملك يا بن جبل . وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (٢) وقال عبد الله التقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ؟ فقال قل ربى الله ثم استقم . قلت يا رسول الله ما أعرف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسانه وقال هذا (٣) وروى أن معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه (٤) وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من سره أن يسلم فليأزم الصمت » ومن سعيد بن جبيرة فروعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال (٦) إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أى تقول : لاق الله فينا فانك ان استقمنا استقمنا ، وإن أهوجبت أهوجبتنا (٧) وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبابكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه يده فقال له مانصع يا خليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردنى الموارد بن رسول الله ﷺ قال : ليس شيء من الجسد إلا يشكر إلى الله اللسان على حده (٨) ومن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلى ويقول : « يا لسان قل خيرا فتم ، واسكت عن شر » تسلم ، من قبل أن تندم » فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعت ؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه » (٩) وقال ابن عمر : قال رسول

(١) حديث معاذ : قلت يا رسول الله أنقضت قولي ؟ فقال نكثت أملك ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (ت) ومعه (وهك) وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) حديث عبد الله التقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ؟ الحديث رواه (ن) قال ابن حساكر وهو خطأ ، والصواب سفيان بن عبد الله التقي كما رواه (ت) ومعه (هـ) وقد قدم قبل هذا بخسة أحاديث .

(٣) حديث : إن معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه ، الطبراني وابن أبى الدنيا فى الصمت ، وقال : أصبعه مكان يده .

(٤) حديث أنس : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف .

(٥) حديث : من سره أن يسلم فليأزم الصمت ، ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف .

(٦) حديث : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان الحديث (ت) من حديث أبى سعيد الخدرى رحمه ، ووقع فى الإحياء عن سعيد بن جبيرة فروعا وإنما هو عن سعيد بن جبيرة عن أبى سعيد رحمه ، ورواه (ت) موقوفا على عمر بن زيد وقال هذا أصح .

(٧) حديث : إن عمر أطلع على أبى بكر وهو يمد لسانه فقال مانصع يا خليفة رسول ؟ قال إن هذا أوردنى الموارد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء من الجسد إلا يشكر إلى الله عز وجل اللسان على حده ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو يعلى فى مسنده والبارقطنى فى العل والبيهقى فى الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال البارقطنى إن الرفوع وهم على الباروردي ، قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ولاهة له .

(٨) حديث ابن مسعود أنه كان على الصفا يلى ويقول : يا لسان قل خيرا فتم ، وفيه مرفوعا : إن أكثر خطايا بنى آدم فى لسانه ، الطبراني وابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن

(٩) حديث ابن عمر : من كفى لسانه ستائفة عورته الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن

على الله عليه وسلم : « من كف لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (١) وروى أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني : قال اعبدا الله كأنك تراه ، وهدئ نفسك في الموتى ، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ، وأشر يقدم إلى لسانه (٢) وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٣) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسك » (٤) وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله عبدا تكلم فغم ، أوسكت فسلم » وقيل لعيسى عليه السلام : « دلنا على عمل نخجل به الجنة » قال : لا تتكلموا أبدا ، قالوا لا نستطيع ذلك . فقال : فلا تتكلموا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : « إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » (٥) وعن البراء بن عازب . قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : أطم الجائع ، واسق العطشان ، وأمر بالمعروف ، وأمر عن المنكر ، فإن لم تفعل ففكف لسانك إلا من خير . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « اخزن لسانك إلا من خير ، فأنك بذلك تغلب الشيطان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليقل الله حروفا ما يقول » وقال عليه الصلاة والسلام (٧) « إذا رأيتم المؤمنين صوموا وقورا فادنوا منه فانه يقن الحكمة » (٨) وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس ثلاثة : غانم ، وسالم ، وشلب ، فالغانم القنى بذكراته تعالى ، والسالم الساك ، والشلب الذي يخرق في الباطل » وقال عليه الصلاة والسلام (٩) « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يدبره بقلبه »

(١) حديث : أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني ، قال اعبدا الله كأنك تراه الحديث ، ابن أبي الدنيا في الصمت وطب ، ورجاله ثقات ، وفيه اختطاع .

(٢) حديث صفوان بن سليم مرفوعا : ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ، ابن أبي الدنيا هكذا مرصلا ورجاله ثقات ، ورواه أبو الشيخ في طبقات الحديثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا .

(٣) حديث أبي هريرة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسك ، متفق عليه

(٤) حديث الحسن : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : رحم الله عبدا تكلم فغم أوسكت فسلم ، ابن أبي الدنيا في الصمت واليهيقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية أسباط بن مبارك من البخاريين .

(٥) حديث البراء : جاء أعرابي فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال أطم الجائع الحديث ، ابن أبي الدنيا بإسناد جيد .

(٦) حديث : اخزن لسانك إلا من خير ، الحديث (طعن) من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر .

(٧) حديث : إذا رأيتم المؤمنين صوموا وقورا فادنوا منه فانه يقن الحكمة (٨) من حديث أبي خلاد سلمة : إذا رأيتم الرجل قد أصلى زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فانه يقن الحكمة وقد تقدم

(٨) حديث ابن مسعود : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشلب ، الحديث الطبراني ، وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري ، لم يلفظ الجائس ، وهو في ابن هبشي ، ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود .

(٩) حديث : إن سأل المؤمن وراء قلبه ماذا أراد أن يتكلم تدبره بقلبه ، الحديث لم أجده مرفوعا وإنما رواه الخليل بن أحمد في صحيحه ، لأخذت من رواية الحسن المصري ول كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : « العبادَةُ عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، وبُزء في التفرار من الناس » .
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثر ذنوبه ، ومن كثر ذنوبه كانت النار أولى به » .

ومما ورد في الآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني اللورد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أسوج إلى طول سجن من لسان . وقال طلوس : « لسانى سبع إن أرسلته أسكنى » . وقال وهب ابن منبه : في حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه ، حافظا لسانه ، مقبلا على شأنه . وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد : فإن من أكثر ذكرك للوثة رضى من الدنيا بالسب ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » . وقال بعضهم : « الصمت يجمع للرجل فضيلتين : السلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه » . وقال محمد بن واسع لما لك بن دينار : « بأنا يحيى : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم » . وقال يونس بن حبيب : « ما من إنسان أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله » . وقال الحسن : « تسكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقال له مالك : بأنا يجر لا تسكلم فقال له أشقى الله إن كذبت وأشتاك إن صدقت ، وقال أبو بكر بن عبيد : « لاجتمع أربعة ماله : ملك الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقيصر . فقال أحدهم : أنا أنعم على ما قلت ولا أنعم على ما لم أقل . وقال الآخر : ألى إذا تسكلمت بكلمة ملكتى ولم أملكها ، وإذا لم أنكلم بها ملكتها ولم تملكنى . وقال الثالث : عجبت لتسكلم إن رجعت عليه كلمته ضررته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أفقر منى على رد ما قلت » . وقيل أقام النصرورين للتعزيم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ما تسكلم الزبير بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دوائه وقرطاسا وقلما فشكل ما تسكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء ، فإن قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغبية والخيمية والرياء والتناقض والتعشش والمراء وتزكية النفس والغرض في الباطل والخسومة والفضول والتحريف والإزيلة والتقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهى سبابة إلى اللسان لا تتقل عليه ، ولها حلولة في القلب ، وعليها بواصت من الطبع ومن الشيطان ، والتخاضف فيها قلما يقدر أن يملك اللسان فيقلقه بما يجب وعكسه ويكفه عما لا يجب . فإن ذلك من غوامض العلم كما سيأتى تفصيله ، ففى الخوض خطر ، وفى الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الملم ودوام الوفاء والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة ، فقد قال تعالى : « ما يظلم من قول إلا أنه يقرب عبيد » . وبذلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو وقع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة ، أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تبنى بالضرر ، ولما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تفنيد زمان وهو عين الضميران فلا يبقى إلا التقسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يخرج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغبية وتزكية النفس وفضول الكلام لمنازلة يخفى دركه فيكون للانسان به مخاطرا ، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره

(١) حديث : من كثر كلامه كثر سقطه الحديث ، أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، وقد رواه أبو نعيم بن حبان فى « روضة العقلاء » والبيهقى فى الشعب موقفا على عمر بن الخطاب

علم قطعا أن ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال (١) : « من صمت نجما » (٢) فقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بشار المعاني إلا خواص العلماء ، وفيما سند ذكره من الآفات وعسر الاختراز عنها ما يمر تلك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى ، ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ، ونترق إلى الأغفل قليلا قليلا ، ونؤخر الكلام في النبية والنبوة والكذب فإن النظر فيها أطول ، وهي عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بكون الله تعالى .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يمينك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ أفتاك من جميع الآفات التي ذكرناها من النبية والنبوة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتكتم فيها هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا لأنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فأنك تضع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من فضعات رحة الله عند الفكر ما يطعم جسدك ، ولو هلك الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة ، ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدة لا يتفتح بها كان خاسرا خسرانا بينا ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يمينه ، فانه وإن لم يأثم فقد خسرحيث فاته الرج العظيم بذكر الله تعالى (٣) فإن المؤمن لا يكون صمته إلا مكررا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى مالا يمينه ولم يتخير بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « من حسن إسلام المرء تركه مالا يمينه » بل ورد ما هو أشد من هذا . قال أنس (٥) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع ، فسحبت أمه عن وجهه التراب وقالت : هيت لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك له أنه كان يتكلم فيما لا يمينه ويمنع مالا يمينه ، وفي حديث آخر (٦) أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه ، فلما دخل عليه قال أشر يا كبا ، فقالت أمه هيت لك الجنة يا كبا ، فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المثالية على الله ؟ قال هي أي يرسل الله قال وما يدريك بأنك كبا لعل كبا قال مالا يمينه

(١) حديث : من صمت نجما تقم .

(٢) حديث : انه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم (م) من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث : المؤمن لا يكون صمته إلا مكررا ، ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا ، لم أجد له أصلا ، وروى محمد بن زكريا الصلاني أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أمرني أن يكون قلبي ذكرا ، وصمتي فكرا ، ونظري عبرة .

(٤) حديث : من حسن إسلام المرء تركه مالا يمينه (ت) وقال غريب (و) من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث : استشهد غلام منا يوم أحد فوجد على بطنه . خرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه : لعله كان يتكلم بما لا يمينه ويمنع مالا يمينه (ت) من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف .

(٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث ، وفيه لعل كبا قال مالا يمينه أو منع مالا يمينه ، ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن جعفة بأسناد جيد إلا أن الظاهر إقطاع . بين الصحابي وبين الراوي عنه .

أومنع مالا يغنيه ومعادله انما تنهياً الجنة لمن لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يغنيه حوسب عليه وإن كان كلامه في مباح فلا تنهياً الجنة مع المناقشة في الحاسب فانه نوع من العذاب . وعن محمد بن كعب (١) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوتى عمل في نفسك ترجوه ؟ فقال إني لضعيف وإن أوتى ما أرجوه به الله سلامة الصدر وترك مالا يغني ، وقال أبو ذر (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقل في الميزان ، قلت بلى يا رسول الله ؟ قال هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يغنيك . وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : « حسن طبع أحب إلى من الصبر الموقوف » لا تسكتم فيما لا يغنيك فانه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تسكتم فيما لا يغنيك حتى تجده موعظاً ، فانه رب متكلم في أمر يغني ، قد وضعه في غير موضعه ففتن ، ولا علم حلياً ولا سفهاً ، فان الحليم بقلبك والسفيه يؤذيك ، وإذا كراخاك اذا غلب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وافقه بما تحب أن يغنيك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، وأعمل عمل رجل يعلم أنه مجزى بالاحسان ، مأخوذ بالاجترام » وقيل لقمان الحكيم ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفيته ، ولا أنكف مالا يغني . وقال موريق البجلي : « أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لا أقر عليه ولست بتارك طلبه ، قالوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا يغني . وقال عمر رضي الله عنه : « لا تعرض لما لا يغنيك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتطمع من جفوره ، ولا تطلعه على سررك ، واستتر في أمرك الذين يحشون الله تعالى : « وحد الكلام فيما لا يغنيك . أن تسكتم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال ، مثله : أن تجلس مع قوم فقد كرم أسفارك ومارأت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تحببت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر ، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يخرج بحكمتك زيادة ولا نقصان ولا تركية نفس من حيث التفاجر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتيال لشخص ، ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأت مع ذلك كله مضيع زمانك ، وأنى تعلم من الآفات التي ذكرناها ، ومن جعلها أن تسأل غيرك عما لا يغنيك ، فأت بالسؤال المضيع وقتك ، وقد ألجأت صاحبك أيضا للجواب إلى التضييع ، هذا اذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الآفة فيها آفات ، فأنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر فضل عبادة الجهر بمرجات ، وإن قال لا كان كاذبا ، وإن سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به ، وإن احتال لدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرسته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعيب في حيلة البغ ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي ، وعن كل ما يغني ويستحي منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول : ماذا تقول وقيم أنت ؟ وكذلك ترى انسانا في الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب

(١) حديث محمد بن كعب : ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث ، وفيه : ان أوتى ما أرجو سلامة الصدر وترك مالا يغني ، ابن أبي الدنيا هكذا مرسل وفيه أبو يعجب اختف فيه .

(٢) حديث أبي ذر : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث ، وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يغنيك ، ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

فيه ، وكذلك تسأل من مسألة لاجابة بك إليها والمسئول ربما لم يسمح نفسه بأن يقول لا أخرى فيجب عن غير بصيرة ، ولست أحنى بالكلام فيما لا يعني هذه الأجناس فان هذا يتطرق إلى إثم أوضر ، وأما مثال مالا يعني : ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يشجب بما رأى ! فأراد أن يسأله عن ذلك فغته حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ ظم داود وإليه ثم قال نعم المرح للعرب ، فقال لقمان : « الصمت حكم وقليل فاعله ، أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال ، وقيل انه كان يردد إليه ستة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ، فهذا وأمثاله من الأسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهلك سر وتوريط في رياء وكذب وهو عما لا يعني وتركه من حسن الاسلام فهذا حذره ، وأما سببه الباحث عليه فالحرص على معرفة ملاحجة به إليه ، أو المبالطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفلس رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الخوارج والصين ، فأهله ذلك وتضييعه خسران مبین ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، أو أن ينسح حصاة في فيه ، وأن يزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يمتد اللسان ترك مالا يعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدا . انتهى الكلام على الآفة الأولى .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة فان من يهنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره وبهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلتين فالثانية فضول : أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال هؤلاء ابن أبي رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يفتنون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمرا معروف ، أو نهيًا عن منكر ، أو أن تتعلق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أنكروا : إن عليكم حافظين كراما كائين . من الهين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدرته به كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولادنيه . وعن بعض الصحابة . قال : « إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الظمان فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا . » وقال مطرف : ليحطم جلال الله في قلوبكم فلذلك كروه عند مثل قول أحدكم للكلب والجملار : اللهم أخذه ، وما شبه ذلك ، واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل اللهم محصور في كتاب الله تعالى . قال الله عز وجل : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو أملاح بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « طوبى لمن أسكك الفضل من لسانه ، وأغنى الفضل من ماله » فاطر كيف قلب اللسان الأمر في ذلك فأسكوا فضل اللسان وأطاعوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه . قال (٢) : « قلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط

(١) حديث : طوبى لمن أسكك الفضل من لسانه ، وأغنى الفضل من ماله ، البخارى وابن قانع في معجمي الصحابة واليهيقي من حديث ركب المصري ، وقال ابن عبد البر انه حديث حسن ، وقال البخارى لا أدرى سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا ، وقال ابن منده : مجمل لا أنصرف له بحجة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقلوا أنت والله نارا متسيدنا الحديث (دن) في اليوم واليلة بلفظ آخر ، ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

من بني عامر فقالوا : أنت والدها ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت
 الجنة الخراء ، وأنت وأنت . فقال : قولوا قولكم ولا يستهزئكم الشيطان إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق
 بالثناء ولو بالصدق فيخفى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستحقة عنها ، وقال ابن مسعود : أنفركم فضول
 كلامكم ، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليكتب
 ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذابا . وقال الحسن : « يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكلت بها
 ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثروا قتل » . وروى أن سليمان عليه السلام يث بعض
 عقاريته ويث قرأ ينظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى
 الناس وهو رأسه فساءه سليمان عن ذلك فقال : هجيت من اللاتكة على رموس الناس ما أسرع ما يكتبون
 ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون . وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له
 تكلم ولا أسك ، والقبجر إنما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثرت ذنبه ، ومن كثرت
 كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار ^(١) : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم
 فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم : « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاى وأسانى ، قال : أنا كان لك
 في ذلك ما يرد كلامك ؟ » وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أتى عليه فاستتر في الكلام ، ثم قال « ما أوتى رجل
 شرا من فضل في لسانه » وقال عمرو بن عبد العزيز رحمة الله عليه : أنه ليعنى من كثير من الكلام خوف
 المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأجبه الحديث فليست ، وإن كان ساكنا فأجبه
 السكوت فليستكم . وقال يزيد بن أبي حبيب من قلة العلم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع ، فإن
 وجد من يكتفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزيين وزينة وقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما ملهر
 الرجل لسانه ، ورأى أبو الفراء امرأة سليطة ، فقال : لو كانت هذه خرسا كان خيرا لها ، وقال إبراهيم :
 « يهلك الناس خلتان : فضول للمال ، وفضول الكلام » فهذه مذمة فضول الكلام وكثرة وسببه الباهت
 عليه ، وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يبنى . انتهى الكلام على الآفة الثانية .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في الملقى ، ككتابة أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات القساق ، وتنم الأغنياء ،
 ونجس المالك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يجل الخوض فيه وهو حرام ،
 وأما الكلام فيما لا يبنى أو أكثر مما يبنى فهو ترك الأولى ولا يحرم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لا يبنى لا يؤمن
 عليه الخوض في الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون لا تفرج بالحديث ، ولا يحدو كلامهم ألتمك بأعراض
 الناس ، أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لا يمكن حصر ما أكثرها رتقها ، فلذلك لا نخلص منها إلا
 بالاعتصاف بما يبنى من مهمات الدين والدنيا ، وفي هذا الجنس تقع كل بيتك بها صاحبها وهو يستعقها ،
 فقد قال بلال بن الحب ^(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليترككم بالكلمة من رضوان
 الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله به رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليترككم بالكلمة من سخط
 الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » ، وكان عقبة يقول : كم من كلام

(١) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال : كم دون لسانك
 من باب ، الحديث ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات .

(٢) حديث بلال بن الحب : إن الرجل ليترككم بالكلمة من رضوان الله الحديث . هـ وقال حسن صحيح

منعنه حديث بلال بن الحرفث ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الرجل ليشكم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أهد من القديا » وقال أبو هريرة : « إن الرجل ليشكم بالكلمة مايلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم ، وإن الرجل ليشكم بالكلمة مايلقى لها بالاً يفرغه الله بها في أعلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخافضين » ، وقوله تعالى : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم إذ أن مثلهم » ، وقال سلمان : أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في مصيبة الله ، وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم ترمضوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث ، فهذا هو الخوض في الباطل ، وهو وراء ماسياتي من النية والنية والقصد وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر لتوصل إليها من غير حاجة دنية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البديع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصلابة على وجه يومه الطعن في بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض في الباطل ، نال الله حسن اللون بطقه وكرمه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة ، وللهدنة رب العالمين .

الآفة الرابعة : المرء والجدل

وذلك منهي عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « لا تمارأناك ولا تمارأه ، ولا تعد موعدا فتخلفه » وقال عليه السلام (٤) : « ذروا المرء فإنه لا تفهم حكمته ، ولا تؤمن فتنته » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « من ترك المرء وهو مخفى بني له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المرء وهو مبطل بني له بيت في رضى الجنة » وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاى عنه بعد عبادة الأولاد وشرب الخمر ملاحاة الرجال » ، وقال أيضاً (٧) : « ماضل قوم بعد أن هداهم الله

(١) حديث : إن الرجل ليشكم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أهد من القديا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن ، والشيخين (وت) : إن الرجل ليشكم بالكلمة لأرى بها بأساً يهوى بها سبعين خرفاً في النار ، لفظ (ت) وقال حسن غريب .

(٢) حديث : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسل ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح .

(٣) حديث : لا تمارأناك ولا تمارأه ولا تعد موعدا فتخلفه (ت) من حديث ابن عباس وقد تقدم .

(٤) حديث : ذروا المرء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته (طب) من حديث أبي الرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ورواه ابن الأستع بإسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود .

(٥) حديث : من ترك المرء وهو مخفى بني له بيت في أعلى الجنة ، الحديث تقدم في العلم .

(٦) حديث أم سلمة : أن أول ما عهد إلى ربي ونهاى عنه بعد عبادة الأولاد وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في اللصم والطبراني والبيهقي بسند ضعيف ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم .

(٧) حديث : ماضل قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبي أمامة ومحمه وزاد : بعد هدى كانوا عليه ، وتقدم في العلم ، وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف .

إلا أوتوا الجدل » ، وقال أيضا (١) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يبع المرء وإن كان عفا »
 وقال أيضا (٢) : « ست من كن في بلغ حقيقة الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أهله الله بالسيف ،
 وتجهيل الصلاة في اليوم النجم ، والسبر على المسببات ، وإسباغ الوضوء على الكثرة ، وترك المرء وهو
 صادق » . وقال الزيرلاني : لا جدال التمس بالقرآن فأنك لا تستقيم ولكن عليك بالنسبة . وقال عمر بن
 عبد العزيز رحمه الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التفتل ، وقال مسلم بن يسار : إياكم
 والمرء قاله ساعة جهل العالم وعندما يتنحى الشيطان زك . وقيل : ماضل قوم بعد إذ هداهم الله لإلجلال .
 وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه : ليس هذا الجدل من الدين في شيء . وقال أيضا : للمرء يقضى القلوب
 ويورث الضغائن . وقال قسطنطين لابنه : يا بني لا جدال العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل
 لجوبا بما رآه محبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو نالفت أخى في رماة قتال حلوة وقت حاضرة
 لسي في إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه للمرء فليمرينك بداهية تمنحك العيش .
 وقال ابن أبي ليلى : لا ألقى صاحب قلنا أن أكذبه وأما أن أغضبه ، وقال أبو البراء : كفي بك إنما أن
 لا تزال مجازيا ، وقال علي الله عليه وسلم (٣) « تكفير كل لحاء ركعتان » وقال عمر رضي الله عنه : لا تعلم
 العلم ثلاث ولا تترك ثلاث : لا تعلمه لعمري به ، ولا تنهيه به ، ولا تنافي به ، ولا تترك حياة من طلبه ،
 ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه ، وقال عيسى عليه السلام : « من كفر كذبه ذهب جلاله ، ومن لاسي
 الرجال سقطت سره ، ومن سكر هم سقم جسمه ، ومن ساء خلقه هذب نفسه » ، وقيل ليمون بن
 مهران : « مالك لا تترك أخاك من قل ؟ قال لأنى لأشاريه ولا أماريه » . وملاورد في ذم المرء والجدال أكثر
 من أن يحصى : وحده المرء هو كل اعتراض على كلام الغير بظاهره لخل في إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في
 قصد المتكلم ، وترك المرء بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به وإن كان
 باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه ، والعلم في كلام الغير تارة يكون في لفظه بظاهره لخل
 فيه من جهة النحو ، أو من جهة اللفظ ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم وتأخير
 وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بظنيان اللسان ، وكيفما كان فلا وجه لظاهره لخله ، وأما في
 المعنى فبأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا ، وأما في قصد قتل أن يقول : هذا
 الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض وما يجري مجراه ، وهذا الجلس إن
 جرى في مسألة علمية ربما خص بسم الجدل ، وهو أيضا منسوم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض
 الاستفادة لأعلى وجه العناد والنكارة ، أو التلطف في التعريف لائق معرض الطعن ، وأما المجادلة فمبارة
 عن قصد إلحاح الغير وتجهيزه وتنقيح بالفتح في كلامه ، ونسبته إلى التصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون
 تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند الجدال يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليين به فضل نفسه وقص
 صاحبه ، ولا حاجة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأنم به لو سكت عنه ، وأما الباعث على هذا فهو الترفع
 بظاهر العلم والفضل ، والتحم على الغير بظاهره نفسه ، وهما شهورتان باطنتان للنفس قويتان لها ، أما اظهار

(١) حديث : لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يترك المرء وإن كان عفا ، ابن أبي الدنيا من حديث
 أبي هريرة بسند ضعيف ، وهو عند أحمد بلفظ : لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاولة والمرء
 وإن كان صادقا .

(٢) حديث : ست من كن في بلغ حقيقة الإيمان الحديث وفيه ترك المرء وهو صادق أبو منصور الديلمي
 من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ : ست خصال من الخير الحديث .

(٣) حديث : تكفير كل لحاء ركعتان ، الطبراني من حديث أبي أمانة بسند ضعيف .

الفضل فهو من قبيل تزكية النفس : وهي من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء ، وهي من صفات الربوبية ، وأما تنقيص فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى أن يعتزق غيره ويخضعه ويسلمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان هلكتان وأما قوتهما للمراء والجidal ، فلولوا على المراء والجidal مقول هذه الصفات للهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهة ، بل هو مصيبة مهما حصل فيه إيداء الغير ، ولاتنكف للمراءاة عن الإيداء وتهميج القضب وحمل المعارض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقنع في قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار بين المتحاربين كما يثور الهراش بين السكاكين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحب بهما هو أعظم نكابة ، وأقوى في الخامة وإلجامة ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر بالبحث له على اظهار فضله ، والسبعية بالاعتدال له على تنقيص غيره كما سيأتى ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم القضب فان علاج كل علة بالامانة سببها ، وسبب المراء والجidal ما ذكرناه ثم المواظبة عليه بمجمله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويصير الصبر عنه ، روى أن أبا حنيفة رجة الله عليه قال لادود الطائي : لم آتت الا نزواء ؟ قال لأجاهد نفسي بترك الجidal ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تسكلم ، قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها وهو قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه نصر عليه الصبر عند ذلك جدا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس ، وأكثر ما يغلب ذلك في اللذاهب والعقائد فان المراء طبع ، فاذا علق أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرمه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبة ، واذا رأى مبتدعا تطلق في نصحه في خلوة ، لا يطرأ على الجidal فان الجidal يميل إليه أنها حيلة منه في التليس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثاله أن يراودوا ، فيستمر البسطة في قلبه بالجidal وتأكيد ، فاذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال عليه السلام (١) « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبة إلا بأحسن ما يقدر عليه » ، وفل هشام ابن عروة : كان عليه السلام يرد قوله هذا سبع مرات ، وكل من اعتاد الجidal مدة وأثنى الناس عليه ، ووجد نفسه بسببه عزاً وقبولا قويته فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزعا اذا اجتمع عليه سلطان القضب والكبر والرياء ، وسب الجاه ، والتعزز بالفضل ، وأعاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها ! وبهذا تم الكلام على الآفة الرابعة .

الآفة الخامسة : الخسومة

وهي أيضا مذمومة ، وهي رياء الجidal والمراء : فالراء طعن في كلام الغير باظهار غل فيه من غير أن يرتبط به فرض سوى تحقير الغير واظهار حمية الكياسة ، والجidal عبارة عن أمر يتعلق باظهار اللذاهب وتقريرها والخسومة لحاج في الكلام ليستوفي به مال أو حتى مقصود ، وذلك عادة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا للمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق ، فقد قلت عائشة رضى الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

(١) حديث : رحم الله من كف لسانه عن أهل القبة إلا بأحسن ما يقدر عليه ، ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور اللبلى في مسند القردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ : رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين وهو متقطع وضعيف جدا .

(٢) حديث عائشة : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم خ وقد تقدم .

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع » . وقال بعضهم : « إياك والخصومة فانها تمحق الدين » ويقال : « مانحهم ربح قط في الدين » ، وقال ابن قتيبة : مر في بشر بن عبد الله بن أبي بكرة ، فقال : ما بئس لك هنا ؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي ، فقال : ان لأبيك عندي بدا واتى أريد أن أجزيك بها ، واتى والله ما رأيت شيئا أذهب لدين ، ولا أقص للرومة ، ولا أضيق للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقلت لأنصرف فقال لي خصمي مالك ؟ قلت لأناصمك ، قال انك عرفت أن الحق لي ، قلت لا ولكن أكرم نفسي من هذا ، قال فاني لا أطلب منك شيئا هو لك ، فان قلت فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أوفى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه ، وكيف تدم خصومته ؟ فاعلم أن هذا التمس يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي فانه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللد في الخصومة على قصد التسلط ، أو على قصد الإيذاء ، ويتناول الذي يحمله على الخصومة بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحق واثبات الحق ، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لتهزم الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك التقدير من اللال ، وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدي عناده وكسره واتي ان أخذت منه هذا المال وبماريت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللد والخصومة والعجاج وهو مذموم جدا ، فأما المظالم الذي ينصرجه بطريق الشرع من غير لد واسراف وزيادة لجأ على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء فعليه ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ، فان ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة تورغ الصغر وتبيح الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الخقد بين المتخاصمين حتى يفرج كل واحد بمسامة صاحبه ويحزن بمرسه ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحنورات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره ، حتى انه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المرء والجidal ، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة يبنى أن يحفظ اللسان والقلب من تبعات الخصومة وذلك متمرجدا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تدم خصومته إلا أنه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيها خاسم فيه لأن عنده ما يكفي فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما لم أقل ما يفوق في الخصومة والمرء والجidal طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب ، إذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة ، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاسبه إما تجهيل وإما تكذيب ، فان من جادل غيره أوماراه أو خاصه ، قد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « يمكنكم من الجنة طيب الكلام والطعام الطعم » وقد قال الله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « من سلم عليك من خافي الله فارد عليه السلام وان كان مجوسيا إن الله تعالى يقول : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ، وقال ابن عباس أيضا : « لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه » ، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة لفرقا يرى

(١) حديث أبي هريرة : من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ابن أبي الدنيا والأعمش في الترغيب والترهيب ، وفيه رواية أبو يعى ضعه الجمهور .

(٢) حديث : يمكنكم من الجنة طيب الكلام والطعام الطعم ، الطبراني من حديث جابر وفيه من لأعرفه ، وله من حديث هاني أبي شرح بإسناد جيد : يوجب الجنة لطعام الطعام وحسن الكلام

(٣) حديث أنس : إن في الجنة لفرقا يرى ظاهرها من باطنها ، الحديث (ت) وقد تقدم .

ظاها من بلتها وبلتها من ظاها أمعا الله تعالى لمن أظم الطعام والآن الكلام » ، وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال مره سلام ، قيل : يروح الله أخول هذا الخنزير ؟ قال : أكره أن أعود لساني النثر ، وقال نينا عليه الصلاة والسلام ^(١) : « الكلمة الطيبة صدقة » . وقال ^(٢) : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكرة طيبة » ، وقال عمر رضى الله عنه : « البر شيء هين ، وجه طليق وكلام لين » . وقال بعض الحكماء : « الكلام اللين يسل الضعاف المستسكة في الجوارح » . وقال بعض الحكماء أيضا : « كل كلام لا يسيطر ربك إلا أنك ترضى به جليتك فلا تكن به عليه بخيلا فإنه له يهوضك منه ثواب الحسنين » . هذا كله في فضل الكلام الطيب وقضاهه لخصومة والمراء والجدال والبجاج فانه الكلام المستكره الوحش ، للؤذى للقلب ، للمفص للعيش ، للمهيج للضب ، للموغر للصدر ، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه . ثم الكلام على الآفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السادسة : التعمر في الكلام والتشذق

التعمر في الكلام بالتشذق وتكف السجع والقصاحة والتنع فيه بالتشبيات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاهين المذبحين للخطابة ، وكل ذلك من التنصع للمذموم ، ومن التكف للمقوت ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وأهلياء أتتى برآء من التكف » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٣) : « إن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا الزلزلون المتفهبون في الكلام » وقالت طائفة رضى الله عنها ^(٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شر رأيتي الذين غفوا بالعم ، يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، وينشدون في الكلام » . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٥) : « ألهك المنطعون ثلاث مرات ، والتطلع هو التمتع والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : إن شفاشق الكلام من شفاشق الشيطان » ، وجاء عمرو ابن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدي حاجته بكلام ، فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إلى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ^(٦) : « يأتي على الناس زمان يتخولون الكلام بالسهم كما تتخلل البقرة الكلا بلسها » وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التنبع والمقنة المصنوعة للكلمة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويخول فيه كل سمع متكف ، وكذلك التفاهع الخليج من حد العادة ، وكذلك التكف بالسجع في المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني ^(٧) كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا سهل

(١) حديث : الكلمة الطيبة صدقة (م) من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

(٣) حديث : إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الزلزلون المتفهبون في الكلام ، أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند (ت) من حديث جابر وحسنه بلفظ : إن أبغضكم إلى .

(٤) حديث طائفة : شر رأيتي الذين غفوا بالعم ، الحديث ، وفيه وينشدون ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب .

(٥) حديث : ألهك للمتطعون (م) من حديث ابن مسعود .

(٦) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتخولون الكلام بالسهم كما تتخلل البقرة الكلا بلسها ، رواه أحمد .

(٧) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث (م) من حديث المعير بن شعبة وأبي هريرة وأصلهما عند (خ) أيضا .

ومثل ذلك بل؟ فقال أسجعا كسجع الأعراب، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه، بل ينفي أن يقتصر في كل شيء على مقصود ومقصود الكلام التقييم للعرض وما وراء ذلك تصنع منموم، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتنويعها وقضيا وبسطها، فلا رقة اللفظ تأثير فيه فهو لا تق به، فأما المحاورات التي تجري قضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف للمنموم، ولا بلغت عليه إلا الرياء، وإظهار النفاحة والمهيز بالبراعة وكل ذلك منموم يكرهه الشرع ويذره عنه. انتهى الكلام على الآفة السادسة والحمد لله رب العالمين.

الآفة السابعة: التفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو منموم ومنهى عنه ومصدره الخبث والؤم قال صلى الله عليه وسلم (١): «إياكم والتفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش» (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن نسب قتل بدر من المشركين، قال: لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا أن البذاءة تؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٣): «ليس المؤمن باللعان ولا القاحش ولا البذي» ، وقال صلى الله عليه وسلم (٤): «أجنة حرام على كل قاحش أن يدخلها» ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥): «أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى، يسعون بين الجيم والجيم، يدعون بالويل والشبور: رجل يسيل فوه قيحا وضما فيقول له: ما بال الأبد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إن الأبد كان ينظر إلى كل كلمة قدسة خيفة فيستلذها كما يستلذ الأرث. وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لعائشة: يا عائشة لو كان التفحش رجلا لكان رجل سوء» ، وقال صلى الله عليه وسلم (٧) «البذاء والبيان شعبتان من شعب اللعاق» فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يحوز كشفه، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف،

- (١) حديث: «إياكم والتفحش: الحديث (ن) في الكبرى في التفسير والحاكم ومحممه من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة.
- (٢) حديث: انتهى عن سب قتل بدر من المشركين: الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورجاله ثقات ولقناني من حديث ابن عباس بإسناد صحيح أن رجلا وقع في آب للعباس كان في الجاهلية فطمع الحديث، وفيه: لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا.
- (٣) حديث: ليس المؤمن باللعان ولا القاحش ولا البذي (ن) بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم ومحممه وروى موقوفا، قال الدارقطني في الطل والموقوف أصح.
- (٤) حديث: أجنة حرام على كل قاحش أن يدخلها: ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو.
- (٥) حديث: أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى: الحديث، وفيه: إن الأبد كان ينظر إلى كل كلمة خيفة فيستلذها كما يستلذ الأرث: ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مانع، واختلف في محبته، فذكره أبو نعيم في الصحابة، وذكره (خ ح) في التابعين.
- (٦) حديث: يا عائشة لو كان التفحش رجلا لكان رجل سوء: ابن أبي الدنيا من رواية ابن أبي شيحة عن أبي الصر عن أبي سلمة عنها.
- (٧) حديث: البذاء والبيان شعبتان من: لعاق (ن) وحسنه (وك) ومحممه على شرطهما من حديث أبي أمية وقد قدم.

ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فان إلقاء ذلك مجالا إلى أسمع العلوم أولى من المبالغة في بيانه إذ قد شور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجلت بإدبرت القلوب إلى القبول ولم تخطوب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه فان الأولى في مثله الأشخاص والتخالف دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصبياح في الأسواق » ، وقال جابر بن سمرة ^(٢) : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامة ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم أخلاقا » وقال إبراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب ، وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوم العباد ؟ اللسان البذي ، والخلق الذلي ، فهذه ملزمة الفحش ، فأما حذو حقيقته فهو التعبير عن الأمور المستحبة بالعبارات الصريحة ، وأكفر ذلك يجري في ألقاظ الواقع وما يتعلق به ، فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتعاشرون عنها بل يكونون عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكر ما يقارنها ويتعلق بها . وقال ابن عباس : إن الله حي كريم يخفى ويكنى ، كنى بالسمن عن الجلع ، فليس واللس والنحول والصحة كنايةات عن الواقع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستحب ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أغشن من بعض ، وربما اختلف ذلك بمادة البلاد وأوقاتها مكرهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالواقع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والفاظ أولى من لفظ التفوط والغراء وغيرها ، فان هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحي منه فلا ينبغي أن يذكر ألقاظه الصريحة فانه أغشن ، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال : قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد ، فالتلفظ في هذه الألفاظ عمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش ، وكذلك من به صوب يستحي منها فلا ينبغي أن يعرضها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفحش ، وجب ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يحفظ في منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأثينا نأله لنرى ما يقول ، قلنا من أين خرج ؟ فقال من بطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الإبداء وإما الاحتياذ الحاصل من مخالطة الناس وأهل الخبث والؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أوصني فقال عليك بتقوى الله ، وإن امرؤ عبرك بشيء يملء فيه فلا تعبره بشيء يملء فيه يكن وباله عليه وأجره التولاسين شيئا » قال فأسببت شيئا بعده . وقال عياض بن حمار ^(٤) قلت لرسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصر منه ؟ فقال المتساين

- (١) حديث : إن الله لا يحب الفاحش والتفحش الصبياح في الأسواق : ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف ، وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش ، وأسناده جيد .
- (٢) حديث جابر بن سمرة : إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء : الحديث أحمد وابن أبي الدنيا بسند صحيح .
- (٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ عبرك بشيء يملء فيه فلا تعبره بشيء يملء فيه : الحديث أحمد والطبراني بسند جيد من حديث أبي جزي الهجيمي ، قيل اسمه جابر بن سليم ، وقيل سليم بن جابر .
- (٤) حديث عياض بن حمار : قلت لرسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من

شيطانان يتعاونان ويهارجان وقال ﷺ (١) «سباب المؤمن فسوق وقتله كفر» وقال ﷺ (٢) «المسكين ماقلا فعل البادئ منه ملحق بمتدى المظالم» وقال ﷺ (٣) «ملعون من سبوا لله» وفي رواية «من أكبر الكبار أن يسب الرجل والله عزوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والله قال يسب أبا الرجل فيسب الآخرا أباه»

الأفة الثامنة : اللعن

إما حيوان أوجاد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله ﷺ (٤) «المؤمن ليس بلعان» وقال ﷺ (٥) «لا تلعنوا بلعنة الله ولا تفضموا لبعنهم» وقال حذيفة ماتلحن قوم قتلوا على عليهم القول ، وقال عمران بن حصين (٦) «بيننا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لما فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ خذوا ما عليها وأعروها فانها ملعونة قال فسكنائي أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا تعرض لها أحد» وقال أبو الرداء ما لعن أحد الأرض الا لكان لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضى الله عنها سمع رسول الله ﷺ (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه ، وقال يا أبا بكر أصدقين ولعائنين كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثا فأعنت أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال لأعود ، وقال رسول الله ﷺ (٨) ان اللعائين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة ، وقال أنس (٩) كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ يا عبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فان في اللعنة حظرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد للملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلع الله عليه : والصفات المقتضية للعن ، ثلاثة الكفر ، والبغضة

بأس أن اتصرت منه فقال المسكين شيطانان يكاذبان ويهارجان (د) الطيالسي وأمله عند أحد

- (١) حديث سباب المسلم فسوق وقتله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود
- (٢) حديث المسكين ماقلا فعل البادئ حتى يمتدى المظالم (م) من حديث أبي هريرة وقال ما لم يمتد
- (٣) حديث ملعون من سب والله ، وفي رواية من أكبر الكبار أن يسب الرجل والله : الحديث
- أحد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

- (٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان : الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وقدمت وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا
- (٥) حديث لا تلعنوا بلعنة الله : الحديث (ت د) من حديث سمرة بن جندب قال (ت) حسن صحيح
- (٦) حديث عمران بن حصين بيننا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لما فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ خذوا ما عليها وأعروها فانها ملعونة
- (٧) حديث عائشة سمع رسول الله ﷺ أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه فقال يا أبا بكر لعائنين وصدقيين : الحديث ابن أبي الدنيا في المصمت وشيخه بشار بن موسى اختلاف ضعفه الجمهور وكان أحد حسن الرأي فيه
- (٨) حديث ان اللعائين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة (م) من حديث أبي الرداء
- (٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال يا عبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، ابن أبي الدنيا بإسناد جيد

والنفس ، ولعن في كل واحدة ثلاث مراتب : الأولى لعن بالوصف الأهم كقولك لعنة الله على الكافر والمبتدعين
والفسقة : الثانية لعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية
والخواارج والروافض وأعلى للزناة والظلمة وأعلى الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر
لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بطله
ويشترزعا بين الناس وفسادا : الثالثة لعن للشخص للعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنة الله وهو كافر
أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجاوز لعنته كقولك فرعون لعنة الله
وأبو جهل لعنة الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا
كقولك زيد لعنة الله وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر قاله ربما يسلّم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم
بكونه ملعونا ؟ فإن قلت يلحق لكونه كافرا في الحال كما يقال المسلم رحمة الله لكونه مسلما في الحال وإن كان
يتصور أن يرتد ، فأعلم أن معنى قولنا رحمة الله أي ثبت الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة
ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائر
أن يقال لعنة الله إن مات على الكفر وللعنة الله إن مات على الإسلام وذلك غيب لا يدري والحق يتروى
بين المجتهدين ففيه خطر وليس في ترك لعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد
المبتدع أولى فلحق الاعيان فيه خطر لأن الاعيان تتقلب في الاحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه
يجوز أن يعلم من يموت على الكفر وذلك حين قوما بالعن فكان يقول في دعاءه على قريش (١) اللهم عليك
بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر بدر حتى أن من يعلم عاقبتهم كان يلحقه
فنهى عنه (٢) إذ روى أنه كان يلحق الذين قتلوا أصحاب بار معونة في قوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك
من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فاتهم ظللون يسيئهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون
وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجزاءه إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يجز كما روى
(٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا
قبر رجل كان غائبا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فضرب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يا رسول الله

(١) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث
ابن مسعود

(٧) حديث أنه كان أنه يلحق الذين قتلوا أصحاب بار معونة في قوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك
من الأمر شيء : الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بار معونة
ثلاثين صباحا : الحديث ، وفي رواية لما قتلت شهرا يدعو على رجل وذكو ان الحديث ولما من
حديث أبي هريرة وكان يقول حين يخرج من صلاة الفجر من القراة ويكبر ويرفع رأسه الحديث
وفيه اللهم العن ليحان ورعلا : الحديث ، وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله تعالى ليس لك
من الأمر شيء لفظ (م)

(٣) حديث أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل
كان غائبا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فضرب ابنه الحديث (د) في المراسيل من
رواية علي بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من مكة من هود ذلك الى الطائف
ومعه أبو بكر ومعه ابن سعيد بن العاص فقال أبو بكر إن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال
أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله الحديث ، وفيه فإذا سببتم المشركين
فسبوهم جميعا

هذا قبر رجل كان أعمى للطعم وأضرب لاهل من أبي خافة قتال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف من أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فاصموا فانكم إذا خصمتم غضب الأبناء والآباء ، فكف الناس من ذلك . (١) وشرب نعيان الخمر فخذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال ﷺ لا تكن عوناً للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن لمن فاسق بينه وبين جاز ، وعلى الجلة في لمن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لمن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره ، فإن قيل هل يجوز لمن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أقر به ؟ قلنا هذا لم يثبت أصلاً فلا يجوز أن يقال انه قتله أو أقر به ما لم يثبت فضلاً عن العنة ، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً ، وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهم فإن ذلك ثبت متواتراً ، فلا يجوز أن يرى مسلم فسق أو كفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم (٢) ولا يرى رجل رجلاً بالكفر ، ولا يريه بالفسق إلا ارتقت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا به أحدهما ، إن كان كافراً فهو كالفوكا قال ، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بشكفيه بإياه » وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم انه مسلم ، فإن ظن انه كافر ببديهة أو غيرها كان عظيماً كافراً ، وقال معاذ (٤) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهلك أن تشتم مسلماً أو تمسى إماماً عدلاً ، والتعرض للأموات أشد . قال مسروق : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي ، قالت رجه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله ﷺ (٥) : « ولا تسبوا

(١) حديث : شرب نعيان الخمر فخذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسل ، ومحمد هذا وفيه في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمداً وكناه عبد الملك ، والبخاري من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حجاراً وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان قد جلد في الشراب فأقى به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم الله ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوافقه ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم ، وفيه : لا تعينوا عليه الشيطان ، وفي رواية : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك .

(٢) حديث : لا يرى رجل رجلاً بالكفر ولا يريه بالفسق إلا ارتقت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق البخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق .

(٣) حديث : ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أن أحدهما إن كان كافراً فهو كالفوكا قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بشكفيه بإياه ، أبو منصور البجلي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

(٤) حديث معاذ : أنهلك أن تشتم مسلماً ، أو تمسى إماماً عدلاً ، أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل .

(٥) حديث عائشة : لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقتلوا (خ) وذكر الصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة .

الأموات فانهم قد أفضوا إلى مقتدوا . وقال عليه الصلاة والسلام (١) : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » . وقال عليه السلام (٢) : « أيها الناس : احفظوني في أصحابي وأخواني وأصهارى ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا ، فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ، أو الأسرى بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال : قاتل الحسين أن مات قبل النوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد النوبة ، فإن وحشيا قاتل حزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كان ثم تاب عن الكفر واقتل جميعا ، ولا يجوز أن يلحق ، والقتل حكيرة ولا تنتهى إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالنوبة وأطلق كان فيه خطر ، وليس في السكوت خطر فهو أولى ، وإنما أوردنا هذا لتهادى الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها ، والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفة بأوصافهم دون الأشخاص للمعينين ، فلاشتغال بذكر الله أولى ، فإن لم يكن في السكوت سلامة . قال مكى بن إبراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة فجعلوا يلعنوه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك فقال إنما هما كلمتان مخفجان من مهيضى يوم القيامة لإله إلا الله ولعن الله فلا فلائ يفرج من مهيضى لإله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أوصنى فقال أوصيك أن لاتكون لعانا . وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم : « لعن المؤمن يعدل قتله » . وقال جاد بن زيد بعد أن روى هذا : فقلت أنه مرفوع لم أبال ، وعن أبى قتادة قال (٤) كان يقال : من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله ، وقد قل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب من لعن الأعداء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلا : لاصح الله جسده ، ولاسله الله ، ومايجرى مجراه فإن ذلك منسوم ، وفى الخبر (٥) « إن المظالم ليدعوا على الظالم حتى يكافئهم ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » . ثم الكلام على الآفة الثامنة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة التاسعة : الفناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نعيد ، وأما الشعر فكلام حسن من وقبيحه

- (١) حديث : لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات ، إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم .
- (٢) حديث : أيها الناس : احفظوني في أصحابي وأخواني وأصهارى ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا . أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى : احفظوني في أصحابي وأصهارى وأستاده ضعيف ، ولشيوخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة : لا تسبوا أصحابي ، ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم ، والانسائى من حديث عائشة : لا تذكروا وتاكم إلا بخير ، وأستاده جيد .
- (٣) حديث : قال رجل أوصنى قال أوصيك أن لاتكون لعانا ، أحمد والطبرانى وابن أبى عاصم فى الأحاد والثانى من حديث جوموز الهجيمى وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبى عاصم .
- (٤) حديث : لعن المؤمن كقتله ، « تنق عليه من حديث ثابت بن الضحاک .
- (٥) حديث : إن المظالم ليدعوا على الظالم حتى يكافئهم ثم يبقى للظالم منه فضلة يوم القيامة ، لم أقبله على أصل ، وللترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف : من دعا على من ظلمه فقد انتصر .

قيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) « لأن يتلى جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يتلى شعرا » ، وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه قليل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفة شعر ، وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال أجل مكان هذا ذكرنا فان ذكر الله خير من الشعر ، وعلى الجهة فانشاد الشعر ونظمه ليس بمحرّم إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم ^(٢) « إن من الشعر لحكمة » ، نعم مقصود الشعر للمح والتم والتشبيب وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح ، فانه وإن كان كذبا فانه لا يلتصق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولولم يكن في كفه غير روحه * لجاد بها فليتي لله ساقه

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وإن كان سخيا فلهالفة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لوتبت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها ^(٤) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف نعله وكنت جالسة أفول فنظرت إليه فجعل جبينه يرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت فنظر إلى فقال مالك بهت قلت يا رسول الله فنظرت إليك فجعل جبينك يرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولولا أنك أبو كبير لهللني لعلم أنك أحق بشعره » ، قال وما يقول يا عائشة أبو كبير اهذهني ؟ قلت يقول هذين البيتين :

ومبرا من كل غير حيفة * وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتلأل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى قبيل مابين عيني وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسرودي منك . ^(٥) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر العباس ابن مرداس بأربع فلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن نفع اليوم لا يرفع

(١) حديث : لأن يتلى جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يتلى شعرا (مسلم) من حديث سعد ابن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر وسلم من حديث أبي سعيد .

(٢) حديث : إن من الشعر لحكمة ، تقدم في العلم وفي آداب السماع .

(٣) حديث : أمره حسان أن يهجو للمشركين متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجمهم وجبريل معك .

(٤) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يصف نعله وكنت أفول قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث ، وفيه انشاد عائشة لشعري كبير اهذهني :

ومبرا من كل غير حيفة * وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتلأل

إلى آخر الحديث ، رواه البيهقي في دلائل النبوة .

(٥) حديث : لما قسم الغنائم أمر العباس بن مرداس بأربع فلائص وفي آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن نفع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو من أَرْضِ النَّاسِ ، فقال لصلى الله عليه وسلم : أقول فى الشعر رجل يعتز إلى ويقول بأبى أنت وأمى يارسول الله ، إني لأجد للشعر ديبيا على لسانى كديب الفحل ، ثم قرصنى كما يقرص الفحل ، فلاجد بدا من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لادع العرب الشعر حتى ندم الابل الحنين . وإلى هنا تم الكلام على الآفة التاسعة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله منموم منهى عنه إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم : (١) : « لا تمزحوا ولا تمزحوا به ، فإن قلت المرأة فيها إهداء لأن فيها تكذبا للأخ والصديق ، أو تحجلا به ، وأما المزاح خطيئة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه ، فاعلم أن النهى عنه الإفراط فيه أولادومة عليه ، أما المعادومة فلا فيه اشتغال باللعب ، والمزاح فيه واللعب مباح ، ولكن للزانية عليه منمومة ، وأما الإفراط فيه فانه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تبيث القلب ، وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يمتدح كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « إني لأمرح ولا أقول إلا حقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيما كان ، وقد قال رسول الله ﷺ (٣) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من التريا . » وقال عمر رضى الله عنه : « من كثرت ضحكته قلت هيئته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثرت كلاته كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » ولأن الضحك يدل على التفلة عن الآخرة . قال ﷺ (٤) : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وقال رجل لأخيه : يا أخى هل أتاك أنك وأرد النار ؟ قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال لا ، قال فبم الضحك ، قيل فإرى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلي أربعين سنة لم يضحك ، ونظروهيب ابن الررد إلى قوم يضحكون فى عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد فطر لهم فها هذا ضل الشاكرين ، وإن كان لم يفطر لهم فهذا ضل الخائفين ، وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول : أضحكك ولعل أكفالك قد خرجت

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث (مسلم) من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ أسلفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس : أجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع وما كان بدر ولا حابس * يفوقان مرداس فى الجمع وما كنت دون امرئ منهما * ومن قضح اليوم لا يرفع قال فأمم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وزاد فى رواية : وأعطى علقمة بن علاثة مائة ، وأما زيادة : اقطعوا عنى لسانه فليست فى شيء من الكتب المشهورة .

- (١) حديث : لا تمزحوا ولا تمزحوا به ، الترمذى وقد تقدم .
- (٢) حديث : إني لأمرح ولا أقول إلا حقا ، تقدم .
- (٣) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من التريا ، تقدم .
- (٤) حديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

من عند القصار ، وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يضحك ، وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يضحك أنت تهاب من بكائه قيل بلى ، قال قالني يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أحب منه ، فهذه آفة الضحك ، والمقوم منه أن يستغرق فحكما ، والحمد لله التمس الذي ينكشف فيه السر ولا يسمع له صوت ، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . قال القاسم مولى معاوية (٢) : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوصل له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفترقه فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ، ثم وقصه فقتله ، فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوبهم وقد هلك فقال نعم وأقول لكم ملائي من دمه . وأما آفة المزاح إلى سقوط الوتر فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد ابن المنكر : قالت لي أمي يا بني لا تمارح الصبيان فتكون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يا بني لا تمارح الشريف فيحقد عليك ، ولا اللئيم فيجترئ عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : « اتقوا الله وإياكم والمزاح فله بورت السفينة ، ويعرج إلى القبيح ، تحذروا بالقرآن وتجالسوا به ، فإن قتل عليكم حديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضي الله عنه : « أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال لأنه أزعج صاحبه عن الحق » ، وقيل : لكل شيء بؤس وبؤس العداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة لله ، مقطعة للأصدقاء . فإن قلت قد قتل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول إن قدرت على ما قدرت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، ولا تؤذي قلبا ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على النور فلا تخرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يشغل الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو كمن يدور نهاره مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقعتهم ويحسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن (٣) لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصفات ما يبرك بالاصرار ، ومن اللبالات ما يبر بصغرة بالاصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ، ثم روى أبو هريرة (٤) أنهم قالوا يا رسول الله أنك تداعينا ، فقال إني وإن داعيتكم لا أقول إلا حقا . وقال عطاء (٥) : إن رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نساءه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحدى وجري منه ذبلا كذيل العروس . وقال أنس : إن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكك الناس مع نساءه . وروى (٧) أنه كان كثير التمس

- (١) حديث : كان ضحك التمس ، حتم .
- (٢) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوصل له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفترقه ويجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ، ثم وقصه فقتله فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوبهم وقد هلك فقال نعم وأقول لكم ملائي من دمه . وأما آفة المزاح إلى سقوط الوتر فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد ابن المنكر : قالت لي أمي يا بني لا تمارح الصبيان فتكون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يا بني لا تمارح الشريف فيحقد عليك ، ولا اللئيم فيجترئ عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : « اتقوا الله وإياكم والمزاح فله بورت السفينة ، ويعرج إلى القبيح ، تحذروا بالقرآن وتجالسوا به ، فإن قتل عليكم حديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضي الله عنه : « أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال لأنه أزعج صاحبه عن الحق » ، وقيل : لكل شيء بؤس وبؤس العداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة لله ، مقطعة للأصدقاء . فإن قلت قد قتل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول إن قدرت على ما قدرت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، ولا تؤذي قلبا ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على النور فلا تخرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يشغل الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو كمن يدور نهاره مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقعتهم ويحسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن (٣) لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصفات ما يبرك بالاصرار ، ومن اللبالات ما يبر بصغرة بالاصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ، ثم روى أبو هريرة (٤) أنهم قالوا يا رسول الله أنك تداعينا ، فقال إني وإن داعيتكم لا أقول إلا حقا . وقال عطاء (٥) : إن رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نساءه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحدى وجري منه ذبلا كذيل العروس . وقال أنس : إن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكك الناس مع نساءه . وروى (٧) أنه كان كثير التمس
- (٣) حديث أذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد حتم .
- (٤) حديث أبي هريرة : قالوا أنك تداعينا ، قال إني وإن داعيتكم فلا أقول إلا حقا ، الترمذي وحسنه
- (٥) حديث عطاء : إن رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس نعم ، الحديث قد ذكر منه قوله لاصرة من نساءه : البسيه واحدى وجري منه ذبلا كذيل العروس لم أقف عليه .
- (٦) حديث أنس : كان من أفكك الناس ، حتم .
- (٧) حديث أنه كان كثير التمس ، حتم .

ومن الحسن (١) قال : أتت هجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة هجوز فبكيت ، فقال انك لست بهجوز يومئذ ، قال الله تعالى : إنا أنشأناهم لإنشاء جناتناهم أبكارا . وقال زيد بن أسلم (٢) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدهوك ، قال ومن هو ؟ أهوالتي بينه يياض ؟ قالت والله ما بينه يياض ، فقال بلى إن بينه يياض ، فقالت لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا وبينه يياض ، وأراد به اليباض المصطب بالحدقة ، وجاءت امرأة أخرى فقالت (٣) يا رسول الله اجلني على بغير ، فقال بل نعملك على ابن البعير ، فقالت ما أصنع به ؟ انه لا يعملني ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من بغير إلا وهو ابن بغير فساكن يرح به . وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عير (٤) وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : يا أبا عير ما فصل الخير ، لنفركان يلعب به وهو فرخ الصغور . وقالت عائشة رضي الله عنها (٥) خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال تعالى حتى أساقك فشددت درمي على بلقي ثم غلطنا خطا فقتنا عليه واستبقا فسبقتي وقال هذه مكان ذي الجواز ، وذلك أنه جاء به برما ونحن بذى الجواز وأما جارية قد بعثني إلى بشيء فقال أعطينيه فأبيت وسعيت وسعي في أثرى ثم يدرسكني ، وقالت أيضا (٦) سألني رسول الله ﷺ فسبقتي فلما حلت اللحم سألني فسبقتي وقال هذه بتلك ، وقالت أيضا رضي الله عنها (٧) كان عندى رسول الله ﷺ وسوءة بنت زمة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسوءة كلى فقالت لأحبك فقلت والله لتأكلن أولاً لطنخن به وجهك فقالت ما أنا بذاتته فأخذت يدي من الصفحة شيئا منه فطلعت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها فغفص لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستيدمني فتناولت من الصفحة شيئا فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضعك . وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابي (٨) كان رجلا دمييا فيبعا فلما بعاه النبي ﷺ قال ان عندى امرأتين أحسن

(١) حديث الحسن : لا يدخل الجنة هجوز : الترمذى في الشامائل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزى في الوقاء من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت : ان زوجي يدهوك أهوالتي بينه يياض ، الحديث الزبير بن بكار في كتاب الفسكة والمزاح ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث هبة ابن سهم الفهرى مع اختلاف .

(٣) حديث : قوله لامرأة استعملته نعملك على ابن البعير ، الحديث أبو داود والترمذى وصححه من حديث أنس بلفظ : أنا نعملك على ولد البقرة .

(٤) حديث أنس : أبا عير ما فصل الخير ، متفق عليه وقدم في أخلاق النبوة .

(٥) حديث عائشة في مسابقتها صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقتها وقال هذه مكان ذي الجواز ، لم أجده أصلا ، ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر .

(٦) حديث عائشة : سألني فسبقتي ، النسائي وابن ماجه ، وقد تقدم في النكاح .

(٧) حديث عائشة في لطنخ وجه سوءة بحريرة ولطنخ سوءة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضعك الزبير بن بكار في كتاب الفسكة وأبو يعلى بإسناد جيد .

(٨) حديث ان الضحاك بن سفيان الكلابي قال عندى امرأتان أحسن من هذه الجبراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزويها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بلى أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دمييا ، الزبير بن بكار في الفسكة من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلًا ، ولدارقطني نحوه هذه القصة مع عينة بن حصن التزائري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

من هذه الجبراء ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلأنزل لك عن إحداهما فتزويجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أمي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالاتها إياه لأنه كان دميما . وروى عقلمة من أبي سلمة (١) أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليه السلام فيرى الصبي لسانه فيبش له ، فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكون لي الابن قد تزوج وبقل وجهه ومأقبلته قط ، قال صلى الله عليه وسلم : إن من لا يرحم لا يرحم . فأكثرت هذه المطايات متقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هول ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا : أنا كل التمرا وأنت رمد ؟ فقال إنما أكل بالشق الآخر يا رسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى (٣) أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يقتلن ضفيرا لجل لي شرود ، قال فغضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجلل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أقر مني كلما رأيته حياه منه حتى فطمت المدينة ، وبعد ما قدمت للمدينة قال فزأني في المسجد يوما أصلي فجلس إلي فطوت فقال لا تطول فاني أتظرك ، فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجلل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أقر مني حتى لحقني يوما وهو على حمار ، وقد جعل رجليه في شق واحد ، فقال أبا عبد الله أمارك ذلك الجلل الشراد بعد ، فقلت والنتى يبتك بلحقى لمشرد منذ أسلمت ، فقال الله أكبر الله أكبر ، اللهم لعدي أبا عبد الله ، قال حسن إسلامه وهما الله . وكان نعيان الأنصاري (٤) رجلا مزاحا ، فكان يشرب التمرا في المدينة فيؤتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه

- (١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيبش - إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكون لي الابن رجلا قد خرج وجهه ومأقبلته قط ، فقال إن من لا يرحم لا يرحم ، أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن بدر وهو عيينة بن حسن بن بدر ونسب إلى جدته ، وسكن الخليل في المبهات قولين في قائل ذلك : أحدهما أنه عيينة بن حسن ، والثاني أنه الأقرب بن حابس ، وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرب بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم .
- (٢) حديث : قال لصهيب وبه رمد أنا كل التمرا وأنت رمد ؟ فقال إنما أكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات .
- (٣) حديث : أن خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يقتلن ضفيرا لجل لي شرود ، الحديث الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو .
- (٤) حديث : كان نعيان رجلا مزاحا ، وكان يشرب فيؤتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ، الحديث ، وفيه أنه كان يشتري النوى ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يهجي به صاحبه فيقول أعطه من متاعه ، الحديث الزبير بن بكار في الفكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا وقد تقدم أوله .

بعله ويأمر أصحابه فيضربوه بجملم ، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تخجل فانه يحب الله ورسوله ، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفه إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله هذا قد اشترته لك ، وأهديته لك ، فإذا جاء صاحبها بقضاءه بالغن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهتد لنا ؟ فيقول يا رسول الله انه لم يكن عندي ثمنه وأصيت أن تأكل منه فبعتك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر أصحابه بئنه ، فهذه مطايات يباح مثلها على النذور لأهل الصوم ، وللواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضعك الميت للقلب . وإلى هنا تم الكلام على الآفة العاشرة والحمد لله رب العالمين .

ونكتني يذكر هذه الآفات العشرة من باقيها في هذا المقام لطولها ، ونذكر باقيها أن شاء الله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « ما يلفظ من قول إلا لله رقيب متيد » وأذن فليكن هذا نهاية القسم الثاني من المقام الأول في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تزنوا أنفسكم » الآيات إلى قوله « إن الله توأب رحيم » .

المقام الثاني من المقالة الثانية

في غوائل الأعمال القلبية

أي المشار لها بقوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » والتي يشير لها قوله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ بآية « ولقد خلقنا الإنسان ونمل ما ترسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وآية « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .
والأعمال القلبية وهذه القوائيل قد شرحها الامام النزالي في الاحياء ، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجلتها في كتابنا الذي ألفناه لطلبة دارالعلوم وهو « جوهر التقوى » فهناك ما جاء في ذلك الكتاب في صفحة ١١٣ وما بعدها وهذا نصه :

القضية والزيلة والسعادة

إذا زرنا شجرة وتبيننا في إثمارها فماتنا نمره ، هكذا إذا نصبتنا في تحصيل الفضائل فأنفينا السعادة . السعادة نيل المراد الشريف ، وراحة النفس ، والاستلذاذ بالذخائر ، ولامعادة لنؤاد مضطرب ونفس فاجرة ، لها من رذيلة إلا ولها في النفس سره الأخر ، فالجهل أشد الآلام ، والبلادة شقاء الجهال ، والنسيان والسهو بلية الإنسان ، والحب والكبر يوردان القلب بموارد العطب ، وبصرعائه في القلب ، بالمحظوظ الخسيسة والشهوات الباطلة ، والتعرض لقت المقاتلين ، واستنزاه المستهزئين ، والحسد يودي صاحبه ويقطع فؤاده ويقلبه في نار السعير ، ويعرضه لخطر كبير ، والشره يعذب صاحبه ويوقه كل يوم في تأنيبه ، ومن غرق المال غايه ما اشتراه ، والسلطان والنزق قصري مناه ، عذب بها العذاب الأكبر . « ولا تهيج أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليذهبهم بها في الحياة الدنيا رزقهم أنفسهم » بما عيب عيوبهم من الآفات ، وما يمرض له من النكبات ، وهم عادموا منبر ، قليلوا الأجر ، كثيروا الملع ، عظيموا الجزع ، فأني يكون المرء من السعداء ، وقد كتب نفسه بيديه في ديوان الأتقياء ، فالسعيد من اتبع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالغة وما يقبها ، والشجاعة والحكمة وأقسامها ، أولئك هم السعداء في الآخرة ، عند ربهم يرزقون فرحين إذا اعتادوا وحزنوا على ذلك حتى صار مستلذا مشوقا ، فيأنس بالعارف العالية ، والطيبات وأقسامها ، والرايضات وأعلامها ، والأطيات وجاها ، ويأنس ما تسله القوة البشرية من المعارف الحكيمة ، ويأنس بالعدل في

عمله ، والصديق في مطلقه ، والمروءة في أصحابه ، وقد أَرْضَى أشرف العقلاء ، ورضى بما ساقه القضاء ، ولا يطمعن في رضاء سائر العالمين ، فان ذلك ليس في حيز الامكان ، وغاية الأمر وتصاراه تعالى عن الرعونات الدنيوية والرضاء ثم العلماء أتتني : « يا أيها النفس الملمتة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

من هذا علم قول بعض علماء القرب لبعض شبانا : « لا يضللك المال ، اذا استلأ قلبك بالفضيلة فاملا » القلب حكمة وفضيلة والحبب فطنة وذخبا ، فاعلمهم محمود الفضائل ، والمثري واسع المروف ، .
وأما أقول : ألم تسمع أقوال النبي سليمان عليه السلام : « وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين » . انتهى

القُدوة الحسنة

مامن نبي أو عالم أو عامل إلا كان قدوة على حسب درجته ، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس ونهارها والنجم الزاهر في ظلمات الفياجر ، لتكن شمسا يضيئ سناها للناظرين ، وسيرتك هدى ، وعلمك نبراسا للسايرين .

أيها الطالب : إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحاتك أساس يبنى عليها ومقدمات لتأخر ، فاحذر الخدر كله أن تكون قدوة سيئة للبئين ، وكن خيرا قدوى لغير المتقين ، حتى يصدق علينا قول البيهقي :
إذا مات مناسيد قام سيد * فتول لنا قاتل الكرام فحول
لا يرين الناس منك إلا كالا ، ولا يطلعون منك إلا على ما جل وحلا ، ولا تهن عين منك على قبيح ، وأصلح السريرة ، وأحسن العلانية ، وذرا لمباهاة وللملاحة ، وللشاقة والمراء ، وأظهر البشر ، وقفل للناس حسنا ، وآت ذا القربى حقه ، وأعط وأصفح ، إن الله يحب المحسنين .

علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم ، والمتهج الأوضح ، في علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، والتعود على قبيضها ، ومحاربتها بدونها ، فليجهد في إزالة التعليم ، والبخل بتكليف البذل ، ومداومة الطاء ، إلا أن للعادة تأثيرا على النفوس الحيوانية فضلا عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاده الانسان بالتعويد فسخره للركوب واستطاع للحرب ، وبذلك للحلب وساقه للحرث ، وصير يتيق الزرع ، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثير الأرض ولا يتيق الحرث ، أفليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان ؟ فكيف من جبان ركب حول البحر وهو مضطرب الحركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب ومارشجاعا ، وكم من بخيل تمود البذل فأعطى المال وأكرم الزيل ، حتى صار طبعا مستلذا ، وعادة مأثومة .

حجب للعادة وأتى حجب ! قلب المحبوب مكروها ، وترد المألوف مبغضا ، وتجعل السفيه حليما ، والمليم سفها ، والجاهل عالما ، والكاذب صدوقا ، للعادة في النفوس مجازبات ألا أن للجوارح لأثر في النفوس ، وللنفوس أثرا في الجوارح ، كالبحر يحمره السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لتأخذ والرذائل آلاما . إلا أن متكاتب الفضائل مجاهد ، ومريد لا يزال على الصراط مسافرا ، لم ينل بقيته ، ولم يحظ بنواله ، فانه فضل على القاعد النافل ، والساهي النائم ، والفضل كل الفضل أن يصير المتكاتب مرغوبا ونلكروه من الطاعات محبوبا ، قال في الحديث الشريف : « وجعلت قرعة عيني في الصلاة » ، ألا وان قوام الأمر وعماده : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » اهـ

الغضب

الغضب ثوران يعلو به الدم ، فيرتفع في أعالي المروق ، فيحمر ظاهر البدن دفعا للأذى قبل وقوعه ، وانتقاما من المؤذي بعد حصوله ، إذا طغى القدرة على خصمه ، فإن بدا له الغضب تبدل الاحرار اصغارا ، وكره لهم راجعا لأعناق الجسم هاربا من إنداء النغم وإن تردد بين الاعتقادين ، وشك في الأمرين ، تعاقب اللونان ، فأحمران قمر ، وأصفران خور ، فالهم كاليليش الحاروب ، يقدم اقدام القادر ، ويصحب إجماع الحائر : « ما يرى في خلق الرحمن من تفاوت » .

والغضب آثار ظاهرة كتغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركات والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، ويحمر الأهداق ، وتقلب المناخر ، وتستحيل الخلق ، ولعبرك أن قبح الظاهر أثر قبح الباطن ، وما الظاهر إلا مآة تجلت فيها صورة النفس ، وثمرت ظهرت في شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها تمتد في الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالثتم والقبح من الكلام مع تحط النظام واضطراب اللفظ الاقدام على الضرب والتهميم والتزوي والقتل والجرح عند التمكن حتى إذا عجز عن التشنى رجع إلى نفسه فزق ثوبه ، ولطم خده ، وضرب يده على الأرض ، وغدا كالواله السكران والمدهوش المتعبر ، وربما سقط فأغشى عليه ، وقد يضرب الجداد ويخاطب الحيوان ، وربما رفسه دابة فرفسها ، أو انكسر اقل فشبكه كما يعامل العقلاء .

هل هذا إلا من آثار اضطراب نيران القلب وصورة من قبحه ، وكله من صور تجرؤها الأليم ، وتجلبها الحوادث مع الغضب عليه كالحقد ، والحسد ، والشجاة بالمساآت ، والحزن بالسرور ، وافشاء السر ، وهناك السر ، والاستهزاء ، فهذه ثمرات افراط الغضب .

وأما ما يضافه فالية الضعيفة ، وثمرتها قلة الأفة ، واحتمال التلة ، وعدم القدرة على الحرم ، والسكوت عند مشاهدة للسكرات من غيره ، وأن لا يغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب ، ومباشرة العيوب ، فلا يتوب ، فمن ابتلى بذلك فليبرجته ، فكلما الطرفين مذموم ، والوسط مدح ، هدايا الله الصراط المستقيم .

ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ، ان خبت أنبتت القناد والشوك والحسك ، وخيبت الثبات ينقلب على طيه ، ورديته على جيده ، ومائل المجر والحسد والشجاة والاحتقار والغبية وهناك السر وايدأته بالضرب وضربه ، الناجمة من الحقد ، الباقية في أرض القلب التي أفسده الغضب إلا مثل شوك السعدان ، وشجر الطرفاء ، ونبات الحنظل والعليق ، إذا نبتت في أرض لم يتعهدا ، مصلحوها ، ولم يقم عليها أهلها ، ألا وإن القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وريحان من علم نافع وسكينة صالحة ، وأما نار تسمر ، ويحجم ترمي بشر ، فيحترق الجنان ، وتنحل الأبدان .

ألق ببصرك في القضاء ، وتأمل النلت ونعجب ، ألم عز إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالمبارك الذي ينبت ما بين شجرات القبول فيمتص غذاءها ، ويبيد أعمالها وجها ، تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والقول مثل الفضائل ، والمهلك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ، ونحن ملزومناه وإنما هو النامي بنفسه ، المعتدى على نباتنا ، للميت لمادتنا ، المييد لأغديتنا ، ألا وإن ماضر الناس تام بنفسه وما تضمهم يعوزه القياب عليه .

فإذا ابتليت بمن آذاك فلا تجعل للعقد عليك سبيلا ، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارة للزروع بمزقها ، وأفضل ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فانه لما حلف أن لا يفتق على مسطح قريبه وقد

تسكّم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى : « ولا تأتّل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤثّروا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليضعوا وليصنعوا الاتّحبون أن يضر الله لكم واقعة غفور رحيم » ، فوصله بعد القطيعة ، وأنتم عليه بعد الحرمان . انتهى

المحب وسببه وعلاجه

الحب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم ، فأما من كان خائفًا وجلًا مشفقًا من زوالها ، ومن فرح بها من حيث أنها نعمة من الله فليس بحبيب ، أما سببه فالجهل ، وأساسه الوهم الذي عليه تبنى قصور الهوى ، وحراب الجهل ، وعتايل الفخار . فأما علاجه فإن يعرف المرء أن ما يباهي به بين الأقران لا يخلو من أحد أمرين : إما ما يدخل تحت اختياره ويظهر بجماله ويحصل بسببه كالعبادة والصدقة ، وإصلاح الأمة ، وسياسة الجهور ، وحشد الجنود ، ورفع البنود ، ونظام اللوازم ، وتعليم الناشئين ، فهل جهل ذلك المسكين أنه مخلوق ضعيف ، مركب من عناصر مقهورة ، مؤلف من أمشاج في ماء مهين ، وماذا عمل ؟ إن هو إلا آلة مسخرة ، وطينة محبرة ، وصورة مجتذرة ، وصنعة مدبرة ، وآلة مصفرة ، وعقطة وقذكرة ، فاجتر من بخره ، أو شاكر من بره .

وأما ما لا عمل له فيه فإن كان جلالاً أو قوة أو نبأ أو ميراثاً من كل ما لا اختيار له في حصوله ، ولا سبب أوصله إليه فإن الأمر أهون ، وللحبيب إذن أشدّ جهالة ، وأخسر صفقة ، وأقلّ فكراً ، وأبعد خلا ، وأسوأ حالاً . ومن أجهل من يجب بما لم يفعل ، وإن للحبيب مفتر بنفسه ، آمن زوال نعمته حيث لا أمان ، قتل الإنسان ما أجهله . واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهي : الجهال ، القدرة ، العلم ، النسب ، الميراث ، الملك .

العلاج

التأمل ، والتذكر ، والتدبر ، وإذ كرر أن الموت شامل ، والاعتبار بمن مضى من الأمم ، فأخلاو السيار فصارت قاعاً منصفاً بعد العزّ والبأس ، وروسوخ السولة ، وتعام الزينة .

الأحاديث ووزاع الدين

قال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذبنيوا لحببت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، الحب » وقيل لعائشة رضي الله عنها : متى يكون الرجل سبياً ؟ قالت إذا عرق أنه محسن . وقال الله تعالى : « ويوم نحسب إنذ أعجبتمكم كفرتم فلم تهن عنكم شيئاً » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشح متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

الكبر

الكبر أن يرى الإنسان نفسه فوق غيرها بجم حسبه ، أو عمل أهله ، أو أصل نسب له ، أو جمال ألقاه ، أو مال أله ، أو قوة أمرته ، أو عشيرة نصرته . فهذه أسباب تدعو أولاً للإعجاب بنفسه ، واستحضار صفته والفرح بما يراه أهله من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحدّ ملائمة فؤاده ، أو لحسد أخصبه ، أو لرياء اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعوه للكبرياء ، أما الحب فقد تقدّم ذكره ، وسبق شرحه .

أما من حقد على من آذاه ، وأضره السوء ، واستيقظ له الشر ، فانه يتكبر عليه ويؤذيه ، وهكذا الحاسد على النعمة ، الفائد للنضيلة ، والمرأى الذي يطلب الرقة والسودد ، انه لا يقبل العلم أمام الجالوس ، ولا يقتر بالنضيلة للمحسودين ، ولا يسبح النعيصة في ملائ من العالمين .

العلاج

فليعالج المتكبر نفسه بالعلم والقلم ، وليذكر أنه مكتون ضعيف مرهوب ، وليواظب على أعمال للتواضعين
وليحذر التنازل واللذات والابتدال ، فإذا هتم لأخواته وقرنائه فسوى فعاظم وأكرم شواهم ، وسارهم وسرهم
وقدا إلى باب الله راعهم ، فهو للتواضع وإن تنزل إلى أسفل الدرجات ، وعامل من تحت درجته معللة أخواته
أوأخذ بقلبي ، أو يتنزل ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأهمل من المتبذلين ، فليعالج المتبذل نفسه برفضها ، ولينف
للمتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل ، والحقد المكين .

ثم الكبر وإيضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها في الجوارح ، وتثمرها في الأعمال ، كأن يترفع عن محاسبة
نظيره ، ويأتم من مخالطته ، ولا يساويه في مجالسه ، وإذا ناظره عنف ، وإن كلمه أفف ، ويتقدم عليه إن
ماشده ، ولا يقبل منه نصيحتة إن هداه ، وهذا الخلق غافة المباد والزهاد ، ولبية الوعاظ والمعلماء ، فضلا عن
العامة الجهلاء ، وهو أعظم الخلق ، وأكبر البليات والالاسن ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في
قلبه مثقال فرة من كبر » . والإنسان غلام جهول قد يسوقه الغرور للمتكبر على الله فيقول « أنا ربكم الأعلى »
وقد يرى نفسه أحق بالرسالة ، وأولى بالشفاعة ، فيقول : ولم أرسل المرسلون ؟ واصطفي النبيون ، ومنع من
تلك النعمة فلا يضيع نبيا ، ولا يرى له رسولا ، وقد يرى الناس دونه خللا ، والعامة جبلا ، فيعظم خطيئه ،
ويغشئ ذنبه .

الفرق بين العجب والكبر

المعجب يرى مدلا بنفسه ، فرحا بسمته ، وإن كان غيره أسوأ في نظره ، وأعظم في معتقده ، والمتكبر
أعظم جرما ، وأكبر إثمًا ، فهو يريد أن يرى غيره دونه ، وهو القاهر فوقهم ، وقد ذنبه الله تعالى فقال سبحانه
« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيلا
الرشد لا يتخلوه سبيلا وإن يروا سبيلا التي يتخذونه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .
وقال : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يابج الجبل
في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة
الكبرياء » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا
أبيه وقال إني أتركك بائتين وأنها كما عن اثنتين : أنها كما عن الشرك والكبر ، وأمرها بلالة إلا الله فإن
السماوات والأرض ومن فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لاله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرفع
منهما ، ولو أن السماوات والأرض وما فيهن كانت حلقة فوضعت فيها لاله إلا الله لتقصتها ، ثم أمرها بسبحان
الله وبحمده فأنها صلاة كل شيء » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا » .
وروى عنه عليه السلام أنه يلقى يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله : يا ابن آدم أنجزني وقد
خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب جعت ومنعت حتى
إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأني أولان الصدقة اه

ولتقتصر من حكاياتنا « جوهر الحقوى » في علم الأخلاق على هذا المقدار ، ونرجو باقيا إلى تفسير
(سورة ق) عند آية : « ولتصلحنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد * وبهذا انتهى المقام الثاني الذي هو في غوائل النفس من المقالة الثانية في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تملأوا أنفسكم من الغنى ولا تملأوا بأفواهكم بالنفاق الا سمعتم من الإيمان ومن لم يفت فأولئك هم الظالمون » .

المقالة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية إقطاعا لنا حتى يرجع مجدنا بيته أشرف مما كان عليه أبواؤنا العظام ، ولأكتف في هذا المقال بما كتبه السلامة (لوربوستودارد) العالم الاجنابى الأمريكى المترجم إلى العربية في الجزء الأول من كتابه المسمى « حاضر العالم الاسلامى » إذ ذكر السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا ، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة ايران يزيدان استيحاء العالم الاسلامى ، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فزاد المسلمون استيحاءا ، وكيف اعتد الترك والعرب في قتال العليان في طرابلس وهكذا اشتد غليان العالم الاسلامى ، وقد تتم هذا كله في سورة الفتح من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى حوالى صفحة ١٦٤ . ولتقتصر من الكتاب على ما لم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه : —

ولإذ قد بلغنا في الكلام على الجملة الاسلامية من وجهتها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاقتصادية . إن السبب في انتشار الجامعة الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق ، فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامى ينسكع في أجياله الوسطى ، فكانت الشريعة الاسلامية وبانها من محرم الربا مربية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالية مبدورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة إنما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد ، زد على هذا أن التزام الغرب في جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، إذ أن فتح أوروبا للعالم الاسلامى الفتح السياسى كان بمثابة الفتح الاقتصادى جنبا إلى جنب ، ورمما كان هذا الأخير بمثابة نظاما وأكمل عدة فبات كل موقع مشرق في طوف من البضائع والحاج البضة الأثمان للفقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رموس الأموال الغربية متدفقة لأخصى ، تسترب في البلاد وتنشر بأخضع الصور وألقى الأساليب كالقروض والامتيازات التي من شأنها متى ما عرفت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية ، فنصر أوروبا التي نالت في فتحها هذا الفتح السياسى الاقتصادى التام كان باعثا لشعريين على العداء والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامى غضبان ، فهله مارآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأثى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقد حوله إزاء حول القرب الجبل العالى فأدرك شقة البعد ، فلفق للعالم مجد في سبيل التحرر الاقتصادى جده في سبيل التحرر السياسى من رقيق القتل والاستعباد ، ثم أنشأ حكما للمسلمين وأرباب البراية فيهم والرأى السديد ، يلتمسون الأسباب الغربية القفضلى ، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامى رقىا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها ، وما كانت تحرر عت الشريعة لتنف سدا في وجه النهضة ، ولالتحول دون مجراها ، فتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينجو ويزداد : ناهجا منهاجيا اقتصاديا غربيا ، ولكنه حتى اليوم مابرج يمتاز بالمرور الأول من أمواره ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالهند ومصر والجزائر ، أما متجهه فواحد

في كل قطر اسلامي ، ومنفصل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي ، فغايب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث ملته بالجامعة الاسلامية ومنزله فيها ، وهذا الشأن هو عظيم جداً ، لأن الوثيق وحدة وأمن صلة ظهرت في المسلمين حتى اليوم إنما هي الوحدة الاقتصادية بالامراء ، ولا يمزج عن البال أن الروابط الدينية ، والصلات الخلقية التهذيبية ، التي تجمع بين المسلم والمسلم ، ما اكتسقت تزيد في تواتر المسلمين وتأثيرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم في المصير الاسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض ، ويجب إسناد آخر ، دع ملهونك من الأسباب الغريبة لقتل والتواصل ، المسهة على المسلمين القيام بالسفر إلى كل جهة أرادوا ، فإزداد بذلك تعارفهم ، واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، أبناؤه مقادير ، بهاء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار ورأب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيرفة والسفيرة ، حتى وأرباب المصانع والمطعم ، من لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل قرن أو نصف قرن خلا ، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التناهم والتواتر ، تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزام الغرب في المنشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلم في الواقع من سعة المجال للصقل للمنظم والاتحاد الوثيق مالمس مثله للسانة المسلمين ، إذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والفلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وقام ، فخلافاً بينهم في هذا الميدان يفضي بهم إلى الانقسام لفة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد اقتصادياً يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدي بهم إلى المجازفة بالنفوس والهمم والأموال ، بل هم جميعاً في طلاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدوا الكلمة ، يبحثون في سبيل الحياة الاقتصادية الاسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يهملوا أن يحول دونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هي ثروة المسلمين للمسلمين ونموها التجارة والصناعة في جميع المصير الاسلامي هي لم يقتنعون بها وليست لنصارى القرب يستزفونها ، وهي تقض اليد من رموس المال الغربية والاستعاضة عنها بروس مال اسلامية ، وفوق جميع هذا هي تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد امتيازات في الأرضين والمعادن والنفات وقطر الحديد والجاروك ، العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الاسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الاسلامي ، السيطرة التي تتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب . وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الرابعة في جوهرتين اثنتين

المجودة الأولى فيما كتبت له ألام الغرب في مجلة المعرفة في عددها الرابع الصادر في أغسطس سنة ١٩٣١ وهذا نصه : —

صوت صارخ من الشرق إلى الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملكنا فكان العفو لنا سجية * فلما ملكتم سال بالهم أبطع
فهذا وإذا كم فعلنا وفعلكم * وكل إناء بالذي فيه ينضح

الانسان نوع واحد من أب وأم فأصبح شعوبا وقبائل فتكاثروا اعتقادا وعشائر لتزداد السعادة ويتم
الحناء في الأمم والأفراد . انتشروا في الأرض شرقا وغربا ، فكان شرقيون وغربيون ، الشرق أب والغرب
ابنه ، والأب يحفظ على ابنه بدافع المحبة والولاء ، إن البيانات كلها شرقية ففيها البوذية والكوثوشوسية
واليهودية والنصرانية والاسلام ، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل وبمسيلا
المسيح واقتسموا السلطة هم والفرس في الشرق الأدنى وهم غاصبون .

هناك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيزة لأن رميتي بحجر لأرمنيك بالفر ، لا تخرجن من دارأيك إلا
بعد أن أهديك الصراط المستقيم ، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام : اعبدا الله أيها الأبناء وافنوا
في الأرض السلام ، لاسلاح ، لاقتال ، لا جidal ، كونوا عباد الله اخوانا .

وهل سبب ذلك إلا أنه رأى كم تملكون غير الله ، فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام
والفرنسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين ، والانجليز كانوا يسجدون للمسحور والعجبرة ولنايغ
المياه ، فأما استوريا (الغسل) والبروسية والروسيا واسبانيا والبرتغال وهولاندا والمانجر والسويد والنرويج
وسويسره فدينهم القديم دين من ذكراهم أولا حلو القنذ بالقنذ ، فلما رأى كم على هذه الحال دعاكم إلى
عبادة الله وإلى السلام ، فدخلكم في الدين المسيحي أفوليا ، فرنسا سنة ٤٩٦ م وإيطاليا سنة ٥٠٠ م
وانكلتاسنة ٥٩٦ م ويقرب من هؤلاء في التاريخ الغصاليون والأسبانيون والبرتغال إلى آخرهم ذكرا
ماعداد دولة الروسيا فلما لم تدخل إلا في نحو القرن العاشر الميلادي ، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تعملوا بها
علمه للمسيح من السلام العام إذ بقيتم في الشرق وزاد ظلم الرومان للشرقيين ، فإذا كان ؟ ظهرني حرق
في صحراء قاطلة وقال كما قال المسيح : « افنوا السلام ، وأدموا الصيام ، وصاوا بالليل والناس نيام ، فمخلوا
جنة ربكم بسلام » ودعاكم إلى الاسلام والسلام العام واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة لأن المسيح
قبله لم يضف من شوكتكم ولم تعملوا بنصيحته في السلام فتكثروا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لكم
معلمون ، لم يرض على امتشاق الحسام الاسلامي عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجريها وتركتم الشرق
لأهله ، إذن الاسلام قد أمم ما ابتدأه المسيحية لسلام أهل الأرض ، فسلام المسيح عقائد ، وسلام الاسلام
عقائد وأعمال .

هناك أخذ التوريتة في الشرق ، والظلام يعم في الغرب ، واستبدت البابوية الرومانية بكم ، وقتلوا ،
وأحرقوا بالنار أروفا ، وأذلوا ملوككم ، وأذاقوكم سوء العذاب ، قال المسيح لكم : « الطوبى للرجاء فأنهم
يرجون ، الطوبى لساقي السلام فأنهم أحباب الله يدعون » خلفتم قوله ، ففي سنة ٧٨٢ قبض شارلمان
الكبير بإمارة الجبر الروماني على أربعة آلاف ساكسوني وثيف في مدينة وارن ، وضرب أعناقهم في يوم
واحد ، لأنهم أبوا قبول العماد ، وفي سنة ١٠٠٧ أحرق في مدينة أورليا جملة (أرانيكيين) وهم أحياء ،
وتبع ذلك كثير من القتل والاحراق في سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عم الظلم والهلاك والتدمير ،
وأسس ديوان التفتيش في سنة ١١٨٤ وصادق عليه البابا (انيوغيوس الثالث) وثبت البابا غريغوريوس
وقسم ماركو مينيكوس وربهانه ادارته ، وسودوا صفحات التاريخ بأحراق وقتل الملايين .

هناك سائقكم العناية الإلهية إلى الشرق كما سائقكم في المرة الأولى التي فيها اعتنقتم دين المسيح ،
لأن في الشرق نورا اسلاميا ، ومتى أشرق على ربوعكم قل ذلك الظلام ، ان الله هو الذي رجكم بانبعث
فوس رجال الدين إلى افراكم على أهل الشرق بحجة المرافعة عن الأماكن المقتسة ، فأورم الحروب
الصليبية ، ودلم الصراخ بمحوشى سنة ، فرجعتم بكم في صدوركم نور العلم والاصلاح والحريّة والاخاء بسبب
معاصرة أهل الاسلام ، فلم تملكوا الأماكن المقتسة ولا بلاد الشرق ولكن ملكتم تامة السيادة وافزعتموها

من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرقيين فكانت الهزيمة لأولئك الباباوات الذين هم في الحقيقة الجاثون على الدين ومنجيحه للشرقيين ، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلا حجة وأراد الله انتقام سلطانهم بالعدل « إن ربى على صراط مستقيم » .

فهل ظهر فيكم (لوتر) المصلح العظيم (فولتير روسو) وأضرابهم إلا بعد اطلاعكم على كتب منقولة من تعاليم الاسلام « وأمرهم شورى بينهم » .

ألم يقل (سديو الفرنسي) في كتابه المسمى (تاريخ العرب) : « إن اللاتينيين استمروا العلوم الفلسفية الأولية من العرب فان (جورج) الذي كان بابا روما الملقب بسلوستر الثاني أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الافرنج العلوم الرياضية التي كسبها من عرب اسبانيا ، واديلارد الانكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من اسبانيا ومصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية . وهكذا سارت أم أوروبا مثل الاستاذ (رودلف) من أهالي بروجس البلجيكية إذ ترجم مسائل بطليموس في الفلك ، وبتليون البولندي ترجم كتاب الخازن في علم الضوء والنظر ، وهكذا كثير وكثير جدا .

هاأتم الآن اليوم رجعت مرة ثالثة إلى الشرق بلا حجة إلا اعتصام حقوقه وإذلال الشرقيين ، وما مثلكم في ذلك إلا كمثل الخيل إذ تحارب جوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كذب المضامين ، فينقض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان ، فأتم في ذلك كائنا أوكدولة الرومان .

ها نحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام مظلمة ملكنا وبينكم في أيامنا هذه فأقينا جهودنا مع انضمام محفوفة فأما أتم فلا عهد لكم مع الضعفاء ، فماكم أيها الاخوة ماجاء في كتب أشهر مشاهير الاسلام تحت عنوان « جندى سابور وأمان عبد أمناه جيش المسلمين » وهذا نصه : —

روى الطبري أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جيشه حتى زل على جندى سابور وزير بن عبد الله بن كليب فأصرهم فأقاموا عليها يقاتلونهم ويرادونهم القتال فلم ينجحهم يوما إلا أبواب البلد فتفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبت أهلها خار للمسلمون من ذلك وأرساوا فسألوهم : أن مالكم ؟ قالوا ربيتم إلينا بالأمان قبلناه ، وأقرنا لكم بالجزية على أن نمنعونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؟ فإذا عبد يدعى مكثفا كان أصله منها هو الذي كتب لهم فقالوا أما لانعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فمن عليه قد قبلنا ولم نبذل فان شتم فأغدروا ، فأسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : إن الله عظم الوفاء فلا تفسكونون أوفياء حتى تفوا ما دتم في شك ، جبندهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم اه

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين ، فهل علمتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى ؟ وقد قلتم : ساعدونا ، ونحن ما أقرناها إلا لتعزير المستعبدين ، فماكم ما فعله العلامة الطائر الصيت (لورب استودارد) الأمريكي في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » وهذا نصه : —

« مما لاشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق المخرج والساعة العصية ، إذ التفت الشرق في سنة ١٩١٤ فرأى الأمم الأوروبية التي كانت مابرحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جبيلة قد انبرت تتناحر في سوق حرب لم يحو التلويح بين دفتيه ميثلا لما قسوة وظفاعة ، وتتناحر مدخنة بعضها بسنا نحو الجزيرة الهائلة والثيران الجهنمية ، ورأى وحدة الجبل الأبيض قد عصفت فيها ربيع المطامع السياسية ، والنقاص الأدبية فزعزعتها وهدمتها تهدمها ، فوفقت كل أمة من الأخرى وبينوما غور سحيق ، وهوة عميقة ، ولم يكن للأمم الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الجائحة

الكبرى سوى ذلك البيان الحرّ الذى قش ساسة الخلفاء حروفه فى اعلام دولهم وريالت جيوشهم ، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ، ونال الخلفاء الظفر للبتى أخنت الأسرار تنفض ، فذاع للألّا كافة أنه فى الحين الذى كان فيه أقطاب الخلفاء وساستهم وقوادهم يطعمون إلى أنحاء العالم قلبية خطبهم الحرّة للحرية عن الغاية التى فى سبيلها أكثر دولهم الانغماس فى الحرب الزبون وهى تحرير الشعوب المستعبدة ، وإطلاق الأسر للأثم المستنفعة فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الأقطاب الساسة فى الوقت حينه يتفاوضون ويمتدون ويرمون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرية لا تقسم الشرق الأدنى ، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع الكلبى ، تلك الروح الاستعمارية التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الانسان ، ولما كان انعقاد مؤتمر الصلح الذى ولى الحرب أتى بظافة تلك المعاهدات لا تلك الخطب الحرّة التى أذاعها الأقطاب والساسة وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤذاتها (جرى على ورق) اخضاع الشرق الأدنى والأوسط انخضاعا تلاما ، واقتيادها بجرائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظعها ، انتهى مجاهد فى الكتاب المذكور فى صفحة ٤٣ ٤٢

أليس هذا تاريخنا وتاريخكم وفينا بجهد عبد لنا ، ولم تقوا بجهود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الانسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الاخوة الغربيون : انهى حربكم ، وتلك الأيام ندأولها بين الناس ، الشرق هو الشرق ، وقديما هجمت عليكم أم من قبل التاريخ للمسيحي فأهلكوا الحرث والنسل ، ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبع قرون ولا تزال أعقاب التتارى بلاد النسا إلى الآن ، وهامم التتار المسلمون فى قلب روسيا المسيحية ، أليس هؤلاء أمما شرقية سطت على أوروبا ؟

حذار حذار أيها الغربيون ، إن فلاسفتكم وأكابر علمائكم يعلمون أن حملكم عاقبتهم سرعان لكم مين ولكنكم لا تسمعون الناصحين ، لأن العاتية يسوقون نوابكم إلى محاولة الشهوات الزائلة ، وأعينهم فى غطاء والجهل يطمس على أسرارهم فلا يدركون سرّ العواقب ، فهل ترضون أيها السؤاس أن تكونوا أسرى العاتية تابعين لأهوائهم ، الآساء مانفعلون .

شرّ الشرق أبدى ناجذيه لكم ، آن وقت الحساب ، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت التلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب فأسرع الزرع فى نمائه ، احذروا غضبة الشرقيين ، اليابان والسين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان ومع هؤلاء روسيا كلهم متحذرون أفلا تفكرون ؟ أفلا تنظرون ؟

فيا ليت شعري من ذا الذى يستد ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ، ألم قدرة على إلقاف الشمس عن مجراها ، أو الهواء عن مسراه ؟ اذا خطر لكم ذلك فأهون به خطرا ، وما أضلّ هواء .

أفلا تسمعون صواتنا : أفلا تسمعون اليوم أيها الاخوة صوت رجل شرقى وهو كاتب هذه السطور ، يقول لكم قولاً بعد الدينين السابقين (المسيحية والاسلام) فليكن لما اتبعتم الأول بعد صدوره بخمس قرون واتتبعتم بتعاليم الثانى فى حروبكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرن تضايعها فى الصد تسمعون هذا عند صدوره بلا تأخير لأنكم اليوم علماء دارسون معلمون ، وليس ككتانى دينا بل هو كاتب جعل سياسته على العلم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية . هاهو ذا كتاب وأبن الانسان ، نشرته منذ ٢٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وبينت فيه قصور الانسان ، وقرّظه علماءكم فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا وقالوا هذا هو الصالح لرقى نوع الانسان ، إذ يجعل الأم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون معا بالحرية والمساواة والاخاء ، نحن أم الشرق الأدنى محوما وسط بين أوروبا والشرق الأقصى فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة سلام والمحبة والاخلاص ، نحن الآن نطلب السلام . وأنا بلسان ثلاث مئة وخمسين مليوناً من المسلمين أطلب السلام فهل أتممتون ؟ انتهى ما كتبت فى مجلة للمعرفة وبهذا تم الكلام على الجوهره الأولى

الجوهرة الثانية : وهي خاتمة المقالة الرابعة

في ذكر سر من أسرار آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتاكم »
وهي من هجائب القرآن ومجوازه في هذا الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين .

(أما بعد) في أيها المسلمون : هل أناكم بأعجزات القرآن الحكمة ، وهجائبها السياسية ، وحلها السننية ، وحلها الجوهري ، وصقودها الدرية ، وحكمها الفلسفية ، وأتوارها البنية ، وأسرارها الزبانية ، وعلوها الدنية ، وأيتها البغرية ، وأعلامها الجلية .

أحدثكم أيها الإخوان حديثا أنه لو تعلمون عظيم ، أحدثكم من سر القرآن ، ونور القرآن ، وبرهان الزمان ، وحرف الإنسان ، وجال العين ، وفضل رب العالمين . بماذا أحدثكم ؟ أحدثكم من بأ السياسة الشرقية والغربية ، في الآيات القرآنية ، يقول قائل ما هذا التشوي ؟ ولم هذا التنميق ؟ قل وأبرز ، واقتصر وانجز . فاقول :

لقد خطر لي خاطر منذ عشرين سنة ، إذ قرأت في إحدى الجرائد أن انكثرا لما رأيت أن ذكرورها يقولون من أناتها في كل ألف نفس ١٥ أي تزيد النساء عن الذكور ١٥ في كل ألف ، وأنهم ينادون بالويل والثبور ، ويقولون : لمن نكسك أسرها هؤلاء النسوة ؟ وذلك في ناديهم الأكبر المسمى (البرلمان) .

فلما سمعت ذلك هبت كل الهب ! وفكرت في أمر الإنسان والحيوان ، فوجدت حقا أن النسبة محفوفة في كل أمة من أم الأرض ، وفي كل حيوان ، وفي كل قرية ، فهاتى الأمر جدا ، وأخذني الهب كل مأخذ ، وقلت في نفسي : إن ضاية الخلق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الإنسان والحيوان ، وراعت النسبة بين الذكور والإناث ، ولأن أهل مصر ، وأهل سوريا مثلا ، لم يولد لهم أنثى أود كورمسة ثلاثين سنة مثلا لا قرصت الأمة اقراضا نكاحا ، إذ لا يولد الذكور لهم أنثى يلدون لهم . ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة ، أي أتى وجدت في كل قرية وبلدة ومصر قد تساوى تقريبا ذكرورها وإناثها ، ولم يفر الله قرية ولا أمة من هذه المساواة ، لافرق بين المتوحشين والمتمدنين ، ثم نظرت في الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الإناث أوال الذكور من البقر في بلدة حتى يحتاج الذكور أوال إناث من بلدة أن يذهبوا إلى أخرى ، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير متوقفة . ثم أتى بعد ذلك اطلعت على هذا الاحصاء فأيد قولي وهو :

(١) إن القارة التي يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هي أوروبا فان نسبتهم إليهم كنسبة خمس إلى أربع .

(٢) وأن نسبة الرجال إلى النساء في آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣ وفي أفريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٦٨

وفي استراليا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٨٧٢

هذا الاحصاء ربما كان تقريبا ولكنه على كل حال أيد نظري . هناك فكرت في أمر آخر :

للمصناعات والعلوم

قلت : هاأنذا أنظر فأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكام ، وفيها صناعات ، وفيها أعمال ، يظهر لي أن العقول لما خلقت رويحت فيها النسبة ، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انتشر العلم بينهم أقدم مفكرين للجموع وأكثرهم لأعمال خاصة ، أو علوم تناسيم ، فهاتى الأمر أيضا ، وقلت : يظهر أن الحكمة العاقلة كما راعت

النسبة بين الذكور والاناث بالسواة راعت النسبة في أعمال الحياة وعلمها على مقتضى الحاجة كالمعادن من ذهب وحديد وفضة ، ثم هذه صارت عقيدة هندي ، وقلت : إذن هذا الانسان ظلم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيها خلق له .

الأرض واستمدادها

ثم نظرت الى الأرض التي نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد ، ففي بلادنا نزرع القطن وبلاد الانجليز لاتصلح له ، وهم محتاجون لمنع قطننا ، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية ، فتتوعد خواص الأرض وخواص العقول ، فأيقنت أن الحكمة عامة ، وأن الانسانية طفلة ، وأنه سيأتي يوم يعرف الناس هذه النظرية ويستخرجوا كل عقل فيها خلق له كما يستعملون كل أرض فيها خلقت له ، ومستحيل أن يساعد الناس على الأرض إلا اذا ضلوا ذلك أى ضلوا كل العقول في جميع الأرض ، فالأرض عروس لزيغت للناس وهي محبوبة عنهم حتى يبيتوا لها جميع العقول في الشرق والغرب ، ذلك هو مهرها الذي يتلون به نحرها ، ثبتت هذه العقيدة هندي .

نظرت في الأم

ثم نظرت في حال الأم فوجدتهم في الشرق والغرب جميعا يجهلون هذه الحقيقة ، ومن عرفها منهم لاكمها بلسانه ، وقلبه بالظلم والنفس مشغول ، ونظرت في سياسات الأم شرقيا وغربيا فما نزع الانسان إلا أشبه بالذئب والنور والصقور ، كل لكل راسد ، وله محارب .

تأليف « ابن الانسان »

هناك ألفت كتاب « ابن الانسان » وذكرت فيه ان الله يعاقب الأم على جهلها ولا بد من حوب يهتم فيه أهل الشرق وأهل الغرب ، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١ م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، ولقد كان محبي عطيا حينما اطلعت على تقريره العلامة الاستاذ (ساعاتلاه الطلياني) من فلاسفة إيطاليا وحكامهم ، فقد غمسه في مجلة بلغتهم التي نشرها في أوروبا ، هكذا ورد ذكر هذا الكتاب في تأليف العلامة (سكاتاديفو) الفرنسي في هذه السنة (١٩٢٦ م) وسأذكر لك كلامهما قريبا هنا ، فالكتاب إذن ظهر منذ ١٧ سنة وتأليف التفسير لم يكن يطرق على يدى إلا في هذه السنين ، وقد أتممت منذ سنة ونصف وهما إذا الآن أى في أوائل سنة ١٩٢٧ م وقتم الطبعة ، فانظر ماذا حصل :

توجهت منذ أيام إلى ناحية المروج (كما تقدم في سورة الاقال) والجنى عالم علم الزراعة ، وأرائى حشرة صغيرة مملوك الأشجار ، فإذا جرى ؟ فكرت في أمر الحشرة ، وأن انثى قد تلد بغير ذكر ، وبها أشبه بالنار اذا شبت في بيت أحرق بقية البيوت ، فهي وجيع الأمراض العلية والطاعون وأمتاها تقتلت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنتقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حقل إلى حقل ، ومن أمة إلى أمة ، هناك تفكرت في قوله تعالى : « وأصلحوا ذات بينكم » في سورة الاقال ، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين وفي قوله تعالى هنا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

الذكورة والانوثة اتحدتا في أدنى الحيوان ، وفي أدنى النبات ، ثم أخذت الاقتران الشخصى يظهر في الأصناف العالية فيها ، فإذا جرى ؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعرفات من جلال وأخلاق وآداب ، فاجتمعا وزوجيا وولدا ، هناك رجعت إلى هذه الآية وتفكرت في كتاب « ابن الانسان » فوجدته كله

معنى هذه الآية ، لأنها ابتدأت بالذكورة والانوثة ، وهي التي عليها بنيت كتاب (أين الانسان) ، هنالك أخذني الحب كل مأخذ ، وحلت أن كتاب (أين الانسان) الذي أوجب به أهل أوروبا وقالوا في فرنسا وفي إيطاليا : انه ينمش العقول والأرواح هوساً هذه الآية ، فأنا هناك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » الخ ولكن هذه الآية صرحت بمبدأ الفكرة ونهايتها ، فهدوها الذكور والاناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبائل ، وقد قممت لك أي قست جميع العالم والصنائع على الذكور والاناث ، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه ، وعلى هذا تكون هذه الآية خطأ لا لأم كلها بدليل انه قال : « يأبها الناس » ولم يقل أيها المؤمنون ، وإنما قل يا أيها الناس لأن هذا الكلام مرجه العقل كما بينته لك ، قلنا ألفت الكتاب لم أولفه باعتبار انه دين بل هو مبني على العقل ، فهذه الآية وإن كانت مقننة فهي خطاب للعقل الانساني العام ، إذن على المسلمين أن يقوم فهم طاقة مفكرة تبحث على نحو ما بحثت في كتابي (أين الانسان) وذلك بعد أن يساوا الأم في العالم العصرية ، وهذه الطاقة يعمون ما ابتدأه في كتابي (أين الانسان) ويخطبون الأم بالعقل كما خاطبناهم ، وحينئذ نكون حقيقة : « خيرة » أخرت للناس ، فيكون في العالم الاسلامي جامعتان : جامعة تصلح ذات البين بين المسلمين ، وجامعة حكاه مفكرون للتعارف مع الأمم وتسمى « جامعة التعارف » تبين بالقرآن ، ويهتمون الأم أن التعارف مبني على البحث العقلي الذي ابتدئ بالذكور والاناث ، هذا مانسح لي في هذه الألم سطره ليكون تذكراً لمن بعده . وهالك ما وعدتك من ذكر ما كتبه الاستاذ (ستتلاه) والبرون (كرايخو) وإنما أكتب هذا لك هنا :

- (١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوروبي حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكام في أوروبا والصين كما أمر ربنا .
- (٢) لنعلم أن أم الأرض مستعدة لتفاهم والتعقل .
- (٣) وأن القرآن حقيقة دين النطرة .
- (٤) وأني مع انه ليس بيني وبين أحد من أهل أوروبا معرفة ولا مخاطبة ، ولم تكن من المسلمين جامعة يشتون أئدي ، بل كان الفضلاء من أهل بلادى يرضون عنه اعراضاً ، بل أكتب وحيداً فريداً لا ناصر لي إلا الله عز وجل الذي سبب الأسباب ، قطعت الكتب واقتشرت بلا قوة تنشرها إلا قوة الإيمان واليقين بالنصر .

أقول : أني مع هذا أرى حكاه أوروبا وكبراءها يقرءون كتاب (أين الانسان) ويقرءون هذا التفسير أيضاً ، فمن هذا تعلم أن لام الاسلامية مستقبلاً بهراً ، فيقرءون هذا التفسير وأمثاله ، ويقوم فهم حكاه وعلماء ، وينون على ما أسسناه ، ويشيدون ما بنيناه ، ويجهدون الأمر عليهم سهلاً لطيفاً ، إن الله أبدى ونصرني نصراً مؤزراً ، وهذا النصر هو للأمة الاسلامية الذين سيقروا هذا التفسير بعدى ويقروا كتب الأخرى ، فيسيرون في طريق الرقي وهم محبتون منصورون ، وليبغض فيهم ناقدون ، فلا تبدى بقرىظ الاستاذ (ستتلاه) الذي ترجمه المرحوم مصطفى أفندى ريش من الطليانية إلى العربية وهالك نصه : « قال الاستاذ ستتلاه : ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فهو ذلك الكتاب التحرير ، والمحرر الشهير ، ذلك الانسان ذو العقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التي انتشرت في كافة طبقات الشعب الاسلامي تحت اسم الجامعة الوطنية ، وتلك الحركة ترى إلى الاستقلال السياسى والاصلاح الذى طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى مشوب بشيء من الابهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وبين ما جاء به القرآن الكريم ، وبقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التي

ازدانت بهاضلة الاسلام في غابر الأليم ، فقد أراد المؤلف أن ينشر هذه الأفكار ويثبته بين قومه طرة بالخطابة
وأخرى بالكتابة ، فما دون في هذا المعنى كتابان جذبان بالذكر ، وهما « نظام العالم والأمم » و « نهضة
الأمم وحياتها » وأخروا صدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب « أين الانسان » ذلك الكتاب
الحديث الذي انشمر منذ عهد قريب ، وهو الذي أردنا التعريف عنه ، كتبه الشيخ أخيرا وقال فيه انه يحتمله
لمؤتمر الأجناس العام الذي عقد بالهند في يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م كهدية لحكام الخاقين ، وعلماء
المشرقين ، وفلاسفة الغربيين ، وساسة العالم أجمع ، والمحق يقال انه ليعمل انساني عظيم في قالب احتجاج
سياسي ، ولم يك كتابه موجبا إلى التصريح فقط بل للعالم كله ، لأن للسألة التي يريد حلها هي مسألة العالم
بالاجماع . قال المؤلف : انه بينما كان في ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ ينظر إلى السماء ليكتشف مذهب هيل
الذي أضر علماء الفلك الناس بعودته في هذا الزمن ، سمعت له سوانح للقرنة بين نظام العالم الجليل ، ونظام
الأمم الضئيل ، فرأى بونا شاسعا مؤلما ، فسأل نفسه : أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية
محرومة من سكان مثلنا ؟ وإذا كانت مصورة فكيف تكون حياة تلك الجبال ؟ أمي أقبل ؟ كلا منا ؟
وكيف تكون حال الانسانية بعد مرور خمسة وسبعين عاما عند ما يعود المذهب لزيارتنا ، أهناك أمل أن يجد
الناس أقل وحشية ، وأقل علما ، وأقل خشونة ، وأقل ظلاما ؟

وبينما كان في ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م تتجاذبه الأفكار وقع في نوم عميق إذ رأى نورا مشرقا
وشابا جميل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذهب هيل لرؤية الأرض ، فقال له : أين الانسان ؟
فأجابه المؤلف بتأثر واتصال : نحن أولاء بنواكم نوع الانسان (وهنا دارينته وبين الروح حديث دام عدة
أليم) قالت الروح : أنظنون أنكم تمثلون الانسانية الحقة ؟ وبأي طريقة يستحل الانسان هذا الاسم ؟ أم يقتل في
كتبك انه حتى الساعة لم يرا الا قدم ماذي في المدينة ولكن المدينة الحقة هي المؤسسة على الوجدان والصداقة والعدل
والاحسان ، ألم تذكر زهورها نادرة عندهم ؟ فأجاب المؤلف : ان كان للانسانية مساوي فلن لها أيضا فضائل
وان كانت أجيبت أشرارها فلها أن تتحضر عن أخرجتهم من عظام الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة
والحكماة الذين يشرفونها ، فأجابت الروح : أنظن أن ذلك يكني ؟ أنت لا تدري حقيقة الانسان ، إن للمادة
قابلة لتطورات كثيرة مبتدئة من المادان للانسان ، هكذا الروح الانسانية لها قدرة غير متناهية من كالات
يظهر أن الانسان يجهلها . لوعرف الانسان شرف طبيعته وتمتعها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل ،
ولكنه ماذا عمل بطريقته وعقله ؟ لم يرين الناس سوى المشاكسة والحاربة والظلم تحت ستار من التفاف
والخيانة والفساد ، وهذه القوات هي السائدة على جماعة المتدينين ، ولا تبات ذلك ترجع إلى العلم ونسأل
فلسفة (دلروين) الذي رأى الأمم القوية تقتك بالضعيفة وتبيدها من الوجود ، حكم بأن لافلاح إلا بالفضلة
وقوة السلاح ، وكذلك قيل : « إن الأمم التي تأكل اللحم تمهر النباتيين » ، فكذبهم الأفعال واتصرت
اليابان في حربها مع الروس ، هكذا بينا الحيوانات التي من فصيلة واحدة تمسح براحة بعضها مع بعض فان
الشعوب التي هي أكثر حضارة على العكس من ذلك روا بطلها قائمة بالظلم والوحشية الدائمة ، فأين الانسان ؟
ثم سألت الروح : هل لكم فتخرون بالسك الحديدية ، والتلغراف الذي لاسلك له ، واقتان السلاح من كل
نوع ، وهذه كلها لقائدة الأمم الغالبة فلها تنزع السلاح من الأمم المقهورة ، وتستخلصها خدما وعبدا ابتغاء
مرضاة الشهوات للمادة ولزيادة الزهو والمساوي ، وعليه تكون نتيجة تقدم المدينة هو اعطاء الحق للأقوى
ففي يفهم الناس أنهم لم يعرفوا إلا الآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه ؟ وفي يفهمون أن لافرق
بين استعداد وكفاءة انسان وانسان وجنس وآخر ؟ واتنا كلنا من نوع واحد ومن طبيعة انسانية واحدة ؟
ألم يك أوروبا في اليوم المتدينين هوسلا أولئك البرابرة التتريين الذين خربوا ملك الرومان ؟ من يقدر أن يجزم

بأن زنجي اليوم هو ذلك القبر المتوحش لا يكون له مستقبل بل هو ؟ وأعلم أن القضية العتقة القائمة بأن القوى يظل الضعيف لا تنطبق على العصر الحاضر الذي يقضي بأن العقل فوق القوة ، هنا ينحصر المستقبل فمن واجب الإنسانية للقدس أن تتعد حتى تحكم الطبيعة ، وتستخرج أسرارها ، وتزهل العقول لمصر جديد في التاريخ حتى لا يصبح فيه أساد وعبيد ، ولا يقال قاهرون ومقهورون ، وتكون الإنسانية واحدة متحدة في العلم والعمل والمنافع العامة ، فهلا كان من الأمم حولكم أولوبقية يهون عن الفساد في الأرض بترك زراعتها ، وعن خراب العقول بتسعد أعمالها ، وفي كليهما ضرر عظيم على المجموع الإنساني ؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة لمناوأة الضعيف واستعباد من لا يقوى على الدفاع . اعقلوا أيها الناس ! فأين الإنسان ؟

عادت الروح السؤال : ماذا تنفع النباهة التي وهبها الله له فهو أشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحا فغضب به نفسه لجهله استعماله ، وهنا عدت الروح كثيرا من أفراف مساوي الطبيعة الإنسانية كل خوف وإزينة والنفاق والكذب في الحياة الاجتماعية ، وتكلمت على الخداع الذي ساد في الشعوب السياسية ، أولئك الذين يعلنون بالسلم مياخاف ضماؤهم تبعا لمناخهم القاتية ، هنا انطلقت المحادثة حيث اختفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر ، وتبع ذلك فصل في الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التي أوتت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء ، وجمال المنظر ، وتقر يد الأطياف ، وهم جوا ، كل ذلك قاده لشكر واحد ، وهو : أوجد في العالم جمال كثير ، وروني هبي ، ونظام هكذا كامل ولا يشمر به الإنسان وفي نفسه فضائل طبيعية وبذور بدعوة من المحبة ، يظهر أن الإنسان لا يعرف ذلك لأن شوائبه وأمياه أسدلت قبابا على عقله ، فذلك هو يحجب ذاته والعلم هو الذي يجي فيه المحبة ويقر به لأخوانه ، فإذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذلك الروني وكان الإنسان ميلا للخير ، أظن بأن أن يأتي اليوم الذي يرى فيه نفسه سكبيا مستقبرا بالعلم فيعرف ماله وما عليه ؟ فالיום يستلتي بعض العلماء كالسلامة (كنت) الألماني و(هربرت سبنسر) الإنكليزي وأمثالهم عن يسته من علومهم للتوفيق بين الشعوب ، وإزالة البغضاء من بينهم ، وسيأتي يوم تظهر فيه الإنسانية بظهر مختلف عن سابقه ، وبينما كان المؤلف يفكر في ذلك عادت الروح إليه في ليلة من يوليو سنة ١٩١٠ وعرضت عليه سيطرة فجبل بالارتياح هذه السياحة في العالم السابوي إذ رآها فرصة جديدة لوصف همائب السموات ، ومن ثم يرجع على الفكرة الأساسية ويقول : كيف يبعد الإنسان الذي يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب من النظميات الاجتماعية ؟ فأجابه مرشده : ذلك لأن الإنسان لم يترك طباعه البهيمة ولا أنفكاره الأولى ، ثم أدى بهما للطاف إلى كوكب غير زحل ، كوكب لا يعرفه علماء الفلك ، فوجد فيه أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعة في شكل حكومة واحدة باسم نادي الأمم العام وهو ذلك الحكم الذي تصبو إليه قوس الناس ، ولكن شتان بين القطة والملم ، ذلك النادي هو مجلس مؤلف من أعضاء فوضت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية الشامسة الأرجاء ، فشاهد من مزاي العدل وحسن النظام والصدق في القول ما لا يحلم به أهل الأرض ، وقد سأل بعض أعضاء هذه الجمعية للباركة أن يصف لهم أحوال الإنسان الاجتماعية ، فسكت إجابته سببا لخيرتهم ودهشتهم ، حتى انهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالإنسان بل حكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية في صورة الإنسان ، وهنا انقطع الحلم ، وتبع ذلك فصل في المذكرات لاحظ فيه المؤلف الثريمة السائدة في العالم الطبيعي والكيمائي ، ونسبة المواد الثابتة التي تتصككون منها الأجسام المختلفة ، والنسبة المعتدلة في تعداد الأناث والذكور في عالم النباتات والحيوان ، ثم فكر قائلا : أمن الجائر أن الخلق سبحانه وتعالى أعطى لإداة شرائع محكمة ، وأن العالم المنوي الذي هو أرق منها يتركه لحكم المصادقة ، وكيف انضمت عرى الإنسانية ، وقطعت تلك الرابطة التي نشاهدها في العوالم السفلى ، إذا كان عضو واحد من الأسرة الإنسانية ضعيفا جاهلا وحشيا فالأعضاء الأخر تتأثر به ، لأن الإنسانية متضامنة

متحدة ، فالشعوب القوية التي نذل الضعيف تربي في قوس أبنائها عادات البطش والظلم التي يكتسبها العالون فينزل عنها نتائج سيئة مستقبلهم الاجتماعي والسياسي ، وسيعاقب كل قريبا أو بعيدا على انتهاكه حرمة القوانين الطبيعية ، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لا تتطلى ولا تفكري ولا يكن منك جيوش ولا قتواد ، نحن أهل منك بما يلزم لحمايتك ومصالحك وأنا عليك لساھرون .

مفائدة الكليات والمدارس ملء السواص يقولون ملايضلون ، ويعلمون ذلك لشبههم ، ويفتخرون بأن هذه سياسة ، فعلام الكليات اذا كان السواص يهدمون البناء ، أليس من العار أن العالم الذي حولنا من الأرض والسموات مظلمة عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون ، فالجهل يفرق الناس والعلم يزيدهم حبة ، وكلما قل العلم قل الحب ، ولتلك ترى الحكماء أشد حبا للناس ، والجهال والكذابين والسواص أقل حبا وأكثر طمعا وجما لئال ، فقلنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أيترا قال الفزالي : « البساطة خير من القطنانة البتراء ، فنجبج بدعوى المعرفة مع اننا لم نردد إلا ماقرأناه في كراسة المعلم وقبلناه بغير تحقيق ، ثم ندهي خدمة الانسانية والمدنية وفي الحقيقة نخدم أنفسنا ، ليس هناك أم حكم عليها أن تعيش للأبد في الانحطاط ، وكما أن في عالم المعادن والنباتات تقل الأشياء النفيسة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية فتدري الأذكى في سائر الأمم يقلون ، وأما الذين يمكن استخدامهم في الامور والأعمال العادية فهم دائما كثيرون » .

وعليه فلا يمكن أن يقال لأي جنس أنت محكوم عليك أن تبقى في مكانك بغير خروج ، فالحكم على أمة بالانحطاط جنابة عليها وعلى المجموع الانساني الذي يحضر بذلك عضوا عاملا فرمائها من العقول والآراء مايم بركاته الكون أجمع : فقلنا والحالة هذه كمثل من يستعمل الذهب والفضة لعمل مجلات السكك الحديدية وفي ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤلف سنة الكرى صاودته الروح واستمعت معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرهبون ولا يرهبون ، وبالشوق والحب يعملون ، وسمع الموسيقى ونغمات الآلات تشتف الآذان مرحبة بأعمال الحياة ، اذا شيخ جليل القدر ، وهو العالم الاحصائي في علم الأرض والمرج قد بدأ بسؤال فقال : خبرني ماذا فعلتم بالانسانية ؟ وبماذا ارفقتم من الحيوان ؟ فأجابه بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها ، فقال الشيخ : أنت تشرح الحيوان وما يحتاجه الجسد ، ولكني سألتك عن الانسانية : فأى حكومة أسسم ولأى قطة وصلت الصداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الانسانية ؟ فطلق المؤلف يدافع عن الانسان بتلك الأساليب الخطائية المعروفة من حيث التضامن ، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الانسانية (بصرف النظر عن الفارق السطحي في اللون والعقيدة) وتذكروا الحكومات وما أشبه ذلك . وقال : إنما تصالحكم الناقصة المتورة هي التي بتغالها في الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التي لم تقررها الطبيعة . وقد استنتج الفيلسوف اليوناني (أبيقور) والعالم الطبيعي الانجليزي (دروين) بأن الأنصف لابد أن يكون طعمة للأقوى وقاسم لظلم الانسان على هذا الحيوان فرجعا بالانسان الى مرتبة دنيئة تأبأها القطرة ويحضرها العقل ، إلا أنكم يا بني آدم نوع واحد لا أنواع ، ولكم ثلموس وقانون خاص لا تتعقلوه ، فأتم بكجم واحد وقس واحدة ، فلا يصح أن يعتدى بضعكم على بعض لأن ذلك مضر بمصالح الانسانية العام ، الاصلون أن الانسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة ، فكما زاد العدد كثرت اللذذ ، وبشكاك الأمم تتكاثر الخبرات ، وعلى هذا القياس لا يصح أن يقال ان الأمم القوية تكون أفيد للانسانية ، ولكن الأفيد لها ان كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يعيش لما يصلح له ، وينبع الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعا للعقل والعلم والفضيلة ، أفأكل الأجا وبذل الاقسام أن تجتمع الأمم قتشكل منها ناديا علما يتعهد بتحسين الجنس البشري ، انه ينقت كثير من العمل للحصول على ذلك ، فأى علاج يفيد

اصلاح سوء النظام السادس ؟

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الاحصائي في علم الأرض ، فأجابته مبيداً إليه كلمت الاستاذ (كنت) في علم تربية النفس : « العلاج اثنان علم وعمل ، فهما يسان الملك ، وهما متولان ليعترقان ، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ما لوحدته الطيبة والانسانية ، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة ، فشكل منها يتصور في ذلك لا يتعداه ، ولا يفتنى كبيرها على صغيرها ، وهي نظرية عسوية دلت عليها العناية العالية والجلدية التي هي أساس الطبيعة البشرية ، وتلك كل أمة منكم كوكبا يحب الأعلى الأدنى ، فلا يفتنى بعضها على بعض ، وتلك الأمة الكبرى لأخوانها الصغيرة كالشمس للسيارات حولها تلقى عليها أشعة علمها ، لا تبتنى منها جزاء ولا شكورا ، وليس هناك إلا طريق واحد للوصول إلى هذا الحل الانساني الأخرى المحبوب ، ألا وهو العلم ، وتلك في جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم فضائل الحب العلم وروايات الحروب ، وبذلك تصل إلى الحل المرغوب ، ثم يبن المؤلف طريقة التعليم التي يلتقونها في الكوكب القريب من نبتون بالفصل الثامن عشر وهي مبنية على مثال الحب في نوحنا العالي الشريف الذي هو بمثابة الكهرباء لا تثار إلا بالفرك ، فالفناء والموسيقى والتأمل في جلال الطبيعة يث في الأطفال عادة اعتبار الانسانية كعامة كبيرة وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون نافعون ، فيرى الإنسان الله كائن مقدس ينفع أخاه ويعتبر حياته لا تنتهي عند ذاتها ، بل كخدمة تزيه الأفرح والأزراح ، والمحرمات والمنتهيات ، والإنسان فيها يستعد مستقبل زاهر . وبالفصل التاسع عشر فصل مجلس الحكماء وضرب كثيرا من الأمثال الحسية للأمور العقلية ، وكلها ترمي إلى مبدأ الكتاب الأسمى ، وهو مشروح في صفحة ١٩١ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ولولا ضيق المجلة وهضم إمكان التامخيص لكننا أئينا على ترجمته إلى اللغة الطليانية بلحرف الواسد وبالفصل ٢٠٥ رى مظاهرات روحانية للنفس ثم لوحة الحياة الانسانية بصفحة (٢٠٠-٢٠٤) مأخوذة من لوحة الريح وهو للمسي (لفترابس) وهو في ذلك يرى إلى مذهب السيلسي في النظام الذي أشار إليه ، وبسبب جام غضبه على هام التفاف والوحشية والجلطات الجنسية لمقول عنها متمدبة ، ويقول : ان الشعب والفضة لا يجديان نفعاً ، ولا يفتنيان شيئاً ، بل هما للبلادة في المنافع وانهما لا قيمة لهما إذا لم ينفذ اليهما قيمة النفس والفضيلة ، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخارجية بحسب الفلسفة العاتكة تختلف ، فتارة تكون للخير ، وتارة للشر تبعاً للظروف ، فالتى للخير لا تكذب ولا تعسدى ومركزها الحق ونفس الإنسان ، وفيها تكون سعادة الأم جميعاً فتعاون الأجناس بعضها مع بعض لفائدة للدنية العتة ، وسيصلها نوع الإنسان في مستقبل الأزمان ، وبالفصل التتم عشرين خلاصة الكتاب بالفصل ٢٢٥ في بيان استخراج السلام العام في الأم من التوايس الطيبة ، والنظامات الفلصكية ، والنظر الانسانية ، وقد سبق الإشارة إليه ، ثم على ذلك فهرست ، وبالفصل ٢٤٧ تحت عنوان « قصة من موسيقى الكتاب » ضمنها الأسباب التي دعت لتحريره ثم أوضح ما كان يتخلج نفسه من أليكت كتاب الله العزيز ، وهي هذه : « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (جزء ٢٥ - ٢١) . « وكل شيء عنده بقدر » (جزء ١٣ - ٩) . « ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (جزء ٢ - ٢٣٣) . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (جزء ٢ - ٤٩) . وعليه فإن هذه النسبة ، وهذه الشرائع ، وهذه العدالة كلها هي التي تحكم العالم الطيبى بأجسه كذرات الاكسوجين والايديروجين الثابتة التي تتكون للماء وتدخل في تركيب سائر المواد في العالم الطيبى والكبائى ، وتتقابة العالم النباتى بالعالم الحيوانى معا ، وكذلك بتقابة العالم الحيوانى بالعالم الانسانى ترى الانسان يشاركهما في الفناء والتناسل ، ويشارك الحيوان في الحركات الاختيارية والحواس والادراك والفرار ولكن النبات والحيوان يولدان كلملين ، وكل منهما عنده من المبدأ جميع ما يلزم لأدائه وظيفته الخاصة ،

فالمشكوك تفزل الحيوط ، والسحرة تبني خليتها بلا حجة إلى مرشد ، أما الانسان فله العكس محتاج العلم فيقول انه وإن كانت العقول واحدة ، فالاستعداد الشخصي مختلف ، فوعظية العلم يجب توجيهاها لتسمية الأفعال الانسانية المختلفة ، ولكن القرية الحالية حادثة عن الصراط السوي ، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة بناسا بالسودان نجدهم أقوى أجسدا ، وأصح أبدانا ، من للمتدينين كما قال عنهم المستر (كرينتر) وقرى قوة الأهالي بالسودان عظيمة جدا كما ان بعض حوائدهم طاهرة لا تشوبها نجاسة .

وإذا قرأنا تاريخ الرومان مثلا نجد ما يدهش العقول ، فتراهم يقتخرون بفوز الأمم وتذبح الممالك ، فلهذا في القرية العلمية التي تجرنا فتدنى الأجسام تعلى العقول بمناجى مشابهة لتلك التي عند الحيوانات الغترسة وهي التي تطلق في الانسان قابلية التقدم التي هي هبة الطبيعة ، وبنينا ترى الناس يطفون على بعضهم بالقول تراهم يجهرون بمتداح القواد القاتلين كنبليون ، ويشرفون الكذوب من رجال السياسة ، حتى ترى كل طاقة فرحة بما فيها ، فاقه بما وصلت إليه ، وأن الشعور بالحبة شامل للجميع ، ولكن رغبا من سائر الموانع نرى حركة في عالمنا الحاضر تدفع الانسانية للأمام ، فخلق كامن في النفوس يجب البحث عنه في الآفاق لظهوره للناس على سطح الكرة ، وتنتجبت الانسانية بهذا المنظر الذي يشده المؤلف ، فهناك الوفاق والوئام ، الانسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أولا بأخرها ، فمن مصطنع لا يخفى إلى نبات جحر ويتوالد ويتدرج بالترتيب إلى حيوان يرقى فيصل إلى أعلى درجاته من قرد وفيل وأمثالها فيصل الانسان إلى أعلاه وهو الذي يكسب بالتدرج خصال الكائنات التي تماثلها مضافا إليها خصاله وفيه بذور الحبة والرحمة كما قيل في « اخوان الصفا » : —

« منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر (بودا أوجوطامي) فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والعطف على كافة الكائنات الحية ، ولما ظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الانساني ، وكذلك الاسلام منع القتال في الأشهر الحرم وحرم السيد في الحرم وقتل المحتسبه ، وأجروا أن يقولوا للناس : ارحموا رحوا ، وأعلموا أن للحيوان ادرا كما وشعورا ، وأنه يتألم كالتألم ، ويشعر كالشعور ، فأيام أن تؤذوه ، وهناك أبناء كثيرة مأثورة عن علماء الانسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبرون هولبلغ دلامتى وهلفيتوس ولكسهم لم يقولوا على كبح جراح جمل واستعداد الانسان . وهماي طريقة (داروين) خلعت خطوة لوراء وعكسلى أوضح أن لا فرق بين أدنى الانسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا ، بل للمسافة في آخرها أوسع مما في أولها ، فظنوا أنهم وجدوا كتما وأن الانسان الجاهل في مستوى الحيوان ، وأنه يجوز للأمم القوية احتضام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار أنهم أدنى منهم مقاما وانهم ما خلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وصيدا مسخرين ، وختم الكتاب بخطاب حاسى للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والاستبداد ، ويتنسوا رائحة الحرية التي ستنها لهم الطبيعة البشرية .

هذا كتاب الشيخ طنطولى الذى أردنا أن نوسع له في مجلتنا ، ولماي بالعادة للنتيجة لهما ، لأن ذلك الكتاب من الصحف الضخمة السالفة في الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية ، وليس لنا عليه ملاحظة إلا اتجاهه بالفرق الترخي وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتباك الشعوب ، وما يصادفه القراء من صعوبة حل نظرياته ، ومن البديهي كما قال المؤلف انه لا يمكن في أقل من عشر سنوات (إن أمكن) وضع أساس اصلاح اجتماعي عظيم مثل هذا ، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم فيعملون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ما هو واجب العلم ، ويفتشرون تلك المبادئ السلمية بالمدارس ويلاحظون تطبيقها ، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا باخلاص المؤلف وعلق مقاصده في هذا الكتاب مع فصاحته وبلاغته وقوت مقاصده التي ينشر وجودها في الكتاب واناس فائرة فكره لا يسهنا إلا المصنف من عدم مراعاته ذوق

الأهم التي حوله ، وتسلسل تاريخها وهو ما ملأنا أشارت اليه جرائدنا في العصر الحاضر . انتهى مقال الاستاذ ساتلان
الطلياني عن كتابي «أين الانسان» والحمد لله رب العالمين .

وهذا مقال الاستاذ البارون «سكراديفو» وكلامه في «أين الانسان» وفي التفسير ، وهذا كانت
نشرته جريدة الاهرام في أواخر سنة ١٩٢٦ . وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب أين الانسان ، فذكرناهما معا
لتفشرح صدور أهل العلم في الاسلام ، وليعلموا أن ديننا روح العلم الانساني ، وليس جمعهم على العلم والنشر ،
وهناك مقال : —

(١) «مصر الحديثة ، روح الحياة المصرية ، جامعة الأزهر ، الشيخ محمد عبده» .

(٢) « النهضة الاسلامية للشيخ طنطاوي جوهرى » .

(٣) « نشأة مصر الحديثة في عهد محمد علي باشا » .

واتنا سنين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث وهي : —

(١) الميل الشديد الذي أظهره محمد علي باشا ورعاة بك إلى التقدم والالتفات إلى معارف ومواهب
أهل أوروبا .

(٢) العناية التي أظهرها رجلا من رجال الدين ، وهما الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوي جوهرى
في تمثيل الدين الاسلامي وتأثيره في النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث .

(٣) الوطنية الحديثة الواجبة التي مثلها خير تمثيل كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

وهنا ما كتبه المؤلف فيا بين صفحة ٢٧٥ وصفحة ٢٨٤ في الجزء الخامس من كتاب أين الانسان
بعد أن قرأ الاستاذ تفسيره لقرآن الشريف أحسن تقريرا : وقد ختم ذلك التقريرا في أول المجلد السابع عشر
من هذا التفسير فلا نزيد هنا ، وقال بعد ذلك ما نصه : —

«وقد نشر الشيخ طنطاوي كتاب «أين الانسان» المطبوع سنة ١٩١١ الذي قرأه الاستاذ ساتلان
الطلياني الكبير في المجلة الشرقية بروما لستها الرابعة ، والاستاذ كتب أخرى مثل : « نظام العالم والأم »
و « نهضة الأمة وحياتها » ، وكتاب « أين الانسان » هذا وضعه المؤلف بيئة رواية فلسفية سياسية ،
فهو في هذا يشبه القاراني من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الاسلوب والمنهج ، لجمع بين دقة
الفكر وجمال الاسلوب وغيرها .

« الاستاذ في هذا الاسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل توماس موروس وكليمانس
ومعاصرتنا هانوفر .

« وصف الاستاذ الجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها الكمال ، بل أظهر قائلها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ
يسدى ضامح ، و يدعى جميعا ، لانتظام الأمم ، واتحاد الدول ، بل يطلب ما فوق ذلك ، وهو الحب والاخلاص
العالم واشتل الأعلى في ذلك : ويتجنى (كما تخفى القاراني) أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب
العام وتبادل المنافع : ولكن دوننا الآن في الأمم الأرضية وإن كانت ارتقت ارتقاء ماديا لم يؤسس بينها
إلا على تبادل الحرب ، وتخريب المدن ، وقسوة السلاح ، فأما تلك الأفكار الذبيذة والمحبة العامة فهي مغلوب
عليها ، إن الأساس الذي بنت عليه الدول الآن هو ما سطره (داروين) الانجليزى ، وقفي على أفكاره (نيتشيه)
الألماني من زيادة الضعفاء وغلبة الأقوياء . إن المؤلف خيالا ساميا غزير المعنى واسما ، فانه بينما كان ينظر
إلى الساء في ليلة من ليالى ربيع سنة ١٩١٠ م وهو يبحث في مذهب هالي الذي يرجع مرة بعد أخرى ،
أخذ يقول : يايت شرى : اذا كانت هذه الساء الصافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل

سكانها مثلاً في الظلم والقتال ؟ أم هم في هناء وعدل كما يرى في نظم السموات ، وبينما هو مستغرق في تأملاته إذ وافته روح مشرقة النور ، بهية الطلعة ، في هيئة شاب جميل حسن الشكل ، فأخفت هذه الروح تناقضه ثم اقترعت عليه أن يحول معها جولة في السموات العليا ، فلي طلبها بشوق عظيم ، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام : باستر سيدول سودنبرج

إلى أن قال : « ومن يجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وتقبأ فيه بطريق حكيم شمرى بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى . إن مقصود هذا الكتاب كله ومافيه من المحاورات التصويرية هو نشر التعليم العام ، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يخرج بمغائهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاماً للأطفال في أول حياتهم ، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم ، كرهين للحرب ، ناظرين بجمال الطبيعة ، محترمين الجسمية الانسانية أي احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جلال العلم والحكمة يبعث في الشيوخ نشوة الشباب ، ويبعث في النفوس الانسانية فرحاً وولوعاً ، ويقلب الطامع الانسانية بما فيه من السحر والخلل ، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة ، تلتزم النظام ، وتهيئ الأطفال في الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التي زارها والنصيحة التي سمعها من أولئك العلماء .

فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلماً ، الفزير للذة ، السامى للفكرة ، الناتج من تفكير عميق ، وبعث يقل نظيره يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضاً للجملة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو مفخرة لعصر والاسلام . وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجnas المتحد في لندن في شهر يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م انتهى كلامه .

بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية

في سر قوله تعالى : « إن الله علم خيراً »

في ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق أول فبراير سنة ١٩٣٣ م بينا أنا بين القطة والورم إذ خيل لي كأن في الجوّ رجلاً ولكي لا أرى أشخاصهم ، وهم يتسامرون ، وهذا ماوعيت من حديثهم . قال أحدهم : حدثني رعاك الله ، لم يقول الله تعالى في آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . عليم خبيراً مع أن العلم والمجرب مترادفان ، فقال الآخر : إن كمال العلم الإحاطة بكل شيء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، وأوله وآخره ، وهذا عنى أتمّ الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه . بحيث لا يتصور مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون مستفاداً من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه ، فأما التعبير فهو الذي لا يقرب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجري في الملك واللكوت شيء ، ولا متحرك ذرة ، ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ، ولا ظمئن إلا ويكون عنده خبر .

فلما سمعت ذلك ، قلت في نفسي : هذا هو الترادف بينه ، فأين الجواب ؟ وهنالك جاشت نفسي وهي لازال في حال تشبه حال النوم ، وأخذت تسأل نفس السؤال وهو أنهما مترادفان ، فما كاد المنظر يخطر لي بذلك حتى سمعته يقول له : إن معنى العلم هو معنى التعبير ، ولكن هناك فرق ، لأن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سعى خبرة وسعى صاحبها خبيراً فهو أشبه بذكر الخاص بعد العام ، فهناك زاد اضطراب نفسي وقلت في نفسي : يا سبحان الله ، ولم ذكر هذا الخاص ؟ أكنسك العلم لالتفتة للسليمين ذكر هذا الاسم هنا ،

فبالت شعري هذه الآية مذكورة في أمر نظم النبوة الاسلامية ، ونظامها يقضى أن الناس جميعا متساوون فيبقى تعارفهم ، وأزواجهم هم الذين اتقوا ، وهم الذين يذكرون ربهم فلا ينسوه ، ويعلمونه فلا ينسون ، وما كذا الخطر لم حتى سمعته بقوله : إن هذا سر قول علماء مصطلح الحديث ، أن الجرح مقسم على التصديق ، وهناك استنبطت وأنا في ذهن من هذا المثال : أولا هو يوافق ما أنا بسنده ، ولعلكن الفائدة لم تتم ، فرجعت إلى معنى « علم خير » في كتاب شرح أسماء الله الحسنى للقرائى رحمه الله ، فوجدت هذه المعاني بنسبها ونسبها ، فلم يبق حتى إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتصديق ؟ وما نتائجهما هنا في نظام النبوة والممالك ؟ وهنا توجهت لمجمع الكائنات ، وهو الذى علم تلك الأرواح العالية ، فأنا منه أقتبس المعرفة وهو معلم الأولين والآخرين ، ففتح حتى وتذكرت ما ذكره ابن خلدون في المهدى المنتظر ، وهتم ذلك في أول {سورة الحج} فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله قل جميع أحداث المهدى ، وأن في بعض رواياتنا طعنا ، وإذا كان في الرواى تصديق وجرح فالجرح مقسم ، وعلى ذلك تكون أحداث المهدى فيها ما فيها ، وبهذه الأحاديث قامت شيع في الاسلام ودول ، ولكنها هفت آثارها ، ومن آثاره الأم حسن بن الصباح الذى تقدم ذكره في {سورة الكهف} عند آية : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وكيف أصرا أتباعه بشرب الخشيش حتى ساهم المورثون حشاشين ، وكيف ظهر لهم بيته مقدس معصوم ؟ وكيف اقتادوا له ، وكيف يكون للمرس الذى أقامه على أتباعه في القرن الخامس الهجرى هو نفسه الذى تلقفه محمد بن تومرت وهو معاصر للقرائى (الذى يقال إنه لاقاه) بسده حنوقا لفته باقطة ، فالأول كان في قلعة اللوت بناحية أسبهان ، والثانى بالمغرب الأقصى يبلاد السوس ، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه ، واعتقدوا فيه العصمة ، وكلاهما أمر فاطم ، ومننا الناس العلم ، واستند كل منهما إلى أحداث المهدى .

عادت في أمر المهدى وما مناسبت لاسم الخبير المذكور في الآية ؟

ويان أن سر القرآن بذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن ، وأن المسلمين في مستقبل الزمان

سينتصرون بهذه المعاني الجليلة البديعة

حضر صديق العالم الذى اعتاد مناقشتى في هذا التفسير . فقال : هذا مقام غريب ، الآية جاءت لعدم التفاضل بين الناس إلا بالقوى ، ولكن الحجة إلى الآن لم يظهر المقصود منها ؟ ذكرت المهدى ابن تومرت وذكر حسن بن الصباح ، ولكن لم تظهر النسبة الثالثة بين هذا التاريخ وبين الآية ؟ قلت بإصاح : أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التى وردت في المهدى جعلت أمره موكولا إلى السب ، وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ماضوه إليها من الاغراء والتحذير قد رفضوا أنفسهم فوق الأمم ، فاستكان المسلمون أى استكانة ، وخضعوا ، وتركوا العالم بأمرهم ، وحرقوها ، ولا تزال آثار تلك الظلمات إلى الآن .

اللهم أهد المسلمين من ظلم وإسارهم ، اللهم أعز وهدك الذى وعدت أن تكون خیرا ما أخرجت للناس اللهم انك أنت اللهم المعلم ، فأخذ أمتنا من الجهالة للعياء . قتل : أى جهالة تريد ؟ قلت : ألم تعلم ما سر سابقا في هذه السورة ومقابها من أخبار العباسيين والأمويين ، وأن العباسيين قادوا باسم المهديين ، وأن الأرض تملأ عدلا ونورا بعد مدشت ظلاما وجورا ، هل برؤا بوعصهم الأمة ؟ ألم يقتل السفاح ورجال من الأمويين كانوا في ضيافته ؟ ألم يذبحوا القور ؟ وإذا كان العباسيون هم الذين جاءوا الحديث بأنهم يأتون الأرض عدلا ونورا ، فمخلصين للمسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت ، وظلموهم ، وظلموا المسلمين ، فكيف يقادون الأمويين في السف والجور وزيهون عليهم حتى أن محمد بن عبد الله الحسنى الذى كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم ترميا على أيدهم ، فإن العدل ، وأن النور ، وأن المهدوية التى جى بها

للمسلمين ؟ أليس ذلك لاستكامة النفوس ، وتقديم التعديل على الجرح . وجعل النسب في الشريعة العليا ، وعدم الاكتراث بالقوى ، ولا الفضائل الانسانية التي جاء بها نص الآية هنا ، وهي التي يفهمها قدام الدول وبجملها قتل ، جهلت الأمم الاسلامية آيات القرآن الصريحة ، هاهوذا القرآن يقول على رموس الشهداء ، ان الفضل بالقوى ، وهامهذه قصة طالوت (في البقرة) ضربت القوم صاعاً من الماء ، وجعلت للملك ناعماً العلم والقوة ، إذن جعل المهدي تبعاً للنسب من أكبر مصائب الاسلام ، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى بين الناس ، وأخذ السجل والبيان والكتب الصراح ينتشر بين المسلمين ، وأخذ أولئك الرؤساء يشنون الجهاد بين أم الاسلام ، ويرجعون للموسين إليهم انكلاً عليهم واستعانة بهم غالباً ، وقد تقدم هذا والمحا في آس (سورة ابراهيم) عند ذكر أغا متون بالهند ، وفي (سورة العنكبوت) كما تقدم ، وفي (سورة الشراء) عند آية السحر ، وفي (سورة سبأ) عند آية الرؤساء والموسين ، وفي مواضع أخرى فلا نعيد هنا ، وهذا كله إنما جاء من عدم البحث في تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثار التقليد الذي هذ مجد أمنا الشائع ، أما لست أنكر فضائل بعض المهديين في الاسلام ، ولست أنكر اني قمت في الأزهر الشريف الذي هو ثمرة من ثمرات المعز لدين الله الفاطمي ، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين ، ولكن المنفعة إنما جاءت بسبب العقول الكبيرة للودعة في هؤلاء كلكم التي أتت محمد بن تومرت وأحاطه بالأحوال المستبعدة للشعب ، فبقى للملك أمدا ثم ذهب وهكذا الفاطميون ، وقد عانى المسلمون زمناً ليس بالقصير قروناً وقروناً وهم يتفكرون ظلال الألفاظ ، فامروا عليها ، وعكفوا عكوفاً أدنى لنجوم العميق ، إن تعليم المسلمين ومنهم أهل الأزهر الذين أما منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ ، وتركوا جبال الطبيعة ، وجمال النجوم ، وجمال العقول ، وبهاء الحكمة ، فطمست النفوس ، وخسفت القلوب ، وانكمشت الأمة في تلك القرون حتى وقنا هذا .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد طال الكلام فليكن المحجوم على الموضوع ، لأنني أريد العلاقة بين ذكر العلم الخبير ، وبين ذكر تاريخ المهديين الذي ذكرته هنا (وبعبارة أخرى) أريد ماهو السر في ذلك ، وعلاقة هذه الأسماء الحسنی بهذا التاريخ ؟ وبنظام أم الاسلام ، فأرجو ألا ذكر حديث واحد من الاحاديث وان كان قد تقدم في (سورة الحج) لتدريس الجرح والتعديل فيه . فانها : اذ كنتيجة ذلك لبيان المقصود . فقلت : جاء في الجامع الصغير مانصه : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرأيات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتبوهم فان فيهم ولي الله المهدي » (حم لك عن ثوبان) . وقال الشلوح : اسمه محمد بن عبدالله يأتي قبيل عيسى أومعه ، وقد ملئت الأرض ظلماً وجوراً فيملؤها قسطاً وعدلاً . وقال بعد ذلك : قال الشيخ حديث صحيح .

فقال : فاذكر لي أولاً ماهذه الرموز ؟ وما تلك الرموز التي تقدمت في تخریج احاديث الاحياء المتقدمة في هذه السورة فاني لا أعرفها ، وانها : اذا كان الحديث صحيحاً فكيف تجارزه وتقول إن أحاديث المهدي ضعيفة ؟ فقلت : الجواب من الأول ان الرموز تبلغ ٣٠ قال فأرجو بيانها . فقلت هاهي هذه :

(خ) البخارى .	(ن) النسائي .
(م) مسلم .	(هـ) لابن ماجه .
(ق) قسماً .	(ع) هؤلاء الأربعة .
(د) لأبي داود .	(٣) لهم إلا ابن ماجه .
(ت) الترمذی .	(حم) لأحد في مسنده .

(عم) لابنه عبد الله في زوائده أي زوائده مستدأيه
(ك) الحاكم .
(خد) للبغاري في الأدب .
(خج) له في التاريخ .
(ح) لابن حبان في صحيحه .
(طب) للطبراني سليمان النخعي في الكبير .
(طس) له في الأوسط .
(طص) له في الصغير .
(ص) لسعيد بن منصور .
(ش) لابن أبي شيبة .

(صب) لعبد الرزاق في الجامع .
(ع) لأبي يعلى في مسنده .
(قط) للدارقطني .
(فر) للديلمي في مسند الفردوس .
(حل) لأبي نعيم في الحلية .
(هب) للبيهقي في شعب الإيمان .
(هق) له في الدين .
(عد) لابن عدي في الكامل .
(هق) للعتيلي في النضاه .
(خط) للخطيب أحمد بن علي .

الجواب عن الثاني : وهو قول شارح الجامع الصغير ان الحديث صحيح فأنا أذكره بما تقدم ، وهو ان الجرح مقدم على التعديل ، أنسبها ؟ قال نعم هو صحيح قلت ولكن غيره يقول ههنا جرح لبعض الرواة . قال : فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بتمامه مختصرا . قلت : بسم الله الرحمن الرحيم « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . إن الله علم قبل أن يخلق السموات والأرض أن المسلمين سقتند غفلتهم وينامون نوما عميقا ، ويقتل الأبناء الآباء ، والتلاميذ الشيوخ ، بلا علم ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فأزل هذه الآية ، وجعل للمداري الفضل على التقوى ، وعلم أن أما وأبما سيحصلون أم الاسلام تبع أناس بأحوال خاصة ، ولا يحصلون المدار على صلاحيتهم للحكم ، فقال إما أزلت هذه الآية ، لأنني أخبر بواطن طباعكم ، ومن بواطنها لها تريد الاثمة والرفعة ، واستبعاد الناس باسم النسب لا بالتقوى ، فجعلت التقوى هي الأصل لأنني التفضل على الناس ، والحبيب التسيب قد يكون جاهلا أو ظالما ، فيفضل الناس ويتخذهم خولا ، ولذلك فصل رسولكم ذلك بأن أمر بلالا أن يؤذن في الكعبة بمشور أشراف قريش تطبيقا على معنى الآية ، فذكر خير هنا اقتضح في أيمان هذه ، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها ، والله يعلمها قل خلق العالم فأزل هذه الآية ، وهذا من محاسن أسماء الله الحسنى ، والسر كل السر في تلك الأسماء وهي أسماء الله وهذا هو حسننا حسنها هو جمال العالم وجمال الوجود ، لجمال العالم هنا ظهر في العبرة المأخوذة من معنى شخير ، لأن اختصارنا لتاريخ أم الاسلام عرفنا أن هذا المهدي الذي جاء به الحديث المتقدم هو السفاح ، والسفاح قد تقدم تاريخه وكفى بلفظه دليلا .

فقال مديني : ولكن ذلك سيكون يوم القيامة . قلت : هذا الحديث ينطبق عليه فإن الرايات السود التي جاءت من قبل خراسان هي التي كانت مع أبي مسلم الخراساني ، وهو الذي قام بها من خراسان لنصرة بني العباس ، وقد عرفت تاريخه فيما تقدم في نفس السورة ، فهو تاريخ ملطخ بالدماء ، فقد قتل من المسلمين على مامر بك ٢٥٠ ألف مسلم قعدا بأمر إبراهيم الامام ، وهو أخو السفاح ، إذن هذه المهدوية بنيت على سفك الدماء . فقال : وما المانع من أن يكون المهدي يخرج في آخر الزمان ، وتقوم راياته السود من خراسان فقلت : إذن يكون معنى هذا أننا نعيش بلا عقول ، القرينة ظاهرة واضحة ، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء ، ولماذا لا يأتي المهدي في آخر الزمان إلا من نفس هذا المكان وتكون راياته سودا ؟ أم ماهذا المهدي الذي يأتي بالسيف ؟

الله أكبر : إن العالم كلها كفروا شجرة واحدة ، فدراسة الحديث من غير مراعاة العالم الأخرى معناه

الجهل والفتنة ، وعدم الفطنة والموت . فقال : وما تقول في قول الشارع : إن اسمه محمد بن عبد الله ، سلمنا أن الجرح هنا مقدم على التعديل ، وأن الشارع أيد ذلك ولكن لم ذكر أن اسمه كذلك ؟ قلت : بينا كان العباسيون تحقّق رايهم السود في خراسان كما تقدّم آفا ، وكان هذا الحديث ينشر بين المسلمين كانت تفسر أحاديث أخرى من حديث : « يخرج رجل من بيتي اسمه على اسمي واسم أبيه على اسم أبي بلاء الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » .

وعبد الله هذا من ذرية الحسن ، وابنه هو الفس الزكية المتقدّم في تفسير هذه السورة ، وهو الذي قتله للنصور فيما بعد ، وقد كانت له البيعة الصحيحة ، وأتى به أبو حنيفة ومالك ، فاضطهدهما المنصور . هذا معنى كلام الشارع ، وحرام على أن أعرف هذا ولا أيقنه للمسلمين بعدا ، لأن عزل التاريخ وبقة العلوم عن القرآن والحديث أضرت أشد الضرر بأمنا الإسلامية العزيزة على ، وهي التي قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . فقال : لقد ظهر سرّ اسم الخير في هذه الآية ، وظهر اشراق نور اسم من أسماه الله في علم سياسة الأمم الإسلامية ، فهل تسمح بقول تلقبه مختصرا فيما تؤمله لأمة الاسلام من أمثال هذا المثل ؟ قلت : إن أرجى ما أرجوه لأمة الاسلام أنهم بقراءة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكماء ، لا يثنى لهم غبار ، ذلك الله قد افصح الآن أن دين الاسلام ليس هو ذلك الدين الذي يعيش على الألفاظ ويعطي عليها أهمية الحياة وحدها . كلا . إن هذا التصور ما كنته قبله قد كشف الستار عن هذه التاحية ، وقد فهم المسلمون فضلا وعملا ، ودغنت الجهالة في قبرها ، وولد في الاسلام جبل جديد فضلا ، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة ، فلارجمة للجهالة بعد اليوم ، وأما اليوم سعيد بأبناء بلاد الاسلام . والآن أقول ﴿ كلمتين اثنتين ﴾ بشارة للشبان المسلمين : للكلمة الأولى ما كتبت في ﴿ سورة البقرة ﴾ من بيا لم أرفعه إذ ذاك ، ولكنني أرفعه الآن : وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذي بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليتعلموا علم الحقوق ، هناك كفلمهم وراقبهم الاستاذ (المير) . ذلك ان فانلوب (الذي كان أيام احتلال الانجليز مصر قابضا يده من حديد على التعليم بها ، منع الشبان في التعليم الثانوي من كل ما يرق أفكارهم) لم يسر من اعتراض (المير) الفرنسي المذكور على التعليم الثانوي قصوره وتقصيره ، فليس يمتد التلاميذ لدراسة الحقوق التي كان برأسها الفرنسي المذكور بمصر دراسة صحيحة ، فلذلك رفته من الوظيفة ، فرجع إلى فرنسا ، وصار يستقبل تلاميذ المصريين ويصف عليهم .

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زاروني وأخبرني واحد منهم قائلا : اننا نحن الثلاثة كنا نجتمع الأزهار من الحديقة ، فدعانا الاستاذ (المير) وقال : لقد لاحظت فيكم أمرا لم أره في اخوانكم المصريين ، ذلك انكم تحبون الزهر ، فما السبب ؟ قال : فأجبنا اننا كنا سنة ١٩٠٧ م تعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوي جوهرى ، وكان في دروس الانشاء بحثنا في الطبيعة ، ويحصل فحوسنا في شدة الشوق إليها . فقال : أتى مصر هذا ؟ فقالوا نعم . فقال : إذا وجد في مصر رجل مثل هذا فلماذا جئتم فرنسا ؟ لفتح كلية ، ولتعلم هو وأمثاله في نفس مصر فانها ترقى سريعا .

فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوره عقلي ، فنظرت إلى الآخرين بدون أن أنكم ، فكلمت جوابهما : ان الكلام كان بحضورنا : هذه هي كلمتي الأولى .

كلمتي الثانية

سأرى أيها الأخ الذي في أول ﴿ سورة الحديد ﴾ عند معنى : « سبحانه ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ما هو رأي (ستانلى هول) وهو أستاذ علم النفس في أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها

ومخلص كتابه في ذلك أن شرط التجاع ثمانية أشياء ، ومن هذه الثمانية حب الطبيعة ، وقال : يجب على الناس أن يكتبوا من المشي في الحقول رؤية أحسن المناظر ، ثم قال : وخبر الوطنية ما كانت ثابتة من الحقول ومنها ترقية العواطف ، ومنها الصحة ، ومنها كشف ما فيها من القوى السكينة ، ففي كل منا قوة كلنة ، وهذه لابد من استخراجها ، وإظهار ما فيها من العجايب ، ولا جرم أن قرأ هذا التفسير وأمله سيعجبون الطبيعة بما جاء ، وسيكون فيهم حكماء لا نظير لهم في الأمم لأنهم في حال جهل الطبيعة يؤدّون درسا دينيا ، فهنا محمد الدين والعقل ، وسيزول الجهل والتليس من أمة الاسلام بمراسمه الخيرة التي ظهر في هذا المقام وسينبغ في الاسلام خبراء بالعلوم بإشراق هذا الاسم ، وتظهر ع الحسن الوجود المكتسبة من حسن أسماء الله ، وإياها الإشارة بآية : « وفيه الأسماء الحسنى قدعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » ومن خلقنا أمة يعملون بالحق وبه يعملون « وهذه الأمة هي الأمة الاسلامية كما تقدم في تفسيرها فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى وبين كون الأمة الاسلامية أمة تهدي بالحق وبه تعمل ؟ لولا أن جلال أسماء الله الحسنى التي أشرق اليوم فعلا على أمة الاسلام قد ابتدأ بكتف لهم الحقائق التي كانت مستورة ، وقد ظهرت لهم نفس العجايب الإلهية في المخلوقات ، وصارت أهم ما في دين الاسلام ، وهذا هو الوعد الذي وعده الله ، فقال : « ليظهره على الدين كله » وقال : « سارهم لآتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

هذه هي الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى ، ومن محاسن المخلوقات المشرقة التي يراها الناس صباحا ومساء وكأنا عنها غافلين ، إن الله تعالى للناس اليوم بالفرقان ، وذلك كله سرقوه : « إن الله عليم خبير » وأخذ الله رب العالمين . كتب يوم الاربعاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية : الساعة الثانية بعد الظهر .

بهجة هذا المقال

وحكم فيها ومحة وجل

في يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبي العالم الذي اعتمد محادثتي في هذا التفسير فقال : لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هذه المقالة تتقدم جاسة ، فماذا خطر لك بعد ذلك لحادثتي به ؟ فقلت يا أخي كأنك تعلم الغيب ، اني بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابقة انتبهت جانباً وخلعت ملاهي سائر العورة ، جالسا في الشمس ، محملا بما كتبت ، واستجلبا للصحة ، إذ تقدم في أول (سورة يونس) عند آية : « هو الذي جعل الشمس ضياء » مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها الصحة إذا وقعت أشعها على نفس الجسم بشروط خاصة ، فها أنا ذا أمس عملت بما علمت كما فعلت مرارا ، ولم أكد لأجلس فيها وأشواء الشمس محيط بجسمي حتى أخذت أفكر في هذا الانسان المسكين المحبوس ، هذا الانسان الذي قتله العلقات ، اكتفى باللابس ، عرفا وتنمعا وتجملا ، فأصبحت الملابس جلا قتيلا ، ودلا ويلا ، وشررا مستطيرا ، وأخذت أقول : يا الله ، يارب السماء ، يا حكم ، يا عدل ، يا حلیم ، أنا أستعبد بك من القل ، ومن الجهل ، ومن سوء المقلب ، يارب قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللط هو المقصود ، فأخذ علماء منا يحسبونها بالجل ، وأخذوا يتلونها لقضاء الحاجات ، وأقف فيها البوني [خمس المعارف الكبرى] كأن هذه الأسماء زلت من السماء لأجل السحر ، لا لأجل ارتقاء الأمم (وبعبارة ألفت) لأجل قضاء الحاجات ، وقرأنا القرآن فاكفينا بالقشور ، وببذنا الحقائق ، ونسينا أنه يجعل الفضل للقوى لا للفسب ، فروقنا في ذل وجيرة ، وجهل مشين ، حبس النوع الانساني في عذابه من حيث الملابس والأغنية ، وحبس للمسلمون في اعتقادات أدلتهم دهورا ودهورا .

تشابه الأم في أحوالها

هاهذه الانجليز في الهند اليوم في أثناء كتابة هذه المقالة تذيب الوطنيين المذاب لامتدادهم من شراء الملابس ، لماذا ؟ لأن عملهم يصنعونها ويصنعونها هؤلاء ، جهل وثقة يارب هذا الانسان الجهول ، صنع فريق من الانسان الملابس ، لماذا ؟ ليحصلها ترافا وتنمعا لفريق آخر ، يعيش من كذب يده ، يقيظ هذا الفريق اليوم ، فقال : أيها الأخ : أما لا أليس ، لأن هذه الملابس سجون ، وذل لاهز ، لأن العلم اليوم يحدثنا أن هذه الملابس ليست ضرورية ، قليلها يفي ، بل تعرض الجسم للشمس يزيد قوة وثباته فنحن كنا جاهلين ، فيقول الفريق الأول : لابد أن تلبس ، وما أناذا أضربك بقنايل ، وعسى أن أزيد هذا المقام بيانا في (سورة المنتحنة) عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » وأن بين تحريم شراء البضائع التي يصنعها من يؤذي المسلمين من الدول الحاضرة وأسأل الله التوفيق لذلك .

أف ! لهذه الانسانية العمياء ، ومثل هذه الملابس ينطبق على كفوف المسلمين على المراسم اللطيفة ، فاكسفوا بالفضة ونسوا المعنى ، نسوا جمال النجوم ، جمال البحار ، جمال الشجر ، جمال الزهر والحقل والمنازل .

فليق للمسلم في الحقل ، وليق في الجبل ، وليق في ظلام الليل ينظر النجوم ، فليق وليقف ، فهناك هناك تعجل ، ثم تعجل ، ثم تعجل له معاني هذا الوجود ، يقف ألم هجاب ربه في هذه الدنيا حتى يستمد لقائه بعد الموت ، فهناك تبرز له معاني كتاب الله ، هناك تبرز له معاني أسماء الله الحسنى ، أي يعرف السر في وصفها بأنها حسنى ، وكيف كانت حسنى ؟ وكيف وصفها الله بالحسنى ، لماذا ولماذا ؟ إذن يكون المسلم في فهمه إذ ذاك بعقله مثله كمثل جسمي وهو عار مقابل لأضواء الشمس مباشرة ، فتكون محته أم ، وقتل الحيوانات البرية للملكة للانسان ، وقتل دورة الدم ، إن مثل للمسلم في تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كمثل جسمي والشمس تشرق عليه .

سيتعلم المسلمون بعدنا من نفس هجاب صنع ربهم ، فيعطهم من العلم ما لا يحصر على حسب استعداد كل امرئ ، وبهذا وحده تزول تلك القويها القديمة ، والارؤساء المظالمون ، والسياسي الطويلة العريضة ، وتكون الدراسة موجهة للحقائق لا مجرد الألفاظ ، ويخرج النوع الانساني من الغرام بأصنام مشخصة مزينة ومن الغرام بأشخاص خاوية نفوسهم إلا من الإيهام والمجمل ، ومن الاكتفاء بالكتب للصنعة .

إن الناس يخضعون لما هو جليل ، فأصنام قدام المصريين ، وهبوط الخنعة ، وماوكهم ، كل هؤلاء مزينون خير زينة ، وعلى منوال هؤلاء في التزيين والتضليل الأم التي فتك بغيرها في زماننا الحاضر لفتح والاستعمار ، وقولهم : جئنا لاسعادكم ، فهؤلاء أصنام خاوية كأصنام قدام المصريين ، وهكذا أكثر من ادعوا الهدوية في الاسلام ، وكثير من الشيوخ المجالين ، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة في نوع الانسان كالتباهي بالملابس التي بها استعبدت بلادنا المصرية بتدخل الأجني .

كل ذلك سينزل من بلاد الاسلام حينما يدرسون نفس الوجود ، ويغمون الحسن الحقيقي فيه ، ويدركون سر وصف أسماء الله بالحسنى ، فالحسن الذي يجب فهمه لاسعاد الانسانية حسن هذه الأرض ، وهذه السماء ، وهذا هو اكتشاف الفضا عن أعين المسلمين ، وقد آن أوانه ، وظل اباه : من الآن ، من الآن ، من الآن ، فليشر الأذلاء بالعر .

كل ذلك أبها الأخ حضري نفسي عند ما جلست في الشمس ، لأنني لم أجد فرقا بين حبس نعمة ضوء

لشمس عن جسمى وبين جس العلم عن العقل بالوقوف عند الألفاظ ، أو بأواسر رئيس يقول : « العلم حجاب » أو بالاكتماء بالكتب المصنفة إلى آخر ما تقدم هنا .

هذه هي المحطات التي خلت لي أسس وجسسى يتلقى أشعة شمس الشتاء ، وأنا معتقد في نفس الوقت أن هذه من نعمة العلم ، وإلى أودى واجبا ، لأن المؤلف إذا لم يعمل بما يكتبه لم يؤثر التأخير المطالب ، فأنا والحمد لله في مطمئ ومشرق في أجد في أن أجمل بأقوال الأطباء ، وهكذا وجدت في لسانى ميلا إلى التكلم فيها لا معنى فأنا أجد بقية حياتى في حفظه بقدر ما كانى بعد ما سطرت الكلام على آفات اللسان قريبا ، وليس على أن أقال كل مطلوبى مهما كبرت سنى ، ولكن نفس الاجتهاد نعمة كبرى ، وإن لم ينل الانسان النفاية .
هذه حالى الآن أنفرد ها ذ كرى لمن بعدنا . فقال : إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكاء . فقلت : أنا موطن بذلك ، وعسى أن يزيد هذا المقام كشفا في أوله (سورة الحديد) وفى آخر (سورة الحشر) وإلى هنا تم الكلام على (سورة المحجرات) والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثانى والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الثالث والعشرون ، وأوله تفسير سورة : ن)



(الخطأ والصواب)

غلينا التصحيح فأتانا سخط وأعياء أخرى يدركها القارئ بلا تقيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وما هوذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٨	اعترف	اعترف	١٥٢	٥	أن يباهوا	أن يباهوا
٧	٤	الغريبة	والغريبة	١٦٠	٢٤	لراية عشر	الراية عشرة
١٦	٦	الزموا	الزموا	١٧٤	١	ولاه	واتهم
٢٠	٣	حزه	حزبه	١٧٧	٤	وقتنا	وقتنا
٢٠	٨	شفيع	شفيعا	١٨١	٢٣	الآتي	الحالي
٣٥	٢٧	المتوكين	متروكات	١٨٣	١٣	٤٩٢ ب م	١٤٩٢ ب م
٣٩	١	تهان	تهلون	١٨٣	٢٩	خامدة	خامدة
٣٩	٢٣	يتوضئون	يتوضآن	١٨٨	٥	وأكثرهم لم يعرفها	أكثرهم لم يعرفها
		ويصلون	ويصلان	١٨٩	٢٨	ولمالك	ولمالك فلا
٣٨	١٩	ألقوا بها	ألقوا بها	١٨٩	٣١	ونسنا	ونسنا
٤١	١٢	دائرة لهم	دائرة العلم	١٩٠	٢٧	فلم يستخ	فلم يستخ
٤٦	٤	الانلس	الانسان	١٩٣	٢٥	تميش	تميش
٤٦	٢٥	لحرب	حرب	١٩٦	٤	السباح	السبح على قراءه
٤٧	٦	مانكاد	مانكاد	١٩٨	١٠	ومعدنا	ومعدنا
٤٨	١٦	ضار	ضاراً	٢١٦	٤	طليق	طلق
٥٠	١٣	ذى	ذوى	٢١٦	٢٢	التفاسيح	التفاسيح
٥٧	٢	لجفاوية	لجفاوية	٢٢٠	١	على الكافر	على الكافرين
٦٨	٣٢	التي أقسم	بما أقسم	٢٢٤	١٩	رئى	رئى
٧٠	١٧	منه القرطم	من القرطم	٢٢٤	٢٢	فها	فها هذا
٧٣	٩	وقس هذا	وقس هذا	٢٣٦	٤	ورسو	ورسو
		السائل	السائل	٢٣٦	١٩	وزرد	وزرد
٨٧	٢٢	للرسلين	للرسلين	٢٣٧	٥	ققد	ققد
١٣٧	٣٣	موجود	وجود	٢٣٨	٩	اسم	انهم
١٥١	٦	وقتلوا رحلهم	وقطعوا رحلهم				

(تم)

فهرس

الجزء الثاني والعشرين

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ تفسير (سورة التفتح) مكتوبة مشككة بالحرف الكبير
- ٤ هذه السورة أربعة أقسام
- ٥ اقسام الأول في تفسير البسملة ، وبيان أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء ، وهي عامة وخاصة ، وهذه الأخيرة تختلف باختلاف الأشخاص ، ولقد كانت أميني في حال صفري أن أقف على الحقائق ، ولم أكن لأبالي بالصيت والعلو والعظمة ، دخلت (دارالعلوم) ودهشت لما رأيت علمها هي التي كنت أبحث عنها في الحقول من ذلك وطبيعة الخ وقد وصل اتهامي لنفسي أنني كنت أظن أن نعمة الانشاء لا أستحقها ، وهنا حكاية المرحوم الشيخ محمود العالم ، ولما وظفت في الحكومة طالبت نفسي بمهددا وهو نشر العلم ، وهنا ألفت كتابا ، وحوادث المهرتز يعني فلم أعبأ بها ، ولقد انتشرت الكتب في جميع أقطار الاسلام شرقا وغربا ، حتى ان شابا من بلاد البركتان الصينية حضر هذه الأيام وقص قصصه في المحافل العامة ، والله كان في حيرة مثل المؤلف ، فأخذ منها هذه الكتب مثل « نظام العالم والأمم » و« النتائج المرمعة » الخ ، ثم قال انه وصل إلى كابل ببلاد الأفغان فوجد الفكرة هناك منتشرة إن المؤلف هنا عرف رحمة الله الخاصة إذ نال أميته وهي انتشار الفكرة حتى في بلاد الصين وجميع الشرق الأقصى والأوسط ، وهذه هي الرحمة الخاصة التي لم يصل خبرها إلا في تفسير سررة التفتح وهذا هب وهو يقول : انه ما كان ليخطر له وهو يبحث على شاطئ نهر أبي الأخضر في الصغر انه يشارك مسلي الصين في تلك المباحث وهو حق .
- ٨ إن الحسين سنة الماضية كانت ذات صفة خاصة ، فاجتاز الناس أسواقا قديمة ، ولرثقوا ، ونالوا سعادات بالركبات المختلفة في الأرض وفي الجو الخ . إن سعادات الجميع الانساني ازدادت ولكن الأفراد لم ينلهم شيء من تلك السعادات ، فالناس أشبه بقطرات الماء في البحر الملح ، هي كثيرة ولكن القطرة فيه نظيرا لقطرة في إماء في منازل ، ثم تكلم عن الحسين سنة الآتية فقال : إن الناس يستعملون قوة الله والجبر ، وضوء الشمس ، وسواردة جوف الأرض في مصالحهم ، وسبقوا الكهرباء بأعمال معشقة مع جهلنا بحقيقتها ، وسيرى الناس الخطباء في أقطار بعيدة ، ويسمعون كلامهم . ويقول عالم آخر : إن هذه الآراء ليست أممات أحلام . كلا . سيمتلي الجو بالركبات ولا يكون هناك اصطدام ، وسيتمزج السحاب بواسطة الكهرباء إلى الصعالي والقفار ، فيزل عليها المطر فتخرج البركات والخيرات ، وستبقى الجراحة حتى تحسن ما قبح من أشكال الناس ، وسيجهد الدسل ، وربما يولسون الأطفال في المعامل الكيماوية .
- ١٠ اقسام الثاني من السورة ، التفسير اللفظي للسورة كلها ، من أول السورة إلى قوله تعالى : « فيسويته أجرا عظيما » .
- ١٢ اقسام الثالث من السورة ، تفسير : « سيقول لك المخفون » إلى قوله : « عذابا أليما »

- ١٣ يمة الرضوان ، وهي يمة الشجرة .
- ١٥ لطائف هذا القسم ، وهي أربع لطائف : اللطيفة الأولى في آية : « قل للمطفين من الأعروب » ، هذه الآية أعطتنا قاعدة كاتني بجمعها الأطباء وعلماء الأخلاق ، لأنهم يداوون المرض ، وخالق بصد ما هو عليه كالحرق في مرض برد الخ .
- ١٦ اللطيفة الثانية : ليس على الأعمى حرج ، وهذا إيضاح الكلام على الاستعداد فليجعل كل امرئ في الأمة في العمل اللائق لمزاياه وسنته وقوته ، فكل مجاهد على مقدار طاقته ، هذه هي الحقيقة المثلى اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وتكون آية المؤمنين » ، ويان أن الولوع بالعلم ، والولوع برفق الأمة هما الصفتان اللتان بهما يصل الانسان إلى أعلى سعادة في الدنيا والآخرة ، والله وملائكته يكونون معه ، هذا يؤخذ من هذه الآية : « وتكون آية المؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »
- ١٧ جهاد الفرد وجهاد الجيش : إن جهاد الفرد أشق من جهاد الجيش ، لأن الجندي في الجيش معه نظراؤه ، أما الفرد فهو يعض في عمله متكلا على ربه ، والمؤنة له أكثر من المؤنة للفرد في الجيش ، إن نصر النبي ﷺ في الحار اعظم من نصره وهو في غزوة من الغزوات ، لجرب أيها الذي نصر الله لك وأنت وحيد كما جربت أنا أيام هذا التفسير ، فاعلم أن الله مع المجاهد بنفسه في رفق أمته ، وقد جعل قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تحزن إن الله معنا ، وهو في الغار ضرب مثل لكل عالم اسلامي يجهده الأمة الاسلامية ويسلم لها ، وقد أدهش المؤلف سرعة قضاء حوائجه وحل مشكلاته الدنيوية والعلمية أثناء هذا التفسير ، ومن أهبطها أنه توقف في مسألة تسير السفن بالسكر باد ، لأنه ليس من علماء هذا الفن ، فحدثته نفسه أنه سيطلع عليها حالا ، فاطلع عليها بعد دقائق في مجلة علمية لم يرها من قبل فكتبها في (سورة البقرة) وهو مبتدئ في تفسيرها .
- ١٩ تذكرة في موازنة آيات الأحكام بإيات الأعمال الأخرى ، وإذا كان الخفية والشافية دقتوا في أمرهم المهدى ، أهو الحرم السكان الذي أحصر فيه المحصر ؟ وذلك في الوسائل فكيف بالمقاصد وهي ما نحن فيه من الهداية للصراط المستقيم ، إن الأئمة رضى الله عنهم دقتوا في الوسائل ليطهروا أن ندقق نحن في المقاصد وهي أعمال القلوب .
- ٢٠ دفع وهم : إياك أيها المسلم أن تظن أنك بمجرد الاسلام لا تحيط بك المصائب . كلا . فهذا وهم بل الانسان يرتقي بما يقاسي من الشدائد ، وما يزاول من الأعمال ، وإياك أيضا أن تقول : إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم شقيما لي فأنا سعيد من غير عمل ، فإن الشهداء والعلماء شقاء ، ومن كان مصاحبا لواحد من هؤلاء وهو تارك للأعمال فهو خاسر الدنيا والآخرة ، فالشافعون المذكورون همركون للعمل لا يبطلون إن الشفاعة قد حرقها جهال المسلمين ، إن الشفع ليس معلما للكسل .
- اللطيفة الرابعة في معنى : سنة الله الخ وهي تدل على أن الله مع كل مخلص . الكلام على يمة الرضوان ، وقصة مركز وسهيل بن عمرو ، والمحاورة بين النبي صلى الله عليه وسلم وعلى في عود ذكر الرسالة من الكتاب .
- ٢١ القسم الرابع من السورة . تفسير : « لقد صدق الله رسوله أنزينا » إلى آخر السورة .
- ٢٣ للمسلمون ضرب الله مثلهم بزرع أخرج شطاء ليعذبهم الكفار ، ولكن المسلم الآن يرى أن بعض المسلمين أشبه بزرع هشيم تنفروه الرياح ، فهم الأعيب في يد القرنية ، فهذه هو الأمير عبد الكريم يريد أن يحرر صرا كش ، ومولاي يوسف يأمره الفرنسيون أن يذبح منشورا يقول فيه : « إن

عبد الكريم ليس له حق في ذلك ، فهذا موت لاحياة . تقول : وهذا للوت بعده الحياة ويرثي المسلمون . الطائفة العامة في السورة هي أربع طائفت .

٢٤ الطائفة الأولى في قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : كما أن الأرض الطيبة هي التي يخرج نباتها سهلا بلا نصب ولا تعب ، وثمرات زرعها تنفع كل ساكن في الأرض ، وهكذا القلوب الشريفة كقلبه صلى الله عليه وسلم ، فهو يقبل العلم ويعلم النفوس الضعيفة الجاهلة ، ومفاد نفسه يجعله قابلا لكشف العلم ، وهو الفتح على الحقيقة ، ويتفرع على هذا الفتح العلمي كل فتح ظاهري كفتح مكة وصلاح الحديبية أراى فتح اسلامي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، وهذا الفتح يتقته صفاء النفس لقبوله ، ويعقبه تمام النعمة ، وانقشर النبوة في الأرض ، وطو هذا الدين على غيره ، فهذه أربعة أمور هي المذكورة في الآية . آثار الفتح النبوي في زماننا ، وبيان أن المسلمين ملؤا الأرض نورا ، ثم رجعوا قانزوا وذلوا ، ولكن جيلنا الحاضر س يرجع المجد على يديه ، ودليلنا ما قاله العالم الأمريكي صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » الذي يقول : « إن أوروبا في الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر قد أخذت تحتق المسلمين خنقا وتحتل ديارهم ، وهذا العمل أحدث رد فعل وبغضا شديدا ، وأخذ المسلمون يقرعون عارم أوروبا ، وحصل التفاعل الشديد ، وليس ارتقاء المسلمين الحديث مجرد محاكاة للغرب . كلا . بل نفس الأمم الاسلامية لها من نفسها آراء وحكمة ، وبهذا وذاك حصل انقلاب في آراء المسلمين بعيد للدي ، من ذلك آراء خيرالدين باشا الذي ألف كتابا لاصلاح تونس سنة ١٨٦٥ واتخذ ذلك الكتاب ثم مات للمؤلف واحتلت فرنسا تونس . قال : وقد أتركه تأثيرا حسنا حتى أصبح كتابا مقبسا عند أهل تونس والجزائر ، وقد جعل محور الكلام فيه على أن العدل والحرية هما أساس تقدم أوروبا . ثم قال صاحب « حاضر العالم الاسلامي » مانسه : « إن سيطرة أوروبا على الشرق مبنية على أساس واه ضعيف ، فليس الغربي محبوبا عند الشرق ، والاحترام راجع للخوف لا للحبة ، وما يدل على ضعف السيطرة الأوروبية في الشرق حادثة الحرب الروسية اليابانية ، فاليابان لما غلبت الروس عرف الشرقيون ضعف أوروبا ، ففرح أهل الشرق جميعا وأيقنوا أن أوروبا خارجة كلها من الشرق ، وساعد على استيقاظ الشرقيين زيادة اعتداء أوروبا اعتداء وحشيا بربريا مجنح ونهم » . وقال أرمينيوس : « اعتداء الغرب على الشرق جعل الأخير يزداد اتحادا » .

٣٠ ثم قال مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » : « إن الخلافة في صدر الاسلام كانت منعمة الجوانب عظيمة القدر ، وبعد ذلك صارت استبدادية وأخذ المسلمون يحاربونها ليرجعوها إلى الشورى ، ثم ذهبت الحرية الدينية في خبركان ، ولكن سيرة الخلفاء الراشدين باقية في الأذهان ، والغرب في شبه جزيرتهم هم الذين حافظوا على حريتهم إلى الآن ، وأقوال أبي بكر وعمر في الحرية لا تزال تسمع في كل آن ، إذن ليس الاسلام سبب تضعف المسلمين . كلا . بل السبب كل السبب هو استبداد الأمراء وتأويل الآيات القرآنية بما يوافق أهواهم ، فنبهوا الحرية والشورى » .

٣١ « إن اليقظة الاسلامية اليوم تشمل الإصلاح الديني والسياسي لتخلص المسلمين من أمراطهم الظلمة ، ولكن جاء تيار علم أوروبا فرقت في وجه هؤلاء المسلمين وساعد الظلمة من ملوك المسلمين على اذلالهم وهذا زاد بعض المسلمين لأوروبا ، إن بعض المصاحين كمحمد علي باشا بمصر والسلطان العثماني محمود الثاني في تركيا أرادا ارتقاء بلادهم ، ولكنهم أبغوا السلطة في أيديهم فأملحوا الظواهر ولم ينشوا على

الأساس ، فإن رجال الدولة ملزمون بالطاعة العمياء ، وهناك أرباب ظلمت حرة أحسن من سابقهم ، اقتبست آراء أوروبا بمطالعة المجلات ونحوها كالمركبة الفكرية في تركيا في آخر القرن التاسع عشر ، فأثرت ثمرا يابغا ، ولكن الإصلاح الطاهرى لأولئك الملوك المستبدين لم يفعل شيئا .

٣٣ مسامرة النجوم ، في مجانب العلوم : بعد ما كتب المؤلف ما تقدم تبينى له شخص خيالى أخذ يحذره ويقول له : أنت مثل الآيات السابعة بشجرة لها أغصان ، فأصلاها وكشف العلوم ، وأغصانها ثلاثة : صفاء النفس المعبر عنه بالفطرة والهداية والنصر ، فهنا قوة جسمية بشرها النصر ، وقوة أدبية تشير لها الهداية ، وكشف نفسى تشير له الغفرة . ثم قال الخيال : أنا جئت لك من القرية ، لأنك دائما تنظر في النجوم لأنهم لك مقصود الآية ، ولا بد من تطبيقها على الأمم الحاضرة وعلى الأمم الإسلامية السابقة ، أما التطبيق الأول فهو أن ملخص تعاليم أوروبا يرجع إلى ما سأتى ، إن التعليم له دعائم ثلاث : دعامة الأدب ، ودعامة الجسم ، ودعامة العقل . فإذا علمنا الصناعات أو علمنا ولم نعلم طهارة الضمير فأننا نكون قد أعطينا سلاحا به يضر مجتمعنا ، وإذا برع في العلم وكان مهذبا ولكننا لم نحرر جسمه فلا نفع فيه ، فالقوة البدنية يشار لها بالنصر في الآية ، والقوة العلمية يشار لها بالكشف الحقائق وهى الفتح ، والقوة الأدبية يشار لها بالهداية . أما التطبيق الثانى فهو ما ذكره ابن خلدون عن أحوال الأمم السابقة ، ذلك أن الأمة إذا تقلص الدين منها ذهبت وراثة الشفقة والحنان فالعدل فروال ملك ، فهنا أصل هو الدين وفروعه تبع له ، والسياسة نتيجة ذلك كله ، فروال الدين مبدأ ، فالأخلاق فسياسة الدولة ، فالدين ومعه العلم هو القوة العلمية ، والزراعة ومعها الأدب هى القوة الأدبية فأما القوة الجسمية فلها شأن آخر مذكور هناك في ﴿سورة النمل﴾ مثل الحديث المفيد أن النمل صلى الله عليه وسلم كان لا يخاف علينا إلا من كثرة الغنائم والترف والمقيد أيضا تصرع النبوة بأن المسلمين سيفرقون في الترف وهو شر لهم ، وذلك هو ضعف الأبدان المنافى للنصر ، إذن المعانى المذكورة في هذه الآية طبقت على الأمم الحاضرة تعلمنا على الأمم السابقة اضمحلالا ، أليس هذا من معجزات القرآن ؟ ﴿تذكرة﴾ إن حركات الصلاة ، وأعمال الحج ، وكذا الصوم كلها مقويات للأبدان ، وهذه إحدى الدعائم ، وبقى العلم والأدب وهما واضعان في أقوال الصلاة ، ويلحق بما تقدم في تقوية الجسم السبق والرى ، وهما متروكان في الإسلام الآن .

مسامرتان فيها ذكر فتاة ألمانية تزوجت مصريا ، فلما رأت أباه وأمه يميلان دهشت وأسلمت ، لأنها عرفت قيمة هذه الحركات ، وسيدة أخرى رأت تابجا في المرح يتوضأ ويسلم ، وقد أخبرها بأن هذا يشكر رخص حرمت في اليوم . فقالت : إذن لا أحد منكم يمرض .

٣٤ نظرة المؤلف في أم الإسلام المستقبلية . يقول : إن أم الإسلام المستقبلية ستكون صلاتهم غير صلاة المسلمين الحاليين ، لأنهم سيقرون مثل هذا ويعرفون سر هذه الأعمال فتكون صلاتهم يعلم فيرون في الصلاة صفة كما تقدم ، وهداية للأخلاق في : «اهدنا الصراط» الخ وتحريضا على العلم في نحو : «الحمد لله رب العالمين» .

وهنا مسامرة ثالثة لازيداء شرح أن الفتح هو الفتح العلمى ، وذلك أن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره قدم الفتح العلمى كما في الآية على الفتح العلمى . فذلك أن المسلمين كانوا يحكم الهند ولما دخل الانجليز الهند انتشر العلم فيها ونقض الطرف عنه المسلمون وحرقوه فروال ملكهم في القرن الثامن عشر ، وكلما تلووا صودروا في أنفسهم وأموالهم ، والمهندوس هم الذين كانوا يتعلمون ، فرأى

السيد أحد خان أن التعليم مطلوب ، فأسس المدرسة المذكورة وذلك سنة ١٨٥٦ م وجعل تحتها الإنجليزية لأن الأوربية لا تصلح لذلك ، ورضى بالاعتقاد الشديد على اختياره اللغة الإنجليزية ، ولكن المعارضون فيها بعد سيطمرون أنه حق ، فظهر على القاعة لاعلى المبدأ ، وجعل للمدرسة أولاً في أكوخ والمال قليل ، واتفق بمواهب علماء أوروبا مثل علماء جامعي كمبرج وأكسفورد ، وكان معه ابنه السيد محمود حين زار تلك الجامعات ، وجعل المدار على المطلق والقرينة الشخصية ، فلم يجد مقراً من جعل اللاميز يطمعون تعلماً فإخليا ليمّ حقهم ، وهكذا جعل فيها القارئين الرياضية ، إذن قامت الكلية بالقرينة البدنية والمخفية والعلمية وهي الأركان الثلاثة المتقدمة في الآيات جسمية وخلقية وعلمية يد تعمل ، وقلب يحب ، وعقل يفكر ، ولواكية «عليكره» لم يكن المسلمين صوت الآن ، ولولاهم كانوا الآن خلعاً وعبيداً ، وقد قالت المصحف القرآنية من مؤسس الكلية : انه نبي الترية ، وتوفي سنة ١٨٩٨ وقد أنشأها لتنتشر الثقافة منها في العالم الاسلامي كله . إن كية (عليكره) تحتاج إلى ٦٠٠ ألف جنيه ، وقد وصلت الآن إلى ٢٠٠ ألف جنيه بتدبير السيد أحد خان ابن السيد محمود ، ثم قال الخطيب : ليرحل المسلم المصري فليتعلم فيها ، لأن تعليمها لا نظير له ، والأزهر لم يصل إليه الآن .

٤٧

الطيفة الثانية في قوة تعالى : هو انسى أزل السكينة في قلوب المؤمنين الخ ان عصر الصحابة كانت السكينة فيه بأولر النبوة ، أما عصرنا فالعلمة ومضار العلماء يطمعون بما يرون من أن المسلمين مع ضنهم وانتشارهم في الأرض محفوطون ، فأما الحكماء فانهم يزيدهم سكينة فوق ذلك ما يعرفون من عجائب الصنعة الإلهية . (مسامرة) جاء فيها أن علماء الدين في زماننا كعلماء الطب ، فكأن عالم الدين اكتفى بتعليم العامة الوضوء والصلاة وما شابهها من الأمور الطيفية ، ولم يذكرهم بحال هذا العلم ومجابهة ، هكذا عالم الطب لا يعني إلا المداواة ، أما حفظ الصحة للمقابل لمعرفة عجائب العالم فهو متروك عنده ، فهذه أم تعيش كما يعيش النمل ، عمل ولا علم ، إن دين الاسلام علم وعمل ، فليدرس المسلم الدنيا فانه أولاً براها عابسة مخلوقة من الضرور ، ولكن بعد التروى يرى هذه الضرور معاتيج النعيم ، ومستحيل أن يحقق هذا غير كبار المعكرين ، مثال ذلك ما ستره من السمايل التي ما هي إلا قلاع تحتها الجرائم القتالة للأعداء الداخلة في الجسم من السمات المهلكة من الخارج ، فلهليل أمراض ولكنها جعلت نعمة لتخليص الجسم من الأذى ، إن الأسد جندي لاحداث الحياة لشبه ولاحداث الهلاك لفرسته فهنا مثال واحد عرفنا جنود الله المهلكة ، والجنود المحذات لاحداث الحياة .

٤٨

كما أن جسم الانسان يهلك بالغفوات ولكن أمثال السمايل والحي تخلصه ، هكذا الأمة اذا فسدت يسلط الله عليها الأعداء ، فهؤلاء الأعداء كلساميل ظاهريهم ضرر وباطنهم نفع .
خطب المؤلف لأمة الاسلام يقول : إن الله وعدنا أنه يرينا الآيات في الأرض والأفاق وقد أنجز وعده ، في زماننا لأننا عرفنا ما معنى منتقم وجبار ، فلذا كان منتقماً بأمثال الجي والسمايل وحلول الأعداء البليار فهو انتقام ظاهراً راحة باطناً . وهذا كالمؤلف أن طيباً مصرياً مشهوراً يداوى الناس ولكنه هو ترك نفسه فلم يبال بصحتها ، فلما وقع نصحه بأن يقطع عن ذلك ، فليحافظ على صحته ، فسمع النصيحة واتفق ، وهذه الحادثة تطبق على حال المسلمين ، فهم بالهمة مولعون وغفلوا عن ترقية القول كما قد يغفل الطبيب عن صحة جسمه وهو مكب على مداواة الناس . هنا بيان أنواع الجنود ، هي حربية ومعنوية ، وكل منهما إما للإهلاك وإما لاحداث الحياة .

الطبيعة الثالثة في قوله تعالى : « وخلق جنود السموات والأرض وكان الله عليها حكما » . إن هذه الجنود واضحة في أجسام الناس التي تراها مشاكلة لنظام الأمم مشاكلة تامة ، وبيانه أن جسم الانسان أشبه بملكة ، وهذه للملكة يحيط بها الأعداء من كل جانب ، ويمكن دخولها إما من القم ولما من الجلد كما يدخل العدو الملكة من الباب أو من السور ، فإذا دخلت الميكروبات وهي الحيوانات القترية للملكة من القم تلقفتها الجيوش التي في المعدة فأهلكتها ، فإذا نجت منها تلقفتها جنود أخرى في الامعاء وأيضا لا يجد لها الاكسوجين فتتوت ، فلما اذا دخلت هذه الجنود الملكة من الجلد فإن الجنود المدافعة وهي للكرات البيضاء والليمفاوية قتالها ، وتكون هناك معركة دموية بسببها يتجدد جنود من الأعداء وجنود من المدافعين وخلايا من الجسم ، فتصبح هذه مادة القيح ، ثم تقوم جيوش الجسم بتريق جلد الورم كالحمل مثلا ، في انتقع أعقب ذلك أنها تحف الجرح وتصلح الجسم من جديد ، وقد اعتاد الملة في مصر أن يسمو ما يرى تحت الابط من ورم « حبلا » أي قوة للجرح الحاصل في اليد مثلا ، وهذا القول عجيب لأن علم الطب الآن أثبت أن هذه ثكنة لجنود الجسم تخبأ فيها ، لتتيت الجسم من الأعداء الماخيلين . ومن جب أن الانسان اذا أهمل الرياضة البدنية والاستعمال بالماء الحار والبخار والتعرض لضوء الشمس وتفتت الأغذية المتراكمة في الجسم فإنه يفسد لولأن الله يسلا على تلك العفونات فيه الحي ، تلك الحي التي تذيب تلك العفونات بدل الشمس وأنواع الحرارة للتقتم ذكرها . إذن ظهر من العلم اليوم أن جميع هذه الأمراض نعم لاقم ، وظهر أن هذه المخلوقات جنود الله لافرق بينها وبين جنود الأمم المعلومة في كل زمان .

٤٨ إضاح مختصر لجنود الله في الأرض ، الدم سائل لالون له ، خذ قطرة دم صغيرة بحيث تكون جزءا من عشرين ألف جزء من البوصة فانك تجد فيها ٩ آلاف من الخلايا البيضاء ، وخمسة ملايين من الخلايا الحمراء ، ونفس هذا الجزء مثل من الأبرة ، ووظيفة الخلايا الحمراء أولا أنها تلون الدم ثانيا أنها تحمل الاكسوجين فتوصله إلى خلايا الجسم ، ثالثا أنها تأخذ البقايا المتسخلطة في الجسم فتطعنها إلى الهواء فتخرج معه وهي المادة الكربونية ، ووظيفة الخلايا البيضاء انها تحارب الأعداء ، فهي جيوش مقاتلة مدافعة ، فهي تصطب صفوا وتخترق أجسام الجيوش الماخلة وتكتم أنفاسها فتتوت .

٤٩ المعركة اليومية في الجسم البشري ، الوقاية الطبيعية للجسم ، للناعة ، الميكروب وقوة أمراضه ، العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم ، الخلايا البالة ، الحرب بين الميكروب والخلايا ، الوقاية النوعية ، العدوى والمرض .

٥٠ للناعة ، الميكروب وقوة أمراضه .

٥١ العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم .

٥٢ الخلايا البالة .

٥٣ الحرب بين الميكروب والخلايا .

٥٥ صورة توضح حركة الأهداب المتحركة وشكل البلمعات عند خروجها من الأوعية الشعرية ، وتبين التمدد والنجارى الليمفاوية ، وكيفية اجتماع الميكروبات بطرق خاصة .

٥٦ صورة ترف كيف تمتد الأوعية وتنقل البلمعات إلى المنطقة المطلوبة ، ويان شكل الاميبا ويان الخلايا الهدية المبطة للقصبة الهوائية .

٥٨ صور تين اتجاه البلمعات نحو الجلد لمضمه ، وتين خروج البلمعات إلى ميدان القتال ، وتين عاصرة

البصمات الميكروبات .

٥٩ وفيه أشكال تبين إبادة الميكروبات بالواد الملصقة ، وكيف تأكل البصمات الميكروبات ، وكيف تخرج البصمات من الأوعية الشعرية .

٦٠ الوقاية النوعية . علامة ماقتم .

٦١ فصل في جنود الإحياء وجنود الامانة ، وألظلمة والنور ، ويان أنها تسمة أنواع بجنود الكهرباء السالبة وللوجبة ، والمواد والسوائل والفترات والميكروب قسميه وهكذا .

٦٢ خطاب الله عز وجل للعالم ، الماعة الكهرباء والأنوار لربها ، خطاب الله للأتوار أن تكون أسرع فتكون منها الفترات والسوائل والجامعات .

٦٣ ههنا نحو عشرين نوعا من خطاب الله لهذه المخلوقات كخطابه للنرات أن تفتت المواد لغذاء النبات ، ولقذرات التي في المواد المتفتنة وللآساد والجراد والفحل والعنكبوت وبني آدم ، وكقوله : قم ياشرق وم ياغرب ، والسلمين اليوم أن اتحدوا ، وللعلماء منهم أن ينصحوهم .

٦٤ تخال في صور المادة وتقال في صور الألفاظ ويان هذا المقام أن هنا شمسا وكواكب تتردد في المنازل طالعة غاربة فتحدث عنها مورشتي من حيوان ونبات ومحباب لاحتصرها ، وههنا نظير ذلك في الانسان هواء يتردد في الخارج فيحدث به صوت فتكون حروف وتلك الحروف تعطي صوراً مضمونة تعرفها النفس وهي صور جميع المخلوقات المتقدمة ، وهكذا هناك حركات في الفهم تعطي صوراً كلية هي العلوم والمعارف ، إذن ههنا شموس وكواكب تجري فتحدث صوراً وهواء يعطي صوراً في النفوس بألفاظ وأفكار في العقل فتعمل كذلك ، فالجنود إما من صور تحدثها الكواكب ، ولما من ألفاظ يحدثها الهواء في الفهم ، ولما من نفس العقل .

٦٥ وجنود العلم اليوم في بلاد الاسلام تطرد عدوين : الخرافات والأمم الأوروبية أي المجرمة منها ثم ان الجنود النورية حسية وعقلية ، والقسم الثاني أسقى باسم الجنود ، ومقدمة إضاح هذا القسم الثاني ما يأتي : ان الناس ضيوف عند ربهم ، وهذه الضيافة لها مثل وهوان (ماريه) بنت غفر من بنات ملوك العيين خطيبا ثلاثة من خول الشعراء ، وقدموا لها هدايا ، وأسمعوها شعرا ، فكان أشعروا أكرم الثلاثة إنما هو حاتم المشهور بالكرم ، وهذه الحكاية قصصتها على القلائد فأذكرتني أن الأمم ضيوف عند ربهم ، فظرت النخيل ليلا والكواكب فتذكرت أن الناس يمدحون من يقدم لهم طعاما ويضيء لهم سراجا ، والله قلم للناس الكواكب والشموس وجميع ما في الأرض ، فهم يمدحون النجم القليلة ولا يمدحون النجم العسكثيرة في السموات والأرض ، فهم ينسون الكثير ويهمون القليل . الجنود صنفان ولا حصر لأفرادها . الجنود المضمونة العقلية .

٧١ جنود العقول الانسانية والحيوانية . الاستدلال بالعقول الارضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

٧٢ النتيجة صادقة لتقدمات محسوسة . نتيجة هذا القول تفسير آية : « وفيه جنود السموات والارض » وآيات كثيرة .

٧٣ ههنا عقول انسانية تستخرج سراجا فتشع به ، وهذا السراج إن هو إلا من البقول أو الفهم أو الشمع أو الكهرباء أو غيرها ، وهل كل ما في الارض إلا مشتق من الشمس ، إذن الضياء الارضى مشتق من الضياء السماوي فليكن العقل الارضى مشتقا من عقل كل شيء وهو الذي صنع الشموس والكواكب كما صنعنا نحن أضواءنا في الارض في قناديلنا ، وماذا العقل الكلي إلا ملك وما أكثر الملائكة وما أكثر

النجوم والشموس .

٧٤ ملخص ما تقدم في ستة جمل ، غاندى يصف رحلته في المياه المصرية ، وهذا المقال مناسب لهذا المقال من حيث انه ذكر الشدة واللين ، والحب والخوف ، وقال : إن اللين ينفع في كل حال ، وأن من استعمل اللين لا يكون عمله شريفاً إلا إذا كان قوياً لا يخاف ، والحب لا يجتمع مع الخوف ، المحبة لا تبالي عند ما تخطى : المحبة تكافح العالم ثم تغوز وتغوز ، إن المحبة في الانسان أقوى من الكهربية في الطبيعة من يكشف المحبة العلة أقوى من يكشف الكهربية ، ولا جرم أن الشدة واللين والحب والخوف من جنود الله المعنوية في هذا المقام ، وههنا مقال ضاف يشرح : —

(١) معنى أن الحياة مطردة الوجدان مع انها محوطة بعوامل الهدم والحلاك ، وذلك أن الهدم ماهر إلا اصلاح لما فسد وارجاعه بحال أنفع للوجود من الحال السابقة ، إذن هذا العالم محوط بالحب ، وما الهدم إلا عملية لبقاء ذلك المحبوب بعد هدمه .

(٧) وما معنى أن الحب له السيادة في العالم والعالم كله شقاء ، وأن ذلك الشقاء والقتل ماهر إلا ترقية وترقية للأرواح في الارض فما يظهره ضد الحب هو الحب .

٨٠ (٣) ثم ما معنى أن تادوس المحبة يعطى سلاحاً وطمانينة ويخسر خفايا الطبيعة وهذا مفهوم مما سبق الطيف الزايف في قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله الحق » وفيها أربع جواهر : الجوهرة الأولى في آية : « ليظهره على الدين كله » وفيه مقال (لوثروب استوارد) الامريكى تكلم عن الرسالة الحميدية إذ قام بنشرها في زماننا هذا السليح والتجار والحجاج وغيرهم كالعراق الدينية وأهمها جماعة السنوسية الذين يدخلون الوثنيين في الحياة الاسلامية في افريقية ، وقد قل أحد الانجليز : « إن الاسلام يغوز فوزاً عظيماً في اواسط افريقيا ونوره يفسخ ظلام الوثنية ، والنصرانية أصبحت خرافة » . وقال مبشر بروتستنتى : « إن الاسلام يسير سرياً حيثما لم يقف إلى اليوم ، النصارى يحملون مفتاح افريقيا في نومهم والاسلام فتحها في اليقظة ، عرب زنجبار من سنة ١٩٠٠ بشروا بالاسلام بلاد (نياسلاند) فأصبح بعد ستين معبودة في كل قرية مسجد ومدسة والانجليز لم يقصروا على صد هذه الدعوة ، وسيجتاز الاسلام زمبابوى ويطلق جنوب افريقيا والقارة كلها ، والاسلام يفسخ النصرانية كما يفسخ الوثنية ، فالذين تنصروا أيضاً مسلمون ، بل النصرانية في الحبشة يفسخها الاسلام في هذا الزمان ، بل ظفر الاسلام في الحبشة أعظم ظفر للاسلام ، والمسلمون المرتنون قهراً في روسيا رجعوا إلى الاسلام .

٨٢ الكلام على آية أشداه على الكفار ، وأن هذه الشدة أحست بها أوروبا في زماننا ، فقد جاء في مقالة عنوانها « أوروبا وآسيا » أن انكشرا وإن خرجت ظامرة من الحرب الكبرى كان هذا الظفر خربة لما قد ثار عليها الألمان والهند ومصر ، ثم ان تركيا للمنظمة نهضت وطردت انكشرا وحلفاءها ، والصين تطلب البلاد المنسلخة منها (وبصورة أخرى) آسيا لا في اليوم ضد أوروبا وقد أصبحت روسيا معاونة لأهل آسيا بعد الحرب وقد كانت معادية لهم قبلها ، وأيضاً يقول : ان انكشرا استغلات من بغض روسيا لأهل آسيا ، فكانت روسيا تهرب الصين والبرية الثانية ، وانكشرا كانت تأخذ تمرات ذلك ، فاحتلت ما أرادت احتلاله ، وإيطاليا أخذت طرابلس ، وفرنسا أخذت الجزائر وهكذا ، فلما أصبحت الروس بلشفة تنفض الشرق الصلدة وأصبح أمام انكشرا ومن معها وجهها لوجه تحفز المسلمين تلك الشدة المذكورة في الآية ، ويان الذى أوقد نار تلك الشدة وهو السيد جلال الدين ٨٣

- الأقضي ، وقد جيس معه رجل اسمه «رضا آكان» في قروين ، ولما جاء رجال الدين إلى الاستانة زاره رضا آكان لئلا يكوروا وصاه جمال الدين أن يقتل سلطان الفرس ناصر الدين فقتله ففرج جمال الدين وهذه أفضت سلطان تركيا عليه وهو عبد الجيد ، فعمل الحيلة في قتله ، فقتله بحجة السرطان في لسانه
- ٨٥ تعاليم جمال الدين معروفة قوية ، ولم يخف أحد من أهل أوروبا مثل ما خافه بريطانيا ، سجتت في الهند ثم أطلقته جاء إلى مصر ، وله يد في الثورة العراقية ولما دخل الانجليز نفوه ، ثم وصل القسطنطينية فساعدته السلطان على الجامعة الاسلامية .
- ٨٦ شدة المسلمين على الكفار في زماننا ، واغرة ايطاليا على طرابلس ، وتآلب الدول البلقانية على تركيا خفرت جيع أملاكها ، ثم اتفقت انكسارا والروسيا على خنق الثورة القارية ، وضعت فرنسا على مراكش ، فغضب المسلمون غضبا شديدا ، وهذه الصداوات جعلت المسلمين يحبون الوتئين في الشرق الأقصى ، وفرحوا بالتصير اليابان على الروسية فرحا شديدا ، وأحبوا أن تدخل اليابان دين الاسلام ، وأودع السلطان وقتنا إلى اليابان .
- ٨٨ إن أوروبا نفسها بإظهارها مدور المسلمين جعت كتهم .
- ٨٩ الفصل الرابع في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وأن ساسة أوروبا يشهدون أن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس نداء السلطان عبد الجيد للمسلمين بالجهاد شرعا حتى يتخذ دليلا على وعن تلك الجامعة .
- ٩٠ بيان أن الصحافة الاسلامية اليوم منتشرة انتشارا عظيما ، وقد أظقت المسلمين هي وغيرها إقلاقا عظيما
- ٩١ في سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مائتي صحيفة للدعوة فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٩ خمائة صحيفة ، وزاد سنة ١٩١٤ على ألف صحيفة ، وازدياد التواصل أشعل تلك الحركات .
- ٩٢ يقول عالم فرنسي : « إن للمسلمين لا يتصورنا مالمدين في بلادهم » .
- ٩٣ نور على نور وفيه انتشار الاسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا ، وكيف أسلم الاستاذ محمد أفندي عز الدين (لوماكس الأمريكاني) وهامى هذه رسالته في ذلك ، يقول : « الاسلام في جوهره قوة وقدره الخ » .
- ٩٤ متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهذانى سواء السبيل ، وههنا ذكر خمسة أصول اسلامية كالشهادتين والصلاة والصوم الخ .
- ٩٥ وهكذا الحاج ناصر الدين دينه المستشرق الفرنسي المصور المشهور ومعه الاستاذ راشد بك رسمت ، وقد ألف الأول رسالة عربها الثاني اسمها « أشعة خاصة بنور الاسلام » وفيها أن قوة الحياة كسنة في الأمة العربية والعقيدة الاسلامية ، وأن أوروبا مصرة على عداوة الاسلام والمسلمين ، وقد هزل عن القس (زوير) أن حسين مليونا من السودان وقيية هادسا الكبيرة وقبائل بلاد النيجر والشاطئ الذهبي أسلم الكثيرون منهم ، بل الاسلام سيعمهم جميعا ، وفي البنغال أسلم أكثر من عشرة ملايين ، وكذلك برمانيا بجوارها زاد عدد المسلمين على الثلث في عشر سنوات ، وفي أنحاء أوروبا وأمريكا أسلم كثيرون .
- ٩٨ شرح عداوة أوروبا للإسلام : وكراهية الاسلام تحت ستار العلم
- ٩٩ الجوهرة الثانية في آية : « رجاء بينهم » مع آية : « إنما المؤمنون اخوة » في (سورة المجرات) وفي هذه الجوهرة ملخص للمقمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » .
- ١٠٠ نشوء الاسلام وارتقاؤه واتحاطه ، وههنا أعجب المؤلف بدين الاسلام إعجابا شديدا ، إذ ذلك سلطان

الروم والقرن الخامس ارتقى الاسلام ارتقاء مذهبا في زمن الخلفاء الراشدين وفي العصور الأولى ، ثم أخذ يتبدل شيئا فشيئا ، وأول التبدل في أوائل القرن العاشر ، وهنا حرق هذه الدولة الاذن والضغائن بسبب جعل الخلافة ملكا عوضا لاشورية ، فرجعت العصبة كره أخرى ، وهناك تفككت أجزاء تلك الأمة الاسلامية ، فسلطان العباسيين دولة في بغداد ، وللاُمويين في الأندلس ، وللفاطميين في مصر ودخل القرن أولا والترك ثانيا في أمور الدولة ، فزكت الدولة كل عرق ، وفي القرن الحادي عشر للمسيحي عمت معالم الحضارة الاسلامية .

١٠٦ دخول الترك في الاسلام سراعا لم يمتد أخلاقهم ، ولما حكموا أمة الاسلام لم يكونوا رجاء بالنصارى الذين يصبون إلى بيت المقدس كما كان العرب من قبلهم فآخوهم فتعصبت أوروبا ، فكان ذلك سببا للحروب الصليبية ، فالترك هم السبب في نصب أوروبا للنصرانية ضد المسلمين .

١٠٨ خضع المسلمون العرب للترك ، ثم جاء جنكيزخان وخلفاؤه فأهلك العالم الاسلامي وقطع سدود العراق فأصبحت البلاد مراهي للباشية بعد أن كانت مزابع عامرة إلى آخره .

١١٠ الترك المغنايون هجموا على أوروبا ووصلوا إلى فينا ، ولكن أوروبا ردتهم ، ومن ذلك الوقت أحست بأنها قوية ، وقوتها الأموال الأميركية الجديدة ، ونام الاسلام قرونا إلى القرن التاسع عشر ، وقد اقتسمت أوروبا أقطاره ، ولكن الآن هب الاسلام من نومه ، وأينما يأخذ دوره .

١١٢ الفصل الثاني في آية : « رجاء بينهم » ويان أن انكلترا وفرنسا كانتا يتجهلان حال العالم الاسلامي أيام الحرب الكبرى ، ولكن إيطاليا كانت تعرف الحقيقة .

١١٤ ذكر ما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها من أن الاسلام دين الحرية ، وأن المسلمين أول الأمم في الحرية من أي صنف كانوا .

١١٥ الفصل الثالث في أن أوروبا شورية في بلادها مستبدة في غير بلادها ، وأهل الشرق والمسلمون لا بد فاقرون من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » .

١١٦ الفصل الرابع في هياج العالم الاسلامي .

١١٧ مجزة جديدة لم تعرف من قبل وهي توضيح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » القويل لأوروبا اذا جهلت : من كلام المؤلف الأمريكي المذكور .

١٢٣ مؤلف هذا الكتاب يقول : « إن المسلمين اليوم أرق منهم أيام الامام الغزالي مبرهنا بما يقرءون من كلامه الفلاني » .

١٢٤ فصل في ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمة الاسلام من رجال العصور المتأخرة ألا وهو السيد الأجل الثاني كان حاكما في مدينة (بنان) من بلاد الصين بأمر ملكها ، وقد أقام العدل ، ونظم الجند ، وحرر القرع ، وأقام الجسور ، وحزمت الأمانه كلها عليه لخدمات ، وبقت له العايد ، وأبقت اسمه مذكورا في الكتب على مدى الأجيال إلى الآن .

١٢٦ الجوهرة الثالثة في آية : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

١٢٧ الصلاة في نظر لها مغاندي ، وأنه يرى أنه كلما زاد اعتقاد الناس في الله زادت رغبتهم في الصلاة وأن أول حياته إلحاد ثم جاءه نور من الله ، الصلاة للروح الزم من الفناء للجسم ، ولا حجة للصلاة وهناك حجة للأكل ، بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يجعلوا إلا بالصلاة ، لافلسفة عندي ولكن عندي الصلاة .

١٢٨ فضل الله على الناس : يستند المؤلف أن هذاب الناس في الأرض لم يقصد به التعذيب وهم محبوبون فيها ويجب كيف يكون السجن بستانا وفيه أعمال لتهديب المسجونين ، ولقد أهدى الله أهل أسبسطه أن يمرتوا الأفل على قبول التعذيب ، وأهدى السودانيين الرضاء بالتعذيب أمام العايات .

١٢٩ الجوهره الرابعة في آية : كزرج أخرج شطاه الخ . يذكر المؤلف أن الله صدق وعده وأن هذا زمن ظهور المعجزات ويشكر ربه على ذلك ، لأنه ذكر في أوائل هذا التفسير أن الفرنسيين اقتضوا على سوريا فقتلوا بها ، وذكر في آية : « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا » الخ أن اليهود انكسروا على شفاعة آباءهم فغلب ظلمهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وذلك جعل لرقينا نحن والله اعتبرنا لاشير ، وأن هذا سر (ال م) الخ . يقول المؤلف هذا تقدم ، وهل كان يحظر على أتى لا يتم طبعي للتفسير حتى أرى أن العراق قد صارت مستقلة ، وأن سوريا ستستقل حالا ، وأن ذلك سيكون فاتحة دور جديد في الشرق الأدنى ، وأن أوروبا غاب عنها .

١٣١ الفتح الاسلامي في زماننا وأعمال النبوة الحمديه ، ثم زادت دهشة المؤلف من حضور شاب تركستاني من بلاد التركستان الصينية وقد أخبر الناس بمصر وفي الجرائد أن هذه الكتب كانت سبب فتح مدارس في بلاد التركستان والصين وغيرها ، وأن هذه الأمم اقبلت لظلمها رأسا على عقب ، ومعنى هذا أن الاسلام انتشر انتشارا غريبا مدهشا ، وهذه كلها آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

١٣٢ المؤلف يتخيل شبانا يأتون من التركستان والصين في المراكب الهوائية يزورون أهل شمال افريقيا ويرد هؤلاء الزيرة لهم ، ويجب للمؤلف أيضا من أن يكون هذا الزمان قد ظهر فيه مؤثر اسلامي لم يكن له نظير ، وفيه ثمان لجان لحفظ كيان الأمم الاسلامية .

١٣٤ (سورة الحجرات) نص الآيات مشككة .

١٣٥ القسم الأول من السورة تفسير البسلة ، وأن عادة الشعراء أن يبدعوا بالقول ثم ينتقلوا للدهج ، ولكن براعة استهلال القرآن جاءت بذكر الرجة والرجة مشروحة في (سورة الرحمن) والرجة في (سورة التمتع) أصولها انكشاف الحقائق ثم فتح البلدان ، والرجة في هذه السورة عملية وهي الضائل التي تبلغ ١٢ كالأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح واجتساب التجسس الخ وهما أصبحت واسع ، ملخصه أن مقتضى الرجة أن لا يكون قصص في الانسانية حتى يحتاج الانسان في دفعه إلى الزواج القرآنية ، وأجاب المؤلف على ذلك بأن هذا العالم كله ليس شيئا مذكورا ، وهل هو إلا حركات وتلك الحركات صارت أضواء ان كانت أقل وحجرا وحديدا وأرضا الخ ان كانت كثيرة ، إذن هذه الدنيا كلها وكواكبها كمرء مضمومة ، إذن هذا عالم أشبه بالعدم ، وما أشبه العلم فهو ناقص ، والله موجود ، وهو يريد أن يخلق روحا يكملها ، ووسيلة كمالها أن تتفاعل تقاضل الكهراء السالبة والموجبة حتى يكون لها وجود مستقل ، أو شبه مستقل ، ومن تمام التفاعل العلم والحكمة والأنبياء والعلماء وهكذا .

١٣٨ جال في جبال : خيال المؤلف يرى أن العالم موسيقي ، ويبين ذلك بأن المادة راجعة فعلا إلى أنوار كهر بائية ، وهذه الأنوار فيها سركات وأنوار ، فالحركات موسيقي والأنوار جبال ، وضروب القسمين لاحد لأفرادها ، فالتجملت لنا العوالم على هيئتها الأصلية فنزعت أرواحنا من جبال الصور للشبكة الألوان وسباع الأغاني المدهشة ، فمن رجة الله أن حجب هذا كله بالقتال والحصام ، وأنواع الذنوب ، وفيهم الاخلاق لتشتغل بالخروج منها .

١٣٩ القسم الثاني ، التفسير القنطري لقسم الثاني من السورة من أولها إلى آية : « والله غفور رحيم »
 ١٤١ القسم الثالث من السورة من آية : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة
 ١٤٣ خاتمة في مباحث هذه السورة وهي ٩ مثل أن لا يتجاوز صوتهم صوته صلى الله عليه وسلم وهكذا .
 ١٤٤ قسم التخلية فيه ١٤ فصلا مثل التهي عن تصديق كلام الفاسق ، ومثل التهي عن النية وهكذا
 ١٤٥ القسم الثالث : التعلية بالفضائل ، مثل أن الناس يتعارفون ، وأن بلالا أذن على ظهر العسكبة
 وقرش ترى ذلك على خلاف عادتها .

١٤٧ لطيفة في آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ويبان أن المؤلف رأى امرأة هرباء
 صفراء ، فخطر له أنها لا تطلب للزواج ، وانتقل من ذلك إلى أن كل امرئ يتحصى لمن يريد زواجها ،
 فلجأه ليكتفي بامتحان ظاهر الجلال ولكن العقل يرى أن الامتحان يكون في الخلق والقوة الجسمية
 والقوة العقلية ، وهذه الخلال الثلاث هي التي تسمى لها جميع مدارس العالم شرقا وغربا كما تقدم في آية
 ويهديك صراطا مستقيما ، وهنا هب المؤلف من آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى »
 وهو امتحان في الأخلاق ، وهذه دطمة من السعائم الثلاث وامتحان الله في إحداها ، وإذا امتحن الله
 فيها هو أصعب فعليا أن تفتحن فيها هو أسهل من باب أولى ، إذن لمتحن كل شيء ، الطيب يتحن
 المريض بجس نبضه لمسا ، ويسمع عدد الضربات ، ومشاهدة البول والسان ، فهو متحن باللس
 والسمع والبصر ، هكذا فلنمتحن كل شيء ولا تشكل على الفريضة ، بل ندقق الامتحان في كل شيء
 وهنا ذكر المؤلف امتحان الرجل الكامل من كتاب « مسرات الحياة » والله ذو العقل الرزين ،
 والحوافض الشريفة ، الصادق النظر ، ذو القوة البدنية ، فإذا لم يكن العقل رزينا وقع في الخطأ ، وإذا
 لم تكن الحوافض نيرة كان الانسان عابدا لنفسه ، وإذا لم يكن جسمه حديدا كان عمله يكون ضيلا
 وإن كانت نيته حسنة ، إن البقري من الرجال صفاته عظيمة ومقامه فوق كل مقام .

١٤٩ اللطيفة الثانية في آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « عليم
 خبير » وفيها أربع مقالات : لقطة الأولى في الصلح بين الطائفتين المتقتلتين .

١٥١ الشيعة العباسية والعلوية ، وهنا دهن المؤلف من جميع المسلمين في تلك الصور ، فالشيعة العباسية
 والعلوية قاموا في وجه بني أمية ، ولكنهم بعد انهزام الأمويين لم يحصل منهم عدل لأمع الأمويين فانهم
 قتلهم قتلا في حال الأمن ، ولأمع بعضهم فان العباسيين اغتصبوا الملك من بعض بني الحسن الذي
 تمت له البيعة الصحيحة ، فتولى الملك السفاح ثم المنصور الذي قتل صاحب البيعة ، وكان المنصور
 والسفاح كثيرى القدرين يطؤونهم الأمان من أقاربهم العباسيين ومن غيرهم من العلويين ومن
 أشياعهم حتى أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، ذلك الذي قتل ٦٠٠ ألف نفس بلا ذنب
 إلا الاتهام ، وذلك بأمر إبراهيم الآمام .

١٥٤ سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم .

١٥٥ التصور والولة العباسية .

١٥٧ امتحان المؤلف لسيرة هذه الأمم مثل أن هشام بن عبد الملك يقتل سرا أبا هاشم بن محمد بن الحنفية غدرا
 ومثل أن أبا هاشم لما أحس بالوت أوصى لبني العباسي بالبيعة ، ومثل أن العباسيين بايعوا باسم آل محمد
 ومثل أنهم غدروا بأبي سلمة الخلال للقرى الشهير ، ومثل أن عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة
 طلب للمال من السفاح ، ومثل أن أبا جعفر المنصور يقتل أبناء الحسن الذين كانوا نصراؤه بالأسس ،

فأين الشورى إذن ؟ ومثل اختلاف الأميين وللمؤمن

١٥٩ نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام ، الأمويون أهزوا العرب ، والعباسيون أذلّوهم ، واستعانوا بالفرس والترك ، وهذا العمل يبيّن إلى الآن ، مثل الممالك البرية والبحرية بمصر ، واستعان أسراء الأندلس ببابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ، وكيف ذلت هذه الأمة بهذا الجهل .

١٦٠ بيان أن الأمة أشبه بطفل وكل قرن سنة ، فهي الآن في الرابعة عشرة ، إذن قد بلغت بلوغا أشبه ببلوغ الاحتلام ، وكل ملحق لأبائنا هو عظة لنا ، فهي نعمة لأننا المستقبل .

النظام العام في الاسلام ، وبيان أن أم الاسلام كانت عادلة في أحكامها بواسطة القرآن والدين ولكن الملك تنقل من دولة إلى دولة « تلك الأيام تداولها بين الناس » .

١٦٢ جمال العالم ونور الحكمة وأزهار الحقائق العلمية : يقول المؤلف : انه بينما كان يفكر في تفسير « أفم ينظروا إلى السماء فوقهم » في سورة ق إذ استبان له بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف في « سورة ق » لها صلة بها في أول « سورة البقرة » والتي في أول سورة البقرة مفتاح للعلوم التي كانت أبوابها مغلقة قبل زماننا : والذين بعدنا سيفتحون أبواب تلك العلوم بهذه المفاتيح ، وأن النباتات أنواع متفرقات مختلفات ، فيها ما يتغذى به الهود مما هو قدره من نبوء ، ومنها ما يتغذى به الانسان وبينهما درجات كثيرة جدا ، وليس في الأرض عاقل يفترض على هذا النظام ، فكل عاقل في أرضنا لا يفترض على اتساع عالم النبات لتقنية الحشرات والأنعام والورد والانسان ولا يأتى من ذلك ، بل يراه أمرا عظيما ، وإذا كان هذا واضحا في النبات فلتفكر عليه ما ليس بشديد الوضوح في غيره مثل دين الاسلام ، فهو تزييل الله ، وقد فعل الله فيه ما فعل في النبات ، فكما رأينا النبات قبل الورد والحشرات الخ هكذا رأينا هذا الدين قبل أنها ليست في القوة العليا من الانسانية ، ولم قبل منه تلك الأمم إلا على مقدارهما كما قبل الهود من النبات على مقدار استعداده ، فهذا نظام هيب ، وهذه حكمة التكوين القوي هو أمر آخر غير نظام التشريع ، ولا جرم أن نظام الفلسفة العام ونظام الحكومات كحكومتنا المصرية ، ونظام البيانات العلم ، ونظام المذاهب الاسلامية كلها تناس على نظام النبات كما تنقسم ، فنظام الفلسفة العام لا يختص بعلم من الطبيعيات أو الرياضيات ، بل هو علم لها كلها ، ويتر الفيلسوف أحاد الأمم يفكرون في العلوم الجزئية كما حصل من الورد والحشرات في الاكتفاء من النبات بما يناسبها ولم تفكر كما يفكر الانسان في جميع النبات ، فكما كان الانسان فيلسوف الحيوانات هكذا رأينا قارئ الحكمة فيلسوف الطماخ بالعلوم الجزئية ، وهكذا صاحب السلطان في الأمة كرئيس للجمهورية له الاشراف هو ومجلس النواب على الوزراء ، فهو في الأمة كالفيلسوف المذكور مع العلماء كالانسان مع الحيوان في أمر النبات ، هكذا علماء المذاهب الاسلامية عموما من الشيعة وأهل السنة ، فكل هؤلاء لا يخطر ببالهم نظام الاسلام العام ، بل هم متفرقون في الفروع التي تلقوها كابرا عن كابر ، فهؤلاء أشبه بحيوان يأكل نباتا خاصا ، أو شيخ قرية في البلاد المصرية وهكذا ، وليس يقدرون برفع بصره إلى أعلى ، وهذه درجته وهو معلوم في ذلك ، وسيقوم في المسلمين الآن وبعدها أناس حكماء يقولون : أيها المسلمون على رسلكم : ماذا جرى لكم ؟ ان علماءنا السابقين كانوا مسلمين جيما ، وعلمنا نحن أن ندرس القرآن دراسة أخرى .

١٦٩ ألم نروا كيف كان الصحابة إذا تلمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لا يتركونها حتى يفقهوا معناها ، ونحن لا نعرف ماذا كانوا يتعلمونه منه ، وما هو ذا نور الله في الخليقة ، فلندرس الدنيا ونظامها

وهذا ينتج لنا هذا القرآن والا فكيف يرى أن ابن عمر لم يحفظ البقرة إلا في ثمان سنين وماضي
« ليقرأوا آياته » .

١٧١ آراء « جون راسكن » في التعليم وأن المدارس على أن يكون مغريا للتعليم أن يكون مكبا على العلم
أما كثرة المعلومات فلا أهمية لها . ويقول غيره : « نحن لا تعاطي طعامنا كله أول النهار هكذا ليس
التعليم خاصا بأول العمر ، الحياة كلها زمان للتعليم ، ولإميل لجعل الإنسان عاشقا للعلم مدة الحياة إلا
بتعليم المعلمين له ذلك » . إن مكاء الأمم الإسلامية بعدنا سيصلحون ما أفسده سوء التعليم لأننا ،
وسيصرفون هذه الأمة عن هذه الذنوب والأخلاق الشائنة ، وسيقولون : إن ما وقع لأننا جعل نعمة
لنا لنحترس مما وقعوا فيه ، وإذا كانت الأمم المحيطة بالمسلمين قد اتحدت أفلا يكون للمسلمون أولى بهذا
الاتحاد ، وعلامة هؤلاء المسلمين في الإسلام أولا إن عددهم قليل كقوة عدد ملكات النحل ، ثانيا :
هم يصون خلاصة العلوم كلها فيقذف قوسهم بها كاتفتت ملكات النحل بصل أيضا بخلاف ففداء
رعيا هذه الملكة ، ثالثا : أنهم مغرمون بجمال هذه الدنيا ، رابعا : أن الناس يميلون إلى تعاليمهم .

١٧٣ نور على نور في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الإسلامية ، وفي فروع الفقه العباسية المتفصلة عنها
وفي جميع الممالك الإسلامية من عصر النبوة إلى الآن ، وفي هذا المقام مقالة المفيدة أمام رستم القائد
الفرسي في أثناء واقعة القادسية ، ومقالة عبادة بن الصامت للقروص صاحب مصر لما خوفه بمجموع
الروم ، وأن المسلم ينال أحد أمرين : إما دخول الجنة بالقتل ، وإما النصر في الدنيا .

١٧٥ آراء خطيرة في الخلافة : وهو مقال مؤلف ذكره في « مجلة المعرفة » يقول فيه : « إن خلفاء المسلمين
بعد العصر الأول لم يتبعوا الشورى ، والخلفاء الراشدون لم يصالحوا بالوراء ، والمسلمون ليسوا سلا بربها
الأبناء من الآباء ، فيجب أن يجتمع الأمراء اليوم ، ويصالحوا واحدا منهم هو الخليفة ، وليكن جيشه
أعظم ، وعلم أمته أوسع ، بشرط أن لا يكون لسلطة أجنبية عليه يد .

١٧٦ وهنا ذكر الولايات العشرة من الفقه العباسية لما أخذت في الضمحل على البصرة وخوزستان
وفارس والبحرين والحجاز وهكذا . ذكر استبدال الجند والعلم ، وكيف فعل جند الفارسية والأفراك
بالمعز سنة ٢٥٥ هـ عجرة إذ أوقفوه في الشمس وعذبوه ، ثم قتلوه قتل شنيعا .

١٧٧ جدول الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام إلى الآن ، وهي ثيف ومائة دولة ، وعدد رؤسائها ١٢٠٠
رئيس فيهم الخلفاء والولاة والملوك والأمراء والأنابة والاختشيدية والحديرة والشرفاء والبايات
والهايات ، ومنهم العرب والفرس والترك والشراسة والأكراد والهنود والتركمان والافغان وغيرهم
ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقبروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وسمان
ودهلي وغيرها .

١٨٠ بهجة الجبال في تاريخ الأمم الإسلامية وفي جواب اعتراض على المؤلف : يقول المعارض على المؤلف
أنك قد ظهرت في هذا المقام بمظهر يعجز القارئ في حيرة من دول متشاكسة ، وأحوال متعارضة ، مع
أن آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » لا تتحمل ذلك ، وهذا خارج عما درج
عليه المفسرون ؟ فأجاب المؤلف قائلا : أولا إن الإنسانية بارزة من وسط الحيوانية الشائرة الشهوات ، وقد
أرادت الاعتدال في القوة السبعية والبهيمية ، ثم ظهر فيها مصلحون أمثال (كروتوشوس) للمصلح
الصيني في القرون الأولى ، وقد ظهرت عالمه مرتبة ترتيبا مدعشا منظم بحيث أنه جعل تهذيب الفرد
يتبعه نظام الأسرة يتبعها نظام الدولة فيكون العدل العام ، ونظام الفرد القدي هو الأساس مبني على

نظام تهذيب الأخلاق ، وهذا مبنى على التقاوة المبنية على الصدق والأخلاص في التفكير، المبنى على اتساع المعارف ، المبذبة على المشاهدة ، إذن كوفوشبيوس يحصل المشاهدات مبدأ تمتد منها سلسلة تنهت بنظام الدولة ، وآراء هذا الحكم تقارب آراء علماء اليونان مثل سقراط في جمهوريته الذي يقول : « إن رجال الحكومة يجب أن يكونوا منزهين عن المادّة منصرفين إلى المثل الأعلى ، وهم آباء للأمة والأمة أبناءهم ، وتعليمهم يجب أن يكون تعلّما عاليا على مقنضى مافله كوفوشبيوس وإن لم يعرف أحدهما الآخر ، ولما طبق المؤلف هذه المعارف على أم الاسلام وجد أن ترتيب الحكومات من أعلاها إلى أدناها في مراتبها الخمس ظهرت في أم الاسلام فعصر الصعابة بهيئة الودف الذي وصفه سقراط ، ثم جاء الأمويون والعباسيون ومن معهم ومن بعدهم فأخذوا ينزلون درجة درجة ، فكان المثل الأهل أيام النبوة وعصر الصعابة وحكومة الجند التي هي أقل منها كانت أيام الدولة الأموية وأول العباسية ، ثم كانت حكومة الثروة والمال ، ثم اضمحلت الدولة فكان الاستبداد ، وذلك ظاهر في بغداد والقاهرة وقوتبة وجميع بلاد الاسلام ، وهذا كله يجب ذكره تطبيقا على آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » وكل هذا داخل تحت فصول مثل عالم الحيوان وظهور الانسان وآراء سقراط الخ .

١٨٦

١٨٧ خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي ، وعبد الله الحسني .

١٨٨

١٨٨ خطاب المؤلف للمسلمين ، ويان أن الله أسس ذلك التاريخ لنا الآن ، وخطاب الله للأفراد والأم .

١٨٩

١٨٩ فصل في أن تجارب أيماننا هذا زمان ظهورها .

١٩٠ الفصل الثامن في بيان نعم الله علينا وعلى الناس

١٩١ نظرت في عوالم العقول وعوالم الحقول والمزارع والثمار

١٩٢ اشراق شمس الاسلام بعد انقلام ليله : الاتفاق بين ملك الجن ، والملك ابن السعود .

١٩٤

١٩٤ مصداقا لما قلناه من ظهور نور الاسلام في زماننا هذا خاصة بعد عصر الصعابة والتأبين وذكر معلومات

جديدة عن بلاد التركستان الصيفية ، وانها اشرفت فيها شمس الأنوار المحمدية ، وأخذوا يقرمون

علوم الأمم التي لم يقرأها آباؤهم بما قرءوا في كتب مؤلف هذا التفسير .

١٩٦

١٩٦ المقالة الثانية : « يا أيها الذين آمنوا لا يخرقون من قوم » الخ ويان أن هذه الآيات فيها مقامان :

المقام الأول في غوائل اللسان ، المقام الثاني في غوائل القلب ، والمقام الأول يشتمل على مباحث الجمعية

النفسية في أوروبا ، وعلى ما كتبه الامام الغزالي .

١٩٧

١٩٧ أما مباحث الجمعية النفسية ، فهي ترجع إلى أن للانسان مغناطيسية اذا ضغطها ولم يتكلم وكنم أموره

كان أشبه بكوكب ، وانجذبت إليه الناس ، وارتقى عقله ، وكثر ماله ، وأحبه جيع الناس بلانصب ولا

تعب ، أما المتكلم بكل ما يعطله فانه يصبح فارغا ويحقره الناس وهو لا يدري لماذا يكون هذا الاحتقار

٢٠٣ أما ما قاله الامام الغزالي في الاحياء فذلك انه جعل غوائل اللسان عشرين نوعا وفصلها تفصيلا ، وقد

ذكرنا هنا منها عشرة ، وسنذكر العشرة الأخرى في (سورة : ق)

٢٠٤

٢٠٤ بيان عظم خطر اللسان وقضية الصمت ، وذكر الأحاديث الشريفة مثل حديث : « من صمت نجى »

ومثل : « الصمت حكم وقليل فاعله » وقد كتب على الماشس بيان صفة هذه الأحاديث من الضعف

والصعوبة والحسن الخ .

٢٠٨ ذكر آفة الكلام فيها لا ينسى .

- ٢١٠ الآفة الثانية : فضول الكلام والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « طوبى لمن أسك الفضل من لسانه وأفقى الفضل من ماله » .
- ٢١١ الآفة الثالثة : الخوض في الباطل ، والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « إن الرجل ليبتكلم بالكلمة من سخط الله » الخ .
- ٢١٢ الآفة الرابعة : المراء والجدل .
- ٢١٤ الآفة الخامسة : الخصومة وأحاديثها .
- ٢١٦ الآفة السادسة : القعر في الكلام والتشقق .
- ٢١٧ الآفة السابعة : الفعش والسب وبذاءة اللسان وأحاديث في ذلك مثل حديث : « أجنة حوام على كل فاحش أن يدخلها » .
- ٢١٩ الآفة الثامنة : اللعن وتحريمه بأحاديث مثل : « ان اللعائن لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »
- ٢٢٢ الآفة التاسعة : الفناء والشعر .
- ٢٢٤ الآفة العاشرة : الزناح ، وأن الزناح يحسن تركه ، وإذا مزح الانسان فليكن ذلك قليلا جدا ، والا استخف به الناس نارة وأبيضه نارة أخرى .
- ٢٢٨ المقام الثاني من المقالة الثانية في غوائل الأعمال القلبية ، وبيان الفضيلة والرذيلة والسعادة الخ
- ٢٣٠ الغضب : ضرب مثل قلب الانسان بحال الأرض .
- ٢٣١ الجب وسببه وعلاجه ، العلاج ، الأحاديث وولائع الدين ، الكبير .
- ٢٣٢ العلاج ، ذم الكبير وإيضاحه ، الفرق بين الجب والكبر .
- ٢٣٣ المقالة الثالثة في قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
- ٢٣٤ المقالة الرابعة في جوهرتين : الجوهرة الأولى ما كتبه المؤلف في مجلة المعرفة تحت عنوان « صوت صاخر من الشرق إلى الغرب » ، وأن أوروبا غدت في عهد ما أليم الحرب العظمى ، إذ قولا : أيها الشرقيون : إنا نحارب لاستقلالكم ، ثم ظهر انهم غير عظميين ، ونحن أليم قدرنا في عصر الصحابة وفيما بعد أحد عبيدنا ، وبيان أن المسيح أرسله الله فقال للناس : كونوا أخوانا ومع ذلك لم يسمع تلك النصيحة الريمانيون فبقوا في الشرق كما هم فجاء نبينا صلى الله عليه وسلم فوجدهم كما هم فقال بالسلام وسمانا مسلمين ، وشمارنا : السلام عليكم ، ولكن الله أمره بالقتال عند الحاجة ، فلم يخرج أوروبا إلا بالقتال ، ثم صارت أوروبا بعد ذلك أمة عذرة استبد بها القسيسون والرهبان ، وأحقوا آلافا وآلافا منهم بسبب أمور دينية ، ولما أشعل البابا الحروب الصليبية على المسلمين وبقيت مائتي سنة تنور المسيحيون وعرفوا من مظالمة المسلمين حقوقهم وحريتهم فرجعوا وأوقفوا رجال الدين عند حدودهم فارتقوا ، وهام أولاد جاماكرة أخرى للشرق ، فتلتم أوروبا أن الشرق اليوم غير الشرق السابق وليتذكروا أمم الشرق لما هجمت على أوروبا في أزمان قديمة فدكتها دكا ، ثم ليتذكروا التار الذين هجموا عليها منذ نحو ٧ قرون وهذه بقاياهم في روسيا وغيرها ، فها هوذا الشرق اليوم يريد أخذ نأره ، فالويل لأوروبا .
- ٢٣٨ الجوهرة الثانية في ذكر سر آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وأن المؤلف لما عرف أن هذه الدنيا مدهش فظاهما ، وأن الذكور والاناث أعدادهما متقاربة في الانسان وفي الحيوان أدعته ذلك وأخذ يغتفر في أن العالم والصناعات حتما يجب أن تكون موضوعة في العقول بنظام كما

أن المتافع من هذه الأرض بنظم ، إذن الناس جميعا في هذه الأرض . فوجب عليهم
 أن يستخرجوا منفعة كل عقل ومنفعة كل أرض ليسعد الانسان الجاهل الآن . . .
 ٢٣٩ الأرض واستبدادها ، نظري في الأمم ، تأليف ابن الانسان ، يقول المؤلف : انه سنة ١٩١١ ألف
 كتاب ابن الانسان ، وأرسله إلى أوروبا ، وملخص هذا الكتاب أن المؤلف يخيل انه ركب مركبة بين
 القطة والنوم وارتقى بها مع انسان روسي حتى وصل إلى كوكب وراء نبتون ، وهناك وجد أربعة
 آلاف أمة متحدين معا ، ولما رأوا المؤلف أخذوا يهزمون بنظم أهل الأرض ، وعدوا كل نظامنا الحالي
 نظاما حيوانيا ، فما هذه الآلات المهلكات إلا ذرائع للحيوانية لا للإنسانية ، وكيف يسي فريق من
 الناس في تعليم أطفال الفريق الآخر واخضاعه واذلاله ليكون آلة مسخرة له ، فهو ينزل عن الإنسانية
 إلى الحيوانية ، وكيف تبقى الأرض عند طائفة من الأمم لأعمال فيها يستخرجون منافعها ، والأمم
 الأخرى قد اكتظت أرضهم بسكانها . كلا . م كلا . يجب أن يؤخذ مازاد من الناس عن أرضهم إلى
 أرض أمة أخرى يعيشون معهم بسلام ، ويجب أن يوضع كل امرئ فيها استعد له ، ويجب أن يتعلم
 إلى آخر درجة يستحقها ، والأمم كلها مازمة بذلك ، فتطالب كل أمة بتعليم كل فرد ، وباستخراج كل
 منفعة في الطبيعة ، وليكن كل انسان نافعا لكل انسان كأنهم جسم واحد ، وقد نلص هذا الكتاب
 الأستاذ (ستلايه) التالي في مجلته بمدينة روم ، وأثنى على الكتاب .

٢٤٠ ههنا مبدأ كلام الأستاذ (ستلايه) وفيه هذه المعاني المقدمة .

٢٤٦ الأستاذ (البارون كراديفو) وكلامه في ابن الانسان ، وهو يذكر أن آراء المؤلف في السلام العام
 أحسن من آراء (داروين) الانجليزي ، ونيتشيه الألماني ، وأن هذين يريدان أن يفتك القوي
 بالضعيف ، أما الشيخ فانه يريد أن يكون الناس أمة واحدة ، ويقول : انه يجب أن يتعلم التلاميذ ذلك
 في مدارسهم ، ويسمعون النغمات التي نظمت في حجة جميع النوع الانساني الخ .

٢٤٧ بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية ، في سر قوله تعالى : « إن الله عليم خبير » ويان سر
 اسمه الخبير ، وذلك أن الله علم قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا إذ يظنون أن
 المدار إنما هو على النسب ، فحكم الأمم يرجع إلى النسب لا إلى الكفاءة والتقوى وأما علمها فقال لهم
 بصرح العبارة ان المدار على التقوى ، وختم الآية بأنه عليم خبير والخبرة معرفة بواطن الامور ،
 ومن بواطن الامور هنا أن أم الاسلام اكتفت بالآلفاظ والظواهر ، وقدمت التعديل على الجرح في
 الأحاديث مع ان الجرح مقدم على التعديل في أمثال أحاديث المهدي الذي جعل مداره على النسب
 لاعلى التقوى ، وههنا ذكر حديث الرايات السود المقبلة من قبل خراسان ، فهذه نتج عنها تولية
 البغاس العباسي ، وهل الفلاح يكون مهديا ؟ وهل المهدي الذي يعلو الأرض عدلا هو الذي يهلك من
 بني العباسي وغيرهم رجالا بلا ذنب بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والذي ورد أن اسمه على اسم
 النبي ﷺ واسم أبيه على اسم أبيه هو النفس الزكية ، وأبوه عبد الله ، واسمه محمد ، وقد قتله
 المنصور والبيعة كائناته ، فإذا قيل ان الذي رايته السود تأتي من قبل خراسان يصكون قبل قيام
 الساعة ، قول إذن يكون معنى هذا أننا لا نقول لنا ، فهل رايات السود وخراسان ينحصر المهدي فيهما
 مرتين ، وما هذه الهداية التي لا تقوم إلا بالسيف ، إذن ظهر اليوم سره بعد علم لأن الله يعلم بواطن
 الأمم ، فلذلك جعل المدار على التقوى لعله أن ميل الناس قوى جهة النسب ، فلكونه خيرا بذلك
 صرح بما ذكرناه .

